

دان
روبنستاين



"أنشودة في حب المشيِ"



خُلقتُ لأمَشي

الكتاب : **خُلقتُ لأمَشي**

المؤلف: **دان روبنستاين**

التصنيف: **تطوير ذات**

الناشر: **دار ملهمون للنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى: **نوفمبر 2019**

التصنيف العمري: **E**

رقم إذن الطباعة:MC-10-01-6535450

الطباعة: **Masar Printing Press**

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقا

لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

للتواصل مع الدار: 0097143460891

موقع الدار: www.darmolhimon.com



info.darmolhimon@gmail.com darmolhimon @DarMolhimon @DarMolhimon

خُلِقتُ لأمشي

قوة التغيير الكامنة في ممارسة المشي

دان روبنستاين



إلى ماجي، ديزي وليسا:

الأسباب التي لأجلها أُومن

الفهرس

مقدمة

بقلم كيفن باترسون

إن حقبة الأنثروبوسين[1] ما هي إلا واحدة من تبِعات التكنولوجيا؛ ففيها وضع الإنسان بصمته على العالم وهيمَن عليه ببعض الحيل؛ مثل الرماح المدبَّبة ومحركات الاحتراق الداخلي والشبكات الكهربائية، تلك الأدوات قد جعلت منا أشبه بكويكب ثانٍ ضرب الأرض، فما أتاحت لنا هذه الأدوات من تغييرات نُجرِيها على هذا الكوكب، كان أثرها أقرب لأثر كتلة صخرية آتية من الفضاء تندفع نحوه مباشرة دونما سبيل لإيقافها، وهذه التغييرات ستظل قائمة ما ظللنا على حالتنا هذه غافلين لا نتغير.

الحركة هي الموضوع في هذا الكتاب، عندما نتحرك يتغير كل شيء، أو كما كتب دان روبنستاين: الحركة تغير نمط التفكير لدى الناس، وكيف يخافون، وكيف يفهمون أنفسهم.

منذ فترة قريبة كنت قد ذهبت للتمشية بمحاذاة شاطئ خليج هدسون، وقتها لم يكن الجليد قد تكوَّن بعدُ، فأخذت أراقب السهل الأجرد بعناية، كانت الدببة القطبية قد وفدت إلى المدينة قبلها بأسبوع، لكن ما جعلني أمشي مطمئنًّا هو أن مرافقي كان يحمل بندقية وجهاز GPS، فنحن البشر لا نستطيع أن نفوق الدب القطبي عَدْوًا ولا نمتلك نظام

توجيه داخلي كذاك الذي تمتلكه أوزَّات الثلوج، إن الفكرة الشائعة تقول: إننا، البشر، نُعَد الحيوانات الأضعف في الطبيعة، ولنعوض هذا الضعف ابتكرنا هذه التكنولوجيا كي نجعل من أنفسنا كائنات خارقة؛ ولهذا نهدم الحواجز لأنها تخيفنا، وأيضًا لأننا قادرون على هدمها.

لكنها فكرة خاطئة؛ فالبشر ثدييات هائلة الحجم لا تقل روعة عن الحيتان مقوَّسة الرأس التي تسبح في خليج هدسون أو الدببة أو الفهود، وكما تغطس تلك الحيوانات إلى أعماق سحيقة، أو تتمتع بقوة هائلة أو قدرة رهيبة على العَدْو، يتمتَّع البشر بالقدرة على المشي السريع، فالبشرُ مَهمَا نسينا هذا مميزون بقدرتهم على المشي، وحركتنا المزدوجة التي هي جزء من تشريحنا الجسدي هي التي تجعلنا متفرِّدِين في سرعتنا وكفاءتنا، وليست أدواتنا التي تفعل ذلك. كان جَدِّي يزعُم أنه يستطيع أن يطارد غزالًا لمسافات متوسطة أو طويلة طالما كان قادرًا على تتبُّع أثره، وكان تساقط الثلج في الصباح يعني أننا في المساء سنأكل لحم غزال في مزرعته الواقعة على نهر بيس، والتي كان يلتجئ إليها في تلك الفترة التي كان يعاني فيها من الاكتئاب، دون أن يهدر أي رصاصة من رصاصاته.

لقد عاش أسلاف الإنسان ملايين السنين في سهول السيرينجتي يمشون في العشب، كتب «بروس شاتوين» **Bruce Chatwin** قائلًا: إن أجسادنا من أدمغتنا حتى بنية أباهِمِ أقدامنا صُمِّمَتْ لأجل مهمة واحدة، وهي قطع المسافات الطوال سيرًا على الأقدام، ولقد أدرك البشر قدراتهم حينما كانوا مُضْطَرِّين لذلك، ولكن أدواتنا اليوم جعلت أجسادنا غير مُضْطَرَّة للقيام بتلك الأمور التي صُمِّمَت لأجلها؛ فنسينا كم أننا نجيد فعل تلك الأمور ببراعة، ووصلنا لأسوأ الاستنتاجات الممكنة، وهي أننا ضعاف ما لم نعتمد على بعض الحيل.

كان شعب الإنويت **Inuit** الذين يستوطنون ساحل المحيط الهادي من بين آخر الشعوب من عظام المشَّائين الذين انتهى بهم الحال إلى أن استقروا، وعندما استوطنوا تلك المدن الصغيرة التي بنتها الحكومة توقفوا عن مشيهم الحثيث، والذي مكَّنهم في السابق من انتزاع أقواتهم من أرض لا ينبُت فيها الزرع ولا تثمر فيها الأشجار إلا أشهر قليلة في السنة، ومنذ ألف سنة مضت اعتاد شعب الثولي **Thule** المشي من ألاسكا حتى جرينلاند، وإلى أن أدخل «ديلان» الكهرباء إليها، كانت هناك عائلات لا تزال تتنقل باستمرار بين مواقع الصيد يراقبون الأفق ويتسمَّعون لوقع الأحذية الثقيلة على الجليد.

لقد فهم القدامى أن الحياة ليست رومانسية، وأدركوا أنهم إذا ما بذلوا قصارى جهدهم في الصيد وطافوا البر وركبوا عُباب البحر بحثًا عن الغذاء حينها فقط قد يستطيعون الحفاظ على حياة معظم أطفالهم، لقد كانت حياة خطرة والكثيرون منهم قد هلكوا جوعًا أو افتراسًا أو بردًا، لكنهم لم يكونوا يخشون الأرض في حد ذاتها، لكن الآن لم تعُدْ هناك عائلات تعيش بالاكتفاء الذاتي على

سطح ذلك السهل الأجرد، والأرجح أنه لم يعد هناك من يستطيع فعلها من الأساس، لم يعد هناك بشر يمشون هنا أو في أي مكان على سطح هذا الكوكب قادرون على مواصلة المشي، ولأننا لم نعُد نمشي على الأرض بتلك الطريقة فلم نعُد نستطيع أن نعرف كيف كنا نمشي سابقًا، إننا يقينًا لم نعُد نشعر بالأرض، وهذا هو ما يجعلنا نعاملها بتلك الطريقة.

عندما نتوقف عن المشي فإننا نتعامل مع الأرض التي هي كل شيء بشكل سيئ، وهو ما يعني أننا نعامل أنفسنا بذات السوء، فقبل عشرين سنة مضت لم يكن هناك بين شعب الإنويت في المدن التي عملت بها على طول الساحل الغربي لخليج هدسون من يعاني داء السكري الناتج عن السمنة، أما الآن فقد اتَّسع نطاق انتشار داء السُّكَّري بين الإنويت تمامًا، كما اتسعت محيطات خواصرهم، وأخذ الإنويت بشكل متسارع يتشابهون مع الشعوب الأخرى القارة في كل مكان من العالم، اليوم صارت الشبكات الاجتماعية في اضمحلالٍ مستمر، وصار داء السكري وحالات الانتحار بمثابة دببة بيضاء جديدة ذات مخالب أكثر حدةً وشهيةٍ أكثر شراهةً.

في هذا الكتاب يتناول دان روبنستاين الجمال الذي يكون عليه البشر حين يمشون، والخسائر التي يتكبَّدونها حين يُقلِعون عن المشي، إنه وسيلة بديعة لإعادة التأكيد على موقعنا على ظهر هذا الكوكب وبين بقية رفاقنا من المخلوقات الأخرى، فهو يبين لنا التبعات المدمرة لعدم الحركة، والفوائد العظيمة للحركة على المستويين الصحي والفلسفي، وكذلك يبيِّن لنا كم هو من السهل استعادة تلك الفوائد إن فُقِدَت، فما على المرء إلا أن ينهض ويمشي خارجًا، امشِ ثم واصل المشي.

كيفن باترسون طبيب يعمل معظم الوقت في كولومبيا البريطانية ونونافوت، وهو مؤلف لرواية **Consumption**، والمجموعة القصصية **Country Of Cold** (والتي فازت بجائزة روجرز رايترز تراست فيكشن)، وأصدر كذلك مذكراته بعنوان **The Water In Between: A Journey At Sea** وكذلك شارك في تحرير كتاب

Outside The Wire: The War In Afghanistan In The Words Of Its Participants

تصدير

«إذا ما أردنا استخدام مصطلح بيئي للتعبير عن المشي، فربما كان السبيل الأمثل لذلك هو تصويره على أنه ظاهرة مؤشِّرة، والظواهر المؤشرة تدلل على صحية النظام البيئي، وأي تهديد أو ضعف لتلك الظواهر المؤشِّرة يُعَدُّ إنذارًا مبكرًا بمشاكل بيئية».

ربيكا سولنت، شهوة التجوال: تاريخ المشي.

«أمشي لأعالج نفسي جسديًّا من الأمراض العقلية الناتجة عن الحياة الحضرية المعاصرة».

ويل سيلف، نيويورك تايمز.

أخذت الرياح تضرب سطح البحيرة المتجمدة؛ فلدغت الثلوج المبللة وجهي، وهي التي كانت آخذة في التساقُط منذ الفجر، مثقَلَة أغصان الصنوبر الهزيلة، وكذلك أشجار البلسم التي يعج بها الساحل الشاحب، وفي ذلك الوقت من منتصف النهار بَدَا ضوء فبراير الساطع آخذًا في التلاشي.

وبينما ذقني مدفونة في ياقة سترتي، وقلنسوتي الصوفية تتدلى فوق جبهتي، أخذت أحمي عيني بتفحُّص حذاء الجليد الذي استعرته، وبين الفينة والأخرى أنظر للأعلى كي أحدد اتجاهاتي، صحيح أنه أمر غاية في الملل أن أمشي للأمام مكبلًا كالسجناء، إلا أنه قد أتاح لي الكثير من الوقت لأفكر.

وبينما أنا أترنَّح في تجوالي في الحي خارج كوخي شبه الحضري لنحو ساعة كاملة، أدركت أنني لم أتجهَّز بالشكل الكافي، فقد كَلَّ ظهري من جَرِّ الزلاجة المحمَّلة بخمسين رطلًا من الملابس الثقيلة ومعدات التخييم، وكنت متعرِّقًا وهو ما قد يسبب المشاكل في مثل تلك الرحلات الكشفية

الشتوية، وكنت ظمآنًا، أي مزيد من المشاكل، وكان جلدي ملتهبًا، وما زلنا في اليوم الأول من جولة زمنها أسبوعان ونصف، وما زال أمامنا مائتان وعشرون ميلًا لنقطعها.

كان طول المسافة مضنيًا، لكن الأكثر مشقةً هو التجوال خلال الغابات والنوم على الجليد مع ستين شخصًا غريبًا، كلهم من السكان الأصليين أو متحدثي الفرنسية أو الاثنين معًا، وبصفتي إنسان حضري لا أتحدَّث سوى الإنجليزية معتاد على رحلات المشي الصيفية المنفردة والتخييم في السيارات، لم أكن مرتاحًا لذلك التجاور اللصيق، الواقع أن الرحلة بأكملها كانت واقعة غير مألوفة؛ فقد كنت أعرف مكاني (نوعًا ما) وإلى أين نحن ذاهبون (إلى حَدٍّ ما)، لكنني لم أكن على يقين أنني يمكن أن أصل لوجهتي، غير أن أكثر ما أثار قلقي هو أنني لم أعُد أذكر لماذا أحاول من الأساس.

لكن كانت هناك حقيقة واحدة مؤكَّدة وهي أن التراجع لم يعُد ممكِنًا الآن.البحث عن الاتجاه هو ما ذهب بي إلى تلك الرحلة الشتوية، لقد كان العالم يدور من حولي بسرعة شديدة، وكنت بحاجة إلى إعادة تقييم نفسي، إلى التأني؛ لذا فقد لجأت إلى عادتي القديمة: المشي.

حتى العام الماضي كانت حياتي تتخذ مسارًا تقليديًّا: طفولة سعيدة، زواج مفعم بالحب، ابنتان جميلتان، منزل مريح، عطلات تُقضى على الشاطئ، ووديعة صغيرة في البنك، وكذلك حياتي المهنية كانت تتخذ مسارًا تقليديًّا أيضًا، فمن الكتابة في الرياضة ومراسلة الصحف إلى العمل لعشر سنين محررًا بإحدى المجلات، للتربع على قمة أعلى المناصب في مطبوعة معتبرة، أما عن مخاوفي الكبرى الدمار البيئي وانهيار الاقتصاد العالمي وتغوُّل التكنولوجيا ومدَّخَرات التقاعد كانت كلها أضغاث أحلام بالنسبة لي، كنت بصفتي مواطن في العالم الأول واثقًا أنني سوف أتدبَّر أموري كأي أحد آخر.

لكن بعض المشاكل التي حدثت في محل عملي حفزتني للقيام بتغيير كبير، خاصة وأن الضجر كان قد بدأ يتملكني من قبلها، فالإخفاقات المالية بَدَتْ تهدد وضع المجلة، ونتيجة لهذا اتَّجه المسؤولون عن المجلة إلى تقديم محتوى «مستقل وموضوعي» بالشراكة مع داعمين للحكومة ولبعض المؤسسات، وفي هذه المهنة التي بها عدد لا يُحْصَى من درجات اللون الرمادي، رأيت أنا الأبيض والأسود، رأيت كلب الحراسة يفتح البوابة للذئاب.

لقد استحالت وظيفة أحلامي التي اضْطُرِرْتُ للانتقال من أقصى البلاد لأقصاها كي أمتهنها إلى كابوس، كان رعاتنا مصرِّين على نَيْل أكبر قدر من الدعم الشعبي أو المكاسب المادية، وكنتُ أنا أشارك في تلك السياسة الجديدة وأتواطأ معها، أخذت أحاسيس مضطربة تتنازعني؛ فشعرت بتنافر بين ما أومن به وما أفعله كي أسدِّد فواتيري، تنافر بَدَا كصوت نشاز يكاد يصم أذني، أحسست بتلاشي ما لديَّ من طاقة وإحساس بالتفاؤل، وصارت المتع البسيطة (كوجبة مطهية في المنزل أو مشاهدة غروب الشمس في المتنزه) تفقد معناها، أما عن أسرتي فقد ضجرت بسرعة من تشكِّياتي الكيشوتية[2]، وغرقت بهموم أكثر إلحاحًا مثل تسرُّب المياه من المرحاض والتسوق للبقالة وموسم الإنفلونزا.

مقيد إلى طاولة المكتب وجدت نفسي أدور وأدور في دوَّامة رقمية، جو خانق من الملل الذي كما يقول الناقد المتخصص في التكنولوجيا إيفجيني مورزوف Morozov Evgeny «يخلق توقًا للمزيد من المعلومات فقط كي تُكتَم»، أمضيت شهورًا أغالب توتُّرِي عن طريق

تفحص بريدي الإلكتروني كل ثلاث دقائق وبأن أمكث وقتًا طويلًا في راحة الغداء، ثم حدث أنني أُصِبْتُ بتمزُّق في غضروفي المفصلي بشكل مؤلم وإن كان مضحكًا، حيث جلست بشكل خاطئ على الأرض خلال مهرجان للموسيقى الشعبية، فتيبَّسَ مِفصلِي بزاوية قائمة، وما إن وقفت بمساعدة زوجتي حتى سقطتُ مغشيًّا عليَّ وتسطحتُ على العشب،

كان هذا وقت الظهيرة، لم أكن أشرب الخمر (وقتها)، ولأنني كنت على مشارف الأربعين من عمري، فقد رأيت في هذا علامة لتقدمي في العمر، وبَدَا لي أنه قد حان الوقت كي أتَّخِذ منهجًا مختلفًا في حياتي.

وبعد شهر، وبينما كنت أتلقى العلاج الطبيعي في عيادة الطب الرياضي في جامعة كارلتون، إذا بسموِّ ولي عهد سلطنة بروناي الوسيم «الحاج المهتدي باللاه» أحد أثرى أثرياء العالم يدلف إلى الجامعة محاطًا بحشد من الكاميرات كي يلتقط بعض الصور التذكارية، لكنه أتى مباشرة إلى السرير الذي كنت أرقد عليه، وسألني كيف أُصِبْتُ، كنت أرقد على حَشِيَّة، بينما تدفئ الأشعة التداخلية ركبتي، وعندما حاوطتني الأضواء وعدسات الكاميرات لم أدْرِ كيف أرُد.

«لقد ... لقد جلست بشكل خاطئ».

نظر لي سموُّه باستغراب ثم قال باسمًا: «في بلدي نمارس رياضة البادمنتون بكثرة».

ولأنني لم أكن قادرًا على الاستشفاء عن طريق ممارسة رياضات المضرب أو من خلال الجري، فقد عالجت نفسي بأن أمشي لمسافات طويلة كلما أتيح لي ذلك، أتبع الطرق غير الاعتيادية عبر خطوط السكك الحديدية والممرات وجداول المياه التي تمر خلال الأراضي الخضراء، ولكي أخفِّف من آلامي صرت أتغيب عن جلسات بعض المؤتمرات كي أتجول في المدن الأجنبية، وكذلك توليت بناءً على رغبتي مهام كتابة مقالات عن رحلات المشي، كنت يومًا في رينو بولاية نيفادا جالسًا غارقًا في عرقي ضمن لجنة لمناقشة الزيادة في التطبيقات الإلكترونية المتعلقة بالسياحة، ثم غادرت واستقللت سيارة أُجرة حتى ممر المشاة الذي أراه من نافذة غرفة الفندق الذي أقطن به، ثم أخذت أتلمَّس طريقي على طول غدير هنتر، منطلقًا من أدغال الصحراء العليا التي يتفرع عندها وادي تراكي، حتى مراعي صنوبر بونديروسا على جبال صن فلاور، وفي تلال كييك تشارليفو الحلزونية المُغطَّاة بالجليد أخذت أمشي من كوخ لآخر لأربعة أيام بصحبة مجموعة من المتقاعدين، متغاضيًا عن الفوارق العمرية واللغوية، فعندما أكون في بيتي في أوتاوا ما إن تأوي ابنتاي إلى فراشهما، أتناول زجاجة ماء وأنتقي وجهة عشوائية (كجسر ما أو مَعلَم تذكاري ما) وأهيم يقودُني الإحساس بالطبيعة مستمتعًا بحرية الانجراف مع التيار، لطالما كنت مفتونًا بالمشي لسببين: أولُهُما للوصول من نقطة لأخرى، وثانيهما لأنني كنت أجِدُه وسيلة للالتحام مع العالم، لكنه هذه المرة كان مختلفًا، لقد تملَّكتني تلك العادة وصرت لا أتحمس للعمل، وإنما أتحمس للمشي وأرفض استخدام سيارتنا الميني فان ذات اللون البني الفاتح إلا للضرورة القصوى.

لأن الناس مفتونون بالسرعة، فهم نادرًا ما يجرِّبون البطء، أما أنا فقد مشيت من الغرفة التي كنت أنام فيها وقت طفولتي في تورونتو حتى الكوخ الذي يمتلكه والداي في منطقة منعزلة لمدة أربعة أيام في مسافة تستغرق ثلاث ساعات إذا ما قُطِعَت بسيارة، لقد كانت محاولة لإعلاء شأن روح الأكواخ الرَّثَّة لمزيد من الفهم للعلاقة الأزلية المتغيرة دومًا بين المدينة والريف وبيني وبين أسرتي، وفي الليلة الثانية وبينما أنا متقرح أعرُج في مشيتي أنقذتني مالكة لأحد النُّزُل التي تقدِّم فراشًا وإفطارًا والمقام ضمن كنيسة مبنية بالطوب، فقد أعدَّت لي حمامًا ساخنًا وناولتني زجاجة بيرة

باردة، وعلى لوحة سوداء في مطبخها كُتِبَت بحروف طباشيرية بيضاء أنيقة عبارة للقديس أغسطين تقول:

«ما العالم إلا كتاب، وأولئك الذين لا يسافرون لا يقرءون إلا صفحة واحدة.»

ومهما كانت وجهتك في لحظة ما خلال أي مرة تمشي بها فسوف يبدو لك كل شيء أفضل، (عدا تلك المرة التي ضللتَ فيها الطريق على بعد 20 كيلو مترًا، واضطررت أن أستعير هاتفًا محمولًا للاتصال بأبي كي يأتي ويُقِلَّني، لكنني أعطيته إحداثيات خاطئة، وهي الواقعة التي لا يكل ولا يمَل هو من ترديدها)، لكن هذا الإحساس المتناغم يأخذ في التراجع عندما أكون في وضع الحركة وأحيانًا يختفي، أو كما قالت ربيكا سولنت في كتابها Wanderlust: «هي حالة يتوحَّد فيها العقل والجسد مع العالم كأنهم ثلاث شخصيات تتحاور معًا، أو ثلاث نوتات موسيقية تكون معًا فجأة نغمة واحدة»، نغمة ظلت تتردَّد في ثنايا دماغي عندما جلست أمام الكمبيوتر، ملتهيًا عمَّا أنا بصدده من مهام، وأخذت ألتهم أكوامًا من الأبحاث الحديثة عن الفوائد العضوية والنفسية للمشي، وكذلك عمَّا يُتيحُه من إمكانيات على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والإبداعي، أكان هذا محض وهمٍ يتكرَّر حفزه ذاك الهوس الذي يتملكني؟ أم أنه كان وصفة للتغيير؟

إن المشي سواء كان بهدف الانتقال أو كان بهدف الترويح عن النفس يمنحنا نعمة الوقت، وإذا كان المشي قرارًا اختياريًّا متحررًا من جميع الاختراعات المادية وأساليب التواصل عن بُعد، فيمكن أن نعتبره فعلًا دالًّا على التحدي، عندما يكون المشي في قمة صفائه فإنه يصلنا بالآخرين ويصلنا بالأماكن التي نحن فيها في الوقت الحاضر وكذلك بأنفسنا، وهي أمور تُعَدُّ في ظل العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين اللذين يُعَدَّان حقبة من الاضطرابات المُناخية والاستغلال الجشع والديون الطاحنة والأسقام المميتة المنتشرة، وتلاشي المجتمع الواقعي غير الافتراضي؛ سلعًا غاليًا، وقد تحقق أرباحًا هائلة.

للفرنسيين مصطلح يطلقونه على أولئك الذين يرون العالم من خلال منظور المهنة التي يمتهنونها لا من خلال منظور أوسع، ألا وهو **Deformation Professionnelle**؛ ولهذا فبعد أكثر من عشرين سنة قضيتُها في العمل كصحفي، صرت أرى كل شيء تقريبًا في صورة تحقيق صحفي، هل يمكنني أن أطبِّق هذه الحالة على المشي؟

سألت زوجتي ليسا ذات يوم بينما كنا نغسل الأطباق ذات مساء: «ما رأيك إذا ما اتخذت من المشي مهنة لبعض الوقت؟»

عضَّت شفَتَها ثم واصلت شطف كأس النبيذ، كانت ليسا قد تركت لتوها مهنة الكتابة الحرة؛ لأجل أن تلتحق بوظيفة ثابتة متوقعة نيل الرونق الذي تتمتع به وظيفتي.

قالت: «حينها ستكون اختصاصي مشي، أو موظف مشي».

اعتبرت هذه إجابة بالموافقة.

ولأنني رغبت في اللجوء إلى المتخصصين الذين رأوا أيضًا أنه من الممكن لشيء بسيط للغاية أن يكون له تأثير عظيم على حياتنا، أو على الأقل للمتعاونين الذين هم على استعداد للإنصات؛ فقد تواصلت مع أولئك الناس الذين كنت أقرأ عن أعمالهم، مثل ذلك المتخصِّص في علم الأوبئة في جلاسجو، والذي كان يبحث في الرابط بين المشي والاكتئاب، والمتخصص في علم الجريمة في فيلادلفيا الذي كان يدرس تأثير الدوريات الراجلة على ضباط الشرطة، وعالم الأنثروبولوجيا الفسيولوجية في اليابان والذي كان يدرس كيف يؤدي المشي في الغابات إلى تغيير جسد الإنسان على مستوى الجزيئات، ومهندس النقل السابق في مدينة نيويورك والذي صار يقطع كل الشوارع في كل مدينة سيرًا على الأقدام، وعلماء تورونتو الذين يستخدمون معملًا لا نظير له في العالم لمساعدة الناس على ألا يتوقَّفوا عن الحركة، والبريطاني الذي طاف الشرق الأوسط وآسيا الوسطى سيرًا على الأقدام، ثم عاد إلى موطنه ليترشح لمقعد في البرلمان، ويعتمد في حملته الدعائية على الطواف على جميع أنحاء دائرته الانتخابية الريفية، لا بد أن أقر هنا أنني في ذلك الوقت كنت أمُرُّ بمرحلة منتصف العمر وأحاول بما أفعل أن أهرب من تلك المرحلة لا أن أقترب منها، لكن أولئك النساء والرجال والعشرات غيرهم كانوا أناسًا من الكفاءة والاحترام أنْ وافقوا على رواية اكتشافاتهم.

يتناول هذا الكتاب خصائص المشي الباعثة على التغيير، يتناول نقاط الضعف التي يمكن لأي أحد أن يكتشفها، إن هذا الكتاب هو نِتاج لتجربة شخصية وصحفية، محاولة لفَهم افتتاني باكتشاف ما في استطاعتي من القدرة على الإصلاح.

لقد حاولت بناء الكتاب بشكل منطقي، مستكشفًا في كل واحد من فصوله فائدة أساسية من فوائد المشي، إلا أن هذا البناء ينطوي على بعض المشاكل؛ فالقصص الطريفة والإحصائيات والنتائج تتداخل مع بعضها البعض وتعظم كل منها الأخرى، وكذلك فإن هناك بعض الصعوبات الجغرافية التي واجهتنا، فبالرغم من أنني تعرضت لآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فقد كان تركيزي على الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وكندا؛ لأن القوى الثقافية والاقتصادية التي شكلت محيطنا الأنجلوساكسوني (مدننا وعاداتنا، صحتنا وسعادتنا) قد وَلَّدت مجموعة من التحديات.

إن النضج كما تعلَّمنا هو أن نقبل بأن العالم غير مثالي، لكن ماذا إذا ما كانت بعض الإصلاحات البسيطة ممكنة؟ كل أولئك الذين تكلَّمت معهم أو قضيت معهم بعض الوقت أولئك الأفذاذ في مجالات متنوِّعة، قد أثبتوا بوسيلة أو أكثر أن تجديد الاهتمام بالمشي، حتى في المجتمعات التي تواجه تحديات عديدة، يمكن أن تكون خطوة صغيرة نحو عالم أفضل، وهكذا فإن ذلك الحل الذي وجدته قد يكون حلًّا حقيقيًّا.

أجيال كثيرة من الكُتَّاب قد سلكوا هذا الطريق، مثل «وردسورث» و«ثورو» و«سولنت» و«شاتوين»، وأعداد غفيرة من الكُتَّاب الآخرين قد نظموا القصائد الغنائية وكتبوا المقالات وألَّفُوا الكتب عن قوة المشي، وما أنا إلا راهب في محرابهم، إن هذا هو وقت الكلاسيكيات؛ فهي التي قد أعادت إحياء تلك الظاهرة مرة أخرى، ففي عام 2014 وحده نشر الفيلسوف الفرنسي فريدريك جروس Frederic Gros شرحًا للقوة الهائلة للمشي بحثًا عن «لغز الوجود»، وقام الكاتب البريطاني نيك هانت Nick Hunt بتتبع خطوات قطعها الباحث باتريك لي فيرمور Patrick Leigh Fermor خلال ثمانين عامًا عبر أوروبا في بحث عن بقايا مشاعر العطف لدى الغرباء، وكذلك قام المؤرخ ماثيو ألجيو Matthew Algeo بالتأريخ لحقبة كان المشي فيها أكثر الرياضات شعبية وأهمية في أمريكا، أما عالم الطبيعة تريفور هريوت Trevor Herriot فقد طاف البراري «يصب روحانيات الأمل على الفكرة المتحجِّرة التي تقول: إننا نمشي هائمين بلا سبب في عالم تطفو الفوضى على سطحه معبِّرة عن واقعه»، وهذه السلسلة من الأبحاث الثمينة قد أعطتني أفكارًا وشكلًا ومجالًا.

واحد من أوائل الأدِلَّاء الذين تكلمت معهم كان طبيبًا يُدْعَى ستانلي فولان Stanley Vollant، وكان أول جراح من سكان الكيبك الأصليين، ومن أبناء أمة الإنو، كان فولان يكافح كي

يبعث الأمل في سكان كندا الأصليين من خلال قيادة مجموعة تمشي لمئات الأميال، معيدًا إحياء مسارات وأنماط حياة أسلافه، وكان وقتها على وشك البدء في رحلة تمشية، فدعاني للانضمام لهم.

في ذلك الوقت كنت مُثقلًا بمسؤولياتي المهنية والمنزلية، لكن حوارنا ظل يتردد في ذهني، وخاصة كلماته الحكيمة: «عندما تبدأ رحلة فأنت لا تدري لماذا بدأتها، وإنما الطريق هو الذي سيقودك».

قبل عيد الميلاد بشهرٍ عقدتِ المؤسسة التي أعمل بها حفلَها السنوي، وفيه اجتمع صفوة الدولة من السياسة والأعمال في القاعة الكبرى بأحد المتاحف وسط أعمدة طوطمية شاهقة، ونوافذ منحنية الواحدة منها تشغل حائطًا بأكمله، ويظهر من ورائها مشهدًا لحصن الحكومة الفيدرالية المبني على الطراز القوطي على الضفة القصوى من النهر، إن المحادثات القصيرة التي نجريها مع عِلية القوم هي بالفعل وسيلة ذكية للارتقاء، لكنني تخلَّفت عن الحفل، ففي وقت مبكِّر من ذلك اليوم قام أحد جراحي العظام بإجراء عملية تنظير على رُكْبَتِي المصابة مقلمًا طرفًا مقطوعًا لنسيج غضروفي في شريحة هلالية الشكل تسبب التماسك في بنية المفصل.

وبعد ثلاثة أسابيع من الراحة وإعادة التأهيل استقلت من وظيفتي وجمَّعت كمية من المعدات المتنقلة، ثم ذهبت للمشي.

الأول

الجسد

«كل خطوة نمشيها هي تفادٍ لعثرة، هي تجنُّب لسقطة، هي منع لكارثة إنها شيء نفعله يوميًّا: معجزة ثنائية الحركة، تمايل موزون، تمسُّك وتخلٍّ.»

بول سالوبك، ناشيونال جيوجرافيك.

«لا تحكم على جارك حتى تمشي بخُفَّيْه لمدة شهرين.»

مَثَل من شايان.

كان الدكتور «ستانلي فولان» في حاجة ماسَّة للنوم، فقد طار إلى روتورا بنيوزيلاندة لحضور مؤتمر عن صحة السكان الأصليين، وكان هذا في أكتوبر من عام2007، فوصل مُنهَكًا ومكتئبًا بعد يوم كامل قضاه مسافرًا، كانت زوجته الثانية قد هجرته لتوِّها آخِذَةً معها طفلهما الصغير، وبالرغم من أنه كان يتمتع بمكانة مرموقة تنطوي على مناصب رفيعة، من بينها منصب رئيس الجمعية الطبية في الكيبك، فإنه كان غارقًا في قضاء نوباته في غرف عمليات، وعيادات في مجتمعات نائية، بالإضافة إلى واجباته كمدير لبرنامج أوتاوا لطب السكان الأصليين، «فولان» هذا الشخص القدوة والمَثَل ذو الكاريزما الطاغية الآتي من أصول متواضعة وضع مؤخرًا مسدسًا في فمه، وكان قاب قوسين أو أدنى من ضغط الزناد.

عندما كان الفندق الذي يقيم به في روتورا، نصحه أحد الأصدقاء بالجري لمسافة قصيرة للتغلُّب على الإرهاق الناجم عن اختلاف التوقيت.

لكنه اعترض قائلًا: «لكنني منهك للغاية».

فقال صديقه: «إنك عدَّاء ماراثون يا ستان، فلتركض لخمس عشرة أو عشرين دقيقة».

«قواي خائرة ولا أشعر بأنني على ما يرام».

«اذهب».

ولأنه كان أضعف من أن يجادل فقد عَقَدَ رباط حذائه، وهرول إلى الوادي البركاني الواقع على أطراف المدينة، وهناك كان منظر الطبيعة البدائية والجنة المائية المتمثِّلة في الينابيع الساخنة والبرك الطينية الفوارة باعثًا على تجديد الطاقة، لقد شعر بأنه يطير.

وبينما هو يجري لأكثر من ثلاث ساعات لم يشعر فيها بأي جهدٍ، راوده حُلم يقظة بَدَا له حقيقيًّا للغاية، رأى نفسه يمشي في مكان بعيد لا يعلم أين هذا المكان.

في الليلة التالية لرجوعه إلى موطنه وإلى روتين حياته اليومي، شغَّل تلفازه وفيه شاهد رجلًا يتحدث عن إلكامينو دي سانتياجو مزار الحجاج المسيحيين الشهير في إسبانيا، نظر «فولان» الذي يؤمِن بمبادئ المذهب الكاثوليكي ولا يؤمن بكهنوته إلى المنضدة المجاورة لسريره، على المنضدة كان كتاب قد اشتراه منذ خمس سنوات لكنه نحَّاه جانبًا دون أن يقرأه، وكان الكتاب «الحج» لـ «باولو كويلو»، وهو رواية استوحاها مؤلفها من تجربته في إلكامينو، هنا غالَبَ الطبعُ البدائي في «فولان» تدريبه العملي فغلبه، وعلم وقتها ما سيفعل.

وفي الربيع الذي تلاه ورغم ضيق وقته، خطط «فولان» لأن يقطع إلكامينو كاملًا سيرًا على الأقدام، واضعًا برنامجًا طَمُوحًا يقطع فيه ستة وعشرين ميلًا في ثمانية عشر يومًا، معظم الناس يقطعون تلك المسافة في ضِعْف ذلك الوقت الذي خطط له، لكنه قال لصديقته قبل أن يرحل: «إنني عدَّاء ماراثون وأستطيع أن أقوم بذلك».

كانت صديقته ممن يمارسون رياضة المشي لمسافات طويلة بنَهَمٍ؛ ولذا فعندما حملت حقيبة ظهره التي تزن 45 رطلًا قالت له محذِّرة: «ستان، إنك ستتشعر بكل ذَرَّة منها».

«حبيبتي، أنا رجل قوي، وهذه الخمسة والأربعون رطلًا ليست شيئًا ذا بالٍ بالنسبة لي.»

وبعد اليوم الأول في جبال البيرنييه الإسبانية أصيب «فولان» بنصف دستة من القروح، وفي كل خطوة كان يخطوها كان يشعر بكل ذَرَّة لعينة من حقيبة ظهره.

لكنه كان من العناد أن تابع رحلته دون التخلي عن أيٍّ من عتاده، رغم أن الثلج الكثيف كان يحيط به مانعًا إياه من أن يستخدم خيمته، ومضطرًّا إياه لأن يأوي إلى أحد نُزُل الحجاج، وبعد 12 يومًا قضاها يرتجف بشدة من البرد، أخذ يمشي متعثرًا نحو فندق في مدينة صغيرة، وقد أُغْشِيَ عليه مرتين قبل أن يصل إلى مكتب الاستقبال، لكن الحمام الطويل الذي حصل عليه مع الوجبة التي تناولها في المطعم أعادا إليه قواه، وفي الصباح خفَّف حقيبة ظهره وواصل المشي ليومين آخرين، متجاهلًا قروحه المتقيّحة، لكن الألم الفظيع في أصابع قدميه واتساع البقع الحمراء التي ظهرت على ساقيه جعلاه يقتنع أخيرًا بأن يستقل قطارًا إلى ليون، وهناك ذهب مباشرة إلى المستشفى، وفي المستشفى شخَّص الأطباء مرضه التهاب اللفافة الذي يُعَدُّ نذيرًا بمرض التآكل اللحمي وضخُّوا المضادات الحيوية الوريدية في جسده لمدة خمسة أيام، وعندما حان وقت خروجه أُصدِرَت إليه التعليمات: «ارجع إلى كندا»، لكنه، ولأن الأطباء هم أسوأ المرضى على الإطلاق، فقد عاد إلى إلكامينو، وهناك كانت الرؤيا الثانية.

وفي مأوى يشبه الحظيرة وبينما تقذف الرياح الجبلية زخات من المطر بين الفجوات المحيطة بالأبواب، رأى «فولان» حُلمًا واضحًا وضوح فيديو فائق الجودة، واقعيًّا لدرجة أنه رأى فيه حقيبة ظهره حمراء اللون، لكنه هذه المرة كان يمشي في غابة يعرفها مع شباب وشيوخ من السكان الأصليين، كانوا جميعًا ممتنعين عن الكحوليات والمخدِّرات، ويأكلون طعامًا صحيًّا ويتحدثون عن ثقافتهم، يعالجون أجسادهم وعقولهم وأرواحهم.

وعندما أفاق من النوم غارقًا في عرَقه، روى «فولان» حُلمه لأحد رفاقه الحجاج وسأله: «ما عليَّ أن أفعل؟ ولماذا؟ وكيف؟»

لكن آندريه الفرنسي قال له مذكِّرًا إياه: «إن قومك يؤمنون بأن كل حُلم له معنى، وأن الأحلام نداء القدر.»

عاد «فولان» من إسبانيا يتساءل إذا ما كان قد فَقَد عقله، فقد كان المشي عبر أحد أجزاء كندا فكرةً مثيرة للاهتمام، ربما بعد أن يتقاعد، عندما يتوافر له الوقت والمال، عندما لا يعود أبناؤه، ابنتاه من زواجه الأول وابنه الصغير «إكزافيير» في حاجة شديدة إلى وجوده معهم، كما أن تلك الرحلة التي حَلُم بها ستتطلب الوقت الأفضل من العام، حيث يمكنه أن يقتطع عطلة من عمله لحضور مؤتمر طبي ولكن ليس إلى هذا الأمر.

لكن رغم هذا كله قام أصدقاء «فولان» وأقرباؤه بتشجيعه على هذا المشروع، فكما حدث معه تولَّدت لديهم حاجة مُلِحَّة لمشروع مثل ذلك الذي طرأ على خاطره، الآن لا في المستقبل، وهكذا خلق طريق الإنو (إنو مشكنو Innu Meshkenu) نابعًا من خلفية مقدَّسة ومعزَّزًا بأسطورة قوية عن الخلق، سلسلة من رحلات المشي استمرت لستِّ سنوات قطعت خلالها 3800ميل في جميع فصول السنة بين كل مجتمع بدائي في الكيبك واللابرادور، ورحلات أخرى قليلة في أونتاريو وبرونزويك، أراد «فولان» أن يظهر قوة الإيمان بالذات وأن التغيير ممكن

أيًّا كان، طالما تمت المثابرة عليه، وأن المشي الذي هو في جوهره نشاط جسدي يُعَدُّ بداية مثالية.

إن سكان كندا الأصليين والذين يبلغ تعدادهم 1.4مليون نسمة هم عبارة عن مجموعة متنوعة، فمنهم الحضر والرعويين الأغنياء والفقراء عباقرة الأنظمة الرقمية ومن يقتاتون من الطبيعة والأطباء ومن تركوا الدراسة، وكلهم في حالة تناغم مع الأرض ومعًا يواجهون العواصف، هناك اختلافات كبيرة بين أعراق سكان كندا الأصليين الإنويت الشماليين والميتيس مختلطي الأعراق والإنو الشرقيين الذين يبلغ عددهم16000 أو نحو ذلك؛ بل وبين أفراد العرق الواحد، لكن على الرغم من ذلك فعندما نقارنهم بغيرهم من سكان كندا غير الأصليين تُظهِر لنا الإحصائيات حقيقة منذِرَة وهي أن الكثير منهم يعانون من مشكلات صحية تماثل المشاكل الصحية التي يعاني منها سكان الدول النامية، رغم أنهم يعيشون في واحدة من أغنى الأمم على ظهر البسيطة.

فالذكور والإناث من سكان كندا الأصليين يموتون في أعمار أصغر بمعدل سبع سنوات من معدل بقية الكنديين، وكذلك فإن معدل وَفَيات الرُّضَّع أعلى بمرة ونصف، (متوسط الأعمار لدى الإنويت أقل بخمس عشرة سنة عن المعدل القومي، ومعدل وفيات الرُّضَّع أعلى بأربعة أضعاف)، والسكان الأصليون أكثر عُرضةً للإصابة بالأمراض المزمنة كالسُّكَّري وارتفاع ضغط الدم والتهاب

المفاصل بمرة ونصف، ونسبة ستة وخمسين بالمائة من أطفال السكان الأصليين ما بين الثانية والسابعة عشرة يعانون من زيادة الوزن أو السمنة، في حين أن نسبة ستة وعشرين بالمائة فقط من أطفال بقية سكان كندا هم من يعانون من تلك المشكلة كما جاء في تقرير وكالة الصحة العامة بكندا عام 2009، وفي العام التالي صدر تقرير بعنوان «عاصفة عاتية» عن مؤسسة كندا للقلب والسكتات الدماغية يحذِّر من أمراض القلب، راصدًا الارتفاع الصاروخي للمعدلات القومية لارتفاع ضغط الدم (إذ قفز بنسبة سبعة وسبعين بالمائة)، ومرض السُّكَّري (خمسة وأربعين بالمائة) والسمنة (ثمانية عشر بالمائة) ما بين عامي 1994 و 2005، وينذر بأنه إذا لم يُتَّخَذ أي إجراء في هذا الصدد فإن طوارئ صمامات القلب سوف تثقل كاهل نظام الرعاية الصحية في الدولة، كما أعلنت المؤسسة أن السكان الأصليين لكندا يجابهون حاليًّا «أزمة متفجرة».

تظهر فداحة هذه الأزمة جَلِيَّة في الإحصائيات المتعلِّقة بإدمان الكحوليات والمخدِّرات ونزلاء السجون (أربعة بالمائة من السكان وخمسة وعشرين بالمائة من نزلاء السجون) والانتحار الذي يُعَد أكثر أسباب الوَفَيَات شيوعًا بين السكان الأصليين ممن هم في سن الأربعة والأربعين وما دونها، وهناك من المؤشرات ما يدل على أن هذه الأزمة ماضية لأن تكون أكثر عُمقًا، يُعَد السكان الأصليون في كندا الأصغر في معدلات الأعمار بين كل المجموعات الديموغرافية في البلاد وأسرعها نموًّا، حيث زادت ما بين عامي 2006و 2001 بنسبة 20 بالمائة في مقابل نسبة 5.2 للسكان غير الأصليين؛ فمتوسط أعمار سكان كندا الأصليين هو 28في مقابل 41لدى غيرهم، ونصف الأصليين تقريبًا يبلغون 24أو ما دونها، هذه الأرقام تحمل بين ثناياها دلالات خطيرة، فإذا لم تُعالَج هذه الفروقات الصحية فستكون التكاليف الاجتماعية والاقتصادية باهظة وخارجة عن السيطرة.

هذا الوضع الذي نحن فيه الآن هو نتاج لقرون من الفصل العنصري الاقتصادي والتعليمي، وكذلك الأجيال الضائعة نتيجة اضطهاد الكنيسة والدولة في المدارس الداخلية والتي هي واحدة من أهم مظاهر الاستعمار، كما أن هناك مخاوف كبيرة بشأن تصاعُد ظواهر تداعي المساكن والعنف الأسري وتلوث المياه؛ ولهذا فإن الفرز الطبي مطلوب في كثير من المجتمعات التي يمر بها إنو مشكنو، وبالرغم من أن المشروع يركِّز على أهمية القوة العقلية والرُّوحانية والحاجة إلى إعادة

التواصل مع الأرض، ومع التقاليد وبين بعضهم البعض، فإن أي طبيب سوف يجزم بأنه من العسير على المرء أن يقوم بكل تلك الأمور إذا لم يكُن يمتلك جسدًا سليمًا.

كانت رحلة «فولان» الأولى في أكتوبر من عام 2010، وقطع خلالها 385 ميلًا ماشيًا منفردًا نحو الغرب على طول نهر سانت لورنس من مستعمرة الإنو في ناتاشكوان بالكيبك حتى مدينة باي كومو الأقرب إلى قرية البيسامي التي هي موطنه الأصلي، والتي تقع شمال شرقي مونتريال بـ 370ميلًا، وبينما هو على متن الطائرة الصغيرة في طريقه إلى نقطة البداية، أخذ يرنو إلى تلك الأرض التي سوف يجوبها سيرًا على الأقدام متسائلًا مرة أخرى عن سلامة قواه العقلية، فقطع مسافة 18ميلًا يوميًّا تبدو أمرًا معقولًا إذا نظرنا إليها على الخريطة، لكن إذا نظرنا إليها من الجو من ارتفاع 15000 قدم فسوف نراها مميتة، يا ترى إذا ما ذهب إلى دار الرعاية النفسية في ناتاشكوان هل سيُلبِسُونه سترةً مقلوبة ويحتجزونه لجنونه؟ لكن ما إن حطَّت طائرته حتى رأى لافتة من الورق المقوَّى عليها كتابة بلغة المونتانيي، لغته الأم، ترحب به في موطنه، هناك كان الطريق 138 الطريق السريع الذي يمتد شرقًا من مونتريال وينتهي بعد ناتشكوان مباشرة، يسميه المواطنون البيض نهاية الطريق، بينما يسميه الإنو البداية.

غير أن الزَّخَم الذي خلقه «فولان» ظل يتعاظم على مدى 23 يومًا منذ أن بدأ المشي من باي كومو حيث كان مؤيدوه حرفيًّا يخرجون من الغابات وينصبون الخيام ويُعِدون وجبات لحم الغزال وسمك السلمون، وفي عامي 2011و 2012 قام بسبع رحلات إضافية معظمها طال لأسبوعين أو ثلاثة، وتراوحت مسافاتها بين 200 و 450ميلًا، وقليل منها كانت تُمشِيَات قصيرة الأمد، مثل المسيرة بين وولنياك وأودناك في جنوب الكيبك لافتتاح كلية السكان الأصليين في سبتمبر من عام 2012، وهي مسيرة استمرت ليومين وجذبت مائة وخمسين مشاركًا، وحتى رحلات المشي الطويلة صارت تجذِب أعدادًا أكبر يومًا بعد يوم، وصارت تلك الرحلات شبيهة ببرنامج سرفايفور[3]،غير أن الهدف الوحيد هنا هو إحضار المزيد من الناس إلى الجزيرة.

بدأت رحلة شتاء2013 من ماناوان والتي هي مستعمرة للسكان الأصليين تقع عند نهاية الطريق الجليدي المفروش بالحصى والذي يمتد لـ 55 ميلًا، وهي مسافة تُقطَع بالسيارة في أربعة ساعات، إلى شمال مونتريال، بعد أن أجريت جراحة ركبتي بثلاثة أشهر ذهبت إلى هناك في سيارة بصحبة اثنين من مَشَّائي الكيبك، وبسبب إصراري على أن نسلك طريقًا مختصرًا وجدنا أنفسنا

محاطين بأكوام من الثلوج تكاد تصل إلى سقف سيارتنا الهاتشباك؛ فرجعنا إلى الطريق المجرَّف، ووصلنا متأخرين قليلًا، لكننا مع هذا لحقنا بالحفل الذي أُقِيم في صالة الرياضة بالمدرسة الابتدائية، إلى حيث ستبدأ المراسم الاحتفالية «بالتوقيت الهندي.»

قد يبدو هذ المصطلح (التوقيت الهندي) ينم عن كراهية؛ حيث إنه كان يُستخدَم للدلالة على بغض التوقيتات، لكن السكان الأصليين قد أعادوا للمصطلح احترامه؛ حيث إنه مصطلح يعود إلى تاريخ طويل من الارتباط بالمواسم المناخية أو الجو أو أنماط هجرة الحيوانات، وليس الارتباط بالتقويم السنوي أو الساعات، إنه حقًّا كما وصفه الكاتب درو هايدن تايلور Drew Hayden Taylor الذي ينتمي إلى عرقية الأوجيبوى: «فكرة غامضة ترتكز إلى علاقة ثقافية فريدة مع الزمن، ولتوضيحها بشكل بسيط نقول: إن الأمور تحدث عندما تحدث فالكون له قلب يخفق بطريقة خاصة، ومن نحن كي نسرع خفقانه أو نبطِّئه؟!» وبينما جلست أشاهد عرضًا لصور متتابعة من رحلات مشي سابقة عبر طريق إنو مشكينو وفي الخلفية صوت سبعة رجال يغنون ويقرعون الطبول، بَدَا لي أن التوقيت الأوروبي غير ذي صلة بأي شيء.

كان «فولان» لا يزال في محطة الترانزيت ليلة بداية الرحلة في طريقه من جامعة مونتريال حيث يحاضر في كلية الطب بها عندما لا يعمل كجراح بديل في جميع أنحاء الولاية، وكانت الإعدادات للرحلة تسير ببطء شديد؛ فقد كان مدير المشروع «جان شارلز فورتي» Jean Charles Fortin قليل الحيلة، رغم أنه كان محاضرًا في سياحة الترفيه والمغامرات الخارجية في جامعة كيبك دي تشيكوتيمي، وبينما نحن جالسين في شكل دائرة على كراسينا القابلة للطي في صالة الرياضة قال لنا: «إنني قد نشأت في مجتمع للموهاك الذين يقطنون منطقة كانيستاكي بالكيبك»، لكنه أقر لي بعدها أن تعريفه لنفسه بهذا الشكل ما هو إلا «وسيلة اجتماعية ناعمة لكسر الحواجز بينه وبين المجموعة»، لكنه في الحقيقة قد تجري في عروقه بعض دماء عرقية الميتيس، «فورتي» الذي له شعر أسود فاحم يصل طولُه حتى كتفيه وعينان لامعتان، كان له أسلوب معين في حل المشكلات يتلخص في عبارة: «أنا لم أضع هذه القواعد»، ولكونه راكب درجات جبلية مغامرًا فهو يعرف جميع طرق الغابات غير المأهولة التي تحيط بكانيستاكي، خلال المواجهة التي جرت بين الجيش الكندي ومقاتلي الموهاك عام 1990؛ بسبب رغبة الحكومة في توسعة أحد ملاعب الجولف باستقطاع جزء من أراضي القبيلة، كان «فورتي» يضطلع بمهمة نقل أفلام كاميرات التصوير

ودفاتر التدوين إلى الصحفيين المتحلِّقين حول تحصينات الشرطة، وكان ذلك قبل انتشار الهواتف المحمولة والكاميرات الرقمية، ولأنه كان يتقاضى مائة دولار عن كل رحلة فقد جمع بنهاية النزاع ما مكَّنه أن يشتري سيارة جديدة.

وجد «فورتي» غرفًا شاغرة في قبو بيت أحد السكان المحليين لي ولرفاقي القادمين من الكيبك ما توفر لنا هو أسِرَّةٌ وإفطار من أُسْرَةٍ لا تمتلك الكثير لتقدمه وفي الصباح تجمَّعْنا مرة أخرى خارج المدرسة، كانت زلاجتي مغلفة ومربوطة بحبل من النايلون إلى حزام الخاصرة المبطَّن من خلال قضبان من الألومنيوم، وكان حوالي 300 شخص قد أتوا لحضور احتفال الانطلاق، لكن كانت هناك مشكلة واحدة، وهي أن «فولان» غير موجود، لقد كان يحاضر التلاميذ في صالة الرياضة، وهو الأمر الأساسي في كل محطة من محطات إنو ميشكينو، وقفنا ننتظر ندبدب بأقدامنا في الأرض كي نظل دافئين، لكن ما اتضح لي أن هذه المشكلة كانت هينة للغاية مقارنة بالمشكلة الثانية التي ظهرت، حيث أخذت قطع الثلج تتراكم وتذوب على حقائبي مغرِقة ثيابي وفراشي، الجميع عداي كانوا قد غلفوا عتادهم بأغلفة مُحكَمة من البلاستيك، وربطوها بأحبال مرنة ليحافظوا عليها جافة، ورغم الأسابيع التي قضيتها في التخطيط والتصور، ورغم الأغلفة البلاستيكية التي تملأ رفًّا كاملًا في مرآبي، ورغم أن ليسا قد اقترحت أن الأغطية المقاومة للماء سوف تكون مفيدة جدًّا معي، لكنني لم أجلب معي أيًّا منها.

وبينما أجري نازلًا التل مخترِقًا طريق السكة الحديدية إلى محطة الوقود في ماناوان والتي هي أيضًا المتجر الوحيد في المدينة، صارت قضبان الألمونيوم ترتطم بعضها ببعض مصدِرةً صوتًا كأنه الجرس، وبعد أن هرعت عبر ممرات المتجر المزدحمة بالمتسوِّقين في ذلك الصباح لم أعثر على أية أغلفة، حاولت ألا أُصاب بالهلع وأنا أستعين بفرنسيتي الكسيحة.

فقلت للموظف الشاب وأنا أمد ذراعي كي أعوض نطقي السيئ ومفرداتي التي تعلمتها في الصف التاسع: Je cherche pour un … غلاف، Ungrand غلاف Plastique، Pour Un Bateau”.

هز الرجل رأسه، ربما لأن موسم الإبحار لن يحلَّ موعدُه قبل بضعة أشهر، أو ربما لأن محدِّثه القصير المتعرِّق بَدَا أنه بحاجة لنوع من المساعدة التي لا يمكنه الحصول عليها من متجر عمومي.

غير أنني وجدت رجلًا واقفًا خارج المتجر يعتمر قبعة صيد، فأبدى إعجابه بالخطوط الرفيعة الموجودة على زلاجتي ذات اللون اللبني التي قيمتها 20 دولارًا (كنت قد اشتريتها من محل إطارات وكانت به أيضًا مجموعة رائعة من الأغلفة البلاستيكية)، غمغمت له قائلًا: "Le Marcher Avec Le Docteur"، ثم كررت رجائي: "Plastique"،"Bateau" ، والمدهش أنه أومَأ فاهمًا، وبعد سلسلة من الإشارات اليدوية فهمت أن ماريو سوف يوافيني إلى المدرسة بالغلاف البلاستيكي، أو أنني أحمق، وأنه يتمنى بكل صدقٍ أن أموت متجمِّدًا في الغابة، لكن بعد أن عدت إلى منطقة التحضير بفترة قصيرة، أتى ماريو ومعه غلاف أخضر كبير لدرجة أنه يصلح لتغليف قارب تجديف، ناولته العشرين دولارًا وصافحت يده الكبيرة بكلتا يديَّ ونجحت في تغطية عتادي مع لحظة وصول «فولان».

أحرقت بعض الأعشاب الحلوة والميرمية، وتلا المسنون الصلوات بلغة أتيكميكو (واحدة من اللغات الألجنوكية) وباللغة الفرنسية، ثم بدأ الطبيب يخاطب الجمع، كان طول «فولان» ستة أقدام، ووزنه يتعدى قليلًا الوزن الطبيعي للجري 195 رطلًا، وكان ذا بشرة لونها بني فاتح وله أنف رومانية عريضة وعينان طيبتان، ومع شعره الطويل الذي بدأ الشيب يصبغه والمعقوص على شكل دائرة بدا كمزيج من كوبى برايانت[4] وماريو لميو[5]، بدأ يتكلم بإنجليزية ذات لُكنَة فرنسية دافئة تشبه لُكنة الراوي روك كاريي في فيلم الرسوم المتحركة "The Sweater" وهو الفيلم الكلاسيكي الذي أنتجه المجلس الوطني للأفلام، فقال: «إن أسلافي قد مشوا على هذه الأرض لآلاف السنين، وإنني لأفعل ما فعلوا، ورحلات المشي هذه هدفها الوحيد هو تمكين الفرد والمجتمع، فعندما يبدأ الناس الإيمان بأحلامهم تصير تلك الأحلام حقيقة حاضرة في حياتهم»، أومأ الناس صغيرهم وكبيرهم وعديد منهم يذرِفون الدموع من أعينهم، ففي غرفة الطعام في الفندق قد تبدو هذه الكلمات عديمة القيمة، لكنها ثقيلة الوقْع عندما تُقال في المستعمرة.

اصطف المشجعون على جانبي الطريق يمطروننا بالمصافحات وقَرْع الأكُف، بينما نحن نسير في صف واحد بين الغابات، أما أنا فقد كنت لصيقًا لـ «فولان»، أخبرني برؤيته المحمومة عن إلكامينو، ثم ضاق الطريق فتراجعت إلى الخلف.

يفترض بالمشاركين في إنو ميشكينو أن يكونوا مستقلِّين، حيث كان الجميع قد لُقِّنَ تعليمات الطريق، وزُرِعت اللافتات في الثلج لتبين للمشاركين كم قطعوا وأين يُفْتَرض أن ينعطفوا في

طريقهم، يتعين عليك أن تحمل قدرًا من الماء والطعام يكفيك لليوم، في حين يهرع مساعدو «فورتي» بمركباتهم الثلجية جيئة وذهابًا للتأكد من أمن وسلامة المشاركين جميعًا، أو كما قال لي أحدهم: «وظيفتنا هي أن نبقيكم على قيد الحياة»، بدأنا الرحلة بتروٍ 11 ميلًا، وكانت لدينا كبائن للطهي والأكل في الليلتين الأُولَيَيْن، كنت أشعر بالدفء وكانت ركبتي في حالة جيدة، لكن الزلاجة وحذاء الثلوج كانا ثقيلي الوزن؛ ولهذا فقد أصابني الإرهاق بحلول الظهيرة.

اشتدت الريح بينما كنت أمشي بحذاء نهر متعرج وكذلك على الامتداد المتجمد لبحيرة «مازانا» حتى تكوَّنت كتل من الثلج في لحيتي، وحدي وسط العاصفة أقطع رحلتي التخييمية الشتوية الأولى بعيدًا عن ابنتيَّ لأطول فترة مرت عليهما في حياتيهما القصيرة من دوني، أخذت أتساءل إذا ما كان هذا البحث الذي أقوم به هو محض خرافة، وماذا عساي أن أجد؟

لكنني بعدها رأيت دخانًا يتعالى في السماء، وخيرًا من هذا وجدت أحضانًا تغمرني من أناس لونهم مائل إلى البني لم أقابلهم إلا صباح ذات اليوم، مرحبًا بك في المعسكر الأول.

بدأ الرجال بمعاونة فريق دعم مكون من 15 شخصًا في بناء مواقد حطب من الصُّلب المطلي بالزنك داخل الخيام القماشية، وكذلك تركيب ماسورة مدخنة، أما النساء ففرشنَ أغصان التنوب والأرز على الثلج لأجل النوم، وأُحْرِقت أغصان الصنوبر الإبرية والحطب مما عبَّق الجو، أخبرني «فورتي» أن الحساء والشاي قد صارا جاهزَيْن، لكنني برغم هذا نصحت ألا أُفْرِط في الأكل، وكان لحم الديك الرومي المُعَد على الطريقة المكسيكية على قائمة العشاء.

دلني أحد رجال الماناوان ذو شعر رمادي إلى واحدة من الكبائن، وفيها علَّقت ملابسي المبتلة قرب النار، بنطالي الذي كنت أرتديه وسترتي الفرائية الزرقاء التي تسميها ليسا «فليكمان» (وهو اسم الطبيب اليهودي المصاب بالاضطراب، والذي ينتقل من مانهاتن ليعيش في أطراف ألاسكا في المسلسل التليفزيوني نورثرن إكسبوجر)، ثم تبعت «جان ألفريد فلاماند» خارجًا، كان وهو ابن الـ 53 ربيعًا يتحرك ويتحدث ببطء خلال حفل الوداع، لقد بَدَا مرهقًا ضعيفًا، وهنا كان ذلك الرجل الذي يناديه الجميع «نابك»، وهو أصغر المسنين في أتيكميكو، بعد أن مشى بسرعة كبيرة عبر البحيرة أخذ يقطع الأشجار بمنشار كهربي ثم يقطعها إلى حطب صغير بيد واحدة.

كان المشاة الـ 45 تتراوح أعمارهم بين الـ 13 والـ 67، وكان ثلثاهم من النساء، ومعظمهم كانوا من الأتيكميكو، تلك الأمة التي عاش قدماؤها لقرون حياة شبه بدوية بحثًا عن الصيد في حوض نهر سانت «موريس» الأعلى بالكيبك، لم يتمتع أبناء الماناوان بطريق صالح للاستخدام طوال السنة إلا في عام 1973، وكذلك الويتوماسي التي هي أيضًا من القرى الرئيسة، فلم تصبح مستعمرة دائمة إلا خلال سبعينيات القرن الماضي، وحتى هذا اليوم ما زالت ثقافة الأتيكاميكو قوية؛ حتى إن الأطفال يتعلمون لغتهم الأم قبل أن يتعلموا الفرنسية، وما زال الصيد يُعَدُّ نشاطًا شائعًا، لكن نشوء الأطفال في المستعمرات يجعلهم أمام تحديات من بينها مخاطر الإصابة بالسمنة ومرض السُّكَّري والتي تتعدى نسبتها المعدل القومي، وكذلك عدد كبير من الأمراض المرتبطة بنمط الحياة المستقرة التي يعيشونها وبالفقر وسوء التغذية.

اعتاد «فولان» في الماضي أن يستقل سيارته ذات الدفع الرباعي، أو يسافر جوًّا إلى تلك المجتمعات المنعزلة كي يكلم الأطفال عن فوائد النشاط البدني والطموح، لكن رسائله لم تكن تلقى أي صدًى لديهم، فقد كان نمط حياته يبدو بعيدًا جدًّا عن متناول أيديهم، أما الآن وقد صار يأتيهم سيرًا على الأقدام مستغرقًا أيامًا أو أسابيع كي يصل إليهم، أصبح الأطفال أكثر قابلية للإنصات إليه، قال لي «فورتي» عندما كنا في ماناوان:

«نريد أن نعيد المشي مرة أخرى لأن يكون نمطًا اجتماعيًّا لدى المجتمعات الأصلية، نريد أن يبدو أولئك الذين يقودون دراجاتهم الشاطئية لـ 300 متر كي يذهبوا إلى محل البقالة حمقى، حاليًّا الوضع على النقيض.»

في معظم أنحاء العام وبوجه خاص أمريكا الشمالية لم نعد الآن نمشي كما كنا في السابق، وقد أكون أنا وليسا ضمن جيل لم يتكرر منذ 1000 سنة، الأطفال به تقل أعمارهم المتوقعة عن أعمار والديهم، والعاملان الأساسيان وراء هذا هما البدانة وقلة الحركة، ففي الولايات المتحدة حيث تعد أرصفة المشاة طرق المهاجرين والمسنين والفقراء، تقل نسبة من يمارسون المشي عنها في أي دولة صناعية أخرى، في عام 1798 قال لوي فيليب دوق أورلينز، والذي صار فيما بعد ملك فرنسا: «إن الأمريكيين لا يمشون أبدًا إذا ما ملكوا الركوب»، وقد أظهرت دراسة حديثة للخطوات التي يقطعها كل شعب؛ أن البالغين من الشعب الأسترالي يمشون نحو 9700 خطوة في اليوم الواحد، أما السويسريون فيمشون 9650 خطوة، بينما يمشي اليابانيون 7150 خطوة، ويمشي

الكنديون 6700 خطوة، في حين يمشي الأمريكيون 5100 خطوة، وقد حدث في بلدة مانشستر في ولاية كنتاكي الواقعة عند سفح جبال الأبالاش حيث تبلغ نسبة السمنة بين السكان 52 بالمائة، وهي ضِعْف المعدَّل القومي أن التقطت صحيفة الواشنطن بوست صورة لفتاة في الثانية عشرة من عمرها تستقل سيارة لتصل إلى موقف حافلة المدرسة الذي يقع في نهاية مدخل منزلها.

كتب توم فاندربلت في كتابه:

Traffic: Why We Drive the Way We Do and What It Says About Us:

«إن اضمحلال ممارسة المشي قد صار كابوسًا بالنسبة للصحة العامة»، وفي هذا الصدد لا بد أن نشير إلى أنه بعد 125 عامًا من مذبحة الركبة الجريحة صار الأمريكيون والكنديون لديهم عامل مشترك مع أصحاب الأرض التي سرقوها.

لكن بعد اليوم الأول صارت أخطاء الماضي الأليمة وتعدادات الخطوات هي آخر ما يشغلني، وكل ما أردته وقتها هو مكان أدس فيه عتادي، قال لي «فورتي» وهو يومئ نحو خيمة مفتوحة: «فلتفسح لنفسك مكانًا في خيمة الصحفيين»، وفي داخل الخيمة وجدت ماثيو روبرت سوافي جالسًا قرب الموقد، وهو كاتب ومصور فيديو من مونتريال، رياضي البنية تجاوز الخمسين من عمره يلبس نظارة، وجدته يدهن قدميه بالفازلين، وهو تصرف يفعله الخبراء في المشي، كان قد أكمل رحلته الشتوية، وكان قد بدأ منذ خمس سنوات يكتب عن «فولان» باللغة الفرنسية، ابتسم في ضجر وهو يزيح حقيبته الصوفية إلى الركن كي يفسح لي مكانًا.

سألته وأنا أشعر ببعض الراحة؛ لأنني أخيِّم مع رجل طلق اللسان في لغتين حتى لو كان منافسًا لي (ويتميز عني بما يملك من فازلين): «من سيكون معنا؟»

أجابني ستانلي وهو يشير إلى كومة من العتاد من بينها حقيبة ظهر حمراء مليئة بالمستلزمات الطبية: «ستانلي آتٍ وقريبه» ضابط شرطة يُدْعَى إريك هرفيو «وسيجلسان عند هذا الجدار البعيد»، حركت حقيبة الظهر الخاصة بـ «فولان» وفردت فراشي الحراري، كان الصحفيون قد نصحوا بألا يناموا بجوار حاجياتهم لكن لم يحذرني أحد من أنام بجوار شخص آخر.

هنا انسلَّ هرفيو الرجل القوي ذو الجسد القصير الممتلئ والذي يبدو مخيفًا دون أن يحاول هذا إلى داخل الخيمة وحيَّاني بهزة رأس صامتة، ثم استلقى كي ينام نوم القيلولة، إنه يقطن البيسامي ويعمل بها، وقد وصل ماناوان في منتصف الليل بصحبة «فولان»، ولم يكن رئيسنا موجودًا في المعسكر هذه الليلة، فقد كان «فولان» قد استقلَّ زلاجة الجليد إلى المدينة كي يرتب لمكالمة تليفونية مع وكالة الدخل الكندية، فمنذ بدأ إنو ميشكينو صار يتنازل عن نوبات عمله كجراح خلال الوقت الذي يقضيه في رحلات المشي؛ مما أدى إلى تراجع دَخْله، وقد صعَّب هذا عليه دفع فواتيره، وصار متأخرًا في دفع نفقات طليقتيه الطبيبتين؛ حتى إن جواز سفره قد سُحِب منه، وهو أمر مقلِق سينساه عندما يدخل الغابة.

غادرتُ الخيمة وجسمي يغلي داخل سترتي «الفليكمان» كي أقوم بمهمة ما، فكما نصت المحاضرة التوجيهية الأولية التي ألقاها علينا «فورتي»: بصرف النظر عن حالتك الجسدية وهندامك،

عندما تصل إلى المخيم عليك أن تبدأ العمل حتى لو كان هذا العمل هو قلي خبز البانوك أو إصلاح خُفَّيْك.

وبعد أن انهلْتُ على قطعة من الحطب ببلطة عريضة مسدِّدًا لها بضع ضربات غير ذات تأثير، قررتُ أن أكون واقعيًّا وأجد مهمة تتناسب مع خلفيتي الحضرية وقامتي القصيرة، وهي أن أحمل الأغصان للنساء وأوزع المشاعل على الرجال، كنت كلما تحركت أمتلئ طاقة، وكان الجميع من حولي مشغولين، وهذا النشاط المحموم يعكس في الواقع حقيقة قد تنافي المنطق، ألا وهي أن النشاط البسيط قد يكون علاجًا للإرهاق، وخاصة لو لم يبدُ كأنه تدريب رياضي.

في عام 1950 نشر عالم وظائف الأعضاء «ريتشارد دول» Richard Doll بحثًا في المجلة الطبية البريطانية وضح فيه العلاقة بين تدخين السجائر وسرطان الرئة، كان «دول» وهو الرائد في استخدام الإحصائيات الطبية يشتبه في أن القطران المستخدَم في رصف الطرق وكذلك العاملون المهنيون هم المسؤولون عن ارتفاع نسبة الإصابة بالمرض في المملكة المتحدة منذ ثلاثينيات القرن العشرين، لكنه بعد أن أنهى مع عدد من زملائه بعض المشاريع البحثية فطنوا إلى المتهم الرئيسي، غير أن تلك النتائج لم تُصدَّق حكوميًّا إلا في عام 1954 عندما أقر وزير الصحة البريطاني «إيان ماكليود» بنتائج هذه الأبحاث في مؤتمر صحفي، بينما كان يمارس التدخين

المتسلسل وهو على منصة المؤتمر، لكن جميع حكومات العالم التي كانت تداهن جماعات الضغط المستفيدة من التبغ، استغرقها الأمر عشرات السنين قبل أن تبدأ حملاتها لتحجيم تدخين السجائر، لقد دفن غيلان التبغ الحقيقة، فقد كانت مليارات الدولارات على المحك.

كان دول يلعب دورًا خفيًّا في هذه الدراما، وكان أحد معاصريه اللنديين الدكتور «جيري موريس» Jerry Maurice له أيضًا دور خفي لا يقل عن دور «دول»، وهو الأمر المخزي؛ لأننا في ذات الوقت الذي كنا قد بدأنا ندرك فيه تدريجيًّا أخطار السجائر لم تكن لدينا أية فكرة عن الرابط بين النشاط البدني وصحة الإنسان، وإذا ما نظرنا إلى كمية برامج الحميات الغذائية الهائلة وجراحات التغيير الجسدي والعلاجات التجارية؛ سندرك أننا ما زلنا ننكر هذا الرابط.

كان «موريس» الذي وُلِد في ليفربول ونشأ في جلاسجو قد عاد إلى لندن بعد أن خدم في الهند كطبيب عسكري خلال الحرب العالمية الثانية، في ذلك الوقت، وبخلاف سرطان الرئة كانت معدلات الإصابة بالأزمات القلبية في تزايد ولأسباب مجهولة، وكان لدى «موريس» إحساس بأن العوامل المهنية قد تكون لها يَدٌ في هذا؛ ولهذا فقد ترأَّس دراسة واسعة النطاق تبحث في الأزمات القلبية بين قاطني لندن من العاملين في مهن متنوعة، كالعاملين في النقل والمدرسين وسعاة البريد وغيرهم، كانت بيانات العاملين في مجال النقل هي أول البيانات التي جُهِّزَت في عام 1949 وأظهرت اختلافًا ملحوظًا بين سائقي الأتوبيسات وقاطعي التذاكر، وهم الذين ينتمون إلى ذات الطبقة الاجتماعية، وجد أن السائقين الذين يظلون طوال اليوم جالسين يُصابُون بأزمات قلبية أكثر من قاطعي التذاكر الذين لا يفتأون يقطعون الدرج صعودًا ونزولًا في الحافلات ذات الطابقين، ظل «موريس» منتظرًا بقية البيانات على أَحَرِّ من الجمر، وعندما وصلت أَخَذ يقارن بين سعاة البريد والكتبة، وجاءت النتائج مؤيِّدة لفرضيته، كانت دراسته «مرض شرايين القلب التاجية والنشاط البدني المهني»، التي نُشِرَت في مجلة لانسيت عام 1953 أول دراسة علمية.

الثاني
العقل

«إننا الآن نقرر دون أي قصد مِنَّا أي طريق من طرق التطور سيظل مفتوحًا أمامنا وأيها سينغلق للأبد، لم يسبق لأي كائن ما كان عدانا أن وُضِع أمام هذا الاختيار، ولسوف يظل هذا لسوء الحظ إرثنا الذي نخلفه بعدنا لزمن طويل.»

«إليزابيث كولبرت»، الانقراض السادس.

«إنني لم أعرف عن أي فكرة أخرى محيِّرة لهذه الدرجة؛ حتى إن المرء لا يستطيع أن يطردها من ذهنه.»

«سورين كيركجارد»

قذفت السماء المظلمة بزخَّات مطر دافئة على شارع إجليتون، وزمجرت محرِّكات الشاحنات، مصدرة مكابحها فحيحًا وخوارًا، وعبر نهر كلايد كان الممر المزدحم المختنق يمتد من وسط مدينة جلاسجو موازيًا لشريط القطار الذي يبدأ من المحطة المركزية، ويمر أسفل العوارض الخشبية المتوازية على طريق M74 السريع، منطقة تصطف فيها محال الكباب المثيرة للريبة ومكاتب المراهنات ذات النوافذ المكسورة ومحال إصلاح السيارات زهيدة الأسعار والجدران الخرسانية التي تغطيها لوحات الجرافيتي، منطقة لا تشجِّع على المشي في أرجائها وقت الذروة بعد الظهر، كانت الأرصفة الموجودة في عدد من التقاطعات مطوَّقة بأسيجة معدنية ترتفع حتى خاصرتي؛ حتى إنها أجبرتني على أن أحيد عن مساري بشكل جانبي على طول الشوارع المتقاطعة كي أكمل طريقي جنوبًا.

إن المشي في منطقة حضَرية غير مألوفة عادةً ما يبعث فيَّ النشاط بصرف النظر عن مستوى المنطقة المحيطة أو حالة الطقس؛ فخلال السنين العشر التي عشتها في إدمونتون والتي تضمنت واحدًا من أكثر فصول الشتاء برودة التي مرَّت بها أي مدينة كبيرة على ظهر كوكبنا، وهي المدينة التي كانت تتميز بشبكة شوارعها المنظمة المرقمة، كان اختصار المسافة التي أقضيها في المواصلات وترجُّلي في الحي الذي يسبق المكان الذي أنزل فيه من شأنه أن يريني المعجزات، كانت أنشودة الجليد الصاخبة تغمر أذنيَّ في درجة حرارة 35- فهرنهايت، وعلى أحد صناديق البريد كان رسم لغراب العقعق يتكلم مطالبًا الناس بأن تنصت إليه، وعلى مرأى مني كانت شموع وامضة داخل أسطوانات مصنوعة من الثلج.

إنني ما زلت أحتفظ بذكريات حية لمشيتي من بيت أخت زوجتي في الركن الشمالي الشرقي من كالجاري، والذي كانت رقعته تتسع لمساحة تعادل مساحة شيكاجو، ذاهبًا إلى حانة في مركز تجاري متعدد الطوابق في الضواحي الداخلية، مخترقًا الشوارع الفرعية الخاوية المخيفة والمناطق الصناعية التي ما تزال قيد الإنشاء، وكانت الجرارات المتوقِّفة وأكوام حديد التسليح تلقي بظلال طويلة تشق ظلمة لا تبدِّدها أضواء الشوارع، كانت تكلفة البترول مؤلمة، وكانت بلدة ألبرتا تنتج واحدًا من أسرع المنتجات المحلية عائدًا على وجه الأرض؛ فقد كان الناس يفدون إلى تلك الولاية من جميع أنحاء العالم، لكنني من خلال المشي في مدنها الحدودية استطعت أن أحظى بنظرة قريبة فاحصة على الآلام التي تختفي تحت هذا الازدهار الاقتصادي.

في نفس ذلك العام قضيت أسبوعًا في مدينة فورت ماكموري مركز النفط الرملي في كندا، وخيمت على حدود المدينة، وكنت أقطع المسافة إلى منتصف المدينة مشيًا على الأقدام عبر طرق حيوية؛ للوفاء ببعض المواعيد هناك، وكانت المَركبات على تلك الطرق تطير بجواري متجاوزة السرعة المحددة للطرق السريعة؛ مما دفع بعض العاملين الشبان في بناء حوائط الجبس والذين يقطنون هذا المكان طوال العام لأن يحذرونني قائلين: «احذر، لا أحد يسير على قدميه هنا»، كنت أتفقَّد النفايات الطافية على القنوات (أكواب القهوة من ماركة تيم هورتون، وجعة بلاك هورس من نيوفاوندلاند وبطاقات اليانصيب) وأعد عربات النصف نقل، لقد كان أمرًا يثير فيَّ الوَلَه، كان جبهة جديدة.

لكنني اليوم بعد أن قضيت فترة ما بعد الظهيرة ماشيًا على قدميَّ في جلاسجو، وجدتُ نفسي منهكًا وحزينًا وهو أمر غريب، كانت بداية سيئة للغاية؛ لأنني لم أزر هذه المدينة الأقل صحية في المملكة المتحدة قاطبة، إلا كي أنظر ما إذا كان المشي قادرًا على جعل الناس أكثر سعادة.

إن إسكتلندا تتميز بأدنى معدَّل لطول العمر في أوروبا الغربية كلها، ولا يفتأ أهل جلاسجو يسارعون في مقابلة خالقهم بمعدل أسرع من المعدل البريطاني العام، فبالنسبة للرجال يبلغ معدل طول أعمار أهل جلاسجو 72.6 في مقابل 78.9 لدى عموم بريطانيا، أما بالنسبة للنساء فيبلغ معدلهن 78.5 في مقابل 82.7 لدى عموم البريطانيات، يعزو الباحثون هذه الهوة في معدل طول الأعمار إلى ظاهرة غامضة تسمى «تأثير جلاسجو»، هذا ما يقولون هم، لكننا يمكن أن نفسر هذا بقولنا: إنهم لا يملكون تفسيرًا جيدًا لذلك المعدل، في هذه المشكلة تلعب عوامل كالفقر والأنظمة الغذائية السيئة والعنف والتدخين وتعاطي المخدرات دورًا محوريًّا تمامًا كما هو الحال لدى سكان كندا الأصليين، لكن حتى عند مقارنتها بمدن صناعية مشابهة كليفربول ومانشستر نجد جلاسجو أكثر تألمًا، ونجد سكانها أكثر عُرضةً للموت في مرحلة الشباب بنسبة زيادة في المعدل تبلغ 30 بالمائة، هذه الوَفَيات ترجع نسبة 60 بالمائة منها إلى تعاطي المخدرات والكحوليات وحالات الانتحار وانتشار الجريمة، كما أن كل هذا الألم قد أطلق العنان لمشاكل تتعلق بالصحة العقلية.

كشف تحليل «تأثير جلاسجو» الذي أُجْرِيَ من خلال المسح الطبي الإسكتلندي الذي أُجْرِيَ عام 2010، والذي تضمن دراسة شاملة للعوامل الاقتصادية الاجتماعية والعوامل السلوكية والعوامل البيولوجية وغيرها من العوامل المؤثرة، عن أن سكان جلاسجو معرَّضون للإصابة بالقلق المرضي بنسبة أعلى من نسبة باقي سكان الدولة بـ 92 بالمائة، كما أنهم قد سجلوا ارتفاعًا كبيرًا في عدد المشاكل الصحية التي تضمنها استبيان الصحة العامة، وهو المؤشر إلى حدوث «اضطراب نفسي محتمل.»

كان أربعة من الباحثين قد خلصوا في دراسة لهم لصالح مركز جلاسجو لصحة السكان إلى وجود أسباب معقولة ومترابطة بعضها مع بعض، يرد إليها الاختلاف بين أهل جلاسجو وأقرانهم من أهل ليفربول ومانشستر، ولنكون أكثر تحديدًا نقول: إنهم قد اقترحوا سبع عشرة فرضية تنوعت ما بين السيناريوهات الوراثية والثقافية حتى تأثير المناخ الكئيب إلى التأثير المخاتل للهجمات ذات الدافع السياسي والتي شنَّتها ضدهم مارجريت ثاتشر؛ ولهذا فقد تَمَّ إطلاق ستة وثلاثين من البرامج

العامة على الأقل الهادفة إلى تضميد جراح تلك المدينة؛ فقد مُنِع التدخين في بعض الأماكن وتحديد سعر أدنى للوحدة الواحدة من الكحوليات، والأكثر من هذا أنْ صار رجال الشرطة يتمركزون في بعض المدراس ودُرِّب أطباء الأسنان والبيطريين على اكتشاف العلامات الدالة على العنف المنزلي، وقد صرَّح أحد كبار رجال الشرطة لصحيفة الجارديان قائلًا: «لقد كان المنهج الذي سِرْنا عليه أننا أدركنا أن تلك المشكلة كبيرة ومُعقَّدة ولا يهم كثيرًا من أي نقطة علينا أن نبدأ، المهم هو أن نقوم بتلك البداية اللعينة.»

أما أنا فقد كنت أتهادى عبر شوارع إجلينتون أمرُّ على محال البقالة المغلقة والأسيجة التي تعلوها أسلاك شائكة، ذاهبًا لمقابلة مجموعة من الناس قد آمنوا برسالتهم تلك من أعماق قلوبهم، كانوا أعضاء في برنامج للمشي الصحي تم وضعه لمنح أهل المدينة تلك الدفعة التي يحتاجونها بشدة، غير أن يومي قد بدأ بطريقة ريفية جدًّا؛ فقد صحوتُ من النوم في إحدى النزل في ريف جلاسجو والذي بُنِيَ في القرن الثامن عشر، وكان اسمه «ذا كنبريدج»، وقد سُمِّيَ على اسم الجسر الجرانيتي المجاور ذي الأقواس الخمسة والذي يمتد فوق نهر كين، وكان النزل يقع على طريق قديم يصل أيرلندا بأدنبرة، وقد بُنِيَ هذا النُّزُل كي يوفر الطعام والشراب والمأوى للمسافرين بالعربات التي تجرها الجياد وقتها، وهي الحاجات ذاتها التي وفرها لي هذا النزل ليومين كاملين مما راق لي كثيرًا، كنت قد ذهبت لتلك المنطقة كي أُجْرِيَ مقابلة مع رجل يعيش في قرية نيو جالاواي القريبة، وهو جغرافي وكان قد قطع أيرلندا وإسكتلندا كاملتين مشيًا، وفي الأوقات التي كنت لا أمشي أو أتحدث معه كنت أرشف الجَعة في حانة من حانات جلاسجو الدافئة تغطي جدرانها ألواح خشبية، أو أهيم في الطريق الواقع بين النزل والقرية تاركًا غناء العصافير يغمرني بينما أقف مغموسًا حتى صدري في أشجار وحشائش المحمية الطبيعية.

وعندما عدت إلى الحانة بعد واحدة من تلك التَّمشِيَات سألت عما إذا كانت السباحة في النهر آمنة هنا.

أومأ «ويلي» المختص بالصيانة في الفندق وقال: «نعم، يمكنك هذا لكن عليك أن تحذر أسماك القرش» .

ثم أضاف رجل ملتح شكله أقرب للدببة منه إلى البشر والذي اتضح فيما بعد أنه مؤرخ إسكتلندي مرموق يُدْعَى «تيد كوان»، وكان يجلس على مقعده الأثير في آخر الصف قائلًا: «معظم

أسماك القرش تجدها هنا في هذه الحانة.»

وافقهم مالك نزل كنبريدج «ديف باترسون» قائلًا: «بالفعل لا مشكلة في هذا، إن آخر من سبَّحوا هنا شخصًا ينتمي إلى سلك الرهبنة البوذية في هولندا».

«وهل رجع سليمًا؟»

«هي رجعت سليمة، إنك لو ذهبت فستقتفي أثر أقدام عظيمة».

مشيت على الجسر متوجهًا صوب النهر وتجردت من ملابسي تمامًا على شاطئ صخري، وخضت في المياه الخضراء الدافئة، ثم استرخيت داخل البحيرة العميقة إلى أنْ سمعت صوت إحدى الشاحنات يهدر محركها وينعق بوقها بالقرب مني.

وفي الصباح التالي وقفت بجوار الطريق السريع الذي يمر بالنزل ورفعت إبهامي للأعلى رغم أن أحد مَن كانوا في الحانة قد قال لي: «لن يقبل أحد أن يُقِلَّ عابر سبيل هنا»، لكن بعد عشر دقائق توقفت أمامي شاحنة ووجدت فيها رجلًا في منتصف عمره بدأ الصلع يغزو رأسه، فأزاح بعض العتاد من جواره كي يفسح لي المقعد الذي بجانبه، ذهبنا إلى أحد مواقع الإنشاء، وكان «نيل ستاوت» الذي يعمل حرفيًّا لإصلاح ماكينات تأطير الصور في طريقه لعمل ما في جلاسجو، وفي السيارة استمعت مطوَّلًا لإرشادات من جهاز الـ GPS الخاص به عندما اضْطُر إلى الانحراف عن طريقه المباشر المبرمَج سلفًا؛ فقال لي وهو يضغط بسبَّابته أزرار الجهاز بقوةٍ، غير واثق أي طريق نحن عليه الآن: «إنه جهاز مفيد، لكنه قد جعلَنا نفقد إحساسنا الطبيعي بالمكان، كم هي غريبة تلك السرعة التي يفقد بها الجنس البشري كل هذه المهارات!»

بينما كنا نطوي الأرض طيًّا بين الحقول المزروعة بأكوام القش، والبيوت ذات الأبراج التي بُنِيَت في القرن السابع عشر الميلادي، لم نتوقف عن الخوض في أحاديث تنقلت بين موضوع وآخر كما تنص الاتفاقية غير المكتوبة بين السائق وعابر السبيل الذي يركب معه، وعندما أخبرته أنني أتيت لهنا كي أستزيد معرفة بثقافة المشي البريطانية، أخبرني «ستاوت» عن المرة التي التهبَتْ فيها إصابته القديمة في عنقه، والتي أصيب بها عندما كان يمارس رياضة الرجبي، وكانت من الإيلام أنْ ظن نفسه وقتها يموت، حينها اضْطُر الأطباء لأن يُجرُوا عملية جراحية طارئة لتخفيف الضغط على فقراته العنقية، كان «ستاوت» قَبل أن يخضع للعملية الجراحية قد أراد أن يغادر المستشفى وأن

يستعيد قوته كي يتسلق قمة سكافيل التي هي أعلى قمة لجبل في إنجلترا، وأراد أن يسجل ألبومًا موسيقيًّا من غنائه، قال لي: إنه حقَّق هدفيه الأوَّلين، ثم أوصل جهاز الأيبود الذي يمتلكه في سماعات الشاحنة فانطلق منها صوت موسيقى من نوع البلوز وكلمات خشنة يغنيها رجل يبدو صوته كصوت «إريك كلابتون»، كان اسم ألبوم «ستاوت» "Humble"، وكانت الأغنية التي استمعنا لها في صمت تسمى "Heaven".

أنزلني «ستاوت» في وسط جلاسجو على بُعْدِ اثني عشر حيًّا من الفندق الذي سأنزل به، وكان هذا الفندق واحدًا من بين سلسلة من الفنادق الأوروبية الهادئة التي تستهدف «الجيل الجديد الذكي من المسافرين عبر الدول ..، أولئك المسافرين من النوع الذي يعبر القارات كما يعبر الآخرون الشارع»، ورغم أن ذلك الرجل الذي يبدو سفيرًا، والذي أنهى لي إجراءات الاستقبال في الفندق، قد أقر لي بأنه من أهل جلاسجو قائلًا: «نعم، إنني من أهل هذه البلد وأقر بخطيئتي»، لم أكن أشعر بأنني رجل عصري للدرجة التي تجعلني آنس بالجلوس في استراحة الفندق وسط ذلك الأثاث الدنماركي الحديث الفاخر، (ووسط النزلاء الفاخرين العصريين الدنماركيين على الأرجح)؛ ولهذا فقد انتعلت حذائي طويل الرقبة وخرجت إلى الشارع.

إن اسم جلاسجو مُشتَق من كلمة من اللغة الغالِيَّة[6] تعني «المكان الأخضر الحبيب»، ورغم كل الإحصائيات الصحية ورذاذ المطر الهاطل كانت المدينة في تلك الظهيرة الصيفية الهادئة أبعد ما تكون عن الاكتئاب، كان هناك مركز تجاري حيوي يَؤُمُّه المارة بالقرب من الفندق، فمشيت الهُوَينَى خلال زرافات الأُسَر الحاملين للمظلات على طول المتنزه المائي الواقع على نهر كلايد، وحتى ذلك التمثال المصنوع من حديد الخُردة والألياف الزجاجية لبطلة الحرب الأهلية الإسبانية «دولوريس إيباروري» الموجود جانب النهر، والذي يقف رافعًا قبضتيه للأعلى بتحدٍّ يبدو كأنما هو يتكلم عن المشي؛ إذ تقول الكلمات المنحوتة تحته: «خير لك أن تموت واقفًا على قدميك من أن تحيا أبد الدهر راكعًا على ركبتيك.»

عندما اشتد هطول المطر اختبأتُ في متحف ومعرض كيلنجروف للفن، وهناك وجدت عروضًا لأعمال عن الصحة الصناعية والعقلية في الغرف المتجاورة، في عام 1765 وفي صباح يوم أحد مشمس خرج «جيمس وات» صانع أدوات علم الرياضيات ذو التسعة وعشرين ربيعًا، وذهب ليمشي في جلاسجو جرين التي تبعُد مسافة تقل عن ميل واحد عن شارع إجليتون، كان

الرجل قد قضى عدة أشهر يغالب أُحجية هندسية تؤرِّقه، وهي كيف يمكن له أن يصمِّم محركًا مكتمل الحجم ذو أسطوانات لا تحتاج لأن تبرُد بعد كل ضربة؟ وقرب غرفة التنظيف التي تغسل فيها النسوة بياضاتهن قبل أن تنشرنها على العشب لتجف، ضربه الإلهام في صورة فكرة لمكثِّف منفصل عن غرفة البخار، وقد قال واصفًا هذا الأمر: «لم أكن قد تجاوزت ملعب الجولف حتى رأيت الفكرة كلها تتشكل في ذهني»، وفي اليوم التالي لأنه كان من المحرَّم عليه أن يعمل في مختبره يوم سبت اليهود نجح في بناء واختبار أول نماذجه للمحرك البخاري «الحديث».

لقد دفع اختراع وات هذا الثورة الصناعية دَفعة هائلة للأمام، وقد وصفه عالم البيئة الأمريكي «يوجين ستورمر» وعالم الكيمياء الجوية الهولندي الحائز لجائزة نوبل «بول كروتزن» بأنه بداية عصر الأنثروبوسين الذي هو الحِقبة الجيولوجية الحالية، والذي يتميز عن الأزمنة السابقة؛ لأن فيه صارت مجهودات البشر تترك أثرًا واضحًا على النظام البيئي لكوكب الأرض.

لقد طالت موجات المد التي نشأت من تلك اللحظة المنيرة التي مر بها «وات» كل أنحاء العالم، ولم تلبث جلاسجو طويلًا حتى صارت أكبر مدن إسكتلندا، لكنها صارت كذلك ربما لأسباب لا تتعلق بالمصادفة موقع أول مَصحة عقلية تنشأ خصيصًا لهذا الغرض والتي افتُتِحت عام 1814، وكانت تلك المصحة كما تصفها اللوحة التعريفية في كيلفنجروف: «مكانًا به رعاة مؤهلون متكيِّفون للتعامل مع أولئك المعتلِّين في عقولهم»، وبحلول عام 1900بُنِيَت ثلاثُ مَصحَّات أخرى في الولايات الريفية في أماكن متاخمة للمدن، غير أن هذا المنهج قد تطور، فاستُبْدِلَت المستشفيات بتلك المصحات التي يتكدس فيها المرضى، وكانت هذه المستشفيات تركِّز على العلاج لا الاستضافة، ومنذ تسعينيات القرن العشرين بدأ التركيز يتطور إلى رعاية المجتمع.

عندما غادرت المتحف وعبرت نهر كلايد ثم بدأت مشيتي في شارع إيجليتون، لم تفارقني فكرة وجود رابط بين المشهدين؛ فقد ازدهرت الصناعة لفترة ما في إسكتلندا لكنها الآن قد فشلت تاركة وراءها مصانع تتداعَى وبطالة ومآسٍ، وكلها كانت الوقود الذي يغذي «تأثير جلاسجو.»

رغم كل الإغراءات التي تعرضتُ لها كي أعود إلى حضن غرفة فندقي الفاخر، وأتمتع بخدمة الأفلام المجانية حسب الطلب، أكملتُ طريقي جنوبًا، ودلفت إلى بهو مستشفى نيو فيكتوريا؛ حيث سيجتمع أعضاء مجموعة للمشي في السادسة مساءً، كانوا سبع نساء ورجلان، وكلهم ينتعلون أحذية بسيطة ويجلسون على مقاعد بلاستيكية خارج الكافيتريا، كانت «هيذر ماكليود» منسِّقة مشية

جلاسجو امرأةً في العقد الرابع من عمرها، ذات شعر أشقر مجعَّد، وتحمل حافظة مستندات في يدها، وقد تولت أمر تعريف الأعضاء الدائمين، ثم شرحت لنا طريقة سير العملية، بينما كنا ننتظر الأعضاء الجدد، كانت رحلات المشي تلك، التي تموِّلها مؤسسة غير هادفة للربح تسمى «طرق للجميع»، وكذلك المؤسسة الوطنية الإسكتلندية للصحة والتي يقودها متطوعون، متوافرة في كل أرجاء المدينة، ويبلغ طول كل منها نحو ساعة، كانت هذه الرحلات التي تخرج الناس من منازلهم تشجِّعهم على ممارسة النشاط وتحسين السلوك الاجتماعي، إن القائمين على هذه الرحلات يستهدفون إشاعة حِسٍّ عام بالصحة، وخاصة في أجزاء من جلاسجو تتجلى فيها المشاكل الصحية في أوضح صورها، فقد قالت لهم «ماكليود»: «إن الخروج للمشي في جماعة يجعلكم تصيرون جزءًا من مجتمع جديد، وإن ما يجعل الناس يواصلون المشي هم من يقابلون من الناس لا الفوائد الجسدية.»

بينما كنا نغادر المستشفى خطبت فينا «فال كنيدي» قائدة تلك الأمسية، وكانت امرأة قوية البنية ذات شعر رمادي ونظارات سميكة، فقالت: «تذكروا القاعدة الذهبية، وهي أن تمشوا وتتكلموا في الوقت ذاته، وبالطبع ليس هناك من يقدر على منع أهل جلاسجو من الكلام.»

عبرنا طريقًا مزدحمًا، ثم دخلنا متنزَّه كوين الذي يتكون من 150 فدانًا من المروج والأدغال والملاعب الرياضية، والذي شُيِّد في أواخر القرن التاسع عشر، وقد كان رد فعل فيكتوري على انتشار المساكن المزدحمة، ولأنني كنت قد أُلهِمت بتوجيهات «كنيدي» فقد تبعت خطوات «إيان ماكفيكار» ذي الثمانية والثلاثين ربيعًا، وكان رجلًا ضخم البنية ذا كتفين عريضتين وشعر قصير للغاية، كان «ماكفيكار» قد عمل لثمانية عشر عامًا في قطع الحطب، وكان يضع الحطب في ماكينات القطع ثم يختبر جودته، كان يقول بلهجة أهل جلاسجو الثقيلة محرِّكًا ذراعه السميكة ويدَه المسطحة أفقيًّا للأمام والخلف كما لو كان يقطع قطعة من الحطب: «آه، لقد كان قطع الحطب أمرًا شاقًّا»، وكان بعد الانتهاء من عمله يعود للمنزل لمشاهدة مباريات كرة القدم على تلفازه، كان «ماكفيكار» خلال مراهقته قد شُخِّصت إصابته بمرض الإسكتزوفرينيا، لكن روتين حياته المهنية هذا قد ساعده على تخطي الأمر، لكنه عندما اضْطُر للتقاعد الطبي من عمله في ساحة قطع الحطب منذ عامين، وجد نفسه يغرق في اكتئاب عميق، عند هذه المرحلة بدأ يمشي، يقول هو عن هذه الفترة: «لم أفعل في حياتي أمرًا كهذا من قبل، كنت كالذي خرج من قوقعة.»

لكن الآن بعد أن نهض «ماكفيكار» من أريكته، وبعد أن صار يقوم بثلاث أو أربع رحلات مشي أسبوعيًّا، فقد خسر نحو عشرين رطلًا من وزنه، وقد صار الآن ينام بشكل أفضل، كما أنه الْتحق بدورات دراسية على مستوى الدراسة الجامعية متخصِّصة في القراءة والكتابة، أملًا منه في أن يصير مؤهَّلًا لأن يلتحق بوظيفة في المجال الإداري، في هذه الرحلات يقابل «ماكفيكار» أُناسًا جددًا، لكنه لا يشعر تجاههم بأي مشاعر معادية،أو كما يقول بلهجة جلاسجو الثقيلة: «لقد صرت لا أعبأ بأي شيء، وصرت أنظر للحياة بشكل مختلف الآن» .

بعد هذا اللقاء الشخصي قررتُ أن أختلط بباقي المشاركين، قالت لي «بيتي فيري» الصهباء ذات التسعة والخمسين عامًا: إنها تعاني من آلام الظهر والتهاب مفاصل الركبة، لكنها لم تُنصَح بالخضوع لجراحة في ركبتها وذلك بسبب وزنها وعمرها المتقدم، كانت بعد كل رحلة مشي يتملكها الإرهاق، لكنه إرهاق كما يصفه «ماكفيكار» يؤدي إلى صفاء الذهن والنوم العميق، كان لـ «فيري» ابنتان توأمتان كابنَتَيَّ؛ ولهذا فقد أخذنا نتبادل القصص عن بناتنا بينما كنا نغادر المتنزَّه، داخلين حي تجار الطين الرملي الذي قُسِّم إلى شُقق منذ وقت بعيد.

وعند نقطة التجمع قرب الأرصفة الضيقة المتجاورة انضمت «كنيدي» وأختها لي و«فيري»، كانت «كنيدي» تعاني من اضطراب العاطفة الموسمي، وهو ما يجعلها راغبة في البيات الشتوي منذ أكتوبر حتى عيد الفصح، تقول هي عما يحدث لها في تلك الأشهر الحالكة المطيرة: «لا أشعر بأي متعة في الأشياء التي عادة ما تُمتِّعني»، حاولت في الماضي أن تلتحق بجلسات رياضة الأيروبيكس، لكن سرعان ما فتَر حماسُها بعد جلسات قليلة، كانت قادرة على المشي من تلقاء نفسها، لكن دون أن تكون مقيَّدة بالتزام يحفزها للمُضِي قُدُمًا، فحينها على الأرجح ستفتح باب دارها وتقول: «لا، لن أشترك في هذا الأمر»، غير أن الخروج في مجموعة سوف يضمن أن تحظى «كنيدي» بالصحبة والنشاط البدني، أو كما تقول «كنيدي»: «إن هذه الرحلات تجعلني أشعر أنني استغللت يومي في إنجاز أمور مفيدة، وهو ما يمنحني الطاقة لأنجز أمورًا أخرى.»

وصلنا إلى ممر للمشاة يتعرج بحذاء نهر الوايت كارت الذي هو أحد روافد نهر كلايد، ومن السياج الحديدي المزخرَف والجدار المبني من الطوب الأحمر التي تحدُّ مَمَرَّ المشاة تدلَّت نباتات

القسور المزهرة، كان المطر قد توارَى في الضباب الخفيف، وكان مزاجي أيضًا قد راق بفعل المشي بالطبع، ولكن كذلك من طيب الصحبة.

غير أننا لا يجب أن نغفل عن الرابط الموجود بين العُزلة والصحة، إن متوسط عدد أفراد الأسرة الواحدة في المملكة المتحدة هو 2.4 فرد، ونفس الرقم ينطبق على الوضع في الولايات المتحدة وكندا، قبل نصف قرن كان المتوسط في المملكة المتحدة 3.1فرد (أعلى قليلًا في أمريكا الشمالية)، لقد صرنا نعتمد بشكل متزايد على التكنولوجيا في التواصل الاجتماعي، وكذلك في البيع والشراء، وصرنا نقضي أوقاتًا طويلة منعزلين، تُعَد هذه المشكلة هي الأكبر من الناحية الصحية في بعض أجزاء المملكة المتحدة، فقد كانت مؤسسة الصحة العقلية في بريطانيا قد أشارت في إحدى دراساتها التي نشرتها عام 2010 إلى أن: «الوحدة الدائمة تؤدي إلى ارتفاع نسبة هرمونات التوتر وتؤثِّر على الوظائف المناعية ووظائف أوعية القلب الدموية، واستمرار هذا الأثر يؤدي إلى تفاقم الوضع؛ إذ صار تأثير الوحدة يعادل تأثير التدخين»؛ لذلك فليس الخطر مقصورًا على كثرة الجلوس، بل إن العزلة صارت كالتدخين بالضبط، لكن لا تقلق فالمشي هو الترياق لذلك الأمر أيضًا.

قبل أن أذهب إلى رحلة إسكتلندا مباشرة، أصدرت مبادرة «الطرق لأجل الجميع» تحليلًا لعائد الاستثمار من برنامج جلاسجو للمشي، رمزت إليه بالحروف الأولية (SROI)، تناول هذا التحليل ثلاثًا وثلاثين من رحلات المشي المفتوحة (المتاحة للجميع)، وستة وعشرين أخرى محدودة النطاق؛ تستهدف المرضى في المستشفيات، ومَن يعانون صعوبات في التعلم، ومن ينتمون لأقليات عِرْقِيَّة، ومن أُوصِيَ باشتراكهم من قبل ممارسي الخدمة الطبية، في عام واحد أُنفِقت خمسة آلاف جنيه إسترليني على رواتب العاملين وعلى تدريب المتطوعين وعلى نفقات أخرى، وقد أفاد التقرير بأن كل جنيه إسترليني أُنفِق أتى بعائد على المجتمع يُقَدَّر بسبعة أمثاله؛ فبفضل ما أنجزته رحلات المشي تلك من تحسين للياقة البدنية والصحة العقلية لسكان المدينة، فقد تمكن «مجلس مدينة جلاسجو لخدمة الصحة القومية» من تقليص نفقاته على الرعاية المنزلية وغيرها من المبادرات الطبية مثل الوصفات الدوائية، وفي ذلك التحليل الاستقصائي (SROI) أَقَرَّ أكثر من 90 بالمائة ممن خرجوا في رحلات المشي تلك أنهم صاروا أكثر ثقةً بأنفسهم، وقد تضاءلت في أنفسهم خبرات العزلة والوحدة، وباتوا قابلين لخوض تجارب جديدة، في حين أقر آخرون بأنهم صاروا يتواصلون بشكل أكبر مع جيرانهم، وتكوَّن لديهم فهم أقوى للعرقيات ومن يعانون الإعاقة، جاء في التقرير:

«إن لرحلات المشي ذات الدافع الصحي مسوِّغًا واضحًا، ألا وهو تحسين صحة البدن وسلامته، غير أن المكاسب الأخرى التي تُجْنَى من هذه الرحلات كرفع الوعي الثقافي وزيادة الإحساس بالانتماء تجعل منها أمرًا مُلِحًّا.»

أعلن التحالف التعليمي الأمريكي المسمى «الكل يمشي» أن المشي لنصف ساعة خمس مرات أسبوعيًّا وما ينطوي عليه ذلك من زيادة للإندورفينات؛ يساعد على تقليل مشاعر التوتر والغضب والارتباك، وكذلك ذكر المركز الكندي للصحة والسلامة المهنية أن المشي: «مع الصحبة الطيبة في محيط بهيج» يؤدي إلى البُعد عن القلق والاكتئاب.

يرى العلماء أننا إذا ما تعمَّقنا أكثر في المسألة؛ لوجدنا المشي يساعد على منع الانكماش الدماغي؛ مما يؤدي بدوره إلى منع أمراض العَتَه وألزهايمر؛ فالمشي يؤدي إلى تحسين الدورة الدموية في الجسم، وهو ما يرسل مزيدًا من الأكسجين والجلوكوز وغيرها من المواد الحيوية للمخ، في دراسة واسعة النطاق أجراها «آلان جو» أستاذ علم النفس في جامعة «هريوت وات» في إدنبره على رجال ونساء في العقد الثامن من عمرهم استخدم أشعة الرنين المغناطيسي؛ ليظهر أن أولئك السبعينيين الذين يمارسون المشي بانتظام يقل لديهم ضمور المادة البيضاء، والمادة البيضاء هي نسيج يحتوي على ألياف عصبية ونوع من الدهون يُسمَّى «ميلين»، وهي المسؤولة عن سرعة الإشارات العصبية، وقد وُجِدَ أن السلوكيات الأخرى الباعثة على النشاط مثل ممارسة الألعاب المعقَّدة أو زيارة الأصدقاء لا تحافظ على هذا النسيج كما يفعل المشي.

طبقًا لدراسة أجراها «سيروس راجي» عالم الأمراض الخلوية والجزيئية في جامعة «بيتسبرج»، فإن صحة المخ تساعد على إبطاء تقدم كلٍّ من ضعف الإدراك الطفيف ومرض ألزهايمر، وفي إحدى المراحل المتوسطة لتلك الدراسة التي استمرت لعشرين عامًا، خضع مائتان وتسعة وتسعون من الرجال والنساء الأصحاء والذين تتراوح فئاتهم العمرية ما بين أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، ومعهم مائة وسبعة وعشرون من المسنِّين الذين يعانون قدرًا معينًا من الخلل الإدراكي لأشعة الرنين المغناطيسي، وكذلك لاستبيانات مكتوبة تُعْرَف باسم «اختبارات الحالة العقلية المصغرة» أو الـ (MMSE)، وفي المجموعة الأخيرة وجد أن الرجال والنساء الذين كانوا يمشون خمسة أميال أسبوعيًّا حافظوا على أحجام أدمغتهم دون أن تنكمش (الانكماش يشير إلى

أن الخلايا تموت) ولم يشهدوا اضمحلالًا كبيرًا في الإدراك، أما في المجموعة الأولى التي تضم الأصِحَّاء فقد كان للمشي لستة أميال أسبوعيًّا تأثير فارق واضح.

في عام 2013 قُدِّرَت أعداد من أصيبوا بمرض ألزهايمر بنحو 5.2مليون أمريكي؛ مما كلَّف الدولة أكثر من مائتي مليار دولار، ومع تقدم الأعمار في الدولة وزيادة أعداد من يصابون بذلك المرض يُتوقَّع أن ترتفع تلك التكلفة إلى 1.2 تريليون بحلول عام 2050، يُعَدُّ هذا المرض سادس أسباب الوفَيَات في الولايات المتحدة، والسبب الوحيد من بين العشرة الأوائل الذي لا يوجد له علاج طبي يحد من تطوره، وكذلك فإن ذلك الانهيار الديموغرافي يهدد معظم العالم الغربي، يقول «راجي»: «إن ألزهايمر مرض مدمر، ولسوء الحظ لا يعالجه المشي، لكنه يستطيع أن يقوي مقاومة المخ لهذا المرض، ويحدُّ من فقدان الذاكرة الذي يحدث بمرور الزمن»، وممارسة تمارين منتظمة كالمشي يمكن أن تقلل من خطر الإصابة بألزهايمر بنسبة 50 بالمائة.

والواقع أننا يجب ألَّا نكون في حاجة لمقال آخر لنقتنع بأن المشي مفيد للمخ، وأن خير الأماكن لممارسته هو البيئة الطبيعية، والأفضل أن تكون مع الأصدقاء، أو كما أخبرني أحد العلماء الإسكتلنديين أن الجهود الأكاديمية في هذا المجال يمكن أن توضع لها نهاية؛ حيث إن نتائجها قد صارت واضحة حتى للعميان، فبادئ ذي بَدء نعلم أن ممارسة الرياضة باعتدال هي أمر مفيد لأبداننا، ثانيًا إننا متهيئون وراثيًّا لأن نعيش بين أحضان الطبيعة، وتظهر النتائج المختبرية أننا عندما نمشي في مكان أخضر تقل مستويات التوتُّر لدينا، كما أن استجابة الجسم للتوتر وهي استجابة فسيولوجية تتم عند الشعور بتهديد، وتتضمن تسارعًا في ضربات القلب ومعدل التنفس وارتفاعًا في الجلوكوز الذي يضُخُّه الكبد لتوليد طاقة إضافية لا تظهر فَجَّة عندما يكون المرء في بيئة طبيعية، أما البَقاء في حالة من التنبُّه الشديد كما هو حال المرء عندما يكون في شارع مزدحم أو مكتب صاخب، فله ثَمَن باهظ؛ فالطبيعة تساعدنا على أن نسترخي ونستعيد طاقتنا، لكن مع هذا لا تزال هناك الكثير من الأبحاث الجارية يمكن أن تقدم لنا مزيدًا من التوضيح للعَلاقة بين المشي والصحة العقلية، وكذلك تجعل فهمنا لتلك العلاقة أكثر دقة وتحديدًا؛ ولهذا فقد ذهبت في اليوم التالي لرحلتي مع مجموعة «ماكليود» إلى حرم جامعة جلاسجو تحت زَخَّات المطر متسربلًا بملابس واقية؛ كي أقابل رجلًا كان قد وعدني بأن يشرح لي أهمية هذا الأمر.

كان الرجل هو «ريتش ميتشيل» طويل نحيل ذو شعر قصير مشذَّب، ولُكنة إنجليزية ناعمة، وكان مختصًّا بعلم الأوبئة في «معهد الصحة والسلامة» بالجامعة، والمدير المساعد لـ «مركز أبحاث البيئة والمجتمع والصحة»، والذي يبحث في الكيفية التي تؤثر بها البيئة المادية والاجتماعية على الصحة السكانية سلبًا كانت أو إيجابًا، وهو كذلك عضو في مبادرة «طرق للجميع»، كنت قد قمت بالاتصال بـ «ميتشيل» بعد أن قرأت بحثًا له عن تأثير النشاط البدني الذي يمارَس في البيئة الطبيعية، كانت تلك الدراسة قد استقت بياناتها من نفس الاستقصاء الصحي الإسكتلندي الذي وضع مصطلح تأثير جلاسجو، وقد خلصت تلك الدراسة إلى أن التمرين المنتظِم الذي تمارسه في متنزَّه ما أو إحدى الغابات، قادر على أن يقلِّص خطر إصابتك باعتلال صحتك العقلية إلى النصف، أما أولئك المصابون بعلل كالاكتئاب البسيط فسوف يقدرون على التكيُّف مع ما يطلق عليه «ميتشيل» «معاناة الحياة العامة»، إذا ما جعلوا من هذه التمرينات التي تمارَس في الأماكن الطبيعية عادةً يواظبون عليها؛ فالتمرينات التي تمارَس في الصالات الرياضية أو في شوارع المدينة ليس لها ذات التأثير، يقول «ميتشيل» عن دراسته تلك: «لم تفاجئني نتائجها، وإنما فوجئت عندما عرفتُ كم من الأفضل للصحة العقلية أن تمارَس التمارينُ في بيئة خضراء.»

أراد «ميتشيل» أن يصحبني في رحلة مشي إلى مرتفعات غرب جلاسجو التي تهب عليها الرياح العاصفة، وهي التي تطلُّ على ذلك الجزء من نهر كلايد حيث يتسع وينهمر نحو البحر، كنت قد شاهدتُ تلك المرتفعات بالأمس من مرتفع في منتصف متنزَّه كوين، لكنها اليوم أضْحَتْ مغطاة بغيوم كثيفة، ومن فيضان مياه الأمطار الجارية في المصارف الواقعة جانب الطريق خَمَّنًا أن طرق المشي ستكون مُغطَّاة بطين زلق؛ ولهذا فقد عدل عن رغبته السابقة ففتح مظلته الكبيرة ذات اللونين الأخضر والأبيض، وتقدمني خلال بوابات الحدائق النباتية.

كان «ميتشيل» الذي وُلِدَ ونشأ في جنوب شرقِيِّ إنجلترا قرب متنزَّه دارتمور الوطني، قد قضى وقتًا كثيرًا يمشي بين التلال خلال نشأته، وكان قد استهلَّ مشواره المهني بالبحث في التفاوُتات الصحية، وبصفته مديرًا مساعدًا لوحدة التغير الصحي والسلوكي في مدرسة الطب بجامعة إدنبره، فقد قضى كثيرًا من الوقت يراقب المؤشرات الصحية ويقيسها، ثم يهيج (على حد تعبيره) ساعيًا للتغيير، وفي هذا الصدد قال: «لقد صرنا ندرك أن الأسباب الأساسية وراء هذه الفجوات الصحية هي الاختلافات الاجتماعية والاقتصادية بين أنماط الحياة التي يعيشها الناس»، وقد جاء في تقرير منظمة الصحة العالمية عن المحدِّدات الاجتماعية للصحة (المُسمَّى أيضًا الحقائق

الثابتة) والذي صدر عام 2003 ما يلي: «في حين تساعد الرعاية الطبية على إطالة فترة الحياة بعد الإصابة بأمراض خطيرة، نجد أن الأمر الأكثر أهمية بالنسبة للصحة السكانية العامة ككل، هي الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تسبب المرض للبشر وتجعلهم يحتاجون تلك الرعاية الطبية.»

ظل «ميتشيل» مهتاجًا لعدة سنوات ثم بدأ يصاب بالاكتئاب؛ فقد كان مع زملائه يفكِّكون المشاكل ثم يقترحون لها حلولًا، لكنه يقول عن تلك التوصيات التي قدموها: «كانت تتعلق بتغييرات جذرية في هيكلة المجتمع والاقتصاد، وصحيح أنني ما زلت أعتقد أن تلك التغييرات هي في الواقع ما نحتاج للحد من تلك التفاوتات الصحية، إلا أنني أعتقد كذلك أنها تغيرات لن تحدث على الأرجح على الأقل عن قصد؛ فالناس لا يميلون للتصويت لصالح أي ثورات اجتماعية أو اقتصادية.»

يعتقد «ميتشيل» أنه إذا ما نزلت كائنات فضائية على الأرض، فسرعان ما سيدركون أن ما يحتاجه الجنس البشري هو نقلة ناعمة إلى عالم أكثر «لطفًا»، لكنه يعلم أن هذه الفكرة تحط من قدر ما لذوي السلطة من قدرة على الإبقاء على الهيكلة المجتمعية والاقتصادية التي تغذي إحساسهم بذواتهم وتعظم ثرواتهم، وكذلك فإن ما طرأ على المجتمعات من نزعات للتجديد وتكنولوجيا حديثة (مثل تكنولوجيا تفتيت الصخور لإخراج الغاز الطبيعي)؛[7] تساعد على تعزيز تلك الأنماط الحياتية التي لا يمكن تحمُّلها، وقد قال عن ذلك: «لكنني في النهاية لن يكون بإمكاني أن أتخذ أي خطوات للأمام»، ثم أضاف بابتسامة مريرة: «لكن من ناحية أخرى قد تحدث كارثة عالمية الأسبوع القادم»، فعلم المورفولوجيا الذي يختص بدراسة التضاريس الأرضية والعمليات التي تشكِّلها، وهو العلم الذي بُنِيَ عليه تدريبه جغرافي، يعلِّمنا أن معظم الظواهر الأرضية كأحواض الأنهار على سبيل المثال تحدُث نتيجة تغير

غاية في البطء، لكن بعض الوقائع كالسيول العارمة يمكن أن تُحدِث في كوكبنا تغييرًا سريعًا للغاية.

في ذلك الوقت الذي بدأ فيه «ميتشيل» يستنتج هذه النتائج، تلقى دعوة من «لجنة الغابات البريطانية»؛ كي يشارك في تجمع للباحثين تحت رعاية منظمة مشتركة بين حكومات الاتحاد الأوروبي تسمى «التعاون العلمي والتكنولوجي»، وتهدف إلى تقليص التَّشَظِّي الحادث في المشاريع البحثية المموَّلة وطنيًّا من خلال دعم الرؤى الأوسع نطاقًا على المستوى القاري، وكان البحث الذي

شارك فيه يهدف إلى معرفة المزيد عن الفوائد التي يمكن أن تقدِّمَها الغابات والأشجار والأماكن الطبيعية لصحة المواطنين الأوروبيين، هنا توافقت الأمور بالشكل الأمثل، ولأنه كان يرمي إلى اختبار أفكاره في مكان شهِد قدرًا لا بأس به من التراجع الاقتصادي طويل الأمد فقد نقل إقامته إلى جلاسجو.

كان البحث في الخصائص العلاجية للطبيعة قد بدأ يحظى بزخْم خلال العقود الثلاثة الماضية، بينما كنا نخترق ممرات الحديقة النباتية التي تصطَفُّ الأشجار على جانبيها، تجاوزنا شجرة المران العالي، التي يبلغ عمرها مائتي عام، والشجيرات الكثيفة الخضراء والزهور الآتية من كل أنحاء العالم، أخذ «ميتشيل» يلقنني دروسًا مكثَّفة في علم النفس البيئي بادئًا من البحث العمدة الذي نُشِرَ في مجلة ساينس عام 1984، كان البحث بعنوان «إطلالة وراء النافذة قادرة على التأثير في عملية التعافي بعد العمليات الجراحية»، وكان مَنْ أَعَدَّهُ هو الباحث في تصميم الرعاية الصحية الأمريكي «روجر أولريك»، وقد بيَّن في بحثه أن المرضى ممن يقضون فترة النقاهة بعد إزالة المرارة جراحيًّا يتعرضون لمضاعفات أقلَّ، وتقل أيام إقامتهم في المستشفى بعد الجراحة، وتقل الملاحظات السلبية التي تصدرها الممرضات عن حالتهم، ويحتاجون لنسبة أقل من المسكِّنات إذا ما كانت غرفهم تطل على مناظر طبيعية بالمقارنة بغيرهم ممن تطل غرفهم على حوائطَ من الطوب.

بعدها بخمس سنوات قام أستاذا علم النفس بجامعة ميتشيجن: «ريتشيل كابلان» و«ستيفن كابلان» بوضع الملامح الرئيسة لنظريتهما المهمة المسماة «نظرية استعادة التركيز»، والتي تطرح فكرة أن الناس يمكن أن يركزوا بشكل أفضل إذا ما قَضَوْا وقتًا في بيئة طبيعية، أو حتى بمجرد النظر إلى صور لمناظر طبيعية، لقد أجرى الزوجين «كابلان» أبحاثًا رائدة في مجال «الافتتان الناعم»، وهو عبارة عن حالة تقوم فيها البيئة الطبيعية الممثَّلة في السحب والأنهار وأغصان الشجر المتمايلة في النسيم بجذب اهتمامك بطريقة غير دراماتيكية؛ وذلك لأن المرء حينها يُولِي اهتمامه للطبيعة دونما قصد أو جهد ذاتي، ولأن الإنسان وقتها لا يكون مركِّزًا عمدًا على شيء ما، فإنه يكون بإمكانه أن يتفكَّر فيما يحيطه ويستكشف أفكارًا أخرى في الوقت ذاته، والأكثر من هذا أن تلك السكينة التي تمنحها الطبيعة للمرء قادرة على أن تنتزع حدة أي «بقايا إدراكية» مزعجة أو مربكة يكون عقله عالقًا فيها، إنها بمثابة «ضجة داخلية» تخفف من الألم، كتب الزوجان «كابلان» قائلين: «غير أن أنواع الافتتان ليست كلها متساوية في فعاليتها، فالأماكن الطبيعية والأنشطة التي تتضمن الوجود في بيئة طبيعية تتمتع بخبرة قابلة للاستعادة، ورغم أن الخبرات قد تختلف في نطاقاتها، فإنها

تشترك في بعض الخصائص ... فهما يهتمان بالعالم المادي والذهني في ذات الوقت»، يرى الزوجان «كابلان» أن كون المرء في مكان ما أثناء عمل شيء ما ينتج تأثيرًا مضاعفًا؛ وذلك لأن البشر مفكرون متخيلون وهم: «مهرة في تخيل أنفسهم يذهبون لأماكن ويفعلون أشياء»؛ ولذلك فإنك عندما تذهب لتتمشى في المتنزَّه خلال راحة الغداء سيساعدك هذا على تصفية الخلاف القائم في محل عملك عندما تعود.

في عام 2003قام عالم نفس أمريكي آخر وهو «تيري هارتج» بتطبيق هذه النظرية على المشي، فقد قام نحو مائة شاب بالمشي في إحدى الطرق الترابية المتدرِّجة بإحدى الغابات المصطفَّة بشجر بلوط سكايمور الواقعة في قاع أحد الوديان في إحدى المستعمرات البرية في لوس أنجلوس، وفي مدينة أورانج القريبة مشَى رهط آخر عبر طرقات مدينة للتطوير التجاري والمؤسسي، وهي عبارة عن رقعة من الأرض بها مطاعم وأسواق تجارية وتدخلها نحو أربعٍ وعشرين ألف مركبة يوميًّا، كان على الباحثين الذين درسوا هاتين المجموعتين أن يراقبوا ضغط دم المشاركين قبل وأثناء وبعد رحلات المشي تلك؛ بطريقة تسجيل من خلال قياسات بشكل منتظم لتجنب «تأثير المعطف الأبيض» الذي يسبب العصبية للناس، ويرفع مستويات ضغط الدم عندما يلتف ذلك القيد الخاص بجهاز الضغط ويضيق حول أذرعهم؛ بالإضافة إلى دراسة الطريقة التي ينفِّذ بها الأشخاص المدروسون المهام التي توكَل إليهم بانتباه، في إحدى تلك المهام يطلب منهم أن يبحثوا بسرعة عن خمسة أحرف معينة ضمن صف من الأحرف، مع قياس مدى الدقة والسرعة في أدائهم، أشار «هارتج» إلى أن هذا الاختبار هو تقييم متوازن لنظرية استعادة الانتباه، أما الأمثلة المتطرفة كالمواقع الطبيعية الجميلة والمناطق الحَضَرِيَّة الخرِبة فلم تتخذ مواقعَ ميدانية في هذه الدراسة، لكن مع هذا أتت النتائج لا لَبْس فيها، سبَّب المشي في المستعمرة البرية خفضًا لضغط الدم (أو التوتر) أكثر منه في المدينة، كما أن نتائج اختبارات الانتباه سجلت معدلات أكثر دقةً في رحلات المشي في الطبيعة منها في المناطق الحَضَرية، وفي خلاصة دراسته كتب يقول: «إن إتاحة السبل إلى المشي في البيئة الطبيعية والنظر إليها لقاطني المناطق الحضرية تحديدًا، هو أمر له فوائد متعلقة بالوقاية من الأمراض، وتلك الاستراتيجيات الصحية التي تكون البيئة الطبيعية واحدة من مكوِّناتها تملك قيمة كبيرة في هذا الزمن الذي فيه تضخَّم عدد قاطني الحضر، وانفجرت تكاليف الرعاية الصحية وتدهورت البيئة الطبيعية.»

هذه الخلاصة تنسجِم كثيرًا مع مقالة علمية نُشِرَت عام 2012، وفيها جاء أن النشاط البدني قادر على تخفيف أعراض الاكتئاب الخفيف، لكنَّ كاتبي المقالة أرادوا معرفة إذا ما كان «النشاط الأقل قوة في المشي وهو الأمر الذي قد يصير موضة آمنة وذات قبول عريض له ذات الفوائد»، وبعد التنقيب في نحو خمسة عشر ألف دراسة في أحد عشر قاعدة بيانات بحثية فقد قرروا أن: «للمشي تأثير مُهِم مثبت إحصائيًّا على أعراض الاكتئاب لدى بعض الأنماط السكانية، لكن الدلائل المتاحة حاليًّا غير كافية، ولهذا فرغم كون المشي علاجًا واعدًا للاكتئاب ... ورغم أنه لا تكاد تتواجد أراء معارضة لهذا؛ فإن ممارسي الطب العيادي بحاجة إلى مزيدٍ من الدراسات المتقدمة لتحديد عدد المرَّات المطلوبة لممارسة رحلات المشي، بالإضافة إلى تحديدِ الزمن المطلوب للرحلة الواحدة، بل ونمط المشي المطلوب ذي التأثير الفعَّال خاصة على من يحتاجون لرعاية صحية بشكل يومي».

إن «ميتشيل» آخِذٌ في الدفع بهذا البحث للأمام دون كلل، وكان قد خلص من تجربة أجراها عام 2011 استند فيها إلى قياسات الكوليسترول اللُّعابي، عن طريق الطلب من الخاضعين للتجربة أن يبصقوا داخل أنبوب اختبار؛ إلى أن المساحات الخضراء تحدُّ من التوتر في المجتمعات المحرومة، إن الجسد يستجيب للتوتر عن طريق الغدد المفرزة للأدرينالين، ومن خلال مراقبة مستويات الكوليسترول، الذي هو الهرمون الأساسي الذي تنتجه تلك الغدد، يستطيع العلماء تكوين تصور كيميائي دقيق لما يحس به الناس، غير أن تلك الدراسة كانت دراسة استكشافية لعينة محدودة، وقد جاءت نتائجها متواضعة، لكن، كما أوضح «ميتشيل»، إن تأثيرًا صغيرًا يحدث على عدد كبير من الناس لهو أمر بالغ الأهمية.

من حيث انتهت الدراسة الْتقط هو الخيط، وأطلق مشروعًا ضخمًا للبحث عن دليل مادي يثبت أن المشي قادر على مساعدة الناس لتجاوز متاعب الحياة اليومية، هذه الدراسة التي بلغت كلفتها تسعمائة وخمسين ألف جنيه إسترليني، واشترك فيها زملاء لـ «ميتشيل» من جميع أنحاء المملكة المتحدة، سوف تقيم التأثيرات النفسية لبرنامج «المشي في الغابات وما حول المدن» الذي يُرْمَز له بالاختصار (WAIT) والتابع للجنة الغابات الإسكتلندية، هي محاولة لتقرير ما إذا كان الاتصال بالطبيعة له تأثير أقوى على أولئك الذين يواجهون مصاعب مالية وعائلية ومصاعب أخرى، يقول «ميتشيل»: إن أبناء الطبقة المتوسطة من اللائقين بدنيًّا سوف يستمتعون ولا شك بقضاء بعض الوقت بين أحضان الطبيعة، لكنهم لن يحصلوا بالضرورة على فوائد ملموسة من المشي في الغابات، كما أن الرياضيين لا يحصلون على جسد أكثر تناسقًا إذا ما مشوا لنصف ساعة

يوميًّا، لكن على النقيض فإن هذا النشاط سيكون له تأثير جَلِيٌّ على الفقراء التعساء، وعن هذا يقول «ميتشيل»: «إن هذا الأمر يثير اهتمامي حقًّا، فإنه من العسير للغاية مواجهة تلك المشاكل التي يتعرَّض لها هؤلاء الناس، وقد جربنا حلولًا كثيرة لكن أيًّا منها لم يفلح.»

إن مشروع (WAIT) قد أُنشِئ من خلال برنامج لجنة الغابات بهدف تحسين الغابات الموجودة بين المجتمعات الحضرية، والتي تحتل المركز الثالث بين مناطق إسكتلندا من حيث الترتيب الاقتصادي الاجتماعي، يقول «ميتشيل»: «إن المناطق المختارة مناطق خربة قذرة يصعُب دخولها، مناطق مريبة وربما خطِرة»، لكن المسارات المحددة والعلامات الدالة والمناظر الطبيعية الأخرى سوف تجعل تلك المناطق أكثر تَرحابًا، هناك ثلاثة مواقع للتدخل بالتحليل الطبي، وثلاثة أخرى تُقارَن فيها نتائج التحليل، وكلها اختِيرت متطابقة من حيث كونُها غابات، وأيضًا من حيث خصائصُها الديموغرافية، وكلها ضواحٍ ضمن مدن لها تاريخ من الاضمحلال الاقتصادي، وكلها تقع في شريط يمر بوسط إسكتلندا يربط بين جلاسجو وإدنبره، (مواقعهم تحديدًا لا تزال سرًّا حتى الآن)، وبعد أن تنتهي تلك الإصلاحات سوف تُطلَق برامج ترويجية لتلك الضواحي حول مواقع التدخل الطبي، سوف تُنظَّم رحلات مشي مع مرشدين وأنشطة أخرى للأسر والأطفال، كما ستُوزَّع منشورات وغيرها من المطبوعات لتشجيع الناس على اكتشاف تلك المسارات، أما مواقع التحكُّم فسوف تُترَك دون تغيير، رغم أنها يمكن أن تتلقى تمويلًا لتطويرها فيما بعدُ، سوف تُحلَّل مستويات التوتر لأكثر من ألفي شخص في محيط ميل واحد في ست غابات، كان الخاضعون لتلك التجربة قد جرى استقصاؤهم عام 2013 قبل بَدء الإصلاحات، وبعدها بعام بعد انتهاء العمل، وسوف يجري استقصاؤهم مجددًا عام 2015 بعد مرحلة التدخل الطبي.

يقول «ميتشيل»: «إن ما نرمي إليه هو تغيير مستويات التوتر في تلك المجتمعات»، وكذلك معرفة إذا ما كان الناس يستفيدون بالفعل من الغابات، وإذا ما كان تأقلُمهم العام مع الطبيعة قد تغير، «ستكون النتائج حين ظهورها مثيرة للاهتمام؛ لأنك من جهة سوف تمتلك دليلًا نظريًّا قويًّا نوعًا ما عن أنماط التغير التي سوف تحدث، لكن هذه المجتمعات تواجه الكثير من الصعوبات، فماذا علينا أن نتوقع؟»

أضاف «ميتشيل» قائلًا: «إننا نُفرِط في توقعاتنا من الطبيعة، لكننا يجب أن نأخذ حذرنا ولا نبالغ في تقدير ما يمكن للطبيعة أن تحققه، فالطبيعة ليست بعصا سحرية، غير أنها يمكن أن تغير

الكثير في حياة بعض الأشخاص.»

كانت «شارون سميث» المسعفة في القوات الجوية الأمريكية قد طارت إلى العراق على متن مروحية توربينية من طراز C-130 ضمن الفيلق الأول لقوات مشاة البحرية الأمريكية خلال عملية عاصفة الصحراء، وكانت قد ضمَّدت جراح ثلاثة وعشرين من مصابي القوات الأمريكية والأسرى العراقيين على الجبهة الأمامية في وقتٍ واحد، والآن بعد أكثر من عشرين عامًا ما زالت عيناها تترقرقان بالدموع عندما تتحدث عمَّا رأته وقتها، قالت لي بصوت متهدج: «في بعض الأوقات كنا نشهد أهوالًا، وكان المرء يعود من هناك ... محطَّمًا»؛ ولهذا فقد قررَتْ أن تذهب في رحلة مشي طويلة.

في ربيع عام 2013 قررت سميث مع ثلاثة عشر آخرين من قدامى المحاربين أن يقطعوا طريق الأبالاش مشيًا، والذي يبلغ طوله 2180 ميلًا ويمتد من جبل سبرينجر في جورجيا إلى كاتادن في ولاية ماين، وكان هؤلاء مدعومين من قبل برنامج أنشأه «شون جوبن» العضو السابق في مشاة البحرية الأمريكية، والذي كان قد قطع ذلك الطريق بأكمله في العام السابق، كان «جوبن» بعد أن أنهى مهمتين في العراق وقضى عامًا كاملًا في أفغانستان؛ وجد أمامه أربعة أشهر ونصف شاغرة في حياته ما بين التقاعد من الخدمة العسكرية وبدء الالتحاق بالدراسات العليا، كان «جوبن» ضابطًا في سلاح الدبابات، وكان قد قطع في عام 2003 مسافة ثلاثمائة وخمسين ميلًا على خط النار من الحدود الكويتية متجهًا إلى بغداد قال لي مسترجعًا الأحداث: «نجحت في بلوغ العاصمة وأسقطنا النظام» ، وكذلك كان قد قضى سبعة أشهر في لعب الروليت الروسي مع المتمردين المتخصصين في زراعة العبوات الناسفة في الفلوجة، ورغم أنه لم يلجأ إلى أي طبيب نفسي أو مختص بالصحة النفسية، كان «جوبن» قلقًا بشأن «دوامة الموت» التي وجد رفاقه من قدامى المحاربين يغرقون فيها بعد عودتهم من ساحات القتال.

إن الجنود لا يفتأون يتنقلون جِيئة وذهابًا ما بين الحياة العائلية العادية وما شهدوه من مقابح الحروب، ثم لا يلبثوا أن يتحولوا إلى مدنيين للأبد، لكنهم أحيانًا يفقدون القدرة على استخدام ذلك المحوِّل العقلي الذي ساعدهم فيما سبق للتركيز على مهامهم في كل جبهة كانوا يقاتلون على طولها؛ ولذلك فلا تنفك ذكريات الصدمات التي شهدوها تكرر نفسها في دورات لا تنقطع، ثم تتملكهم السخرية المريرة ويبدءون في الانعزال عن أُسَرهم وأصدقائهم، وتجدهم مهووسين بتفحص الأبواب

والنوافذ في منازلهم كلما سمعوا صوتًا غريبًا، ويجلسون مُولين ظهورهم الجُدُر في المطاعم، تستحوذ عليهم صور من الماضي ونوبات الغضب، بالإضافة إلى تبلد المشاعر والإحساس بالذنب، حينها يصير الألم بصرف النظر عن كونه مرتبطًا باضطراب ما بعد الصدمة ألمًا داخليًّا، قد يلجأ بعضهم إلى علاج نفسه بمعاقرة الخمر أو تعاطي المخدرات وهو ما يزيد الطين بِلَّة.

منذ عام 2001 رجع أكثر من 2.5 مليونًا من الأمريكيين رجالًا ونساءً من جبهات القتال في العراق وأفغانستان، وقد عانى نحو 20بالمائة منهم من اضطراب ما بعد الصدمة، وفي المملكة المتحدة وكندا أرقام مشابهة للأرقام في الولايات المتحدة وإن كانت على نطاق ضيق، حيث حدث في كندا أن انتحر أربعة من المحاربين العائدين من أفغانستان في أسبوع واحد عام 2013، إن اضطراب ما بعد الصدمة وهو المرض الذي أضيف عام 1980 إلى الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية الصادر عن الجمعية الأمريكية للطب النفسي يمكن أن يصيب أي شخص ممن تعرَّضوا لصدمات مثل ضحايا الاغتصاب والأطفال الذين تعرضوا للإيذاء، ومَنْ تعرضوا لحوادث السيارات والكوارث الطبيعية، صرحت إدارة شئون المحاربين القدامى الأمريكية أن: «خطر التعرض للصدمات قد صار جزءًا من الطبيعة البشرية، منذ أن تطور الإنسان وصار كائنًا مستقلًّا؛ فالهجوم الذي كان يشنُّه السنُّور سيفي الأنياب سابقًا أو الذي يشنه الإرهابيون حاليًّا له على الأرجح المضاعفات النفسية ذاتها على من تعرضوا له، مضاعفات مثل النزعة إلى العنف.»

لكن الجنود على وجه التحديد هم أكثر حساسية تجاه هذا الأمر، يقول «جوبن»: «إن الحرب تستنزف إيمان المرء بالإنسانية، فهو يعود لوطنه منعزلًا منفصلًا عما حوله يعيش في عالم رمادي.»

كان «جوبن» خلال طفولته معتادًا على قطع الساحل الشرقي جِيئة وذهابًا بالسيارة الكارافان مع والديه، والذهاب للتخييم في المتنزَّه الوطني في حارات التخييم على الطريق الأبالاش، كان قد قرأ رواية «مشية في الغابة» لـ «بيل برايسون» والتي هي وصف دقيق للرتابة والتحدي والنشوة التي يبعثها المشي فينا تحت الضغط اليومي الشديد، كتب «برايسون» في روايته: «عندما تخترق العالم مشيًا تتغير المسافات تمامًا ... عندها تدرك أن العالم ضخم بطريقة تعرفها أنت ورفاقك الذين يمشون معك، وكذلك تتَّخذ الحياة بساطة جميلة، وعندها لا يعود للزمن أي معنى، عندما يحل الظلام تأوي إلى فراشك، وعندما يبزغ الضوء مجدَّدًا تصحو وكل ما بينهما ما هو إلا بينهما، كم هو أمر

رائع، لا تكبِّلك ارتباطات ولا التزامات ولا تُضطر لشيء، لا طموحات عظيمة، فقط حاجات صغيرة قليلة التعقيد، تجد نفسك في رتابة مطمئنة، هادئًا بعيدًا عن السخط، قصيًّا معزولًا عن كفاح الحياة على حد تعبير المستكشف وعالم النبات القديم ويليام بارترام، كل ما هو مطلوب منك هو الرغبة في المشي للأمام».

وكان «جوبن» راغبًا في المشي للأمام، أراد رفيقه في المشي العضو السابق في قوات مشاة البحرية «مارك سيلفرز» أن يقطع طريق الأبالاش مشيًا؛ طلبًا لجمع المال لأعمال خيرية؛ لذا فقد نظَّم الاثنان تجمعات غير رسمية للمحاربين القدامى في الجبهات الخارجية (VFW) في مدن على طول الطريق لجمع تبرعات لصالح الجنود الذين أصيبوا بإعاقات، في إحدى محطات جمع التبرعات حضر مائتا شخص، لكن في محطات أخرى قضوا أمسيات كاملة يتجرَّعون الويسكي الرخيص ويتبادلون قصص الحرب مع بضعة مسنين، وعندما نزلوا جبل كاتادن كانوا قد جمعوا 50000 دولار خصصوها لشراء ثلاث سيارات معدَّلة لتتلاءم مع المعاقين لأجل المحاربين السابقين المصابين بشدة.

غمرت المشاعر الطيبة كلًّا من «جوبن» و«سيلفر» من فرط الحفاوة التي قوبلوا بها في المدن الواقعة على طول الطريق، فقد كان سكانها يقدمون لهم الوجبات والعروض لتوصيلهم بالسيارات للمساعدة في تنفيذ المهام المطلوبة منهم، وكان المحاربون القدامى في فيتنام يلوِّحون لهم قائلين: «إننا نعرف ما تمرون به، لكن في نهاية ذلك النفق المظلم هناك يكون النور»، وفي ذلك الطريق كانوا يصحبون مشاة آخرين معظمهم يختلفون تمامًا عن نوعية البشر الذين يقابلهم المرء في الحياة العسكرية، وهو الأمر الذي يُعَدُّ جزءًا مهمًّا من عملية التهيئة الاجتماعية للمحاربين الذين يعانون اضطراب ما بعد الصدمة، والذين إذا لم يمروا بتلك العملية فسينزعون إلى تجنب الاتصال مع الآخرين، من الناحية الجسدية تحسَّنَت بنية أولئك المحاربين القدامى كثيرًا، فكما يقول «جوبن»: إن المشي لخمسة عشر ميلًا يوميًّا أكثر إنهاكًا مما يقومون به في الحياة العسكرية، وكثير من هؤلاء المحاربين بعد أن يتقاعدوا من الخدمة تزيد أوزانهم ويخسرون تقديرهم لذواتهم.

يقول كذلك: «إن المشي لمسافات طويلة يُظهِر الشخصية، فالبشر يمرون أحيانًا بظروف سيئة، ويتعايشون مع متاعبهم اليومية مع الطقس ومع وعورة الأرض، والكيفية التي يتعايش بها المرء مع كل هذا، وفي الوقت نفسه يتفاعل مع بشر آخرين يتيحون له أن يطور من شخصيته، فإذا

ما كان المرء ضمن مجموعة فسيجد نفسه يعاون الآخرين عندما يتعثرون، وهذا يدفعه إلى استعادة إحساسه بالرفقة؛ ذلك الإحساس بأنه في مهمة وهو ما يدفعه للشعور بالأهمية مجددًا.»

لكن بالنسبة لمعظم المشاركين يكسبهم المشي طوال اليوم كل يوم أسبوعًا بعد الآخر افتتانًا ناعمًا؛ فيأخذ الواحد منهم في استرجاع خبراته في ساحة القتال مائة مرة في اليوم الواحد، بينما تكون في تلك الحالة المريحة ويكون لديك الوقت الكافي لتدبُّر تلك الذكريات، يقول «جوبن»: «عندما تقضي وقتًا طويلًا بين الطبيعة ستُتاح لك الفرصة كي تفكر فيما سوف تفعله في المرحلة التالية، فقرب نهاية الطريق أدركت كم هو جميل ذلك الريف، حينها استعدت ألوان حياتي.»

كانت «مؤسسة طريق الأبالاش» ذلك المجلس التطوُّعي غير الهادف للربح المسؤول عن إدارة وصيانة الطريق تراقب صندوق التبرعات الخاص به، كانت المؤسسة تبحث عن سبيل لتكريم ذكرى «إيرل شيفر» أحد مقاتلي الحرب العالمية الثانية الذي أصبح في عام 1948 أول إنسان يخترق ذلك الطريق سيرًا على الأقدام، والذي اكتسب اسمه بعد أن أقر الرئيس «لندون بي، جونسون» قانون الطرق القومية عام 1968، خدم «شيفر» في الجيش الأمريكي ضمن سلاح الإشارة جنوب المحيط الهادي، كان قد أخبر صديقًا له أنه يريد أن «يمشي مبتعدًا» عن مشاهد الحرب وأصواتها، وبالفعل قطع الطريق في خمسة أشهر دون خريطة أو عتاد خفيف من الذي يستخدمه ممارسو المشي اليوم، قامت «مؤسسة طريق الأبالاش» بالاتصال مع «جوبن» فولد برنامجه للمحاربين الممارسين للمشي، وكان يرمي لهدف بسيط ألا وهو مساعدة المحاربين القدامى على مواجهة اضطراب ما بعد الصدمة وأن يُوَلُّوا ظهورهم لتلك الصدمات.

أنشأ «جوبن» موقعًا إلكترونيًّا لرحلة المشي التي أقامها عام 2013، كما وضع لها جدولًا زمنيًّا وحدَّد نقاط التوقف عند مواقع تواجد المحاربين القدامى على الجبهات الخارجية، كما فعل هو و«سيلفر» في السابق، وفي خلال أسبوعين تقدم ثلاثة عشر من قدامى المحاربين من الرجال والنساء بطلبات للاشتراك، وكانت أعمارهم تتراوح ما بين الستة والعشرين والخمسين عامًا، وكما كانت «شارون سميث» كلهم انطبقت عليهم معايير البرنامج والتي تتلخص في كونهم بحاجة إلى المساعدة، أطلق «جوبن» نداءً لجميع شركات التخييم وباعة التجزئة الذين يعرفهم، طالبًا منهم التبرع بالخيام وحقائب الظهر وغيرها من العتاد، وأرسلت المواد التموينية مباشرة إلى جبل سبرينجر، أما هو فقد بدأ المشي مع المجموعة بادئًا من جامعة فرجينيا في شارلوتس فيل، وساروا

لمدة أسبوعين قبل أن يرجع إلى حرم الجامعة لأداء اختبارات نهاية العام لبرنامج الـ MBA الذي التحق به.

كان الطقس مريعًا في ذلك الربيع، فقد كانت العواصف قد فرشت الطريق بالثلوج في منطقة جبال نورث كارولينا، ثم ما لبثت الأمطار أنْ هَطَلَتْ لأسابيعَ كاملة، ثم حدث أن اجتاح فيروس النوروفيروس المجموعة، وأصيب أحد المشاة بحصوات الكُلى، واحتاج آخر لعملية طارئة لاستئصال الزائدة، وعندما وصلوا نيويورك ضربتهم موجة حارة، وجثمت عليهم الرطوبة، بعض هؤلاء المحاربين القدامى كانوا قد اتخذوا قرارات سيئة، لكنهم سرعان ما وعوا الدرس منها، كانوا قد انغمسوا في معاقرة الخمر والاحتفالات الصاخبة والانحدار إلى القاع، لكنهم بعدها سألوا أنفسهم: ماذا سأجني من هذا؟ ربما ليس الشراب هو الحل، ربما كان الحل هو أن أفعل شيئًا أكبر مني.

قال «جوبن» الذي نظم هذا المشروع من بيته متكئًا على أريكته مستخدمًا كمبيوتره المحمول: «لقد كان هناك الكثير من الهرج والمرج»، لكن في النهاية لم يكمل الرحلة سوى «سميث» وخمسة آخرون، كان الناس يغادرون الرحلة ويعودون أدراجهم لأسباب مختلفة تتنوع ما بين التعرض للإصابات أو الاستجابة لطلب شريك الحياة للعودة إليه، لكن رغم هذا عندما أُجرِي استبيان لاحق عما إذا كانت تلك التجربة قد حسنت من الصحة النفسية والعقلية لهم على مقياس من 1 إلى 10، حيث 10 تعبر عن تحسُّن «هائل»، أفاد المحاربون القدامى الذين شاركوا في الرحلة أن التحسن كان بنسبة9.5 ، أما «سميث» فقد أعربت عن تقديرها لتلك الفرصة التي حازتها لقضاء بعض الوقت بمفردها مع أفكارها، وكذلك للدعم الذي تلقته من أولئك الناس الذين قابلتهم على طول الطريق.

غير أن هذا البرنامج قد جرت توسعته عام 2014، فبالإضافة إلى طريق الأبالاش بعث «جوبن» بمجموعتين إلى طريق الهلال الباسيفيكي وطريق خط التقسيم القاري واللذين يؤلِّفان معًا التاج الثلاثي لطرق المشي الأمريكية الطويلة، كما أنه تحالف مع «شونا جوي» عالمة النفس في جامعة جورجيا ساذرن وطالب الدكتوراه «زاكري ديتريك»، وكلاهما أيضًا من العسكريين السابقين، وكانا قد قضيا بضعة أيام على طريق الأبالاش مع المشاة، ثم وفَّرا جلسات العلاج النفسي عن بُعْد، كان الهدف الذي يرميان إليه هو مساعدة قدامى المحاربين على الانتباه لمحفزات اضطراب ما بعد الصدمة وتعلم تقنيات التكيف مع هذا الاضطراب.

يقول «ديتريك»: إن قضاء كل ذلك الوقت في المشي البطيء دونما أية مشتِّتات يسمح لأولئك الناس أن يتعمقوا في عقولهم؛ كي يشخصوا مشاكلهم ويضعوا لها حلولًا بالإرشاد المناسب، «ديتريك» النهِم في المشي المعتاد على المشي وحيدًا في طريق بلدته «النوب ستون» الواقعة في جنوب إنديانا، كان يعرف جيدًا «الضباب الأخضر» الذي يظهر بعد المشي وحيدًا لساعات قليلة في الغابة، تضيف «جوي» إلى كلامه قائلة: لقد خلصت الأبحاث إلى أن التفكير في الأحداث الصادمة يمكن أن يكون علاجًا، برغم أن هذا قد يكون أمرًا ذا خطورة؛ حيث إن الكثير من التفكُّر قد يضر بعملية الشفاء؛ ولهذا فقد قرروا أن يقدِّموا الاستشارة للمشاة من قدامى المحاربين للجوء إلى طبيعة العلاج السلوكي (بمعنى ألا يكون هناك كثير من الكلام عن الأحلام) لمساعدة أولئك الرجال والنساء على أن ينسوا تلك الصورة النمطية عن «الأطباء النفسيين»، وكذلك تلك الطبيعة العسكرية التي تقوم على الجَلَد الذكوري، وفي النهاية سوف ينشرون دراسة يختبرون فيها فوائد المشي لمسافات طويلة بالنسبة للمحاربين القدامى، ممن يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة، ولأنه قد يكون أمرًا غير عملي أن نظن أن آلاف المحاربين القدامى سوف يقضون ستة أشهر في المشي، فيجب أن نعرف أن هناك المئات من الطرق الأخرى التي يقل طولها عن 40أو 50 أو 60 ميلًا، والتي تنتشر عبر أنحاء الولايات المتحدة؛ ولذلك فإن احتمالات الرحلات الأقصر لا حصر لها.

لكن الجنود ذوي الإصابات البالغة لا يقدرون على المشي؛ ولذلك فإن «جوبن» يتطلع لأن يضيف رحلة بالدراجة عبر البلاد، وربما بعثة تجدِّف في القوارب عبر نهر المسيسيبي، كما أنه تواصل مع أحد ضباط إدارة مكافحة المخدِّرات، وكذلك عدد من متلقي بلاغات الاستغاثة من بينهم رجال الإطفاء الذين يتعرضون للكثير من اضطرابات ما بعد الصدمة، بالإضافة إلى أحد الأشخاص الذي يدير مأوًى للنساء اللاتي تعرَّضنَ للعنف الجسدي، يقول هو: «إن هناك قسمًا كاملًا من المجتمع بخلاف المحاربين القدامى، يمكن أن يستفيد من هذا الأمر.»

إن الاكتئاب والقلق عادةً ما يوصفان بأنهما اضطرابات ناتجة عن الرفاهية التي تعم العالم الأول، فإذا ما كنت قلِقًا بشأن متى ستجد ما تأكله أو إذا ما كنت ستنام أم لا، أو عمن سيهاجمك ليلًا؛ فسيكون مخك على الأرجح أكثر انشغالًا من أن يغرق في القلق الوجودي، لكن هذا ليس صحيحًا بالكامل، فرغم كون معدلات الإصابة بالأمراض العقلية في الولايات المتحدة تُعَد الأعلى في العالم، فإن منظمة الصحة العالمية قد أصدرت تقريرًا عام 2012 جاء فيه أن أكثر من ثلاثمائة وخمسين مليون إنسان حول العالم يعانون من الاكتئاب الذي هو السبب الرئيس لحدوث الإعاقة على مستوى

العالم، يُعَد التفاوت في مستوى المعيشة واحدًا من تلك الأسباب كما يقول «رون كيسلر» البروفيسور في مدرسة الطب بهارفرد، والذي قاد بحث منظمة الصحة العالمية ذاك، فإذا ما كان بيتك تساوي قيمته 400000 دولار بينما يعيش جميع جيرانك في قصور يقدَّر الواحد منها بمليون دولار، فستشعر بأنك لا تنتمي لهذا المكان، وإذا ما كنت تمتلك عنزة واحدة ويمتلك كل جار من جيرانك قطيعًا، فهو الأمر ذاته، لكن هناك عوامل أخرى منها على سبيل المثال حياتنا القارة، فكما كتبت «سارة جودبير» في موقع «سيتي لاب» الإلكتروني: «إن الشواهد آخذة في التزايد على أن الوقاية من الاكتئاب ترتبط بالحركة، ذلك النوع من الحركة الذي تطوَّر الإنسان لأجله، والذي أُقصي من حياته اليومية بفعل الماكينات والعِمالة المستأجرة والمركبات الآلية.»

أفادت إحدى دراسات جامعة برنستون أن فئران التجارب غير النشيطة تكون أكثر قلقًا من تلك الفئران التي تجري على عجلات داخل أقفاصها، وقد أظهرت الفئران العدَّاءة قابلية أكثر للاستكشاف وهو الذي يُعَد علامة على الثقة وأفرزت أمخاخها كميات أكبر من الناقل العصبي المسمى GABA، وهو الذي يساعد الحيوانات على أن تظل هادئة، وعندما تُغمر الفئران في ماء مثلَّج لخمس دقائق وهو الحمام الذي لا تحبه الفئران تتعافى الفئران النشيطة من التوتر الناتج عن ذلك بسرعة أكبر من نظيراتها الخاملة، تقول عالمة النفس في جامعة برنستون «إليزابيث جولد»: لقد عززت هذه النتائج دراسات أخرى أظهرت كم أن التمرينات البدنية قادرة على تقليل نسبة القلق لدى البشر، فمثلًا أُجرِيَت تجربة في السويد أظهرت أن الذين ينخرطون في نشاط بدني خفيف (كالمشي أو العناية بالحديقة) لمدة ساعتين أسبوعيًّا يقل تعرُّضهم للإصابة بالاكتئاب بنسبة 63 بالمائة، كما أن تلك النتائج تدعم ما أعلنه الخبراء مثل «جون أردن» مدير تدريب الصحة العقلية بمصحة «كايزر برمانينتى»: «إن المشي هو أسهل وسائل التخلص من الاكتئاب وأزهدها ثمنًا.»

كان «مارك نوروين» على دراية بهذا الأمر أكثر من غيره، ففي أبريل من عام 2013 وبعد سلسلة من حالات الانتحار التي حدثت في المدارس الثانوية بولاية ميسوري، قام هذا الرجل ذو الأربعة والخمسين عامًا، والذي يعمل مسؤولًا عن مكافحة التنمر في مؤسسة غير هادفة للربح مسؤولة عن الصحة العقلية بالبدء في مسيرة لمسافة مائتي ميل بعرض الولاية على طريق كاتي الذي هو واحد من أطول طرق المشاة التي تقع ضمن نطاق مشروع تحويل طرق السكك الحديدية إلى طرق مشاة، «نوروين» الذي كان قد شخَّص الأطباء إصابته بالاضطراب ثنائي القطب قبل هذا

بعامين، صار يتوقَّف ليحاضر في مدارس المدن الصغيرة التي تقع على طول الطريق، وهي مدن تفتقر مجتمعاتها للموارد اللازمة لمواجهة المخاوف المتعلقة بالصحة العقلية لدى المراهقين، وحتى لو كانوا يمتلكون الإمكانية لهذا، فإن هناك أمور محرَّم الكلام فيها، عليهم أن يتجاوزوها.

قال «نوروين» بينما كان يحاضر في إحدى صالات الرياضة المكتظة: إنه وقت نشأته لم يكن أحد يتحدث عن مرض السرطان، هذه المحاضرة صُوِّرت وضُمِّنَت في فيلم وثائقي أُعِدَّ عن رحلته تلك وسُمِّيَ «الرجل الماشي»، ثم ظهر الإيدز فتوارى هو الآخر في غياهب الصمت، واليوم رغم أن الأمراض العقلية غير المشخصة تزيد من خطورة تعاطي الكحوليات والمخدرات وحالات الطلاق والفقر ودخول السجون والتشرد من المنازل، فإننا لا نميل للحديث عن هذا الأمر بانفتاح، كان «جوزيف باركس» المدير الطبي لإدارة الطب في ميسوري قد قال ملخِّصًا المنهج السائد تجاه الأمراض العقلية في المناطق الريفية: «فلتخشوشنوا يا قوم، إننا في هذه المناطق نميل إلى الفردية، وكل منا يحمل أثقاله على عاتقه»، لكن هذه الأيديولوجيا قد تكون مناسبة في مجال الأعمال لكنها لا تصلح عند التعامل مع شخص مكتئب يفكر في الانتحار.

كان «نوروين» على مدى حياته قد خبر الاكتئاب علوًّا وانخفاضًا، كان قد خسر وظيفته مرات كثيرة، وكان يجد صعوبة في إنجاز أي شيء، وبعد أن قضى لياليَ كثيرة يغالب الأرق ويعمل في توزيع الصحف في الطرق السريعة المظلمة، ذات ليلة كاد أن يلقى حتفه في حادث سير، لكن عمله مع المراهقين المأزومين صار جزءًا من علاجه، كان في كل محطة يقف فيها خلال رحلته يكسر هذه المحرَّمات، كان ينبه التلاميذ إلى الأعراض المحتمَلة، ويوعيهم بالأماكن التي يمكن أن يطلبوا منها المساعدة، وكما استمع جمهور «ستانلي فولان» إليه، كذلك استمع له هؤلاء الصبية.

كان «إريك» ابن «نوروين» الذي شُخِّصت حالته بالاضطراب ثنائي القطب تمامًا كأبيه، قد انضم إليه في رحلته، كانت عائلتهم قد شهدت مأساة وراثية، فلهما اثنان من أبناء العمومة اللذين قد أطلقا النار على أنفسهما، هاتان الحادثتان ستظلان على الأرجح جزءًا من حياة آل «نوروين»، لكن النشاط البدني سيقيهما التبعات، وبالنسبة لـ «مارك» فإن حذاءه الرياضي له الأهمية ذاتها التي لحبوب الدواء التي يتعاطاها، فالمشي كل صباح في الشوارع المحيطة بضاحية سانت لويس التي يقطنها يعطيه القوة لمواجهة بقية اليوم ولمواجهة الشتاء المظلم، وفي الربيع وهو يرتحل مع ابنه في

طريق كاتي الأخضر وفي عقله غرض يريد تحقيقه كان «مارك» يحس بوتر «سولنت» ثلاثي النغمة، وبعد سبعة عشر يومًا وفي واحدة من المرات القلائل في حياته أنهى «مارك» ما بدأه.

يقول «إريك» في نهاية الفيلم الوثائقي، وهو الذي صار الآن في منتصف العشرينيات من عمره: «لا أدري ماذا يحمل لي المستقبل، لكن ما تعلمته من المشي مع والدي هو أنني إذا ما كبرت فصرت مثله بأية درجة، فسأكون على ما يرام.»

الذين درسوا تأثير النشاط البدني على الاكتئاب، كان بحثه الذي اعتبر فتحًا علميًّا والذي أجراه في أواخر التسعينيات من القرن العشرين، قد أظهر أن النشاط البدني مثل المشي الترويحي يخفِّف من أعراض الاكتئاب العظيم تمامًا كما يفعل العلاج بالعقاقير، وأن النشاط المستمر يمنع الآلام من العودة.

في واحدة من تجارِبه قسَّم 156 مريضًا إلى ثلاث مجموعات، عُولِجت المجموعة الأولى من الرجال والنساء بعقار السرترالين المضاد للاكتئاب والذي اشتُهِرَ باسمه التجاري زولوفت (في عام 2011 وصفه الأطباء في الولايات المتحدة 37 مليون مرة، أي أكثر من وصفات البروزاك بـ 13 مليون مرة، ولكن أقل بـ 10 ملايين مرة من وصفات الزاناكس المضاد للقلق)، أما مرضى المجموعة الثانية فقد أُعْطُوا ذات الجرعة من السرترالين لكنهم مارسوا النشاط البدني ثلاث مرات في الأسبوع لخمسٍ وأربعين دقيقة، منها عشر دقائق للإحماء، ونصف ساعة للمشي أو الهرولة الخفيفة، وخمس دقائق للاسترخاء، أما المجموعة الثالثة فقد اكتفوا بممارسة النشاط البدني، وبعد ستة عشر أسبوعًا من العلاج تحت الإشراف، أظهر المرضى من المجموعات الثلاث علامات تحسُّن متشابهة، فثلاثة وثمانون منهم منتقَون من المجموعات الثلاث شُفُوا من الاكتئاب تمامًا، لكن عندما تفقَّد «بلومنثال» هؤلاء المرضى بعد ستة أشهر لم يتلقوا فيها أي علاج، وُجِدَ أن 38 بالمائة من المرضى الذين عولجوا بالعقاقير فقط قد انتكسوا، وانتكس 31 بالمائة من أولئك الذين عولجوا بالعقاقير بجانب النشاط البدني، أما الذين عولجوا بالنشاط البدني فقط فلم ينتكس منهم سوى 8 بالمائة فقط، كتب «بلومنثال» ومشاركوه من الباحثين الذين كتبوا معه بحثًا عن هذه التجربة: «إن واحدًا من المكاسب الإيجابية من الناحية السيكولوجية للنشاط البدني، هو اكتساب حس بالتحكم في الذات وتقديرها تقديرًا إيجابيًّا.»

غير أن المشي يفعل ما هو أكثر من دعم الثقة بالنفس؛ فقد ظهر أنه يخلق روابط جديدة بين أجزاء مختلفة من المخ، ويحفز نمو الخلايا العصبية وقدرتها على نقل الرسائل، وهو الأمر الذي من شأنه تحسين ذاكرتنا وقدرتنا على التركيز على الأفكار المعقدة، حيث يساعد أمخاخنا على العثور على الطريق الصحيح في خِضَمِّ أُحجِيَات الحياة اليومية المتعبة للعقل.

في جامعة إلينوي في «إربان شامباين» على بُعْد سبعمائة ميل شمال شرقي دوك يقع معمل «تشاك هيلمان» للحركة العصبية الإدراكية، والذي يستخدم الرسم الكهربي للمخ (EEG) والأشعة المغناطيسية الوظيفية (FMRI) لفحص النشاط المخي الحادث أثناء التمرين البدني، تتواصل الخلايا العصبية بعضها مع بعض عن طريق الدفقات الكهربية، وتستطيع الأقطاب الكهربية المثبتة إلى فروة الرأس التقاط الرسم الكهربي للمخ؛ فالدم يتدفق في أجزاء المخ المستخدمة، وتقوم الأشعة المغناطيسية الوظيفية بقياس النشاط العصبي من خلال رصد التغيرات في تدفق الدم، يولي «هيلمان» الذي تخصَّص في دراسته للدكتوراه في علم النفس العيادي صحةَ الأطفال جُلَّ اهتمامه، وفي عام 2005 أصدر دراسةً عُدَّت الأولى التي تستخدم أدوات التصوير العصبي لتَقَصِّي الروابط الموجودة بين اللياقة البدنية والسلوك الإدراكي بين الأطفال، فوجدت أن نتائج الاختبارات اللغوية والحسابية وغيرها من مقاييس الأداء الأخرى كلها قد تحسَّنت بالنشاط البدني، ووجدت أن وجود أبسطة الجري والدراجات الثابتة في قاعات الدراسة تساعد الأطفال على التركيز في التعلم، فأراد هو معرفة السبب.

هذه الدراسة ذاتها قد وجدت أن لياقة نمط التنفُّس هو ذو صلة بالأداء السلوكي لدى الأطفال الذين لم يدخلوا مرحلة المراهقة، وخلال السنوات العشر التي تَلَتْ تلك الدراسة أكدت أعمال «هيلمان» وجود علاقة سببية بين المشي وتفعيل نشاط المخ، ففي إحدى التجارب التي أجراها، مشى الأطفال بسرعة معتدلة لمدة 20 دقيقة دونما قطرة عرق واحدة، لكن صور الرسم الكهربي للمخ أظهرت انفجارًا للنشاط في القشرة الجبهية حدث أثناء مشي الصبية، وبعد توقفهم ظلت الخلايا العصبية نشِطة لساعة على الأقل، تتولى القشرة الجبهية وظيفة تسمى التحكم التنفيذي، والتي تتحكم أساسًا في قدرتنا على الحفاظ على التركيز وعلى الذاكرة العاملة والمرونة الإدراكية، يساعد التحكم التنفيذي تلاميذ المدارس على الانتباه وعلى الحفاظ على المعلومات واستخدامها، وكذلك على تنفيذ أكثر من مهمة في الوقت ذاته، وعندما نمشي تتوهج القشرة الجبهية، ونغدو أكثر قدرة على تنفيذ

مهام معقدة، «هيلمان» الذي نشر نحو مائة صفحة من الأبحاث، قد أثبت أن التريُّض لمدة عشرين دقيقة يمكن أن يحسن الأداء الدراسي للتلاميذ المصابين باضطراب نقص الانتباه مع النشاط الزائد (ADHD).

في الولايات المتحدة أقر الكونجرس قرارًا يُدْعَى «سياسة لن نترك أي طفل وراءنا»، وهو قرار يربط تمويل المدارس بالإنجازات على المستوى الأكاديمي، لكنه دفع نسبة 44 بالمائة من مديري المدارس لتقليص فترات حصص الرياضة والاستراحة، لصالح المزيد من الوقت لحصص القراءة والرياضيات، ونتيجة لهذا لم يحضر نحو 60 بالمائة من التلاميذ حصص التربية البدنية في متوسط عدد أسابيع الدراسة عام 2011، يقول هيلمان: «إنها رسالة خاطئة للغاية، فما نحتاجه هو زيادة النشاط البدني، وليس هذا فقط لأننا نعاني تَفَشِّي ظاهرة السمنة، ولكن أيضًا لأنه قد صار من الجَلِيّ كم للنشاط البدني من فوائد على المستوى الإدراكي وعلى مستوى الذاكرة والتعلم»، ومن خلال اشتراكه في لجان ضمن منظمات مثل الأكاديمية الوطنية للعلوم، ظل يكافح لإيصال ما يحوز من بيانات ونتائج إلى أيدي واضعي السياسات؛ لإفهامهم بشكل أوضح أهمية النشاط البدني ليس فقط على مستوى الصحة البدنية، ولكن أيضًا على مستوى الصحة العقلية.

يقول هيلمان: «دائمًا ما يقول لي الناس هذا الأمر لا يحتاج لتوضيح، نعم إن التريُّض مفيد للمخ، لكن ما مدى وضوحه؟ وإذا ما كان واضحًا لهذا الحد، لماذا لا يهتم الناس بصحة المخ إلا إذا أصيب أحدهم بارتجاج فيه؟ لا تسمع أحدًا يقول لك: إنني قَلِق بشأن مخك، دعنا نذهب للتريُّض بعض الشيء.»

في عام 2011 شُخِّصَت حالة ما نسبته 11 بالمائة من أطفال الولايات المتحدة ما بين عمرَي الرابعة والسبعة عشر عامًا بمرض اضطراب نقص الانتباه مع النشاط الزائد، وهو ما يُعَد زيادة في نسبة الإصابة بالمرض عنها في عام 2007 حيث بلغت حينئذٍ 9.5 بالمائة، بينما بلغت 7.8 بالمائة عام 2003؛ وذلك طبقًا لبيانات مراكز الوقاية من الأمراض والتحكُّم فيها، يُعَد مرض اضطراب نقص الانتباه والنشاط الزائد ثاني أكثر الأمراض طويلة الأمد شيوعًا لدى الأطفال بعد مرض الربو، وأكثر من نصف هؤلاء الأطفال نحو 3.5 مليونًا ما زالوا يتلقون الأدوية، حتى إن شركات الأدوية في 2012 قد جَنَتْ حوالي 9 مليار دولار من بيع الأدوية المحفِّزة للأمريكيين، حتى إنهم صاروا يموِّلون إنتاج قصص مصورة تروج لتلك الأدوية للأطفال مباشرة، وقد جاء في إحدى تلك القصص

المصورة الدعائية المدعومة من مؤسسة شاير العالمية على لسان أحد أبطالها الخارقين: «هذه الأدوية ستسهل عليك الانتباه وتجعلك تتحكَّم في سلوكك»، واحد من المنتجات الأساسية لتلك المؤسسة هو عقار الأديرال الذي لا يُروَّج فقط على أنه وسيلة لتحجيم اضطراب نقص الانتباه والنشاط الزائد، ولكن أيضًا لتحسين الأداء الأكاديمي، وهو ادِّعاء دعمته دراسات موَّلتها شاير، والآن صار اضطراب نقص الانتباه والنشاط الزائد لدى البالغين سوقًا آخذة في النمو لشركات الأدوية؛ ففي عام 2012 كتب الأطباء نحو 16 مليونًا من الوصفات الطبية المتضمِّنة لهذا النوع من الأدوية للأمريكيين الذين هم في العشرينيات والثلاثينيات من أعمارهم، وهي زيادة هائلة في العدد مقارنة بعدد 5.6مليونًا عام 2007، غير أن عالم النفس «كيث كونورز» الباحث الرائد في مرض اضطراب نقص الانتباه والنشاط الزائد، والذي يُعَدُّ من أوائل المنادين بالاعتراف بهذا المرض وعلاجه دوائيًّا، قد أجرى تغييرًا كبيرًا، فقد صرح ذلك الأستاذ المتفرغ بجامعة دوك لصحيفة النيويورك تايمز قائلًا: «إن الأرقام تُظْهِر ذلك المرض كأنه وباء عام، لكنه ليس كذلك، فهذا أمر مضحك ينافي العقل، ما هذه إلا فِرية تسوِّغ إغراق الناس بالعقاقير الدوائية بمستويات غير مسبوقة ولا مبرر لها.»

في عام 2013 قامت شركة بريطانية تسمى «إنتيلجنت هيلث» والتي تتعاون مع شركاء من القطاعين الخاص والعام لمواجهة قلة النشاط، بإجراء تجربة تضمنت جعل 2500 من تلاميذ المدارس من أعمار السابعة والثامنة يبدءون في الذهاب لمدارسهم مشيًا، ثمانون بالمائة من هؤلاء التلاميذ ذكروا أنهم شعروا أنهم صاروا أكثر هدوءًا وأكثر قدرة على التركيز في دروسهم، يرى «ويليام بيرد» الطبيب المتخصص في الطب الأسري ومدير هذه الشركة؛ أن شيئًا بهذه البساطة يمكن أن يساعدنا على الإقلاع عن الريتالين وغيره من العقاقير المستخدَمة لعلاج اضطراب نقص الانتباه والنشاط الزائد، وهو المرض الذي يكلِّف الخدمة الصحية الوطنية في إنجلترا أكثر من 30 مليون جنيه إسترليني تُنفَق على الوصفات الطبية كل عام، فقد كتب في جريدة إيكونوميست: «إن التوتر المزمن يؤدي إلى عدم النشاط، وهو ما يخلق المزيد من التوتر المزمن، فهو يُلهِب الرغبة في تناول الأطعمة ذات السعرات الحرارية العالية؛ لأنه يجعل الجسد مهيَّئًا لأوقات سيئة سيمر بها، كما أن التوتر المزمن يزيد الحاجة للإشباع الفوري من التدخين والكحوليات والمخدرات، والذي يتخذه وسيلة للبقاء في ظل القلق المستمر والخوف البسيط المزمن.»

في كتابه المعنون Mad Travelers: Reflections On The Reality Of Transient Mental Illnesses يستكشف الفيلسوف الكندي «إيان هاكينج» وباء الشرود الهستيري أو الهيام القهري الذي تفشَّى في أوروبا خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر، فقد روى عن «آلبرت داداس» العامل غير الثابت في شركة الغاز في بوردو بفرنسا قائلًا: «لقد هجر عائلته وعمله وحياته اليومية كي يمشي بأقصى سرعته في طريق مستقيم، حتى إنه ذات يوم قطع سبعين كيلومترًا على قدميه كما جاء في مذكرات طبيبه، لكنه في النهاية أُلقِي القبض عليه بتهمة التشرُّد وأُودع السجن»، (هذه الحالة تسمى أيضًا درومومانيا وهي تَسمية مشتقة من الكلمتين اليونانيتين اللتان تعنيان المشي والجنون، وكذلك تُعْرَف في الفرنسية باسمَي Automatisme و Ambulatoire).

لقد مشى «داداس» مفتقرًا لوجهة حدَّدها دونما أي دافع واضح سوى ما اعتراه من هوس، التقارير التي كُتِبت عن رحلاته أطلَقت موجة صغيرة من التقارير الأخرى امتدت حتى إيطاليا وألمانيا وروسيا، يصنف «هاكينج» الشرود الهستيري بكونه «مرضًا عقليًّا عابرًا» يقع محصورًا في مكان وزمان محددَيْن، وفي حالتنا تلك استمر لنحو 25 عامًا، ذكر «هاكينج» في كتابه أن بعض الأمراض مثل اضطراب نقص الانتباه والنشاط الزائد يمكن أن تكون نتاجًا لـ «وضع بيئي»، كما ذكر أننا قد نكون نصنع بأيدينا وضعًا مؤقتًا يؤدي إلى «أمراض عقلية مؤقتة» أخرى.

إن ولعي الشديد بالمشي يمكن أن يصوَّر في ضوء ما سبق بأنه يفوق مجرد محاولة متمردة للهروب من ملل منتصف العمر، قد يكون ما حفزه هو طغيان النزعة للاستهلاك السريع والحياة في مدن فاضلة تكوِّنها التكنولوجيا الحديثة، أو قد يكون ما حفزه هو تسارُع مرور السنين في تلك الحِقبة الزمنية التي نعيشها، غير أن ما عانيته من صراعات في العمل بالإضافة إلى ما أَلَمَّ بي من قطع في الغضروف الهلالي، كانا بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، ولم أكن وحيدًا.

اعتدت أن أستخدم عناكب موقع جوجل المتعاوِنة والتي تمشط مواقع الأخبار المكتوبة بالإنجليزية وترسل لي بريدًا إلكترونيًّا يوميًّا محملًا بعشرات من الروابط الإلكترونية لقصص تتعلق بالمشي، وكذلك ترسل لي معلومات عمَّن خرجوا في رحلات مشي طويلة في جميع قارات العالم عدا أنتاركتيكا، (لكن يجدر التنبيه بأن معظم هذه العناوين تتعلق بالمسلسل التليفزيوني «الموتى الماشين» أو بالمشاة الذين تقتلهم المركبات السائرة، بينما يمشون بالقرب من الطرق السريعة في أمريكا)، كثير من المهووسين بالمشي يمشون ليرفعوا الوعي بمرض معيَّن أو ليجمعوا التبرُّعات

لصالح قضية تستحق، بينما يمشي آخرون ليفقدوا أوزانهم الزائدة، أو ليتذكَّروا طفلًا لهم قد تُوُفِّي، لينسوا زواجًا فاشلًا أو ليعيشوا المغامرة، وآخرون يَعُدُّون الأمر رحلة حج روحانية، وهو موضوع آخر سنناقشه في فصل لاحق، لكنني صرت أشك أنه هناك بعض المتعة الحسية التي تقف وراء كل رحلة.

تقريبًا يُصاب نحو ثلاثين بالمائة من البالغين في أوروبا بمرض عقلي واحد على الأقل كل عام، وفي إسكتلندا تُقَدَّر التكلفة السنوية لتدهور الصحة العقلية للسكان بـ 7.10 مليار جنيه إسترليني، يسمي عالم الأوبئة «ريتش ميتشيل» هذا الأمر أكبر مشاكل الصحة العامة في القارة، وكما جاء في نص كلامه: «في هذا تكمن أهمية إتاحة الاتصال مع الطبيعة؛ فإنه من الصعب جدًّا تصور أنه يمكن مجابهة هذا المستوى من المشاكل الصحية العامة فقط عن طريق الخدمة الصحية التي تتمثل في وصف الأطباء للأدوية أو معالجة المرضى بشكل عيادي رسمي، لا أظن مثل هذا الأسلوب قابل للاستمرار.»

رغم أن «ميتشيل» يرى الرعاية الصحية العامة المموَّلة من قِبَل الهيئة الوطنية للخدمة الصحية «رائعة» على حد تعبيره، وخاصة عند التعامل مع المشكلات الحادة كالأزمات القلبية وحوادث السيارات، فإنها تتعثر عند التعامل مع المشكلات الصحية المزمنة، وخاصة تلك المتعلقة بالمسنين من المواطنين، والأخص من ذلك أولئك الذين يعانون من أكثر من مشكلة صحية في الوقت ذاته، وبالضبط كما هو الحال مع الدكتور «مايكل إيفانز» في تورونتو، فإنه لا يثق كثيرًا في أن صناعة الدواء قادرة على انتشالنا من مستنقع تلك الأمراض المزمنة أو كما يقول نصًّا: «إنني لَوَاجد في هذا الأمر سخرية مريرة، فما تريده هذه الشركات من الناس هو أن يمرضوا كي يحتاجوا عقاقيرهم، لكن لا يموتوا؛ وذلك لأنهم إذا ماتوا لم يعودوا مصدرًا للأموال؛ لذا فإن بعض هذه الأمراض المزمنة هي منجم ذهب لشركات الأدوية لدافع لا يخفى على أحد، هذا هو فعل الرأسمالية.»

لكن من الناحية الأخرى يهدف بحثه في الأساس إلى عرض الفكرة التي تنص على أن الاتصال مع الطبيعة وممارسة النشاط فيها يمكن أن يحسِّن من مستوى الصحة العامة، ويمكن أن «يضيق الفجوة الصحية الحادثة بين الأغنياء والفقراء»، إنه يرمي إلى غرس تلك الفكرة في عقول الأطباء ومن يخططون للرعاية الصحية وغيرهم ممن يتَّصلون من قريب أو بعيد بالصحة العامة،

ويعتبر «مشروع الغابات داخل المدن وحولها» بالون اختبار لهذه الأفكار؛ حيث إنه يمكننا من معرفة من الذي يستفيد من هذا النشاط ومَن لا يستفيد، وكيف يمكن تعميم هذه الفائدة على الجميع، كما يأمل أنه على المدى الطويل يمكن لأعماله أن تؤثِّر على التخطيط الحضري وسياسات توزيع المساحات الخضراء وتصميماتها، وكل هذا بهدف تشجيع الاتصال مع الطبيعة وتصميم المناطق الحضرية بشكل يمكِّن ساكنيها من الحياة بشكل صحي.

كان «ميتشيل» يتابع المعلومات عن أماكن تواجدنا خلال مسيرتنا، كانت خاصية التحكم التنفيذي لديَّ قد بلغت أقصى قوتها وأنا أحاول تتبع أبحاثه الكثيرة، بينما أنا في مسيرتي أحافظ على إيقاع المشي وأتجنَّب بِرَك الوحل، هذه المرة لم أجِد الضباب الأخضر، بعد أن مشينا في مسار دائري داخل الحدائق النباتية تبعنا طريقًا للمشاة بطول نهر كيلفن سريع التيار، والذي يصب عند التلال الواقعة شمالي المدينة، هذا الطريق قادنا إلى العودة لحرم جامعة جلاسجو، وهناك كان الاقتراح باللجوء لأحد المقاهي لنجفِّف أنفسنا، إن أحد أفضل مزايا إجراء المقابلات مع الناس أثناء مشيهم هو أن المرء يجد نفسه في النهاية في حانة ما أو أحد المقاهي.

وفي داخل المقهى خلعنا عتاد الأمطار عنا، ثم جلسنا أمام أقداح القهوة الإيطالية، أخبرت «ميتشيل» عن تحسُّن مزاجي الذي حدث بعد محادثاتي مع الآخرين في الليلة الماضية، فوافقني إلى أن «الثرثرة» مع الأصدقاء تُعَد واحدة من المزايا المجهولة للمشي، لكن برغم كل هذا يُعَد برنامج المشي الصحي خطوة صغيرة نحو مواجهة مشاكل تلك المدينة التي يسميها هو «رجل أوروبا المريض»، إن المتنزَّهات وطرق المشي قد تساعد في تضميد جراح جلاسجو، لكن «ميتشيل» لديه أهداف أخرى من بينها تحدي أولئك «الذين يعتقدون أن الطبيعة سوف تنقذ كل شيء وكل شخص، ويؤمنون أيضًا أنهم إذا ما استطاعوا إخراج الناس إلى المتنزَّهات أو الغابات أو الجبال، فسوف يكون كل شيء على ما يرام؛ لأن هذا ليس صحيحًا».

لكنه ترك لديَّ محذورًا واحدًا إضافيًّا عندما قال: «يمكن أن يُنظَر للمشي على أنه شيء مشترَك بين جميع الناس، أو على أنه نشاط يتبنى فكرة المساواة، لكنني أظن المرء يحتاج للحذر هنا، فالتفاوتات تحوم حول أولئك الذين يختارون أن يمشوا، فمثلًا في أي بيئة يمشون ولماذا يمشون، أعتقد أننا يجب أن ننتبه لهذا الأمر، ورغم هذا فإنني بصدد قراءة دراسة ترى أن المشي مضر للإنسان.»

الثالث

المجتمع

«إننا نرى المدينة تخدم غرضًا ديمقراطيًّا يتمثل في كونها تجعل الناس يتعرَّضون للتعددية الاجتماعية؛ كي يحظى كل منهم بفهم أعمق للآخرين من خلال مشاركتهم المدينة ذاتها.»

يان جيل، مدن للبشر.

«مما رأيت وخبرت، وجدت أن التجول في المدينة بسيارة لا يجعلك ترى منها إلا أقل القليل.»

إريك نوبي، مسيرة قصيرة في الهندو كوش.

في الثامن عشر من أغسطس من عام 2012، وفي الوقت الذي تخيِّم فيه تلك العتمة التي تسبق انبلاج الفجر خرج «موزس واكر الابن» الضابط في شرطة فيلادلفيا من البوابة الأمامية لمقر الدائرة الثانية والعشرين، كان قد انتهى لتوِّه من نوبته الليلية، والتي قضاها يراقب المساجين في زنزانة الاحتجاز، وقبل أن يتوجه لموقف الحافلات عرض عليه أحد زملائه أن يوصله بسيارته، لكنه رد دعوته بلطف قائلًا: «إنه يوم جميل؛ لذا سأتمشى.»

كان ذلك الرجل الأربعيني يعتمر قبعة رياضية، ويرتدي سروالًا قصيرًا، وسترة طويلة الرقبة ويعلق على كتفه حقيبة ظهر، داسًّا يديه في جيبيه، ومتجهًا غربًا بطول جادة «سيسيل بي، مور» والتي هي واحدة من الشرايين الرئيسة التي تخترق منطق شمال فيلادلفيا المهجورة، وفي الخامسة وستة وأربعين دقيقة صباحًا، وعلى بُعْد أربعة أحياء سكنية من محل عمله، انسلَّ رجلان فجأة من قلب الظلام وبرز كل منهما من أحد جانبي الشارع.

تلفَّت «واكر» وراء كتفه الأيسر بضع مرات، لكن اللصين لحقا به، وطلبا منه ما معه من نقود تحت التهديد، غير أنه وهو الذي ترك الحياة العسكرية منذ تسعة عشر عامًا، وصار شمَّاسًا في كنيسة الخلاص التبشيرية القريبة منه، وكان على وشك التقاعد من الشرطة في غضون بضعة أشهر، بدلًا من أن يسلمهم محفظة نقوده، حاول أن يستلّ مسدسه الحكومي ذا الخزانة الدوارة.

عُثِر عليه بعدها مُسَجًّى على وجهه، وقد اخترقت ثلاث رصاصات صدره ومعدته وذراعه، وتحت جثته كان سلاحه غير المؤمن، كان واحدًا من ثلاثة ضحايا قُتِلُوا رميًا بالرصاص في تلك الليلة.

بعدها بعام أو نحوه، وبعد أن زالت آثار دمائه، ووُجِّهت إلى المعتدين عليه تهم القتل، وقفت أنا حيث هوجم «واكر»، يومها كان يومًا رطبًا من بواكير أيام الصيف وكنا في وقت الظهيرة، كان الشرطي «برايان نولان» هو من عثر على جثة «واكر»، فانحنى مارًّا أسفل شجرة بلوط فَتِيَّة، ونزع عنه قبعته الزرقاء المدبَّبة، ثم مسح العرق عن جبهته بساعده العاري، بعد انتهاء الجنازة قال لي «نولان»: «إن عملنا لا يختلف عن أي عمل آخر إلا في كوننا معرَّضين لأن نُقتَل.»

كان «نولان» الذي يبلغ الستة أقدام طولًا ويزن 185 رطلًا، ويتميز برأسه الحليق وفكه المربع، يحلم بأن يصير شرطيًّا مذ كان طفلًا صغيرًا؛ فقد كان جداه كلاهما شرطيين، وكذلك بعض أعمامه، كان قد بدأ خدمته في سلك الشرطة في مدينة «وايلدوود» بـ «نيو جيرسي»، وهي مدينة طولية الشكل على ساحل الأطلنطي، قبل أن ينتقل بعيدًا عن السواحل ويعبر نهر «ديلاوير» إلى خامس أكبر المدن الأمريكية مساحة، وقتها كان ما يزال ضابطًا صغيرًا مقدَّمًا على بداية مسيرته المهنية، لكن بعدها تغير مسار حياته العملية قليلًا؛ فقد قضى «نولان» عامًا كاملًا في واحدة من أكثر مناطق البلاد خطورة.

حتى وقت قريب كان الشرطيون الجدد كما هو الحال في معظم مناطق أمريكا الشمالية يقضون معظم خدمة الدوريات المفروضة عليهم يَذرَعُون المدينة مستقلِّين السيارات، وقد ذكر لي أحدهم ما يلي: «عندما بدأت خدمتي قبل ستة عشر عامًا، كنت قد تخرجت لتوِّي من الأكاديمية، فقيل لي: أنت أيها المبتدئ هذه سيارتك وتلك خريطتك»، أما اليوم، وبعد تفعيل مشروع قائم على بحث يهدف لتغيير قواعد اللعبة، والذي تم بمجهود مشترك بين شرطة المدينة وقسم علم الجريمة في جامعة «تيمبل»، التي يقع حرمها الرئيس ضمن الدائرة الثانية والعشرين، فقد صار جميع

المتخرجين حديثًا من أكاديمية الشرطة يبدءون خدمتهم الشرطية بالسير على الأقدام، يمشون في كل نوبات عملهم ليلًا كانت أو نهارًا تحت المطر أو تحت الجليد.

ذلك البرنامج الذي هو الأول من نوعه في الولايات المتحدة بَدَا أنه برنامج ناجح؛ فقد أظهرت الإحصائيات المبدئية تراجُعًا ملحوظًا في مستويات الجريمة، بل والأهم من ذلك كما أخبرت أن علاقة عميقة من الثقة بدأت تنشأ بين المواطنين والشرطة، وهي علاقة من شأنها أن ترتق تلك الشقوق الحادثة في نسيج المجتمع الحضري.

كتبت «جاين جيكوبس» في كتابها الأشهر الذي نشرته عام 1961 «موت المدن الأمريكية العظمى وحياتها»: «إن الحياة البشرية لهي أمر عويص في حدِّ ذاته؛ ولهذا فإن أي نوع من أنواع الاستيطان البشري (عدا مدن الأحلام) تعتريه المشاكل، فالمدن الكبيرة زاخرة بالمشاكل لأنها زاخرة بالبشر»، وللحفاظ على النظام الذي هو مزيج مدهش ومعقَّد من الأمن والحرية لا بد أن تعمل المدينة على تشجيع «منظومة مركبة تقوم على استخدام أرصفة المشاة وعلى استمرار تلاقي أعين المواطنين دومًا»، تكلمت «جيكوبس» عن النمط الذي يتداخل به المتسوِّقون والتلاميذ ورجال الشرطة في حيوات بعضهم البعض، عن طريق قطع ما يلزم من مشاوير، وإنجاز ما يُطْلَب منهم من مهام؛ بأن يمشوا متجاورين على شريط خرساني واحد، أو كما وصفته بقولها: «إنه لأمر أشبه برقصة الباليه، لكل راقص منفرد فيها ولكل مجموعة ترقص معًا دور مستقل، يقوم من خلاله بدعم الآخرين، كما أن الآخرين يدعمونه وبشكل يقترب من الإعجاز يكونون معًا كلًّا متكاملًا منظمًا.»

«جيكوبس» وآخرون غيرها ترى أن تدفُّق المشاة في الشوارع يمكن أن يوجِّد مدينة كاملة صغيرة كانت أو كبيرة، أما التجوُّل بالسيارات أو التواصل مع الآخرين من خلال مواقع التواصل الإلكتروني فمن شأنهما أن ينتجا سلوكيات غير اجتماعية أو غير أخلاقية؛ فمشاعر الغضب التي تتملَّك سائقي السيارات من فرط زحام الطريق والصيحات العدوانية التي يتبادلونها، والجرائم وليدة لحظات الغضب كلها تنضح من مَعِين واحد، فعندما تمشي راجلًا تجد نفسك مغمورًا في بيئة تفاعلية ذات مشاعر كثيرة متبادَلة، لا حبيسًا وراء لوح زجاجي أحادي الاتجاه، وقتها ترى وتُرى، تسمع وتُسمع، بالطبع يمكنك حينها أن ترتدي النظارات الداكنة، أو تضع في أذنيك السماعات، وتضبط مؤشر المذياع في هاتفك الذكي على الإذاعات المحلية، لكن مع هذا يجد المشاة فرصًا أكبرَ للتفاعل والمشاركة الوجدانية مع من يمرون بجوارهم ويعيشون بينهم، هذه الفرص تتمثَّل في تحية عابرة

بإيماءة أو ابتسامة، أو ربما محادثة قصيرة مع غريب أو أخرى طويلة مع صديق قديم، ربما التربيت على كلب أليف أو نظرة إلى فاترينة أحد المحال، قراءة لافتة مصنوعة يدويًّا ومعلَّقة على أحد أعمدة الإنارة، أو شم أزهار الحدائق الواقعة على نواصي الشوارع، أو حتى مجرد الشعور الخفي بالحضور في عدم وجود آخرين.

في موطني دائمًا ما يُمطِرُني اثنان من جيراني المتقاعدين بالأسئلة عندما أمشي لأقضي ما ألزم من حاجياتٍ في منتصف النهار: أحدهما شرطي سابق، والآخر مسؤول ضرائب سابق، «كيف حال ما تكتب؟ إذن فأنت تكتب ما يشبه البحث، أليس كذلك؟» وفي شمال فيلادلفيا يزعج الشرطيون واللصوص بعضهم بعضًا بذات الطريقة.

ذات مرة سأل شاب بدين «نولان» وشريكه في الدورية «مايك فاريل» بينما كانا يمشيان قربه: «ماذا حدث؟ هل سُرِقت سيارتكما؟»، فرد عليه «نولان» قائلًا: «لا أبدًا، وإنما نحن نمارس بعض الرياضة، يجدر بك أن تجربها ذات مرة.»

في عام 2012 أجرى علماء النفس بجامعة «سوري» بإنجلترا تجرِبة خلصوا منها إلى أن الطريقة التي يتجول بها المرء في أرجاء مدينته تؤثِّر على الانطباعات التي تتكوَّن لديه عن الآخرين، تضمنت التجربة عرض مقطع فيديو غامض على المشاركين لاثنين من الصبية المراهقين يسلكون سلوكًا عدوانيًّا، بينما تجلس بالقرب منهما فتاة مراهقة على مقعد عام تُراسِل أحدًا ما عن طريق الرسائل النصية، صُوِّر هذا الفيديو بأربعة مناظير مختلفة: منظور سائق مركبة، ومنظور راكب عابر، ومنظور راكب دراجة، ومنظور سائر على قدميه، أولئك الذين عُرِض عليهم الفيديو من منظور سائق المركبة وصفوا الممثلين فيه بأوصاف سلبية أكثر من أولئك الذين شاهدوا الفيديو من منظور راكب الدراجة ومنظور الماشي على قدميه، عند مراقبة أولئك المراهقين عن كثَب بإيقاع أبطأ، نجدهم يوصفون بخصال إيجابية على غرار «شباب محترم» و«متعلمون بشكل جيد»، فالناس عندما يتجولون في بيئة جديدة عليهم يميلون إلى إصدار أحكام متسرِّعة، وقائدو المركبات تتكون لديهم انطباعات أكثر سطحية منها لدى المشاة؛ لأنهم يحصلون على قدر أقل من المعلومات، ولأن تلك المعلومات يلتقطونها صغيرة متفرقة، إن تلك الأنظمة التي نمتلكها لتفسير الملاحظات الحسية قد تطورت لتعمل بفاعلية أثناء المشي، فكل منا يمكن أن يلحظ الآخرين من

مسافة 300 قدم، لكن يستغرق الأمر منه دقيقة كي يصل إليهم، وهو الأمر الذي يعطيه مهلة لتقييم الموقف واتخاذ رَدِّ الفعل المناسب.

انتهت الدراسة إلى ما يلي: إذا ما مَرَّ سائق بمركبته في أحد شوارع المدينة بالقرب من رهط من المراهقين في أحد المتنزهات، فقد يرى فيهم «مجموعة صبية لا نفع منهم»، أما إذا رآهم وهو راكب من نافذة الحافلة التي يستقلها، فقد يتساءل عما يفعله أولئك المشاكسون، بينما قد يسمع راكب الدراجة أصواتَهم وهم يسخرون أحدهم من الآخر، لكن الماشي على قدميه هو فقط الذي قد يتعرف على ابن جاره بينهم ويلقي عليه التحية.

غير أن هذه اللقاءات المباشرة لم تعُدْ تحدُث بالكثرة التي كانت عليها في الجيل الماضي؛ وذلك لأننا في عُرْف البيئة الحضرية المعاصرة صرنا نقضي الكثير من أوقاتنا جالسين في سياراتنا، أو محدقين في الشاشات، أو محدِقين في الشاشات أثناء جلوسنا في سياراتنا؛ لأننا صرنا دائمًا في عجلة من أمرنا، وعن هذا كتب «تيم كريدر» في النيويورك تايمز يقول: «إن استعجالنا مَرَدُّهُ إلى أننا نرى الانشغال نوعًا من تأكيد الوجود، نراه حاجزًا يُبعِدنا عن الخواء»، ولأن الخوف مُعدٍ فإن نشرات الأخبار تدفعنا لأن نخاف من المجهول، لكن كما أن المشي يساعد على تخفيف أعراض الكثير من أمراضنا العقلية في اللحظة الراهنة، فهو كذلك يُعَد خطوة نحو المزيد من الترابط الاجتماعي، إن برنامج دوريات فيلادلفيا الراجلة لن يعيد «موزس واكر» الابن، لكنه قد يساعد الدائرة الثانية والعشرين على خلق إيقاع جديد.

إلى الشوارع تتدفق العائلات من البيوت ذات الواجهات القرميدية المصطفَّة ذات الطابقين، وفيها تهدر السماعات العملاقة بموسيقى الهيب هوب وموسيقى السول القديمة، وتلعب الفتيات اللاتي يرتدين الفساتين الصيفية وينتعلن الخفاف ويعقدن شعورهن في ضفائر بالدمى وحبال القفز، ويلعب الأولاد كرة السلة ويلهون بالسيارات اللُّعبة، أما الرجال والنساء فيقلِّبون الهامبرجر وصدور الدجاج فوق مشاوي الفحم، معظمهم يعيشون في بيوت ضيقة حارَّة مزدحمة؛ ولهذا يلجأون للشوارع كي يختلطوا اجتماعيًّا، بعض التقاطعات المرورية نجدها قد سُدَّت بمصدات خشبية تشقق عنها طلاؤها، فاليوم هو السبت، والوقت هو بعد الظهيرة بقليل، وحفلات الأحياء التي هي من طقوس عطلات نهاية الأسبوع الصيفية في شمال فيلادلفيا قد بدأت.

من وراء باب شبكي مفتوح لأحد المنازل صاحت امرأة بينما كان الشرطيان: «نولان» و«فاريل» يمران: «يا إلهي! خير رجال فيلادلفيا عندنا اليوم، عيد أب سعيد لكما أيها السيدان.»

لن تبدأ العطلة قبل اثنتي عشرة ساعة من الآن، غير أن تلك التحية: «عيد أب سعيد» هي تحية تقليدية يقولونها لأي رجل يقابلونه.

كان «نولان» ذو الأربعة وعشرين ربيعًا و«فاريل» الذي هو في السابعة والعشرين من عمره، والذي كان يعمل سابقًا رجل إطفاء قبل الانضمام إلى الشرطة كلاهما أبيض البشرة، في حين يتميز كل سكان تلك المنطقة عداهما بسواد البشرة، يمشي الشرطيان بسلاحيهما وهراوتيهما مثبتة إلى حزاميهما، وعلى كتفيهما جهازي اللاسلكي تنبعث منهما محادثات مشوَّشة، يمشيان قرب محل الحلاقة ومحال البقالة وواجهات الكنائس والمتنزهات المزينة بمنحوتات تمثل الفن الشعبي، ودورات ألعاب الدومينو التي تتم تحت تعريشات تغطيها أغلفة بلاستيكية ولوحات خشبية مثبَّتة كيفما اتفق لأعمدة الهاتف، يركلان كرة القدم مع الصبية، ويمازحان الجدات بشأن حالة الجو، بينما هن يهدهدن الرُّضَّع على الشرفات الأمامية القديمة، متجاهلين النظرات الحادة التي يرمقهم بها الشباب ذوو اللحى المدببة والأعناق الموشومة، «هل أنت بخير يا سيدتي؟ هل أنت مخمورة؟ هل تعانين من مرض السُّكَّري؟ هل تتعاطين المخدِّرات؟»، قالها «فاريل» لامرأة في منتصف عمرها كانت راقدة إلى جواره فوق درجات متجر مغلق، وكانت ترتدي قميصًا أحمر من قمصان الجولف، وتحمل شارة من شارات الأمن الخاصة ببطولة الولايات المتحدة المفتوحة، مثبتة إلى نهاية شريط قصير يلتف حول عنقها، إذ كان أحد قوانين تلك المدينة يحظر على المواطنين أن يتسكعوا في نطاق المحال المغلَقة.

لكن المرأة غمغمت قائلة: «ليتني كنت كذلك!» ثم ما لبثت إلى أن دسَّت قدميها في حذائها وابتعدت مترنحة.

كانت أرصفة الدائرة الثانية والعشرين التي لوحتها أشعة الشمس تفترش بالزجاج المكسور والأكياس البلاستيكية وأعقاب السجائر وحفنات التبغ التي أُفْرِغَت من السيجار كي توضع الماريجوانا مكانها، والأكواب الفلِّينية وأكياس رقاقات البطاطس يطيرها الهواء الذي يهب على الأرصفة، والشوارع تبدو كفم يحتاج إلى عمل طبيب أسنان ماهر؛ إذ كانت تعج بالمباني المحترقة، وتلك التي ثبتت ألواحًا خشبية فوق أبوابها ونوافذها، وكذلك تعج بالساحات المهجورة التي تملؤها

الأرائك البالية، كان «موزس واكر الابن» واحدًا من خمسة وثلاثين شخصًا قُتِلوا عام 2012 في نطاق الدائرة الثانية والعشرين التي تبلغ مساحتها أربعة أميال مربعة، وهو الأمر الذي أهَّل تلك الدائرة لتصير بؤرة لجريمة القتل في المدينة للسنة الثالثة على التوالي، إن منطقتي التي أعيش فيها تبلغ مساحتها نفس مساحة الدائرة الثانية والعشرين تقريبًا، غير أنها لم تشهد جريمة قتل واحدة منذ نحو عشر سنين.

عندما نشرَع في تعداد التحديات التي تواجه العائلات التي يتعامل معها «نولان» و«فاريل»، فقد يصعب علينا معرفة النقطة التي ينبغي أن نبدأ بها، تحديات هي خليط من الفقر والبطالة والمخدرات والجريمة والعنصرية، وهو الأمر الذي تعودُ أصوله إلى التفشِّي الوبائي لإدمان الكوكايين في ثمانينيات القرن العشرين، والتفشي الوبائي لإدمان الهروين في سبعينيات القرن ذاته، وما صحبهما من انتشار للأسلحة نصف الآلية والمسدسات الصغيرة، وكذلك بسبب نظام الفصل العنصري في المجال العقاري، والذي بدأ مع مطلع القرن العشرين عندما بدأت موجات من السود الجنوبيين في الهجرة إلى المدن الشمالية هربًا من الاضطهاد وبحثًا عن فرص عمل، ولأنهم كانوا يبحثون عن مستقبل أفضل، فقد انتهى الحال بالآلاف منهم إلى أن عُلِّقوا في ذلك الجيتو.

يرى الكابتن «رولاند لي» قائد الدائرة الثانية والعشرين أن ثلاثة أرباع حالات إطلاق النيران التي تحدُث في منطقته ذات صلة بالمخدرات، وعادة ما يرتكبها مروِّجو المخدرات وضيعو المستوى عندما يفقدون أعصابهم بسبب دولارات قليلة، أو كما صرَّح أحد مروِّجي المخدرات السابقين لصحيفة مدينة فيلادلفيا قائلًا: «إن الواحد منهم يعمل لصالح مدمنين لأجل تدخين السجائر الملفوفة»، من بين ثلاثمائة وواحد وثلاثين جريمة قتل حدثت في فيلادلفيا عام 2012 وهو معدل يفوق مثيله في نيويورك بأربعة أضعاف تقريبًا قُتِلَ 86 بالمائة من الضحايا رميًا بالرصاص، وكما كان الحال مع «واكر» وقاتليه جاءت نسبة 83 بالمائة من الجناة و80 بالمائة من الضحايا من بين عرقية السود، إن لفيلادلفيا لقبًا شائعًا ألا وهو «مدينة الحب الأخوي» (في اليونانية تعني كلمة Philos الحب، بينما تعني كلمة Adelphos الأخ)، لكن ربما كان لقب «مدينة القتل الأخوي» هو الأنسب لها في هذا الزمان.

لقد ظل رجال الشرطة في تلك المدينة يكابدون المشاقَّ لأجل وقف حالات إطلاق النيران وغيرها من جرائم العنف، حتى مع تراجع معدلات الجريمة بشكل كبير في معظم المدن الأمريكية

الكبرى على مدى العقدين الأخيرين، غير أن تاريخ المواجهات التي خاضها هؤلاء الشرطيون يُعَد جزءًا من المشكلة؛ بل إن مقر قيادة الدائرة الكائن في وسط المدينة والذي شُيِّد في ستينيات القرن العشرين على شكل بناء خرساني منحنٍ يسمى بالـ «راوند هاوس» وعندما يُنظَر إليه من الأعلى يبدو كزوج من الأصفاد، وهذا المبنى يرتبط في الأذهان بمفوض الشرطة السابق «فرانك ريزو» والذي صار فيما بعدُ عمدة للمدينة، وهو الذي أدين عام 1979 بارتكاب أعمال عنف واسعة النطاق، وكذلك التواطؤ مع آخرين ممن ارتكبوا تلك الأعمال التي تمثل وحشية الشرطة، فبعدها بستِّ سنوات قام رجال الشرطة بإلقاء قنبلة من طائرة مروحية على مجموعة من المنازل المصطَفَّة المحصَّنة، والتي كان مجموعة من النشطاء الراديكاليين السود يتمترسون بها خلال مواجهة مسلحة، نيران تلك القنبلة قتلت ستة بالغين وخمسة أطفال وأحرقت ستين من المنازل المتاخمة لها.

لكن «نولان» و«فاريل» لديهما مهمة ذات طبيعة أكثر لطفًا وطيبة؛ فهما بصدد الاحتواء لا الاعتقال، فإذا ما شهدا جريمة أو مخالفة فادحة فسيتخذان إجراءً، لكنهما في الأساس موجودان لمجرد الحضور وأيضًا للردع، ولكي يكونوا قريبين من الناس؛ لكي يخدموهم ويحموهم، يقول الرقيب «بيسارات وريدي» الذي يشرف على الدوريات الراجلة في الدائرة الثانية والعشرين: «إن جوهر العمل الشرطي هو الحديث مع الناس، صحيح أن الأشهر التسعة التي يقضيها رجال الشرطة في الأكاديمية تمنحهم قاعدة ثابتة يرتكزون إليها، لكن عند العمل في مدن كتلك المدينة يحصل الشرطي على التعليم الحقيقي من التعامل مع قاطنيها.»

«وريدى» الذي هاجرت عائلته إلى الولايات المتحدة قادمة من إريتريا وقت طفولته، يشبِّه الشرطي الناجح بالطباخ الذي يتبع وصفة طبخ بدقة، والذي يتعين عليه أن يستخدم الكمية المناسبة من كل مكون من مكونات الطبخة وإلا فسدت، إنه يعرف أن الدوريات الراجلة ليست علاجًا لكل داء، فالدوريات الراكبة قادرة على تلبية نداءات الاستغاثة بشكل أسرع، كما أن جذور الصدام الاجتماعي تظل عَصِيَّة على الاجتثاث، لكن عندما يمشي رجال الشرطة ولا يركبون تلك المركبات المعدنية التي تزن الواحدة منها 4000 رطل، فإن المواطنين يرونهم بشرًا مثلهم حتى لو اختلف لون بشرتهم، وصار الشرطيون المبتدئون يدركون أن معظم قاطني المدينة أناس طيبون حتى في المناطق الخطرة؛ وذلك لأنهم لم يعودوا يهبطون عليهم فجأة في منتصف موقع الجريمة، وإنما صاروا قادرين على التعرُّف عليهم يوميًّا لمدة ساعة كاملة بطول ثلاثة أميال.

حتى الآن تبدو تلك الوصفة ناجعة؛ ففي عام 2013 سُجِّلَت ثمانية وعشرين جريمة قتل في الدائرة الثانية والعشرين، أي أقل من العام الذي سبقه بسبع حالات، كما أن معدل حالات إطلاق النار قد تدنَّى (من 165 إلى 136)، وكذلك تقلَّصت حالات الاعتداء الوحشي (من 825 إلى 739) وحالات السطو المنزلي (من 868 إلى 713)، لكن بالطبع كما تؤكد صحيفة المدينة هذا التطور الجيد قد لا يدوم:

«فمعدلات جرائم القتل تتذبذب ارتفاعًا وانخفاضًا، وقد يقفز المعدل في فيلادلفيا إلى القمة مجددًا».

قادني «نولان» و«فاريل» إلى داخل أحد أوكار الكوكايين، فوجدت جدرانه مليئة بفراغات متخلِّفة عن طلقات الرصاص، وأرضياته تفترش بماسحات الأواني المعدنية وقوارير العقاقير الزجاجية الفارغة، ثم فجأة سمعا ضجة في الطابق الأعلى فاستلَّا مسدسيهما، إلا أننا عندما صعدنا الدرج لم نجد سوى فضلات فئران والمزيد من قوارير العقاقير الفارغة، ثم صادفنا في مشينا حفلًا مقامًا في فناء أحد البيوت التابعة لمشروع «نورمان بلمبرج» للإسكان، والذي يتكون من برجين توأمين يرتفعان فوق مجموعة كبيرة من الوحدات السكنية ذات الارتفاع المنخفض، كانت إحدى عصابات ترويج المخدرات من خارج تلك المنطقة قد هددت بقتل أحد رجال الشرطة هذا الصيف، لكن برغم هذا كان الصبية يلعبون وآباؤهم يقيمون حفلات الشواء، ويتجرَّعون الخمر من أكواب بلاستيكية حمراء، دلفنا إلى مدخل قذر لأحد البرجين، ثم ارتقينا الدرج ببطء قبل أن نهبط مجددًا مستقِلِّين المصعد، وخلال تلك الرحلة كلها أفعمت أنوفنا رائحة دخان الفحم المحترقة لا تنازعها سوى رائحة البول، ورغم أن «نولان» و«فاريل» كانا متيقظين مترقبين فإنهما ظلا يحاولان الحفاظ على الروح المتفائلة، كانا يومئان ويقولان: «عيد أب سعيد» للرجال الذين تلتقي أعينهم بعينيهما، وكان معظمهم يردُّون تلك التحية المقتضبة، إلا بعضهم الذين لم يسعدوا بوجود هؤلاء الشباب الذين يرتدون اللون الأزرق.

يقول «ناصر براون» وهو جالس على أحد الأرصفة في شارع متفرع من فناء مشروع «بلمبرج»: «لهما سلوك غير محبَّب، إنهما يضايقان الناس الذين لا يتسببون في أي مشاكل، نعم لدينا مشاكل هنا، انظر لتلك المباني المهجورة، انظر لتلك السيارات المهجورة، ليس لدينا وظائف

نشغلها، لماذا لا يدفعون لمسؤولي المجتمع كي يحلوا هذه المشاكل؟ إنهم لا يتعرضون للمشاكل الحقيقية، ليس هناك في هذا الجيتو من يصنع المخدرات.»

غير أن ما قاله لا يُعَد رأيًا عامًّا، على الأقل لدى من تكلموا معي، فعلى بُعْد بضعة كتل سكنية كان «كينان جونز» يهز قنينة مفعمة بمسحوق عصير الفاكهة لأجل الأطفال، ومن بابه المفتوح تنبعث موسيقى دينية عالية، ولما رآني بكاميرتي سألني إذا ما كنت أفتش عن مكان لتصوير أحد الأفلام، لكنني أوضحت له سبب تواجدي هنا، وسألته عن أثر الدوريات الراجلة في إحداث تغيير بالحي الذي يقيم به؛ فقال لي: «أثرها أنني وإياك نستطيع أن نكمل حديثنا هنا دون التعرُّض لأي طلقات رصاص طائشة».

يُعَدُّ السير «روبرت بيل» الأب المؤسس لقوات إنفاذ القانون في العصر الحديث، وكان هو الذي أسَّس الدوريات الراجلة؛ فبصفته وزير داخلية إنجلترا كان هو مَنْ قاد تحرُّكًا لإنشاء شرطة المتروبوليتان في لندن عام 1829، وكان من شأن ذلك أن استبدل «البوبيز» المحترفين نسبة لاسم «بيل» الأول بالمخبرين الخاصين، يقول «جورج إل، كيلينج» الأمريكي المختص بعلم الجريمة: إن الفرق الأمنية ذات الطابع العسكري كانت بالفعل موجودة في أنحاء أخرى من أوروبا، إلا أن قوات لندن الأمنية هي الأولى التي أوجدت تحديدًا «للسيطرة على الاضطرابات الناجمة عن التسارع الشديد في التحول إلى الطابع الحضري والصناعي».

وفي الولايات المتحدة أُنْشِئَ النظام الشرطي على غرار مثيله الإنجليزي، كانت أوائل أقسام الشرطة المموَّلة قد تشكلت في منتصف القرن التاسع عشر في المدن الواقعة في الشمال الشرقي كنيويورك وبوسطن، أما قسم الشرطة في فيلادلفيا فقد تطور من نظام استمر لمائتي عام، وكان قائمًا على دوريات المتطوعين ومسؤولي الأمن الذين يتقاضون مقابلًا لحفظ الأمن، إلى نظام شرطي حديث أُنْشِئَ عام 1854، وقد كان تطوره هذا يعكس التغيرات التي اعترت جميع أرجاء البلاد.

في البداية كان جميع رجال الشرطة يجوبون شوارع فيلادلفيا في دوريات، لكن في عام 1889 أُضِيف إلى تلك الدوريات الراجلة ثلاثة وتسعون حصانًا، ثم أضيفت الدراجات النارية عام 1906، ثم السيارات عام 1936، وعلى مدى تلك العقود المتتابعة تحول دور رجال الشرطة في الولايات المتحدة من الحفاظ على النظام العام إلى محاربة الجريمة، ولأن ثقافة السيارات قد بدأت

تهيمن على جميع أوجُه حياة الأمريكيين؛ مما أذكى النزعة إلى رفض المشي وخاصة خلال الأنشطة الروتينية، كالتسوق والذهاب إلى المدارس والأعمال؛ فقد تزايدت ظاهرة مطاردة المجرمين من قِبَل رجال الشرطة مستخدمين السيارات لا راجلين، وقد صرح «فرانك هوبر» رئيس الشرطة في جاينزفيل بولاية جورجيا لصحيفة النيويورك تايمز: «إنني دائمًا ما أرى سيارات الشرطة هي أعظم شيء قد تم اختراعه؛ وذلك لأنها قد مكنتنا من أن نتحرك بشكل أكبر، غير أن أسوأ ما اختُرِعَ في هذا الصدد هو أجهزة تكييف الهواء بتلك السيارات؛ وذلك لأنها جعلتنا نغلق نوافذ سياراتنا.»

لكن مع مطلع ستينيات القرن الفائت، ومع تصاعد التوتر العِرْقي في جميع أنحاء الولايات المتحدة، بدأ أصحاب المنهج الإصلاحي لجهاز الشرطة يحشدون الدعم للعودة للنظام الشرطي الذي وضعه «بيل»، كانوا يهدفون للمزيد من رجال الشرطة الراجلين في الشوارع، وإلى مزيد من الحوارات بين المواطنين ورجال الشرطة، غير أن الرأي الشائع في المجتمع كان يرى الدوريات الراجلة قد حسَّنت بالفعل من صورة رجال الشرطة لدى المواطنين وأشعرتهم بالأمان، لكنها لم تجتث الجريمة تمامًا؛ فشرطي واحد يقود سيارة قادر على تغطية مساحة أكبر من المدينة خير من دستة رجال راجلين، وهو أمر له اعتبار كبير بالنسبة لتلك القوة محدودة الموارد المالية.

وهذا النزوع للاعتماد على السيارات قد عزَّزته دراسة أُجْرِيَت في نيوجيرسي عام 1978 بواسطة فريق كان من بين أعضائه «كيلينج» الذي كان أيضًا مسؤولًا عن وضع نظرية «النافذة المكسورة» — وهي نظرية تقوم على فكرة أن الاضطرابات الحضرية البسيطة مثل أعمال تخريب المرافق العامة تمهد الطريق لجرائم كبرى، وكذلك ما يزال يعمل زميلًا باحثًا في جامعة هارفرد، كان القائمون على تجربة نيوآرك للدوريات الراجلة قد ركزوا على التمويل الخاص الذي تقدمه الولاية؛ كي يقنعوا رؤساء الشرطة المتشكِّكين بأن يخرجوا ضباطهم من السيارات، ويسيِّروهم في دوريات راجلة، كتب «كيلينج» في مجلة أتلانتيك يقول: «لقد كانت الدوريات الراجلة لا تحظى بشعبية كبيرة لديهم؛ فهي قد تحدُّ من حركة رجال الشرطة، وتصعِّب عليهم الاستجابة لاستغاثات المواطنين الذين يحتاجون خدماتهم، كما أنها تضعف من قدرة مركز القيادة على التحكم في الدورية»، خلصت دراسة نيوآرك إلى أن قاطني المناطق التي تجوبها الدوريات الراجلة صاروا يشعرون أنهم أكثر أمنًا، وصار لديهم انطباع أكثر إيجابية تجاه رجال الشرطة، كما خلصت إلى أن رجال الشرطة الراجلون قد ارتفعت رُوحُهم المعنوية، وباتوا أكثر رضًا عن مهنتهم، وذوي قبول

أفضل لدى المواطنين القاطنين لتلك المناطق التي يحرسونها أكثر من زملائهم الذين يقودون السيارات»، لكن من ناحية الجرائم فلم يكن لها أي تأثير، وقد أُجرِيَت تجربتان مماثلتان في كل من بوسطن وآشفيل بولاية نورث كارولينا فدعمتا النتائج ذاتها، وفي عام 2004 رفض المجلس الوطني للبحوث الدوريات الراجلة لكونها «استراتيجية شرطية تشتت المجتمع»، وبسبب انعدام الفائدة فقد انعدم التمويل.

بعد ثلاثين عامًا من دراسة نيوآرك تلقَّى المختص بعلم الجريمة بجامعة «تمبل» «جيري راتكليف» والذي بدأ حياته المهنية كـ«بوبي» يجوب تيه المشروعات السكنية في شرقِيِّ لندن والتي هي أفقر أحياء إنجلترا اتصالًا من مفوض شرطة فيلادلفيا «تشارلز رامزي»، كان «رامزي» بعد تعيينه على رأس رابع أكبر أقسام الشرطة في أمريكا، قد قام بتسيير أزواج من الورديات الراجلة من الشرطيين حديثي التعيين في بعض أخطر بؤر الجريمة في المدينة، عندها طلب مفوض الشرطة من «راتكليف» الذي هو مدير مركز جامعة «تمبل» للأمن وعلم الجريمة والمستشار البحثي لقسم الشرطة أن يقوم بتقييم تلك المبادرة، وجد «راتكليف» أن الشرطيين الراجلين أثبتوا كفاءة في العمل، لكنه لم يستطع أن يخرج بتقييم حاسم؛ ولذلك فقد قال لـ«رامزي»: «إذا ما فكرت في إعادة الكَرَّة فسيكون من العظيم أن تهاتفنا سلفًا؛ حتى يتسنى لنا أن نعد نظامًا يكون قويًّا من الناحية العلمية».

كانت تلك المكالمة قد تمت في أوائل عام 2009، ووقتها كان هناك مائتان وأربعون من الضباط الجدد على وشك التخرُّج من أكاديمية الشرطة بعد أسابيع قليلة، وكان مفوض الشرطة يرغب في أن يسيرهم في دوريات راجلة.

في وقت قياسي صمَّم «راتكليف» تجربة الدوريات الراجلة في فيلادلفيا على شكل تجربة عيادية عشوائية، على غرار تلك التي يُعْطَى فيها نصف الخاضعين للتجربة العلاج ذاته، ويُعطى النصف الآخر عقارًا وهميًّا، غير أنه في تلك التجربة كان الخاضع للتجربة هي المناطق الأكثر عنفًا في فيلادلفيا، حيث تُرتَكَب الجرائم الخطيرة، لقد كانت تلك التجربة هي الحلم الذي يراود أي عالم اجتماع، فهي بالضبط كالمعمل الذي يحاكي العالَم الحقيقي والذي يستخدمه «ريتش ميتشيل» لتقييم أثر تحسين مناطق الغابات على التوتر الناجم عن الحياة الحضرية في إسكتلندا، استخدم «راتكليف» وزملاؤه نظامًا للمعلومات الجغرافية لتحديد المناطق الـ 120 الأخطر في المدينة، فما بين عامَي 2006 و2008 كان 5 بالمائة من أخطر هذه المناطق مسؤولًا عن 39 بالمائة من كل جرائم السرقة

و42 بالمائة من جرائم الاعتداء الخطيرة و 33 بالمائة من جرائم القتل، ثم انتقوا 60 منها كأهداف، كانت كل دورية راجلة تغطي نحو خمسة عشر تقاطعًا وميلًا ونصفًا من الطرق، يقول «راتكليف»: إن صغر مساحة المناطق التي تجوبها الدوريات الراجلة مع ارتفاع كثافة سكانها، وكذلك سير الشرطيين في الشارع ذاته أكثر من مرة في النوبة الواحدة، هي مجتمعة تشكل السبيل لدوريات راجلة فعالة، ومعهما لا بد أن تتوافر الإدارة الداعمة، فقد كان مفوض الشرطة «رامزي» ومعه عمدة المدينة «مايكل ناتر» مستعدَّيْن لمواجهة تراجع شعبيتهما السياسية بسبب تركهما للستين موقعًا الآخرين أقل حراسة.

كانت تلك التجربة التي استغرقت ثلاثة أشهر قد أُجْرِيَت في صيف عام 2009، وعندما وزنت عوامل كتحول مواقع وقوع الجرائم باستخدام طريقة «مضلعات ثايسين» و«شبكات فوروني» و«نماذج الانحسار الخطية» (والتي تعني بالنسبة لي نظامًا قويًّا من الناحية العلمية)، فقد استهدفت مناطق تفوَّقت على المناطق التي عملت بها مجموعة التحكُّم في التجربة بنسبة 23 بالمائة، قام الشرطيون الراجلون بمنع ارتكاب أكثر من خمسين جريمة عنف (قتل واعتداء وسرقة)، وزادت حالات القبض على المجرمين بنسبة 13 بالمائة، أوضح «راتكليف» أن استخدام منهج ذكي في تنظيم الدوريات الراجلة يمكن أن يقلِّص بالفعل من معدلات الجريمة، وهو بهذا يدحض آراء كانت راسخة لدى علماء الجريمة وخبراء الشرطة، والأهم من هذا أنه أقنع «رامزي» بأن يُعيِّن كل شرطي حديث التعيين في دورية راجلة لمدة اثني عشر شهرًا.

كما أُجْرِيَت تجربة أخرى متعلقة بعلم الجريمة في أحد مناطق روتردام الخطرة؛ أكدت كلًّا من «نظرية النافذة المكسورة» وكذلك أفكار «جاين جيكوبس»، سُئِل قاطنو المنطقة عن الكيفية التي يمكن أن يتطور بها مجتمعهم إلى الأفضل، وبدلًا من أن يركزوا على شَنِّ حملات على الجريمة والمخدرات، فقد طالبوا بشوارع أكثر نظافة، وكثافة مرور أقل، وجعل المدينة أكثر ترحابًا بالمشاة، وبعد أن ساعدهم جهاز الشرطة في تحقيق بعض هذه التغييرات انخفضت معدلات الجرائم المرتبطة بالمخدرات بنسبة 30 بالمائة، وانخفضت جرائم السطو المنزلي بنسبة 22 بالمائة، وصار للسكان حضور جسدي أقوى ومساهمات جماعية أكثر في أحيائهم السكنية.

ورغم أن تراجع معدلات الجريمة في فيلادلفيا كان هو المقياس الأساسي لتقدم المشروع، فإنه أيضًا يظهر ما يسميه «راتكليف» الفوائد الثانوية للدوريات الراجلة، ألا وهي تحسين العلاقة

بين رجال الشرطة والمواطنين الذين يُحرَسون، لكن هذا لا يُعَد بالأمر الهين في أماكن كشمال فيلادلفيا حيث يتفشى العداء بينهما ويُتوارَث جيلًا بعد جيل، خلال تلك التجربة وقَّف الشرطيون الراجلون المشاة في الشوارع أكثر من زملائهم في مجموعة التحكم الذين يمشون على بُعد قطع سكنية قليلة بنسبة 64 بالمائة، كانوا يفتشون بعضهم لكنهم كانوا يكتفون بمجرد الحديث مع آخرين، يقول «راتكليف»: «إنه لأمر مهم جدًّا أن يقضي الواحد منهم بعض الوقت لا يفعل شيئًا سوى الوقوف في زاوية الطريق يتبادل الأحاديث مع الناس ويستشعر إيقاع المكان ونبضه، وفي خلال بضعة أسابيع يجد الشرطي البارع فيهم نفسه قد عرف الجميع»، صاروا يعرفون أن ذلك السكير الواقف في زاوية الشارع لا يشكل تهديدًا لأنه دائمًا هنا، لكن ذلك الغريب الذي يحوم حول موقف الحافلات قد يكون مشكلة.

يقول «راتكليف»: «إن الشرطيين الذين يقودون السيارات ينظرون إلى الأحياء السكنية بطريقة تختلف عن طريقة الشرطيين الراجلين، فإذا ما كنت تستقل سيارة، فإنك لن تقابل من الناس إلا أولئك الواقعين تحت ضغط، وهم إما أن يكونوا ضحايا لجرائم وتأتي أنت استجابة لتلك الجرائم، أو أنهم مشتبه بهم لارتكاب جرائم، بينما أنت حينما تكون راجلًا فستتاح لك الفرصة لتتفاعل مع السكان العاديين لتلك الأحياء السكنية، مع أولئك الذين هم بمحض صدفة أو بدافع من الظروف حدث أنْ قطنوا تلك المناطق الفقيرة أو العنيفة.»

ويضيف «راتكليف» قائلًا: «إن الجريمة في فيلادلفيا تختلف من كتلة سكنية لأخرى، ولا يدرك المرء هذا إلا عندما يمشي من تلك الكتلة للأخرى؛ فنصف مَن تعرضوا لإطلاق النار في فيلادلفيا تعرضوا له في محيط كتلتين سكنيتين من محل إقامتهم، فالناس يعيشون ويموتون في مساحات صغيرة جدًّا، والدوريات الراجلة هي سبيل مثالي لفهم ذلك العالم المصغَّر الذي يعيش فيه الضحايا والجناة معظم حياتهم.»

«أرني ما هذا الذي في جيبك».

كان «مات جرين» يمشي بالقرب من برج المراقبة المتحرك التابع لقسم شرطة نيويورك والذي يبدو كما لو كان من نسل للروبوتات الجليدية ذوات الأربع التي تظهر في بداية فيلم «حرب النجوم (الإمبراطورية ترد الضربة)» عندما أوقفه رجل الشرطة، كان «جرين» رجلًا في منتصف العقد الرابع من عمره، ذا لحية قصيرة وبشرة بيضاء، وكان يلتقط الصور الفوتوغرافية في مشروع

إسكان في حي البرونكس غالبية قاطنيه من السود، وكان قد مَرَّ بجوار برج المراقبة العالي بضع مرات، غير أن ما أثار قلق الضابط القوقازي هو ذلك الانتفاخ في الجيب الخلفي لذلك الدخيل.

تساءل «جرين» قائلًا: «هذه؟» قالها وهو يضع يده على فخذه الأيمن قبل أن يدرك في تلك اللحظة بالضبط كما لو كانت تسير بالحركة البطيئة وهو يرى تلك النظرة المجفلة على وجه الشرطي أنه يبدو كما لو كان يستل سلاحًا.

لكن لم يَعُدْ في الإمكان التوقف الآن، فمضى وأخرج من جيبه زجاجة المياه البلاستيكية وحينها فقط تنفس الرجلان الصُّعَداء.

بعدها بثلاثة أسابيع قال لي «جرين»: إن النظرة التي كانت على وجه الشرطي لم توحِ لي بأن هذا الرجل سوف يطلق عليَّ الرصاص، وإنما أوحت لي بأنه يحادث نفسه قائلًا: اللعنة لا أريد أن أعتقل ذلك الأحمق، اللعنة على المستندات التي سأُرْغَم على كتابتها إن اعتقلته.

حينها سأله الشرطي: «ماذا تفعل هنا أصلًا؟»

شرح له «جرين» مسعاه قدر ما استطاع، فأخبره أنه في مهمة تمتد لأكثر من عام تتلخَّص في مشيه في كل شارع بكل حي في مدينة نيويورك، فهو يرمي إلى مشاهدة وتوثيق كل ما في تلك الشوارع، لكن دافعه الأكبر كان رغبته في زيارة أماكن لا مصلحة له في زيارتها، وأن ينسف كل تلك المسلَّمات التي شاعت عن المدينة وسكانها، والتي كان هو نفسه يعتنقها، كان يهدف إلى «وضع كَمٍّ كبير من المعلومات والإشارات التحذيرية واسعة النطاق، والتي من شأنها أن تطغى على نزوعنا الفطري لتفسير كل شيء في إطار ما لدينا من أحكام مسبَقة مرتَّبَة ومنمَّقة»، لم يكن لـ «جرين» عنوان ثابت؛ فقد كان يترك مسكنه لأناس يرعونه مقابل سكناهم، وينام هو على أرائك أصدقائه، وبطريق غير مباشر يطلب التبرعات من الناس عبر شبكة الإنترنت؛ ليبتاع لنفسه الطعام وتذاكر قطار الأنفاق، كان المشي هو عمله الثابت والذي يستحوذ على كامل وقته، وهو أمر لا يمكن تلخيصه في الثواني العشر التي لا يمنح أهل نيويورك سواها لأولئك الغرباء الذين يبتدئونهم بالحديث، والعادي أن يرمقه الناس بنظرات خاوية، ثم ما يلبثوا أن يكلموه بعصبية؛ لأنهم يتوقعون أنه سيحاول بيعهم شيئًا ما.

بعد أن قام «جرين» بتقديم شرح مبسط لذلك الشرطي في البرونكس، قال له الأخير: «عندما تخبرني بكل هذا أفهمك، لكن هؤلاء الناس إذا ما رأوك تلتقط صورًا فسوف يركلون مؤخرتك»، قالها وهو فارد ذراعيه ويتلفَّت يمينًا ويسارًا رغم عدم وجود أي أحد حولهما.

لكن «جرين» مذ بدأ يمشي في طرقات نيويورك في أول أيام سنة 2012 قد التقط آلاف الصور الفوتوغرافية، ومع هذا لم تُركَل مؤخرته ولا مرة واحدة، وكانت تلك اللحظة المخيفة مع ذلك الشرطي حدثًا عابرًا لم يحدث من قبل، رغم أنه قد مشى كثيرًا في أحياء غريبة عليه، فالحقيقة أن الحياة اليومية في الحضر سواء في البرونكس أو في شمال فيلادلفيا نادرًا ما تتخذ طابعًا دراميًّا، إن المشي خلال المدينة يجعل المرء يقدِّر التفاصيل الصغيرة والتداخلات الدقيقة واللقاءات العفوية، وكذلك يجعله ينبذ تلك المخاوف الراسخة رغم زيفها عن الغرباء.

كانت الساعة تدنو من الخامسة مساءً، ذات يوم أربعاء مشمس دافئ في شرقِيّ هارلم، وكنت و«جرين» قد أتينا إلى نيويورك مستقلِّين قطارًا من فيلادلفيا، ثم أخذنا نذرع الأحياء المصطَفَّة بالمنازل المطلية باللون البني والشوارع التجارية جيئة وذهابًا على قدمينا منذ الظهر، كان هو يرتدي سروالًا قصيرًا فَضفاضًا، وقميصًا قصير الكمين مزرَّرًا ذا لون أخضر باهت، وحذاءً طويل الرقبة من الجلد البني، وهو الزي الذي جعل المارة يعتقدون خطأً أنه مفتش مدني تارة، وتارة أخرى ظنوه شرطيًّا متخفيًا، بل إن أهل حي ستاتن آيلاند ظنوه في إحدى المرات بطل فيلم «كروكودايل داندي»، كما كان يعتمر قبعة بيسبول منقوش عليها كلمة «هيداترون»، والتي هي اسم مسرحية سريالية تروي عن آليين متمردين، و«هنريك إبسن» معذب، وهي مسرحية يخرجها شقيقه الأصغر الذي يعمل في مسارح شيكاجو، والذي يعتبره والداه الموظفان المتقاعدان من حكومة فيرجينيا الابن الذي حظي بحياة طبيعية.

كان «جرين» عندما يتجول مشيًا في شوارع نيويورك لثلاثة أو لأربعة أيام كل أسبوع، له طقسان مقدسان لا يتخلى عنهما: أولهما هو مشاهدة عدد من النُّصُب التذكارية لضحايا الحادي عشر من سبتمبر، سواء النُّصُب الرسمية أو التي صنعها الناس في منازلهم، وثانيهما مشاهدة عدد من محالِّ الحلاقة التي استخدمت في كتابة لافتاتها أحرف الـ Z بدلًا من الـ S، وأحرف الـ K بدلًا من الـ C، لكنه خلال مشيه كان يتجنب باعة الموز، والحمَّامات المتنقلة غير موصدة الأبواب، وفناني الشوارع غرباء الأطوار، والكنائس التاريخية والمقابر، والمداخل المضلِّلة، وصناديق البريد غريبة

التصميم، والأخطاء الكتابية على اللافتات، والمواسير الخارجة من البنايات، والتي وُضِعَت عليها وسائل مخترعة لمنع الجلوس عليها، كما كان خلال مشيه يستطيع أن يخمن بسهولة ثمن شطيرة سلطة البيض الذي لا يتعدى بضعة سنتات قليلة إذا ما ابتاعه من واحد من الـ 13000 متجرًا الموجودة في المدينة، كان «جرين» يعيش بخمسة عشر دولارًا في اليوم، وكان غداؤه المفضل والذي لا يتوقف عن أكله مع الخس والطماطم والخردل الحار إذا ما وجده، يتراوح سعره ما بين الدولارين والثلاثة دولارات ونصف؛ طبقًا لطبيعة الحي الذي يتناوله فيه، رغم أن سعر الأربعة دولارات ليس بالغريب في مانهاتن، كان أفضل سعر ابتاع به تلك الشطيرة هو دولار ونصف، لكنه ذات مرة فغر فاه منصعقًا عندما طلب منه أحد المطاعم خمسة دولارات لقاء الشطيرة ذاتها؛ مما دفعه ليقول: «إن هذا سعر مبالغ فيه للغاية.»

كان لـ «جرين» في السابق رفيقة ومهنة محترمة؛ إذ كان يعمل مهندس مواصلات، لكنه بعدها انفصل عن رفيقته، ثم وجد نفسه عاجزًا عن التبرير لنفسه أن يظل يعمل في وظيفة لا يستمتع بها لأجل أموال لا يحتاجها، وبعدما وجد نفسه يتوق للمغامرة ويشتهيها وهو نموذج مثالي لحالة الانعزال أدار ظهره للسنوات الخمس السابقة التي قضاها يصمِّم الطرق السريعة وغيرها، وبدأ يمشي خلال أرجاء الولايات المتحدة.

رغم أنه قام بالكثير من رحلات المشي الطويلة في نيويورك، ومن بينها رحلة طواف لمائة وخمسين ميلًا استمرت لمدة خمسة أيام في أرجاء المدينة، فإن مشيته الأخيرة تلك كانت تنطوي على مجهود مُضنٍ، انطلق «جرين» من شاطئ روكاواي في كوينز في مارس من عام 2010 يرتدي سترة ذات عواكس للضوء، ويجر وراءه معدات التخييم في عربة جر، وبعدها بخمسة أشهر وصل إلى شاطئ روكاواي في أوريجون، عندما كان يتجهز لرحلته تلك غمرته اقتراحات من آخرين، بَدَتْ كما لو كانت أوامر، على غرار يجب عليك أن تذهب لهذا المكان، يجب عليك أن تشاهد ذاك، لكنه بدلًا من هذا قرر أن يتخذ مسارًا مباشرًا إلى شيكاجو؛ كي يزور أخيه، ثم يتجه غربًا إلى المحيط الباسيفيكي.

كان «جرين» الذي مشى دون أن يحدد له وجهة يرمي إليها؛ منفتحًا لأن يشعر بقيمة كل ما يراه وكل مكان يزوره بدلًا من أن يشرع في عَدِّ الأميال حتى يصل إلى جبل راشمور في ساوث داكوتا فرضًا، أو كما قال: «إنك لست بحاجة لأن تعرف ما سترى خلال مشيك كي تجده مثيرًا

للاهتمام، فإنك لو فعلت فهذا يعني أنك قد سمحت لاختيارات الآخرين الشخصية أن تؤثر على ردود أفعالك، فبإمكانك أن تمشي عبر نورث داكوتا، وأنا نفسي قد توغلت في أماكن مثل تلك بسيارتي وشعرت بملل شديد، لكن المرء حين يمر بحذاء حقل واسع بسرعة 70 ميلًا في الساعة يجده مملًّا، أما إذا مشى حذاءه بسرعة ثلاثة أميال في الساعة فسيرى أشجارًا مختلفة متفردة»، ففي مشيه عبر الريف وجد «جرين» أن مشهد زهور الكانولا التي تفترش الحقول وتبدو كبحر أصفر ممتد تضيئه الشمس التي تسطع على المروج، هو مشهد لا بد للمرء أن يحفره في ذهنه.

الأكثر من هذا أن مَنْ قابلهم في مشيه من غرباء حذَّر منهم لكونهم خطرين ضيقي الأفق، اتضح أنهم أشخاص كرماء ودودون، فما أكثر المرات التي تلَقَّى فيها «جرين» دعوات لشرب الجعة أو تناول الطعام أو قضاء الليل، عندما كان يمر بالمدن الصغيرة أو الطرق الزراعية، بل إن كبرى مشاكله كانت عدم القدرة على التخلص من المضيفين الودودين عند رغبته في إكمال المسيرة، وفي مرات كثيرة دُعِيَ إلى الغداء مباشرة بعد الانتهاء من وجبة غداء أخرى، وعن هذا يقول هو: «إن ما حصلت عليه من خبرات في رحلة المشي تلك، بعيد كل البعد عما تصوره وسائل الإعلام عن أمريكا.»

عندما عاد «جرين» إلى نيويورك لم تعد خطته القديمة لأن يجد وظيفة ويستقر مستساغة بالنسبة له، وبدلًا من هذا تعاقد مع هيئة الصحة لبعض الوقت كي يعمل كجامع بيانات، وقضى بضعة أشهر في حقول أحد المزارع العضوية في وادي هادسون، لكن رحلته التالية تهيَّأت بوتيرة بطيئة أو كما يقول هو: «لم أكن أعلم وقتها أنني سوف أقتلع نفسي تمامًا من المجتمع العام»، لكنه مع هذا ولأنه يُعَد واحدًا من علماء علم اجتماع الشوارع فقد انغمس فيها بعمق، فقد تجاوز بعدها ما قطع «ويليام بي، هيلمريك» بألفين وخمسمائة ميل، وهو أستاذ علم الاجتماع الذي مشى في معظم الأحياء السكنية في التقسيمات الإدارية الخمسة كلها، وكتب عن هذا دراسة إثنوجرافية أسماها «نيويورك التي يعرفها الجميع»، يرى «هيلمريك» أن موجات الهجرة بالإضافة إلى عمليات تحديث الأحياء السكنية قد نشرت روحًا من التحول الإيجابي والتفاؤل، لكن «جرين» لا يهتم بمثل هذه النظريات، وإنما يروي ما يشهد وينقل قصصه للآخرين.

قال «جرين» في إحدى المرات عندما تحدث في أحد ملتقيات TED والذي شهده في بروكلين: إننا عندما نفكر في المدن نرغب في أن نجعلها أكثر ملاءمة لنا، أن نجعلها أفضل وأكثر

إنتاجية وقابلية للسكنى، وكلها خصال مهمة، لكنه يقول كذلك: إن المرء إذا ما كان يحاول أن يجعل علاقته العاطفية أكثر غِنًى وأعظم فائدة، لا يمكن أن يركز فقط على الشخص الآخر في تلك العلاقة، بل عليه أن يصير مستمعًا أفضل وأكثر فضولية، وأن يسعى للَّحظات الحميمة، ونيويورك كغيرها من المدن مدينة معقدة ومذهلة، وكي يتعرف عليها المرء لا بد له أن يستنبط منها الصفات المقولبة والطبقات المتراتبة، لكنك مع هذا كي تعمق تلك العلاقة ربما تَعَيَّن عليك ألا تقطع تلك المسافة عبر المدينة لتذهب لذلك المطعم الشهير الذي تحوَّل لظاهرة في المدينة، وبدلًا من هذا تذهب لكي تتعرف على ما يجري في داخل أحد الأحياء السكنية في المدينة، يقول كذلك: «لا تحاول أن تجد شيئًا معينًا، ولا ترهق نفسك محاولًا الوصول لأية نتائج، ليس عليك إلا أن تستمع لما تقول لك المدينة ... ودع غرائزك الفريدة تقودك.»

إذا نظرنا للموضوع من على السطح لوجدنا «جرين» يفعل ما فعله «فلانير»، و«فلانير» هو شخصية أدبية ذاع صيتها في القرن التاسع عشر بباريس، وهو رحَّالة متحمس يهتم بدراسة المدينة، رأى الشاعر الفرنسي «تشارلز بودلير» «فلانير» على أنه: «سيد مهذب متجول في شوارع المدينة»، مغمور وسط الحشد، لكنه في ذات الوقت مراقِب منعزِل، بينما يراه الفيلسوف الألماني «فالتر بنجامين» رد فعل لانعزالية المدن والرأسمالية، ومشروع «جرين» كذلك يتماشى مع مفهوم «جاي ديبورد» الموقفي المسمى "Derive"، والذي يتمثل في مشي هائم خلال الرقع الحضرية، كلا هذين المصطلحين يتماشيان مع عالم الجغرافية النفسية الأكثر اتساعًا، ويُعَدَّان استكشافًا حرًّا للمدينة ذا شعبية لدى كُتَّاب مثل «ويل سيلف» و«شون ميكاليف»، يساهم في نقد ثقافة المدينة ومعمارها وتصميمها الحضري وغيرها من المظاهر المخاتلة، فإنك على سبيل المثال إذا ما مشيت حتى تصل إلى الركن الثاني في الحي، ثم انعطفت يمينًا مكرِّرًا المسار ذاته فإنك حينها تسمح لعشوائية الرحلة أن تحرِّرك من قيود الزمان والمكان التي عادةً ما تحدد طبيعة علاقتك بالمدينة، لكن رغم هذا فلا شيء من كل ما سبق يصف ما يفعله «جرين»، فرغم أنه يطبق نظرية «بودلير» عن المراقب المنعزل، ورغم أن الانعزال هو الدافع المحرِّك لمشيه، فإن جُلَّ ما يطمح له «جرين» هو تلك اللحظات الإنسانية التي تصلنا بالشبكة الحضرية، كما أن لمنهجه ذلك شكلًا علميًّا، فهو يسجل بدقة المسار الذي اتخذه كل يوم في دفتر صغير أسود يحمله في جيبه، مستخدمًا اختصارات معينة للدلالة على التقاطعات المربكة على غرار (L ACP R 110) كي يذكر نفسه بالمنعطف التالي.

غير أن إصرار «جرين» وعزيمته قد جذبتا اهتمام الصحافة، والذي جذب بدوره قدرًا يسيرًا من التبرعات، فبعد أن تناولت صحيفة النيويورك تايمز قصته، منحه الداعمون ثمانية آلاف دولار رغم أنه لا يطمح لتحقيق ربح، فكل ما يرمي إليه هو إكمال «رحلته المرهقة في تلك المدينة التي لا تكل ولا تمل»، وكذلك يرمي إلى دراسة الصور المثيرة للاهتمام التي يلتقطها عقِب كل مشية يمشيها حتى يكتب عنها أوصافًا يُرفِقُها في مدونته، وهذا التوثيق الذي يُعَد وظيفة بدوام كامل في حد ذاته هو محاولة منه لجمع أرشيف مفصَّل لكل مشاهداته، لكن المشي هو كما يقول «هنري ديفيد ثورو»: «مبادرة ومغامرة يومية».

في ذلك اليوم، رقم 537، كنا نقترب من نهاية شارع 117 المسدود عندما توقف «جرين» ساكنًا في منتصف الطريق، نكَزني في كتفي وهو يشير إلى أحد محالِّ الحلاقة الواقع في الطابق الأرضي لمبنى مرمَّم مبني بالطوب الأحمر، ذي درج تقليدي وليس به مصاعد ثم قال لي: «انظر، لمحل كريسبي كاتز».

التقط صورة للافتة المحل الملساء ذات الكتابة باللونين الأحمر والأسود، وقد كتبت فيها حروف الـ Z والـ K بخط ذي حجم كبير (هذه الصورة موجودة على موقعه الإلكتروني com.Imjustwalkin تحت عنوان "Barberz #77")، ثم ما لبث أن واصل المشي جهة الشرق، كان ذلك الحي السكني بأكمله قد جُدِّد، وحتى حي هارلم الإسباني كان بصدد التجديد.

كنا قد توقفنا لتوّنا في جادة بليزانت التي اشتهرت لكونها كانت في الماضي معقلًا أسطوريًّا للعصابات، والتي كان «أنتوني ساليرنو» الشهير باسم «توني البدين» يحكم منها عائلة إجرامية ترجع أصولها لمدينة جنوه الإيطالية، حتى إن بعض مشاهد فيلم «الأب الروحي» قد صُوِّرت في هذا المكان، غير أن معظم شواهد تلك الحقبة قد اختفت، وكذلك اختفت من نهاية شارع 117 كل آثار مصنع واشبورن للأسلاك، والذي استمر لأكثر من سبعة عقود ينتج اليايات وأوتار البيانو والأسيجة، ذلك المصنع الذي كان في وقت من الأوقات أكبر مشغِّل للعمالة في مانهاتن قاطبة، قد أُغْلِقَ عام 1976، وبعدها بثلاثين عامًا هُدِم، بعدها اختفى واضعو اليد والمدمنون ورسامو الجرافيتي الذين استوطنوا تلك المباني الستة المتداعية بعد أن هُدِمَت وحلَّ محلها مركز تجاري يُدْعَى «بلازا النهر الشرقي»، تبلغ مساحته 485000 قدم مربع، ويتخذ شكل صندوق طويل عموديًّا، وتمتلكه سلاسل كوستكو وتارجت التجارية.

قادني «جرين» داخل قاعة محكمة مفتوحة ذات سقف زجاجي، ثم مر بي أمام مجموعة من عربات التسوق، ثم إلى شُرفة تطل على طريق فرانكلين دي روزفلت والجداول الخضراء في النهر الشرقي، وهناك كانت لافتة من الصفيح تزعم أن ذلك المكان العالي الذي نقف عنده يطل على البقعة التي لقي فيها «جيم رانسدورف» حتفه، سُمِّيَت هذه البقعة على اسم ذلك الرجل البارز في المجال العقاري، والذي تعرض فيها لحادث أثناء تجديفه عكس التيار ذات صباح بارد في شهر أكتوبر؛ إذ ارتطم زورق آلي بقاربه الخشبي الطويل، بعدها بثلاثة أيام عثر الغواصون على جثته، بالطبع لم يكن «جرين» يعرف أي شيء عن «رانسدورف» أو «واشبرن واير» وقت أن مررنا بذلك المركز التجاري، فهو لا يكاد يعرف ما سيقابل في طريقه، وهي الفكرة الأساسية التي يقوم عليها المشروع برمته.

صعدنا ثمانية مستويات من الدرجات الإسمنتية قفزًا حتى وصلنا إلى سطح مرآب فندق «بلازا النهر الشرقي» الذي لوَّحَتْه أشعة الشمس والذي يتَّسِع لـ 1248 مركبة، غير أنه لم يكُن به سوى بضعة سيارات من دون بشر، ركض «جرين» نحو عمود إسمنتي، وأخذ ينظر نحو جدار الأمان المصنوع من الألمونيوم، هنالك رأى ست حارات مرورية تندفع منها السيارات داخلة المدينة وخارجة منها على طول طريق فرانكلين دي روزفلت، وكان صوت السيارات المنبعث من الأسفل للأعلى صوتًا رائقًا باعثًا على الهدوء، هنالك تداولنا فيما بيننا فكرة شراء منضدة من متجر «بوب» للأثاث الذي يبيع السلع بأسعار رخيصة، وشراء كَمٍّ هائل من اللحم كي نصنع منه الشطائر من متجر «كوستكو» كي نقوم بنزهة خلوية لا مثيل لها.

أشار «جرين» نحو الجنوب إلى حيث تقع مصحة عقلية قديمة في جزيرة «روزفلت»، وهي المصحة ذاتها التي دخلتها الصحفية «نيللي بلاي» عام 1887 بعد أن ادَّعت الجنون؛ كي تكتب مقالًا مهمًّا، كان من شأنه أن فضَح ما يتعرض له نزلاء المصحة من معاملة فظيعة، ثم نظر شَمالًا نحو طريق السيارات المنحدر الواقع بين الطبيعة، والذي يحب أحد الفنانين ذوي السوابق الإجرامية، أن يقف فيه واضعًا فوق رأسه بطيخة أو غيرها من صنوف الفواكه، أو يقوم بعمل حركات بهلوانية، أو يبني أشياء غريبة مثل دمية عملاقة لغوريلا جالسة على مقعد من مقاعد الشاطئ؛ هادفًا من هذا إلى توضيح أهمية الصحة البدنية والتغذية السليمة لراكبي السيارات المارين بجواره خلال ساعات الذروة أو لمجرد إمتاعهم، الواقع أن «جرين» لم يَرَ ذلك الفنان رؤيا العين

أبدًا، وإنما وشت له قشور البطيخ الملقاة والرسائل التي يتركها ذلك الفنان محفورة على الأشجار المحيطة بالمنطقة على غرار: «أوتيس هيوستن الابن»، ابحث عني في موقع جوجل.

ثم جاء زورق تابع للشرطة يمخر عباب النهر الشرقي مخلفًا وراءه موجات مائية تسري بقوة حتى ترتطم بضفتي النهر؛ فقال «جرين»: «إنني أرى في خروج المرء لتلك الطبيعة البرية سكينة وهدوءًا، لكن المرء يستطيع أن يدرك ذلك في المدينة أيضًا، فهذا المكان هو المكافئ الحضري لشاطئ البحر؛ ففيه تجد الضجة البيضاء الصادرة من المرور، فبوق السيارة مثله مثل طائر النورس المزعج، وليس هو بالصورة المحبطة للإنسانية.

إن أهل مانهاتن يتشكون من ازدياد سلاسل المحال التجارية الضخمة دون أن يروها، لا بد أن يأتوا ليروها بأنفسهم.

كان «بياتونيتو» يضع فوق وجهة قناعًا أسود من أقنعة المصارعة الحرة المكسيكية وعلى ظهره حرملة سوداء لامعة، وفي ذلك اليوم خَطَا «بياتونيتو» حتى وقف أمام سيارة من طراز «جيب باتريوت» واقفة في منتصف مفترق الطرق، ثم وضع راحتي كفيه فوق الصدادة الأمامية للسيارة، وثبَّت قدميه، ثم مال محاولًا دفع السيارة إلى الخلف بيديه العاريتين، أحيانًا كان يرش طلاء أبيضًا على الأسفلت عند التقاطعات إذا لم يجد علامات في ذلك المكان وأحيانًا أخرى كان يتمشى فوق السيارات المُصطَفَّة فوق أرصفة المشاة، ومرات كان يمسك بأيدي المسنِّين ويساعدهم على عبور الطريق، فالتجوُّل في المدن الكبيرة سيرًا على الأقدام هو أمر بالغ الصعوبة؛ ولهذا فقد كان أهل المكسيك يتلقَّوْن العون من ذلك البطل الخارق.

تُعَدُّ الحوادث المرورية بلاءً عظيمًا في العاصمة المكسيكية، ففي عام 2006 قُتِل نحو 900 من المشاة، ونحو 4.9 بالمائة من كل 100000 من السكان يموتون في حوادث السيارات كل عام، وهو معدل يفوق نظيره في لندن (والذي يبلغ 9.1 من كل 100000) وفي نيويورك (2.2) وهونج كونج (8.3) وبوجوتا (1.4)، لا تفوقها سوى كيب تاون في جنوب إفريقيا؛ إذ تتميز بشوارع أكثر شرًّا، هنا يظهر «بياتونيتو» والذي يعني اسمه «السائر الصغير»، وتحت قناعه يقبع طالب العلوم السياسية ومستشار التخطيط «هورهي كانييز»، وكان قناع المصارعة ذلك يخلق جوًّا مسرحيًّا ذكيًّا، لكنه كان يحارب حربًا حقيقية، عن هذا يقول: «في هذه المدينة يعامل المشاة على أنهم نكِرة لا

تذكرهم السلطات ولا غيرهم من المواطنين، لكن المثير للاهتمام والباعث على التناقض في هذا الأمر هو أننا جميعًا نصير مشاة في لحظة من اللحظات، لكننا قد نسينا أنفسنا.»

لقد لجأ «مات جرين» وقوة الشرطة في فيلادلفيا إلى المشي؛ كي يزدادوا معرفة بأنفسهم والمجتمعات التي يعيشون فيها، لكنهم كانوا في الأساس معزولين عنها، أما ما كان يفعله «بياتونيتو» فقد كان أكثر دلالة، فالسيارات تهيمن على معظم مدننا، كل عام يُقْتَل نحو 270000 من المشاة بفعل المركبات الآلية حول العالم طبقًا لما ذكرته منظمة الصحة العالمية، وهذه النسبة تبلغ 22 بالمائة من مجمل الوَفَيات السنوية جَرَّاء حوادث المرور، والتي تبلغ 24.1 مليون حالة وفاة، (تُعَدُّ الإصابات الناتجة عن حوادث المرور تاسع أسباب الوفاة على مستوى العالم، لكن منظمة الصحة العالمية تتنبأ بأنه سيتقدَّم كي يكون السبب الثالث بعد مرض القلب والسكتات الدماغية بحلول عام 2020).

ما بين عامي 2003 و 2012 قُتِل ما يزيد عن 47000 من المشاة في شوارع أمريكا، وهو عدد يزيد عن ثُلُث عدد ضحايا جرائم القتل تقريبًا، وبينما كان المعدل السنوي يتذبذب حول رقم 5000، كان نصيب الوَفَيات المرورية للمشاة يزحف ببطء للأعلى بنسب تتراوح بين 12 و 15 بالمائة، أما عدد من قُتِلوا من السائقين والركاب في الحوادث المرورية، فقد انخفض بنسبة الثلث خلال السنوات العشر ذاته، ذُكِرَ عن أحد الاتحادات القومية الأمريكية والذي يُدعَى «أمريكا تنمو بذكاء» أن سبب هذا الانخفاض في معدل الوَفَيات راجعٌ لما طرأ من تحسين على تصميم المركبات، وأيضًا بسبب إنفاذ قوانين الالتزام بأحزمة الأمان والضرب على أيدي السائقين السكارى، لكننا في الوقت ذاته، يتابع تقريرهم «لم نكرس من الأموال أو المجهود لأمن وسلامة المشاة قدرًا يقترب حتى ممَّا صرفناه على الراكبين؛ ففي الولايات المتحدة تدهم مركبة أحد المشاة كل ثماني دقائق»، غير أن هذا الخطر المُحدِق لا يهدد الجميع بالنسبة ذاتها؛ فالمسنون والأطفال ما بين الخامسة والتاسعة مثل الأقليات العرقية والإثنية وسكان الأحياء الفقيرة، هم أكثر عرضة لينتهي بهم الأمر في مؤخرة سيارة إسعاف.

كان منبه جوجل ما يزال يطلعني على آخر المستجدات، في يناير من عام 2014 وفي خلال أسبوع واحد قُتِل ثلاثة أشخاص في الشارع الـ 96 في الجانب الشمالي الغربي من نيويورك، من بينهم طبيب صدمته سيارة إسعاف، ثم هرسته سيارة سيدان، وصبي في التاسعة صدمته سيارة أجرة

بينما كان يعبر الشارع مع والده، في تلك الواقعة غُرِّم سائق سيارة الأجرة ثلاثمائة دولار؛ لأنه لم يقف ليسمح لأحد المشاة بالمرور، وفي كوينز حُمِلَتْ ثلاث فتيات مراهقات للمستشفى بأقصى سرعة، بعد أن دهمتهم سيارة رياضية متعددة الأغراض وهن يمشين على رصيف المشاة، قال السائق بعدها: إنه أخطأ فضغط على دواسة الوقود بدلًا من أن يضغط على المكابح، ولم تُوجَّه إليه أيَّةُ تهم.

إن تشتُّت الانتباه أثناء القيادة (عن طريق التحدث أو إرسال الرسائل النصية أو التغريد على موقع تويتر) هو مشكلة آخذة في التفاقم، ففي الولايات المتحدة تتسبب هذه المشكلة في 1.6 مليون حادثة و330000 إصابة سنويًّا، وبحلول عام 2016 يُتوقَّع أن تكون هذه الظاهرة سببًا في المزيد من الوَفَيَات المرورية أكثر مما تسببه القيادة تحت تأثير الخمر في كندا، غير أن السائقين لا يُعَدُّون الجناة الوحيدين هنا، فتشتُّت الانتباه أثناء المشي هذه المرة قد يتسبب في زيادة عدد من ارتادوا غرف الطوارئ من المصابين في الولايات المتحدة عام 2012، بأربعة أضعاف أمثالهم عام 2005، ففي مقابل كل مقطع فيديو ممتع تشاهده على موقع يوتيوب كمقطع تلك السيدة التي عثرت فسقطت في نافورة مركز تجاري ببنسلفانيا هناك حقيقة مفزعة تتعلق به، فقد حدث في مدينة تورونتو أنْ حاولت امرأة في الثامنة والعشرين من عمرها أن تعبر الطريق أثناء حديثها في الهاتف، فوجدت نفسها ترتطم بجانب شاحنة أثناء انعطافها؛ فماتت منسحقة تحت عجلاتها الخلفية، يقول الدكتور «ريان ستانتون» المتحدث باسم الجمعية الأمريكية لأطباء الطوارئ، والذي لا يفتأ يخيط جروح رؤوس أولئك الذين يرتطمون بلافتات الشوارع، وجروح ذقون من يرتطمون بصنابير إطفاء الحريق: «ما من أحد منا إلا ويدرك جيدًا أنه يجب عليه أن يتلفَّت يمينًا ويسارًا قبل أن يعبر الطريق، لكن المرء أثناء مراسلته الآخرين نصيًّا، ينسى تلك القواعد التي تُبقِيه على قيد الحياة.»

لم يكن أيٌّ مما سبق مفاجئًا لـ «شيبوان شابرون» اختصاصية العلاج الطبيعي في جامعة ويست سيدني بأستراليا؛ فقد أظهرت أبحاثها أن التراسل النصي أثناء المشي لا يؤدي فقط إلى تشتيت تدفق المعلومات الحسية التي تأتي المرء مما يحيط به؛ بل إنها أيضًا تؤدي إلى تغيير أسلوب مشيته؛ حيث إنها تجعل المرء يمشي كأنه إنسان آلي، تتحرك ذراعاه ورأسه وجزعه بتخشُّب، كما أنها غالبًا ما تجعله يحيد عن مساره الذي ينتويه، أو يفقد توازنه إذا ما ارتطم بشيء ما، تطرح

«شابرون» فرضية مفادها أن الماشي بهذه الحالة يكون رأسه محاذيًا لهاتفه المحمول؛ مما يؤدي بالنظام الدهليزي الموجود في أذنه إلى أن يتلقى «معلومات زائفة».

أثناء مشيي مع «مات جرين» لم أجده مرة يتحدث في هاتفه أو يراسل أحدهم نصيًّا؛ بل إنه حذرني ذات مرة أنه قد يُضْطَر لأن يطلب مني التوقف عن أسئلتي إذا ما وجد أمامه الكثير ممَّا يتعيَّن عليه مشاهدته أثناء مشيه؛ فقد كان مرتبطًا بشدةٍ بما يحيطه، غير أن ظهور «بياتونيتو» وهذا التفشي لظاهرة موت المشاة المصاحب لتشتُّت الانتباه، يشير إلى رغبة عامة مكبوتة في استخدام أرصفة المشاة.

لقد ظل الناس لزمن طويل يُكِنُّون نوعًا من أنواع الازدراء للمشي، بل إن مصطلح Pedestrian الإنجليزي لم يَشِع استخدامه في اللغة الإنجليزية حتى القرن الثامن عشر، وهو مشتق من الكلمة اللاتينية Pedester والتي تعني سيرًا على القدمين، فقبلها كان المصطلح الأكثر أناقة هو Equester والتي تعني على الحصان، يُعرِّف قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية كلمة pedestrian بمعاني: عادي أو بسيط أو تافه أو لا إلهام به (وأحيانًا يعرِّفها كنقيض لرحلة البيجاسوس المجنح)، أو بعبارة أخرى على حد تعبير «توم فاندر بلت» في كتابه «المرور»: «لقد كان من لا يمتطون الأحصنة سواء الطائرة منها أو التي لا تطير أناسًا عاديين لا مزيَّة لهم.»

في القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان نبلاء مصر يستخدمون العربات التي تجرها الجياد للترحال من الولايات النائية ذات الحدائق المترامية الأطراف إلى المدن، وكذلك كان أثرياء روما القديمة يبنون قصورًا واسعة في ضواحي المدن، كتب «لي جالاجر» في كتابه «نهاية الضواحي الريفية» يقول: إنه قد جاء في إحدى الألواح الفخارية التي يبلغ عمرها 2500 عام، والتي أرسلها أحد أهل بلاد الرافدين القاطن في مدينة أور إلى ملك الفرس يقول له: «إن ضيعتي قريبة جدًّا من مملكة بابل؛ حتى إنني أحظى بكل مزايا الحياة في المدن، لكنني إذا ما رجعت إلى بيتي انعزلت تمامًا عن ضوضاء المدينة وغبارها»، لقد ظلت المدن مراكز للثقافة والتجارة حتى أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، عندما بدأ محدِثو الثراء في التحول عن تلك المراكز الحضرية الرَّثَّة التي حَوَتْها أوروبا إبان ثورتها الصناعية، في عام 1814 بدأت عبَّارة «فولتون» النهرية تَذرَع النهر الشرقي جيئة وذهابًا بين مانهاتن وبروكلين، وصارت مرتفعات بروكلين أكبر ضاحية في العالم يتنقَّل الناس منها وإليها جيئة وذهابًا، ثم ما لبث الأمريكيون أن ارتقوا بظاهرة

الخروج من المدينة تلك إلى مستوى آخر بعد أن أماط «هنري فورد» اللثام عن موديل سيارته الجديد T عام 1908، إن ثقافة التنقل بالسيارات ونمو الضواحي قد انفجرت عقب الحرب العالمية الثانية، لقد كانت السيارات تدل على الثراء والاستغناء؛ فقد كان الناس مفتونين بما لها من قدرة على القفز فوق حدود الزمان والمكان.

في أمريكا الشمالية نجد المناطق الحضرية قد تمدَّدت بفعل المطوِّرين العقاريين، الذين توسعوا في بناء التقسيمات السكنية التي تتخذ نظام صفوف المنازل المتراصة، كما أن مخططي المدن لم يبخلوا في وضع الطرق السريعة التي تصل بين المدن والضواحي، بما تحويه من مراكز تجارية تخدم المسافرين، بالإضافة إلى توافر ماكينات جَزِّ العشب والأثاث المناسب للجلوس في الشرفات، كلها عوامل أدت إلى رغبة الناس في الضواحي، إن هذا التخطيط الحضَري الذي يتمحوَر حول السيارات، قد أدى إلى تغيُّر نمط حياتنا، ولم تفلح حفنة المطبات التي وُضِعَت على الطرق في تحجيم تقدم هذا التغير، فثلاثة أرباع المباني السكنية التي شُيِّدَت في الولايات المتحدة بين عامي 1980 و 2010 أقيمت في الضواحي، على الرغم من أن تلك الأسباب التي دفعت الناس للفرار من وسط المدينة كطفح المجارير والتلوُّث الدخاني والأمراض لم تَعُد مُلِحَّة كما سبق.

كانت هذه السيارات التي يغذيها الجازولين زهيد الثمن، والتي تدعمها الدولة من خلال ضرائب منخفضة ومخططات لتمويل آجل والتي أسماها «تشارلز مونتجومري»: «المدن المتناثرة»، تمثل حلم الرأسماليين كما ذكر الأخير في كتابه: «المدن السعيدة: تغيير نمط الحياة عبر التخطيط الحضري»، فالمركبات الخاصة تحمل الناس إلى أماكن خاصة، وقد حاولت جماعات الضغط الداعمة للسيارات الترويج لما تقدِّمه السيارات من أمان وحرية بمحاولة إقناع الأمريكيين بضرورة تحجيم المشاة؛ فصار المشي دون الانتباه للمرور جريمة، لقد تخلصت المدن من خطوط الترام والسكك الحديدية، أو كما قال الناقد المعماري الأمريكي «لويس مامفورد»: «لقد صارت زهرتنا القومية هي زهرة البرسيم الخرسانية».

لقد كتب الكثير عن تبعات الانتقال إلى الضواحي وتأثيراته على أمور كالتجانس؛ وذلك لأن ثبات النقاط السعرية جنبًا إلى جنب مع التمييز العنصري، لم يكونا عوامل مشجعة على التمازُج بين السكان، ومن تلك التبعات كذلك وجود المدن الداخلية المنعزلة؛ وذلك لأن الطرق السريعة التي تغذي مناطق وسط المدينة استطالت حتى اخترقت مناطق الطبقات العاملة، ثُم كان من شأن تمدُّد

الضواحي أن ازداد اعتمادنا على السيارات في الأنشطة اليومية؛ مما زاد اعتمادنا على المنتجات البترولية، وأدى كذلك إلى اضمحلال النشاط البدني بصورة خطيرة، كتب «مونتجومري» يقول: «إن تلك الضواحي هي أكثر سبل الاستيطان ارتفاعًا في التكلفة واستهلاكًا للموارد والتهامًا للأراضي وتلويثًا للبيئة»، إن المدن تحتضن نصف سكان العالم، وتستهلك 75 بالمائة من طاقة العالم، وتنتج 80 بالمائة من الغازات الدفيئة، أما سكان الضواحي فهم يتسببون في انبعاث ضعف نسبة الغازات الكربونية التي يتسبب سكان المدن في انبعاثها.

كما أن هناك اعتبارات صحية لا بد أن تُؤخَذ في الحسبان؛ ففي تورونتو ترتفع معدلات الإصابة بمرض السُّكَّري بين أولئك الذين وُلِدوا في فترة طفرة المواليد من سكان الضواحي عنها بين سكان وسط المدن، وذلك على الرغم من الثراء النسبي لسكان الضواحي، وهو محدِّد جغرافي عادةً ما يعطي إنذارات على المستوى الصحي، لكن تلك المعدلات تنخفض لدى سكان المدن لأنهم يمشون أكثر.

إن أهل تورونتو هم أصحاب أكبر معدل للوقت الذي يُقضَى في الانتقال إلى العمل في كندا كلها؛ إذ يبلغ ذلك المعدل 33 دقيقة في اليوم الواحد، وتتساوى معها في الولايات المتحدة مدينة نيويورك؛ فنحو 90 بالمائة من الأمريكيين يقودون سياراتهم إلى العمل يوميًّا، وأكثر من 75 بالمائة منهم يقودون سياراتهم إلى العمل منفردين، (في كندا يستقل ثلاثة أرباع السكان سياراتهم إلى العمل، وفي المملكة المتحدة يفعل ثلثا السكان الشيء نفسه)، يشير «مونتجومري» إلى دراسات قد خلَصت إلى أنه كلما قضى الناس وقتًا طويلًا في المواصلات إلى العمل زادوا تعاسة، وليس هذا فقط لأنهم يَعلَقون في زحام المرور، وإنما تصير حياتهم تعيسة بشكل عام، كتب الاقتصاديان السويسريان «آلوا ستوتزر» و«برونو فراي» في دراستهما المعنونة «التوتر لا يؤتي ثمارًا» قائلين: «إن زيادة الزمن الذي يُقضى في المواصلات بمقدار 23 دقيقة له تأثير على الإنسان يماثل تأثير انخفاض الدخل بمقدار 19 بالمائة»، بل إن الذي يقضي في المواصلات 60 دقيقة عليه أن يحظى بدخل أكبر بنسبة 40 بالمائة من ذلك الذي يمشي للعمل كي يتمتَّع بالرضا عن حياته.

تناول «روبرت بوتنام» أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد تأثير التنقُّل بالسيارات على المجتمع في كتابه المعنون «لعب البولنج منفردًا: انهيار وإحياء المجتمع الأمريكي»، فقد اتَّضَح أن مقدار الوقت الذي نقضيه في قيادة سياراتنا جيئة من العمل وذهابًا إليه، هو مؤشر لمدى إسهامنا في

واجبنا المجتمعي، يمضي «مونتجومري» قائلًا: «إن كل 10 دقائق إضافية تقضيها في المواصلات إلى العمل تقلِّص من اهتمامك الذي توليه للشئون المجتمعية بنسبة 10 بالمائة؛ لأنه حينها ستقل الاجتماعات الجماهيرية التي ستحضرها، وتقل كذلك اللجان التي سترأسها والعرائض التي ستوقعها والخدمات الكنسية التي ستقوم بها ... إلخ»، فإنك حينما تغادر منزلك فجرًا وتصارع زحام المرور في طريقك للعمل، ثم تعيد الكَرَّة في طريق عودتك، تصير متوترًا ومرهَقًا ولا يَعود لديك ما تستطيع أن تقدمه.

بحلول سبعينيات القرن العشرين، كان واحد من كل عشرة أمريكيين يذهب لعمله مشيًا، أما اليوم، فأقل من واحد من كل أربعين يفعل ذلك، يسمي الفيلسوف الفرنسي «برنارد أونري ليفي» هذا النمط الحياتي المُتخَم بالسيارات «نمطًا عالميًّا يحض على تفشي البدانة التي تقضي على الحياة تمامًا، سواء الحياة العامة أو الخاصة، لقد صار هذا المجتمع من قمة رأسه حتى أخمص قدمه فريسة لهذه الرتابة الغامضة التي تؤدي بالكائنات إلى التضخم والطفح ثم الانفجار».

يستهل «مونتجومري» حكاياته بوصف الفترة الثورية التي حكم فيها «إنريكى بنيالوسا» عمدة بوجوتا بكولومبيا ما بين عامي 1998 و2001، لقد بدأ «بنيالوسا» حركة تحويل المدينة من كونها واحدة من أكثر مدن العالم خطورة وتلوثًا إلى مدينة أكثر أمانًا وأكثر سعادة، من خلال طرقها المصمَّمة في شكل شبكة مغلقة إلى حارات مشجَّرة مناسبة لراكبي الدراجات الهوائية، كما أنه لجأ إلى تحسين نظام عبور الشوارع للمشاة، وكذلك من خلال الاستثمار في المتنزَّهات وغيرها من الأماكن العامة، ما فعله «بنيالوسا» سهَّل على السكان الفقراء أن يتجولوا في أرجاء مدينتهم، وسخَّر لهم أماكن يستطيعون فيها أن يختلطوا اجتماعيًّا بالآخرين دون أن يجور هذا على ما يتمتع به السكان الأكثر غِنًى، كما أن هذا قد ساهم في تسهيل تنقُّلهم كذلك من خلال تقليل الاختناق المروري في الطرق.

لقد أوضح «مونتجومري» أن المال لا يشتري السعادة، حتى الأزمة العقارية التي حدثت عام 2008 كان الثراء الشخصي شائعًا في كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وكندا، لكن الاستبيانات لا تدل على حدوث طفرة في السعادة تعادل تلك الطفرة في الثراء، فلم يحدث إلا أن صار الناس يمتلكون المزيد من السيارات، وصارت منازلهم أكبر مساحة، وصاروا يخلفون المزيد من القمامة، يتساءل «بنيالوسا» قائلًا: «ماذا ينقصنا كي نصير سعداء؟» أن نحاط ببشر آخرين، أن

نتصل مع الطبيعة، أن نشعر بقدر من المساواة، ويقول كذلك: «نحتاج لأن نمشي كما تحتاج الطيور للطيران».

غير أن ذلك البندول قد عاد للتأرجح ولكن للجهة الأخرى هذه المرة، ففي عام 2011 تجاوز النمو السكاني الحضري في الولايات المتحدة نظيره في الضواحي، وهو تغيُّر دراماتيكي لم يحدث منذ أن اختُرِعت السيارات، ففجأة صار مليونان من السكان من جيل الطفرة السكانية وكذلك من جيل الألفية يقطنون أكثر الأحياء المركزية تكدُّسًا، وصارت أعينهم تتطلع للشوارع، لقد صارت ممارسة المشي على وشك أن تنتعش من جديد.

تُوُفِّيَت «جاين جيكوبس» عام 2006، لكن الحركة التي تزعمتها صارت الآن أقوى من ذي قبلُ، ففي ستينيات القرن العشرين قادت حملات اعتراض على شق طريق مانهاتن السريع الأدنى (والذي كان سيدمر متنزَّه ميدان واشنطن)، وكذلك امتداد طريق تورونتو سبادينا السريع، لقد كانت تلك المعارك التي خاضتها معاركَ مثيرة للجدل، لكن أفكارها تلك التي عُدَّت سابقًا أفكارًا راديكالية، صار المئات من عمد المدن الكبرى يرونها اليوم أفكارًا عقلانية كعمدة نيويورك «بيل دي بلاسيو» وعمدة كالجاري «ناهيد نينشي».

في عاصمة كندا البترولية جعل «ننشي» طرق التنقل متعددة الاستخدامات واحدة من الإنجازات الأساسية التي حققها خلال ولايته، وبعد أن أُعِيدَ انتخابه مباشرة عام 2013 أنشأ حارة الدراجات الهوائية في وسط المدينة، كما أنه تعهَّد بإلغاء الدعم المالي المُقدَّر بـ 4800 دولار، والذي يتلقاه كل منزل جديد يُبنَى في الضواحي، (إن المجتمعات الجديدة تحتاج لقدر كبير من البنية التحتية ما بين طرق وخطوط مياه ومدارس ومكتبات، كان المطوِّرون العقاريون قد تكفَّلُوا بما نسبته 78 بالمائة من النفقات المطلوبة في كالجاري، بينما تكفَّل دافعو الضرائب ببقية الفاتورة والتي وصلت لـ 33 مليون دولار عام 2012).

أما عن «دي بلاسيو» ففي يناير من عام 2014 وقبل أن يتسلم مهام منصبه بشهر واحد، وضَع مسألة سلامة المشاة على رأس برنامجه، فبعد ذلك الأسبوع الدموي في الشارع السادس والتسعين بالجانب الجنوبي الغربي، اقترح تخفيض الحد الأقصى للسرعة في شوارع وسط المدينة ليصير 25 ميلًا بدلًا من 30 ميلًا، وأكد على تطبيقه بشكل أكثر صرامة، إن قائدي السيارات المسرعين، أو أولئك الذين لا يتمهَّلون ليسمحوا للمارة بالعبور يتسببون في 70 بالمائة من وَفَيات

المشاة بنيويورك، وفيما بين عامَي 2003 و 2012 لقي ما نسبته 63 بالمائة من المشاة حتفهم في حوادث طرق، بفعل سائقين يقودون بسرعات تصل لأربعين ميلًا في الساعة أو أكثر، وفي يونيو من عام 2014 أقر «دي بلاسيو» قانونًا لغرامات مرورية جديدة، وبالفعل انخفض الحد الأقصى للسرعة إلى خمسة وعشرين ميلًا في الساعة، وفي كل عام تُحدَّد العديد من المناطق التي تحيط بالمدارس، والتي يتقلص الحد الأقصى للسرعة فيها إلى عشرين ميلًا في الساعة، كما صار سائقو سيارات الأجرة المسؤولون عن حوادث خطيرة تقتل مارًّا أو تصيبه إصابات بليغة، يفقدون رخصة القيادة، وأولئك الذين لا يتمهَّلون ليسمحوا للمارة بالعبور، يُدانون بجُنحة إجرامية، يقول العمدة: «إن الموت أو الإصابة في شوارع المدينة لم يعودا أمرًا مقبولًا، ولم نعد نحن نرى تلك الحوادث الفظيعة أمرًا لا مفر منه.»

إن هذه القوانين الجديدة في نيويورك استُقِيَت من مبادرة الرؤية صفر السويدية، إن الدول الإسكندنافية هي بصور عدة رأس حربة على جبهة الحركة الحضرية، كان المعماري والمصمم الحضري السويدي المشهور «يان جيل» واحدًا ممن تبَنَّوْا مبكرًا رؤية «جيكوبس»، إن «جيل» يُطعِّم عمله بعلم الاجتماع وعلم النفس اللذين يُعدَّان الجانب الإنساني من المعمار، وكلها عادة ما تتضافر معًا لتحقيق هدف التقدُّم، كان ينادي بتغيُّر تدريجي كالتغيُّر الذي حدث في كوبنهاجن، واستغرق أربعين عامًا للانتقال من ذلك النمط الحياتي النشاز الذي يتمحور حول السيارات إلى ثقافة ركوب الدراجات ودعوة الأطفال للمشي، في عام 1962 عندما تحوَّل شارع ستورجت الذي هو الشارع التجاري الرئيس إلى منطقة خالية من السيارات، قال متشككون: إن تلك المدينة متطرفة جدًّا ناحية الشمال؛ مما قد يُفشِل تلك التجربة، لكن ما حدث أن حركة المشاة قد ارتفعت بنسبة 35 بالمائة في السنة الأولى وحدها، وتحول ستورجت إلى أطول منطقة تجارية للمشاة في أوروبا كلها، جاذبًا 250000 زائر يوميًّا في الصيف، ونصف هذا العدد تقريبًا في أيام الشتاء، يقول «جيل»: «إن المدينة الناجحة كالحفل الناجح، تعرف أنها ناجحة عندما يظل الناس فيها لأطول وقت، وربما لوقت أطول من اللازم؛ وذلك لأنهم يستمتعون بوقتهم فيها.»

كما أن المخطِّط المدني الأمريكي «جيف سبيك» قد انضم إلى صف «جيكوبس»، ففي كتابه المعنون «مدينة ترحِّب بالمشي: كيف يمكن لوسط المدينة أن ينقذ أمريكا خطوة بخطوة» يقدم لنا المثال القوي تلو الآخر على المجتمعات التي اتخذت معايير راسخة لإعادة تخيُّل مستقبلها، إن

الكتاب هو دعوة لتوحيد الصفوف؛ دفاعًا عن فكرة مفادُها أن انفتاح البيئة الحضرية للمشي ليس بالأيديولوجية المثالية الخيالية، وإنما هو حَلٌّ عملي بسيط لقائمة كبيرة من المشكلات المعقَّدة، من بينها القدرة التنافسية الاقتصادية والرخاء العام والاستدامة البيئية، إنه هجمة مرتدة ضد «الطرق العريضة وأرصفة المشي المهترئة، والأشجار التي اقتُلِعت، ومطاعم الوجبات المقلية التي تقدم خدمة الطلب أثناء البقاء في السيارة، وساحات صَفِّ السيارات التي تبلغ مساحة الواحدة منها عشرة فدادين»، وكلها جعلت تنقُّلَ المشاة في كثير من المدن الكبيرة «ضربًا من الفرضيات النظرية».

قبل بضع سنين مضت كنت في لوس أنجلوس، وكنت قد حجزت لنفسي غرفة في فندق صغير في الجهة المقابلة من متنزَّه سيتي واك التابع لأستوديوهات يونيفرسال، حيث مكثت هناك لأسبوع كامل أغطي قصة صحفية، ورغم أنه لم يكن يفصل غرفتي الرَّثَّة ووجهتي اليومية سوى تقاطع واحد، فإنني كنت أحتاج لنحو 20 دقيقة كي أصل إلى سيتي واك، وهي رحلة كانت تَضطرُّني للمشي تحت طريق سريع، عابرًا شارعًا عريضًا تَحُفُّه الأشجار إلى طريق ذي مدخل مزدحم وخلال سلسلة من ساحات صفِّ السيارات، كل هذا لأصل إلى نموذج مصغر لشارع بطول ثلاثة كُتَل سكنية تَحُفُّه من الجانبين سلسلة من المطاعم، (كي نكون منصفين هنا لا بد أن نقول: إن لوس أنجلوس تتحسن، فقد ألهمتها تجربة بوجوتا، وأدت بعض الوقائع التي تعرضت لها المدينة إلى إغلاق الشوارع أمام السيارات وجذب الآلاف من راكبي الدراجات الهوائية ومنتعلي أحذية التزلج والمشاة إليها، لكن برغم هذا يذكر الكاتب «ديفيد هوكمان» أنه عندما دعا بعضًا من رفاقه ليزوروه في المدينة، وصلوا متأخرين لأنهم اضْطُرُّوا لترك إحدى سياراتهم عند بداية خط المشاة، وقادوا الأخرى إلى بداية الطريق، عندها شعر أنه يريد أن يقول لهم: «يا رفاق، إنكم لا تحتاجون سوى سيارة واحدة في هذا الطريق الصديق للمشاة.»

كتب «سبيك» يقول: إن إتاحة الفرصة للمشي لها فوائد عديدة، من أهمها الحيوية الحضرية، ومدن كنيويورك وسان فرانسيسكو التي تُعَد كل منها قِبلة لممارسي المشي، قد أدركت هذا جيدًا ووضعت نفسها على الطريق الصحيح، لكن في غيرها من المدن ظل مهندسو تلك المدن ومخططوها لزمن طويل تُشتِّت أفكارَهم ما يسميه هو الطامتين الكبريين، واللتان هما المرور السَّلِس ومساحات صفِّ السيارات الواسعة، والتي تحول قلب المدينة إلى «أماكن يسهل الوصول إليها لكنها لا تستحق الذهاب إليها» على حد قوله، في ثمانينيات القرن العشرين ركزت مخططات التجميل الحَضَرية في أمريكا الشمالية على خمسة أشياء، وهي: طوب البناء، واللافتات، والمسارح،

والأعمدة، والسواتر، هذه الأشياء الخمسة والتي صارت في الوقت الحاضر «تتَّصِف بها الكثير من أحياء وسط البلد المهجورة»، في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، أُهِّل أكثر من 150 شارعًا للمشاة في الولايات المتحدة، لكن عشرات أخرى فشلت في هذا التأهيل على الفور، طبقًا لنظرية «سبيك» العامة عن إتاحة الفرصة للمشي فإن رعاية تلك «المخلوقات الضعيفة» التي نعرفها باسم المشاة تتطلب طرق مشي تتحقق فيها معايير أربع، أولها أن تكون مفيدة؛ أي أن تأخذنا إلى أماكن نحتاج لأن نرتادها بانتظام، وثانيها أن تكون آمنة، وهذا لا يعني أن تكون آمنة فقط من السيارات، وإنما أيضًا من كل التهديدات الأخرى، وثالثًا أن تكون مريحة؛ أي ألا تكون طُرُقًا تعصف بها الرياح وتسيطر عليها الأبراج العالية، موحَّدة الشكل ومساحات صفِّ السيارات، ورابعًا أن تكون مثيرة للاهتمام؛ فأرصفة المشي تلك «لا بد أن تكون مُصطَفَّة بمبانٍ فريدة من نوعها، بها وجوه وَدودةٌ تطغى عليها اللمحة الإنسانية».

لكن لحسن الحظ هناك هجرة ديموغرافية تجري على قدم وساق؛ فقد صار المسنون الوحيدون من جيل طفرة المواليد أنفسهم يتُوقون للأنشطة الثقافية والحركة السهلة التي تتميز بها مناطق وسط المدينة، يقول «كريستوفر لينبرجر» عالم الاقتصاد بمعهد بروكينجز: إن تلك المنازل الواسعة التي في الضواحي تتكلف نفقات باهظة لتدفئتها وصيانتها، كما أن الأحياء التي يعيشون فيها تعطي إحساسًا بالانعزال، خاصة وأن التقدُّم في العمر يجعل القيادة أكثر صعوبة، في الولايات المتحدة هناك نحو ثمانين مليونًا من جيل طفرة المواليد، وهم يمثلون ربع السكان، وفي وقت لاحق سوف تتسبب القرارات التي سوف يتخذونها فيما يتعلق بالإسكان ونمط الحياة في حدوث موجات من الهجرة، في الوقت ذاته نجد جيل الألفية الذين وُلِدوا في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، والذين هم رهط أكثر عددًا، قد زهدوا في السيارات، فمنذ تسعينيات القرن الفائت بدأت نسبة الأميال التي يقطعها الشباب في العشرينيات من عمرهم قيادةً تنخفض في الولايات المتحدة من 8.20 إلى 7.13، وابتداءً من سبعينيات القرن ذاته ارتفع عدد من هم في التاسعة عشرة من عمرهم الذين اختاروا ألَّا يستخرجوا رخصة قيادة من 8 بالمائة إلى 23 بالمائة.

إن كتاب «مدينة ترحب بالمشي» مليء بشذرات على المنوال ذاته، يسجل «سبيك» بعض ملاحظات على غرار أن ثلثي ذوي التعليم الجامعي من جيل الألفية يختارون المكان الذي يفضلون العيش فيه قبل أن يبحثوا عن وظيفة، ويخطط ما نسبته 77 بالمائة منهم لأنْ يعيشوا بالمراكز

الحضرية في قلب المدن، وهذا الطلب المتزايد على سُكنَى وسط المدينة يمثل فرصة أمام مجالات التطوير العقاري والإنشاءات لأن تضع الأساس لاقتصاد أمريكا الشمالية لعقود قادمة، تمامًا كما فعل تأسيس الأحياء النائية (والطرق التي أخذت السكان إليها) في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، يشبِّه «سبيك» هذه الهجرة بعاداتنا في مشاهدة التلفاز، ففي سبعينيات القرن العشرين صوَّرَت مسلسلات كوميديا الموقف على غرار «جماعة برايدي» أحياء الضواحي المثالية منازل نائية في أماكن تكتظ بالأشجار المورِقة بينما ارتبطت مسلسلات أخرى تدور أحداثها في وسط المدينة مثل «هاواي 0.5» في أذهان الناس بالجريمة، لكن إذا ما قفزنا لبضعة عقود من السنين التالية لوجدنا مسلسلات مثل «الأصدقاء» و«ساينفلد» تهيمن على الشاشة الصغيرة، وفجأة لم تعُد المدينة آمنة فقط بل وممتعة أيضًا.

هناك مؤسسة استشارات دولية تسمى «ميرسر» تجري استقصاءً سنويًّا عن مدى جودة سبل العيش، مرتِّبة المدن حول العالم طبقًّا لعشر فئات، من بينها: بيئاتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والطبيعية، في عام 2012 وكما هو معتاد تصدرت كلٌّ من فيينا وزيورخ هذه القائمة، تتبعهما أوكلاند وميونخ وفانكوفر، وهيمنت أوروبا وأستراليا ونيوزيلاندا وكندا على المراكز العشرين التالية لهم (أتت أواتاوا في المركز الرابع عشر)، وكانت المدينة الأمريكية الأولى التي تضمنتها القائمة هي هونولولو، ولم تتضمَّن المدن الخمسين الأولى سوى ثماني مدن أمريكية فقط، من بينها سان فرانسيسكو ونيويورك وواشنطن وبوسطن، أخذ «سبيك» يقارن بين هذه التراتبيات للمدن الأمريكية من حيث ترحيبها بالمشاة، ثم لم يُبدِ أي اندهاش من أن مدنًا حضرية مترامية الأطراف مثل لوس أنجلوس أو هيوستن لم تحظَ بأي مركز في تلك القائمة، ففي كل عام تختار «ميرسر» قائمة أفضل المدن من تلك التي هي «مناسبة للمشي أكثر منها للقيادة»، إن كتاب «مدينة ترحب بالمشي» يُعَد مقدمة تمهيدية مكوَّنة من عشر خطوات تبين كيف لمدينة ما أن تكون صديقة للمشاة، وهذا الكتاب يجب أن يقرأه كل مُختَصٍّ بالتخطيط الحضري، وكل سياسي أيضًا، وكذلك أي أحد يقضي وقته في المدينة.

يقترح «سبيك» أولًا أن توضع السيارات في مكانها المخصص، فهو يعتقد أن تلك المعاملة التي يتلقاها مواطنو الدرجة الثانية هي أمر يمكن التخلص منه بسهولة، وبينما كانت المدن الكبرى الأخرى تتمدَّد، لم تحصل واشنطن العاصمة إلا على 10 بالمائة من الأربعمائة وخمسين ميلًا التي خُصِّصَت لها لشق الطريق السريع في وسط المدينة بفعل المعارضة الشديدة ذات الصوت العالي،

(كان واحد من الشعارات التي رفعها المعارضون وقتها «طرق البيض تخترق أحياء السود»)، وعوضًا عن هذا خُصِّصَت تلك الأموال لإنشاء نظام مترو أنفاق موسَّع، وهو قرار لقي صدًى بين مجتمع وسط المدينة الثري الحضري.

لكن «سبيك» لا ينادي بالتخلُّص من السيارات في مدننا، قائلًا: إننا لا نعيش في كوبنهاجن؛ بل «إن السبيل الصحيح هنا هو استقبال عدد مناسب من السيارات التي تسير بسرعة مناسبة»، وهو الأمر الذي يقود إلى ثاني اقتراحاته، ألا وهو خلط الاستخدامات، فرغم أن قوانين التخطيط المدني كانت مسؤولة عن فصل المصانع التي تنبعث منها الغازات عن المناطق التي نعيش ونلهو بها، فإنها أيضًا قد فصلت بيوتنا عن أي شيء آخر نفعله داخل المدينة، لا بد أن نسهل «العمل والتسوق والشرب والتعلم والاستمتاع والاجتماع والعبادة والعلاج والتزاور والاحتفال والنوم» عن طريق جعل تلك الأماكن التي نمارس فيها كل هذا على مسافة نستطيع أن نمشيها بين كل منها والآخر، ولا بد أن نضع قوانين بناء جديدة وخططًا للتطوير تشجع على وجود مجموعة كبيرة من الاستخدامات المختلفة لقطعة أرض واحدة داخل مركز المدينة، يقول «جيل»: إن هذا لا يؤثر فقط على سهولة التنقل وما ينتج عنه من سعادة، ولكنه يؤثر أيضًا على الأمان، فالاستخدامات المتعددة للمنطقة الواحدة تؤدي إلى نشاط مستمر على مدى اليوم في الشوارع، حتى لو كان هذا النشاط هو مجرد ضوء منبعث من نافذة مسكن يُشِعُّ على طريق مظلم، فإنه يظل «علامة مطمئِنَة لمن يعيشون حوله».

كما أن تعدد الاستخدامات يتناغم مع المفهوم الهولندي المسمى Woonerf والذي ينص على أنه في حالة وجود شارع مشترَك، تكون الأولوية فيه للمشاة وراكبي الدراجات الهوائية، في تلك الحالة لا تكون هناك حواجز تفصل أولئك المارة وراكبي الدراجات عن السيارات، لا حواجز ولا أرصفة، إلا أن سرعة القيادة تُحجَّم لتصير بذات سرعة المشي؛ ولهذا فإن معدل الحوادث المرورية في تلك الشوارع دائمًا ما يكون أدنى بكثير من نظيره في الشوارع المعتادة، وإذا ما حدثت تصادمات في تلك الشوارع، تكون الإصابات أقل خطورة بسبب تقلص السرعة.

وفي الخطوة الثالثة التي حددها «سبيك» بتحسين وضع صفتِ السيارات، وضح أنه يوجد في الولايات المتحدة نحو 750 مليون مساحة لصفتِ السيارات في أمريكا، تحتل من الأراضي الحضرية ما لا يحتله غيرها، هذه المثلثات الإسفلتية يكلف الواحد منها في أي مكان تُبنَى فيه ما بين

40000 و 40000 دولار، طبقًا لقيمة الأرض التي يُقام عليها، وعلى ما إذا كان سطحيًّا أو مرآبًا تحت الأرض، هذا الكم الهائل من مساحات صفتِ السيارات يتيح مَزِيَّة عظيمة لقائدي السيارات «والذي بدوره يحد من تطور المشي وركوب الدراجات والمرور»، فمع وجود 250 مليون سيارة تجوب الطرق الأمريكية، نجد هناك أكثر من نصف مليار مساحة للصَّفتِ شاغرة معظم الوقت، ولماذا هذا العدد الكبير؟ لأن القواعد تشترط على كل منشأة جديدة عددًا من مساحات صَفتِ السيارات، سواء كانت هذه المنشأة محطة تموين وقود أو مركزًا تجاريًّا أو حمام سباحة، يُشتَرَط لحمام السباحة مساحة صَفتِ سيارة واحدة لكل 2500 جالون مياه في الحمام، وكذلك لأنَّ تجاوُزَ تلك القواعد يحتاج لكثير من المعارك البيروقراطية، حتى بالنسبة للمشاريع التي تقام في نقاط تبديل وسائل المواصلات أو في الأحياء المهيَّأة للمشاة.

يرى «دونالد شوب» أستاذ التخطيط الحضري في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس ومؤلف كتاب «الكلفة الباهظة للمرائب المجانية» أن على المدن الأمريكية أن تتبنى النهج الأوروبي بشكل أكبر، فبدلًا من طلب المزيد من مساحات الصَّفتِ مع تحجيم كثافة السيارات، فمن الأفضل أن يُحَجَّم الصَّفتُ وتزداد الكثافة، كما يقترح أيضًا زيادة تسعيرة عدادات الصَّفتِ الموجودة في الشوارع، والتي تبلغ قيمتها ربع تكلفة الصَّفتِ في مرآب السيارات، وهو الذي يؤدي إلى اختناقات مرورية، كما تشير إحدى الدراسات التي أُجرِيَت على حي مانهاتن؛ وذلك لأن كثيرًا من السيارات تظل تسير في دوائر بحثًا عن مكان للصَّفتِ في الشارع، حتى إن أحد الأصدقاء الذي انتقل من أوتاوا إلى مانهاتن، يقول: إنه من المعتاد أن يقضي ساعة كاملة يدور حول شقته بحثًا عن مكان لصفتِ سيارته، ثم في النهاية يستسلم ويتصل بزوجته التي تقابله عند باب المبنى وتأخذ منه السيارة لتستكمل هي تلك الرحلة المحمومة.

يقول «شوب» على عكس ما يفترض المنطق: إن الصفتّ في الشوارع لا يُبعِد الناس عن وسط المدينة، بل إنه يَحُضُّ على مزيد من التجوال بالسيارة، وهو أمر يحبه التجار، فكلما زاد الزبائن زادت المبيعات، ورغم المخاطر الدائمة التي يتعرض لها راكبو الدراجات الهوائية، فإن الأرصفة العريضة المشتركة تتيح أمانًا أكبر للمشاة؛ لأنها تُوجِد عازلًا بينهم وبين السيارات المُسرِعة، كما أن الأرباح التي تحققها البلديات من عدادات الصفتِ تلك، يمكن أن تُخصَّص لتحسين

الأرصفة والإضاءة، ولإضافة أشجار ومقاعد في الشارع؛ مما يجعل مناطق التسوق والترفيه المركزية أكثر متعة.

أما البند الرابع على قائمة «سبيك» فيتعلق بالتصميم المناسب وشبكات المواصلات المتكاملة المتفرعة، فالناس يُحبُّون أن يمشوا حتى الحافلة أو القطار، ثم بعدها إلى الوجهة التي يقصدونها، أما البند الخامس فيتعلَّق بحماية المشاة الذين يعيشون في كُتَل سكنية أصغر والشوارع ذات الحارات الأقل عددًا، فالكتل السكنية الأصغر تتيح مزيدًا من الخيارات أمام المشاة، وتقلل معظم مسافات المشي، وهي المتغير الأكثر قابلية للتنبؤ به في معظم الحوادث المرورية التي تنتج عنها وَفَيات وإصابات، وهي النتيجة التي خلص إليها مهندسو جامعة كونتيكت بعد دراسة ما يربو عن 130000 حادثة مرورية، كُلَّما صغر حجم الكتلة السكنية صغرت الشوارع التي تحيط بها وقَلَّت سرعة السيارات التي تتحرك فيها، «وإذا ما تضاعف حجم الكتلة السكنية مرتين؛ تضاعفت وَفَيات الحوادث ثلاث مرات»، (وبالمناسبة لم تتجه الشوارع التي ضُيِّقت إلى فقدان سعة السيارات التي تتمتع بها بالضبط، كما أن توسيع الطرق لا يقلل من الاختناقات المرورية بفضل ظاهرة الـ «الطلب العمدي» التي تعني أنه عند الإفراط في توفير شيء ما مثل الطرق، فحينها يستخدمها الناس بشكل أكبر).

دعوني أُطلِعْكم على توصية أخرى من توصيات «سبيك»، ألا وهي تصميم المساحات بشكل مناسب، إن البشر قد تطوروا لأن يكونوا بحاجة إلى «أفق متسع يتيح الاختيارات وكذلك ملاذ آمن»، أي أن يتوافر له مكان يختبئ فيه وطريق مفتوح للهرب، وهذا هو السبب على الأرجح في أننا لا نحب ساحات صفِّ السيارات السطحية الواسعة، كما أننا لا نحب مرائب السيارات العمودية الموجودة في المجمعات السكنية.

في واحد من أوائل الأبحاث من نوعها، حللت مستشارة التخطيط «جاين فارو» وأستاذ الجغرافيا في جامعة تورونتو «بول هيس»؛ مدى انفتاح أحياء تورونتو ذات البنايات الشاهقة للمشي، لقد وجد الباحثان أن غالبية السكان لا يمتلكون السيارات ويعتمدون على المشي والمواصلات، ووجدا كذلك أن العديد من تلك الأحياء السكنية قد بُنِيَت بعد الحرب العالمية الثانية، وكان من صمَّموها قد افترضوا أن من سيسكنون تلك الأحياء السكنية سيكونون من مالكي السيارات؛ مما جعلهم يخلقون بيئة تلقي بالمشاة في خضم طرق شريانية واسعة تجري فيها

السيارات بسرعات كبيرة، وهذه المجموعات الهَشَّة التي من بينها الأطفال والنساء والعجائز تخشى المشي كثيرًا وخاصة في الليل، كما أن تلك المخاوف الدائمة من برك المياه الراكدة في الطريق والمقاعد المكسورة، والإضاءة الضعيفة وعدم القدرة على إيجاد التقاطعات، والجليد المتراكم على الأرصفة وصفائح القمامة التي تمتلئ بالنفايات حتى تتساقط حولها، كلها تساهم في تعميق الإحساس بالحرمان والإهمال، وهو ما يجعل القيام بالإصلاح والصيانة أمرًا بعيد الاحتمال، وأنه برغم كل هذه العيوب ما يزال الناس يستمتعون بالمشي في الأحياء التي يسكنوها؛ لأن هذا يغذي لديهم الإحساس بالاتصال مع المجتمع، كتب «هيس فارو» يقول: «إن بيئات المشي هي أكثر من مجرد طرق بسيطة تصل بين نقطتين، وإنما هي أقرب لنسيج متداخل يُعَدُّ وسطًا خصبًا للتفاعلات الاجتماعية الحرجة والتي عند حدوثها تجعل الناس لصيقين ببعضهم البعض.»

بعض التفاعلات تقطع الصلات بين الناس، إن ما تواجهه النساء من عدائية واحتمالات التعرُّض للعنف أثناء مشيهن وخاصة أثناء الليل يُعَد تمييزًا على أساس الجنس لا يحله التخطيط المدني أو تغير السياسات، فالتحرش والاعتداء أو مجرد التهديد بهما، يحدَّان من المساواة في حق ارتياد الأماكن العامة، كانت «سولنت» قد خصصت فصلًا كاملًا في كتابها «شهوة التجوال» لهذا الموضوع، فقد كتبت تقول: «إن الناس يرون في مشي المرأة وسيلة للعرض أكثر منها وسيلة للتنقُّل، فهم يعتقدون أن المرأة لا تمشي لتَرَى وإنما لتُرى وهو ما يعني أنهن يطلبن أي اهتمام من الناس»، في عام 2014 ذاع مقطع فيديو عبر الإنترنت يوثق تعرض إحدى الممثلات أثناء مشيها في شوارع مدينة نيويورك للتحرش اللفظي الجنسي أكثر من مائة مرة في غضون عشر ساعات، وفي عام 2012 خلص أحد الاستقصاءات التي أُجرِيَت في أمريكا إلى أن نصف النساء تقريبًا تخشين المشي وحيدات ليلًا في الأحياء التي يسكُنَّ فيها، وهي نسبة تزيد عن ضِعْف نسبة الرجال، ورغم كل الوعي المتزايد يومًا بعد يوم فيما يتعلق بثقافة الاغتصاب والعنف ضد المرأة، فإن مجابهة هذا التمييز يتطلب حركة أكثر عمقًا من أي تغيير مظهري حضري.

بنهاية هذه الملحمة التي تدور رحاها في نيويورك، سيكون «مات جرين» قد قطع 9000 ميل.

سألته: «هل مللت يومًا من المشي؟»

أقر لي قائلًا: إن بعض أجزاء المدينة مثل هارلم أكثر حيوية من أماكن أخرى أكثر هدوءًا وحضارة مثل لونج آيلاند، أو على حد قوله: «لكن هذا المشي هو الذي جعلني أفكر في المعنى الحقيقي للملل، لم يسألني أحد هذا السؤال عندما كنت مهندسًا أجلس في حُجَيرة تحت ضوء مصباح فلورسنت، أفعل الشيء ذاته يومًا بعد يوم، لكن عند المشي دائمًا هناك أمور جديدة».

تحت شارع 125 الذي يُعَد القطاع الرئيس الذي يمر من شرق هارلم لغربها، كانت جادة «كلايتون باول الابن» والتي سُمِّيَت نسبة لأول رجل من نيويورك ينحدر من أصول إفريقية يُنتَخَب عضوًا بالكونجرس، التقط «جرين» صورة للافتة مشاة متعرجة ذات رمز الاستجابة السريعة القابل للمسح الضوئي، كان الرمز يمنحك مدخلًا لموقع إلكتروني لمشروع فني يسمى «رصيف هايكو» الذي ترعاه وزارة المواصلات.

في الموقع وجدنا القصيدة التالية:

تخيل عالمًا

كل حركة فيه تصنع فارقًا

مرحبًا بك في هذا العالم

توقفنا في ساحة مزدحمة تحت مبنى الولاية في «شارع آدم باول الابن»، كان هذا المبنى أطول منشأة في هارلم كلها، وعند قاعدته كانت ساحة عامة من النوع الذي يحبه «سبيك»، كان ذلك الميدان المشمس مليئًا بالناس على آخره؛ فقد كان يقام فيه معرض صحي، وتحت خيام بيضاء كانت تُقَدَّم رسائل توعوية ومعالجات للأسنان واستشارات طبية.

مع انقضاء الظهيرة أشار «جرين» إلى بروز صخري قرب متنزَّه مورنينجسايد، وألقى عليَّ درسًا في جيولوجيا مانهاتن، أكلنا بعض ثمار التوت التي تنز عصيرًا أسود، أخذناها من شجرة كثيفة الثمار مزروعة في مواجهة متجر كبير، بينما كان هو يسرد عليَّ قائمة من الفواكه والنباتات التي يتناولها أثناء مشيه، مثل التين والكاكا والسرمق الأبيض، هناك مزرعة رائعة لتوت العليق في كوينز، وكرمة عنب أسود تقع على جسر للمشاة فوق طريق برونكس السريع، قال لي: «إنني في أيام الصيف أستطيع أن أعيش مُقتَاتًا على ما أجده ينمو على جانب الطريق.»

ثم وصلنا إلى شارع 117 الشرقي، فلمحت عيناه محل حلاقة من سلسلة «كريسبي كاتز»، ثم صعدنا إلى سطح مرآب متعدد الطوابق في ساحة النهر الشرقي، تغمرنا السكينة من مرأى النهر وطريق «فرانكلين دي روزفلت» السريع، ثم حان وقت التحرك مرة أخرى.

نزلنا ثمانية طوابق من الدرج؛ لأن «جرين» قال لي: إنني نوعًا ما أرى في استخدام المصاعد والسلالم الكهربائية خيانة للمشي، وفي طريقنا وجدتُ رجلًا ضخم البنيان ذا لحية وشعر معقوص على شكل ذيل حصان يستخدم شفرة حادة لكشط الطلاء الأبيض عن الزجاج الأمامي لسيارته الفورد موستانج موديل 1965، كانت السيارة كاملة عدا إطاراتها مُصطَفَّة خلف الباب الخلفي المفتوح لشاحنة كبيرة، مُصطَفَّة هي الأخرى على ناصية بجوار المركز التجاري، وكانت تلك السيارة بدلًا من أن تتزين بأشرطة سباقات السرعة، قد زُيِّنَت بشرائط متوازية من الشعر المجدول يبلغ عرض الواحد منها ست بوصات، وتمتد من الشبكة الأمامية حتى ممتص الصدمات الخلفي.

لاحظَنَا الرجل ذو ذيل الحصان نحدق، فهز كتفيه ولاحت على وجهة ابتسامة جعلته يبدو كنعجة، وقال برَنَّة هي قد تكون سؤالًا وقد تكون تقريرًا «إنه فن».

وضَّح لنا الفنان «هيو هايدن» أن اسم هذه السيارة هو «البطل الأمريكي 4#»، وكان هو قد برز من المرآب، واستلَّ شفرة حادة وأخذ يوسِّع الفتحة الدائرية في منتصف الرسم الذي شكله من الشعر الصناعي، وكان سائق الشاحنة «مايك توبي» قد عاد لتوِّه بهذه السيارة من معرض في بيتسبرج، قال لنا «هايدن» الذي هو شاب أسود يرتدي نظارة ذات إطار سميك: «إن الشعر المجدول يمثل الهوية الأمريكية الأفريقية، وهذه السيارة هي تقليد أمريكي عريق.»

شرعنا نحن الأربعة في الحديث، شرح لهما «جرين» مشروعه وفهمه الرجلان على الفور حتى إن «توبي» قال له: «كنت أنوي ووالدي أن نفعل الشيء ذاته ولكن مستقلين السيارة.»

قاد «هايدن» سيارته مبتعدًا ببطء وبحذر، كما لو كان ينظر للطريق من خلال زجاج سيارة يغطيه الثلج، في حين انطلق «توبي» بشاحنته كالصاروخ، أما أنا و«جرين» فقد مشينا، قال لي «جرين»: «كان هذا اللقاء معبرًا عن جوهر مشهد نيويورك، كان أمرًا رائعًا، لقد قضيت جُلَّ وقتي

في أماكن لا يراها الناس جزءًا من نيويورك، وهو الأمر الغريب لأن تلك الأماكن تمثل النسبة الأعظم من المدينة.»

في شمال فيلادلفيا لا يندهش رجال الشرطة عندما يسمعون عن سرقات بالإكراه أو جرائم اغتصاب أو تجارة المخدرات، أو إدمان الـ PCP الذي يعطي متعاطيه قوة خارقة، لكن الآن يشعر الضابطان: «برايان نولان» و«مايك فاريل» بالحيرة.

كانا يُحدقان خلال سياج يرتبط بسلاسل في ركن حي مونتجومري وشارع 27 على بُعْدِ نحو اثني عشر حيًّا سكنيًّا من التقاطع الذي قُتِلَ فيه «موزس واكر الابن»، هناك كان حصان صغير بني اللون يمضغ بهدوء الأجمات الشائكة الواقعة في ساحة غير مشذَّبة.

قال «فاريل» وهو يتفحص الطريق باحثًا عن أدلة: «أظنه أمرًا قانونيًّا أن يمتلك المرء حصانًا في داخل المدينة، هو أمر يعتمد على قدر مساحة الملكية بالقدم المربع.»

تمتم «نولان» قائلًا: «في الشوارع نرى كل شيء».

سألته قائلًا: «هل سبق ورأيت حصانًا هنا من قبلُ؟»

«لا».

توقفت جَدَّتان ترتديان ثوبين عليهما رسوم لورود، وتعتمران قبعتين متماثلتين ذواتي حوافَّ عريضة، وشرعتا ترنوان إلى ما وراء السياج.

«ما هذا؟»

قال «نولان»: «إنه حصان».

«أهو حصان جيد؟»

«لا أدري يا سيدتي فقد قابلته لتوي.»

قالت المرأتان قبل أن تبتعدا: «عيد أب سعيد لكم جميعًا.»

طَرَقَ «فاريل» باب المنزل المجاور للساحة لكن أحدًا لم يجبه، أما «نولان» فقد دفع بحفنة ممن العشب من خلال السياج، فخَطَا الحصان تجاهه ثم خفض رأسه كي يشرب من دلو مليء بماء تسبح فيه الحشائش.

ثم ظهر رجل يرتدي قميصًا برتقاليًّا، ومن عنقه تدلت سلسلة ذهبية عريضة، فاقترب وعرَّف نفسه باسم السيد «بيك» وتساءل قائلًا: «ماذا هناك؟»

شرح له «نولان» أنهما قلقان بشأن إذا ما كان الحصان يحظى بالقدر المناسب من الماء والطعام، وبشأن السبب في وجوده هذا، وأنهما قد يتصلان بجمعية مناهضة العنف ضد الحيوانات.

لكن السيد «بيك» قال لهما: «كلا، كل شيء على ما يرام، هذا الحصان هو مِلْك لشخص يعيش في الشارع ذاته، وهذا هو منزل أمه، والحصان لم يؤتَ به هنا إلا صباح اليوم.»

ثم أضاف قائلًا: «لا يمكن أن يتخلص أي أحد من الحصان بأن يتركه هنا ويمشي، فهذا الحصان اعتاد الأطفال أن يمتطوه وما إلى هناك.»

أكد السيد «بيك» للضابطين أن الحصان سيُعتَنَى به، ولوَّح لهما بجريدته المطوية مودِّعًا، ثم قال وهو يعبر الطريق: «عيد أب سعيد».

بسبب كل تلك الحفلات المقامة في الأحياء السكنية، وبسبب الإفراط في الشراب بفعل الحَر، وبسبب كون اليوم سبتًا، وبسبب أن هذه هي الدائرة الثانية والعشرون، ظل «نولان» و«فاريل» يعدانني بأنني سأرى بعض «الإثارة»، فالزحام عندما يضاف له الكحول ينتج المشادات الكلامية ثم بعدها تظهر الأسلحة، ففي الأسبوعين الماضيين حدثت خمس حالات لإطلاق النار، هو أمر متعارف عليه، لكننا ونحن نجوب الأحياء جيئة وذهابًا وجدناه يومًا حارًّا صامتًا صمت القبور، أمضى «نولان» و«فاريل» وقتهما يتبادلان تحيات عيد الأب مع رجال يغسلون سياراتهم ويلعبون الورق، كانت الساعة الرابعة مساءً ولم يتبقَّ إلا ساعتان على نهاية نوبتهما، ولم أكن لأدهش إذا ما رأيت حشيشة متدحرجة تجري في الشارع على غرار الأفلام الأمريكية، ثم كان أن دبت الحياة في المذياع.

لقد أُصِيب شخص ما بطلق ناري في فخذه قرب حانة تُدْعَى «حانة سارة» على بُعد 20 حيًّا سكنيًّا، تحرك «نولان» و«فاريل» بسرعة، لكننا بعد دقائق معدودة قفزنا في المقعد الخلفي لسيارة شرطة مضت مُسرِعة نحو مكان الواقعة، وعندما وصلنا قال لنا محقق فَظٌّ يرتدي ثيابًا مدنية وهو يومئ تجاه فارغ طلقة ملقى في الشارع: «كل ما نعرفه حتى الآن أن شخصًا ما قد أُطلِق عليه الرصاص، وبالطبع لم يرَ أحد أي شيء.»

تلقى «نولان» و«فاريل» تعليمات بالمعاونة في فرض طوق أمني حول التقاطع باستخدام شريط أصفر من أشرطة الشرطة، سألني المحقق عن هُوِيَّتي، ثم طلب مني أن أبتعد عن الطريق، ثم سألتني ضابطة وهي تفرد الشريط عن هويتي، ثم طلبت مني أن أبتعد عن الطريق.

تراجعت إلى جدار يقع تحت سقيفة متجر يحتل أحد الأركان قبالة حانة سارة، سألني رجل يمسك بيد فتاة صغيرة ترتدي ثوبًا ورديًّا عما حدث.

«أحدهم تلقى رصاصة في فخذه».

قال متأوِّهًا وهو ينحني تحت الشريط مواصلًا المشي بطول الرصيف: «آه، أهذا كل ما في الأمر؟»

ثم ظهر مراهق يعتمر قبعة رياضية مقلوبة، فسأل الضابطة عمَّا حدث ثم نظر لها متفحصًا وقال: «إنك تبدين جميلة يا سيدتي.»

«هذا ما أحاوله.»

«لا تحاولي يا صغيرتي، فقط واصلي ما تفعلين.»

«هذا مضحك.»

«ما اسمك يا صغيرتي؟»

«الضابطة بيل».

«كلا أريد اسمك الأول؟»

«الضابطة».

وبينما كان أربعة وعشرون من رجال الشرطة يمشطون المنطقة بحثًا عن أدلة، شرعت أنا في التحدث مع «كارلتون أديسون»، وهو من قدامى المحاربين، وقد أخبرني أنه يمشي كل يوم بطول الشارع التاسع والعشرين؛ «لجعل تلك الأطراف الشائخة تستمر في الحركة» على حد قوله.

ثم قال لي: «لقد حاربت في فيتنام، لكن هذه المنطقة أكثر خطورة.»

كان «أديسون» قد انتقل إلى فيلادلفيا قادمًا من نيويورك كي يعيش قريبًا من والدته، وقد شهد منذ ذلك الحين حالات سرقة بالإكراه وحالات سطو أكثر من أن تُعَدَّ، خاصة في الأيام الأولى من كل شهر، عندما تصل شيكات الضمان الاجتماعي، ومنذ أتى «أديسون» إلى فيلادلفيا سُرِقَ مرتين؛ ولهذا فهو الآن يحمل مسدسًا؛ مما يجعله الآن يشعر بالأمان بالطبع مع رؤيته للمزيد من رجال الشرطة في الشارع، لكن المسدس هو المُطمئِن الأساسي له على حد قوله، لقد حزم أمره وقال: «لن أكون ضحية للمرة الثالثة.»

إنه عيد الأب، وها أنا أعود مرة أخرى للدائرة الثانية والعشرين لأرافق نوبة شرطية أخرى، كان الفندق الذي نزلت فيه يقع في ميدان ريتنهاوس التاريخي وسط مجموعة من المطاعم والمتاجر العصرية، وفي الشارع ذاته الذي يقع فيه مركز الشرطة على بُعْد ميلين.

كنت كلما توغلت شمالًا قلَّت أشجار الظلة والمقاهي وذوو البشرة البيضاء من الناس، وهناك فوق طريق الكرمة السريع بعد جادة فيرمونت كان هناك سلك شائك يعلو السياج، وأصوات المذياع تصدح خارجة من النوافذ المفتوحة، ومن مدرسة قديمة خرج صوت مكبر صوت ينادي: «سلِّم ما لديك من أسلحة غير مرغوبة واحصل على قسيمة بقيمة مائة دولار من متجر شوب رايت، ساعد في إنهاء العنف المسلح»، وفي أثناء هذا كانت إحدى سيارات الشرطة تقف خاملة تحت الظل في إحدى الحارات.

كان رصيف المشاة مكسَّرًا لكن العصافير كانت تزقزق من فوق الأغصان والأجمات، والغرباء يلقون التحيات، وكان كاهن يكنس درجات سلم كنيسته ومتجر بوستاي يعمل رغم أنها عطلة السبت اليهودية، كان «جاي» يدخن عقب سيجارة فوق سطح منزله المبني بالطوب البني، والذي تَعدَّى عمره المائة عام، وكان هو من بدأني بالحديث، لقد عاش هنا كل سني عمره الستة

والخمسين، ولقد قال لي: إن هذا الحي خطر لكنه بدأ يتغير، فقد بدأ المطوِّرون العقاريون في تجديد المنازل القديمة وبناء أخرى جديدة كي يؤجروها لتلاميذ جامعة تمبل، يقول «جاي»: إن وجود الشرطة يخدم كثيرًا؛ «فالناس لا يقدرون رجال الشرطة حق قدرهم، إنها مهنة تنقذ الناس، وهم يفعلون أقصى ما في استطاعتهم، ومهمتهم تلك تصير شخصية بشكل أكبر عندما يمشون»، ثم بدأ «جاي» يحكي لي عن مهنته هو التي تنقذ الناس، فهو يريد أن يقيم مشروعًا لإزالة القمامة، وإذا ما نجح في الحصول على عَقد من الجامعة فسوف يوقف هذا مشروعه على أرض صُلبة، «لا بد أن يتفق عميد تمبل معي، فمَن غيري يمكن أن ينظف هذا الوسخ؟ السيد الكناس لا أحد غيره.»

في مركز قيادة الشرطة ارتديت سترة أخرى بلا كُمَّين وقابلت شركائي الجدد: «جيمس والز» ذا السبعة والعشرين ربيعًا، و«جيفري لافار» ويبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، وكلاهما تخرَّج في أكاديمية الشرطة في شهر مارس، ولم يمضِ على التحاقهما بسلك الشرطة إلا ثلاثة أشهر، كان «لافار» شابًّا طويلًا نحيلًا، وكان منذ صغره يحلم بأن يصير شرطيًّا، أما «والز» فقد كان متوسط الطول ذا بنية قوية، وكان قد قضى أربع سنوات في البحرية الأمريكية قبل أن يلتحق بأكاديمية الشرطة، كلاهما أسود البشرة لكنهما لم يريا في ذلك أهمية في شمال فيلادلفيا، فكما يقول «والز»: «لا يرى الناس فينا سوى قمصاننا الزرقاء».

رغم أننا مشينا في شوارع مختلفة فإن اليوم بَدَا وكأنه نسخة كربونية من ذاك اليوم الذي قضيته مع «نولان» و«فاريل»، المزاح مع الجدات وقذف كرات السلة مع الصغار وتَلَقِّي النظرات الحادة من الرجال حادِّي الطباع، هدير موسيقى الهيب هوب التي تصمُّ الآذان من مجموعة من مكبرات الصوت الموجودة في المتنزَّه، ورجال يتجرعون الشراب من أكياس ورقية، لم يكن «لافار» و«والز» يرفعان أعيُنهم لأعلى بينما يمرون، وفي الثانية ظهرًا رجعًا إلى مركز القيادة لحضور حفل شواء بمناسبة عيد الأب.

زودني الرقيب «بيسارات وريدي» بشطيرة برجر وبعض من سلطة البطاطس، ثم حوَّل اهتمامه إلى دستة من الشرطيين الذين يقضون راحتهم، كانوا بين متباهٍ ومتعجرِف ومتذمِّر من أعمالهم الورقية، فقد كانت الدائرة الثانية والعشرون ما تزال تعتمد على ناسخي الآلات الكاتبة لملء بعض الاستمارات، بعض الشرطيين الشبان لم يستخدموا أو يروا آلة كاتبة طوال حياتهم، يقول «وريدي»: «إنه أمر يتعلق بعجز اقتصادي، إننا نستطيع أن نأتي بأجهزة كمبيوتر أكثر، لكن هذا

سيعني تقليل عدد الشرطيين في الشوارع، إن التحدي الاقتصادي هو أكبر تحدٍّ نواجهه هنا»، إننا نواجه الفقر والبطالة وقلة الفرص، لكن هناك حدودًا لما تستطيع الشرطة عمله، ثم يتساءل قائلًا: «لماذا نضمِّد جرحًا يحتاج خياطة؟»

في شيكاجو التي حظيت بالنصيب الأكبر بين المدن الأمريكية من جرائم القتل عام 2012 بتسجيل خمسمائة جريمة، كانت استجابة مراقب الشرطة «جاري ماكارثي» تتمثل في زيادة الدوريات الراجلة، كانت موجة جرائم القتل قد صارت العنوان الرئيس في الصحف الأمريكية، ومنها جريمة مقتل طالبة متفوقة تُدْعَى «هاديا بندلتون» وتبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، وقد قُتِلت رميًا بالرصاص قرب منزل الرئيس «باراك أوباما»؛ مما دفع بالرئيس لأن يأتي إلى المدينة ويلقي خطابًا ناريًّا يتكلم فيه عن عنف العصابات المسلحة، وقد كانت «عملية الصدمة» التي قادها «ماكارثي» والتي هي أقرب لاستراتيجيةٍ عاون هو في تنفيذها وقت أن كان يعمل في شرطة نيويورك عملية فعالة، ففي عام 2013 تقلَّص عدد جرائم القتل في شيكاجو إلى أربعمائة وخمسة عشر حالة، كما أن التدابير الأخرى التي اتُّخِذت على غرار برنامج المهن الصيفية، والذي وظَّف ألفين من الشباب، قد لعبت دورًا كبيرًا في تحجيم تلك الظاهرة، يقول عمدة المدينة «رام إيمانويل»: «في ذلك الصيف لم يُصَبْ أي من أولئك الصبية نتيجة لعنف مسلح، وإنني لا أصدق أبدًا أنهم لو لم ينخرطوا في تلك المهن لنجوا من ذلك الخطر».

بعد الغداء ظلت أجهزة اللاسلكي التي يحملها كل من «والز» و«لافار» صامتة، كانت حفلات الشواء الخارجية ما تزال قائمة، ولم يكن يكسر هذا السكون إلا اندفاع مجموعة من الرجال وإصرارهم على دعوة الشرطيين للمتنزَّه لمنحهم كأسًا من الجعة أو بعض الأضلاع المشوية.

تثاءب «لافار» قائلًا: «يا لهذا السكون! الكل مسترخٍ.»

وقال «والز»: «أو في الكنيسة».

لكن الليلة الماضية كانت مختلفة.

فعقب واقعة إطلاق النار بعد أن انصرف «نولان» و«فاريل» من الخدمة ركبت سيارة الشرطة وتجولت مع زوجين آخرين من الشرطيين حتى الثانية صباحًا، وهما اثنين من قدامى المحاربين ويُدْعَيان «كريس تومان» و«راي دي أميكو»، كنت أريد أن أعرف الفارق بين المشي

والقيادة، كان الفارق في كون المرء عند وجوده في سيارة يشعر كما لو كان مُعبّأً في إناء زجاجي يتخضخض بين جنبات المقعد الخلفي البلاستيكي، بينما تطوي السيارة المسافات بين النزاعات المنزلية وبلاغات إطلاق النار والشجارات التي تتم خارج الحفلات المنزلية.

كان «تومان» يوفر الدعم الأرضي اللازم لعدد من الوقائع العاجلة، بينما تحلِّق مروحية الشرطة فوقه، وفي بعض الشوارع كان عشرات الناس يقفون في الظلام يشربون ويتحدثون بأصوات عالية، صبية لا يلوون عن شيء، أو أصدقاء وجيران ينفسِّون عن أنفسهم، سيارات تزمجر محاولة أن تتوقف، أضواء حمراء وزرقاء تسطع لا يهم هذا في شيء، إن رجال الشرطة يُعَدون هنا دخلاء، هم هنا ليفرضوا قانون أناس آخرين.

عند منتصف الليل استجاب «تومان» و«دي أميكو» لبلاغ حريق في سيارة، وكان هناك نحو مائة شخص يشاهدون ويشيرون ويهللون، كان جوًّا احتفاليًّا حماسيًّا، أخبرني «تومان» وهو يبعد المتفرجين أن الناس عادة ما يقومون بإضرام النيران في المركبات المهمَلة طلبًا لمتعة رخيصة.

وعندما ارتفع سُلَّم عربة الإطفاء كانت ألسنة اللهب قد استطالت حتى بلغ طولها عشرة أقدام؛ فهلل الجمع واهتاجوا، قال لي «تومان»: «الجميع يحب رجال الإطفاء ويكرهوننا، فهم يأتون ليساعدوا الناس ونحن نزج بهم في الزنازين.»

وقال «دي أميكو»: «إنها وظيفة أردت أن ألتحق بها جدًّا، لكنهم لم يطلبوا ملتحقين جددًا.»

الرابع
الاقتصاد

«إننا في مقابل تحقيق الربح وتسريع وتيرة الحياة قد صرنا نفقد القدرة على جعل الإنسان يشعر بالتفرد ... وبينما ساهمت التكنولوجيا كثيرًا في تحسين جودة حياتنا بصورة أو بأخرى، فإنها قد نزعت من الإنسان إنسانيته.»

«ميلاني ماكنزي»، الساحل.

«إن كل تلك الاستراتيجيات الاقتصادية الفاخرة مثل إقامة تكتلات للطب الحيوي، وتكتلات أخرى لغزو الفضاء، أو غيرها من التطويرات الاقتصادية التي تروج بين الفينة والأخرى، لا ترقى لتدنو من القوة العظمى للبيئات الحضرية الصديقة للمشاة.»

«كرستوفر لنبرج»، الخيار الحضري: الاستثمار في حلم أمريكي جديد.

ركنت «كريستين موراي» على جانب الطريق في ذلك الشارع مغلق النهاية الذي تَحُفُّه الأشجار، ثم ترجَّلَت من سيارتها الفورد من طراز الترازيت كونكت، وهي شاحنة بيضاء مكتنزة ذات مقدمة شبيهة بأنف خنزير الأرض، وعليها علامة حمراء طويلة بطول المركبة كاملة، فتحت «موراي» الباب الخلفي لسيارتها وعبَّأَت رِزمًا من الخطابات والمنشورات والمجلات في حقيبة ظهر مزدوجة، ثم لبست الحقيبة على ظهرها وأحكمت إغلاق حزام التثبيت حول كتفيها وخاصرتها، كانت ترتدي حذاءً رماديًّا ذا عُقَد في نعله تحفظ منتعله من الانزلاق، وهو ما ساعدها على المشي بخفة بطول طريق بارك فيو مستكشفة الطرق الأمامية ومداخل الأكواخ والبيوت الصغيرة ثنائية الطابق دون أن تنظر تحت قدميها، كانت رِجْلاها تعرفان الطريق.

«موراي» ذات الثمانية والأربعين ربيعًا كانت تعمل «مسؤولة تسليم» في أوتاوا لمدة اثني عشر عامًا، إن العمل في مؤسسة كبيرة له وَقْع أفضل لدى السامع من كلمة «ساعية البريد» أو

«حاملة الخطابات» واللتين لا تنصفان ما تنطوي عليه تلك المهنة حقًّا، كانت «موراي» تبلغ خمسة أقدام وثلاث بوصات طولًا ووزنها مائة رطل، وهو ما يعني أن الوزن المسموح به لحقيبتها هو خمسة وثلاثين رطلًا، ويجب أن تكون قادرة على حمل طرود يصل وزنها لخمسين رطلًا، إنه وزن قابل للحَمل لكنها برغم هذا تُراجِع شهريًّا معالجًا بالتدليك ومعالجًا يدويًّا للعمود الفقري، كما أنها أيضًا تزور ممارسًا لتقنيات إراحة العضلات، وهو الذي يوجِّه ضغطًا يدويًّا على الأربطة الليفية التي تكوِّن الأنسجة الناعمة الموجودة في ساقيها اللتين تمشيان لعشرة أميال في كل نوبة عمل.

قالت لي «موراي» وهي تسلك طريقًا مختصرًا بين الأسيجة: إن أكبر ألم تواجهه هو أن كل مهمة تُوكَل إليها هي «قيمة زمنية» محدَّدة، فمنذ بداية يوم عملها في المحطة C بمركز التوزيع تؤدي مهامها بتسلسل محدَّد بدءًا من استلام الخطابات والمراسلات التي ستوزعها والموضوعة في سلال بلاستيكية رمادية اللون، ثم تجر تلك السلال إلى السيارة ثم قيادتها في طريقها المعروف، ثم تسليم البريد، ثم قيادة السيارة إلى نقطة التسليم التالية على بُعد حَيَّيْن سكنيين آخرين وكل حركة تتحركها مقدَّرة كَمِّيًّا، فكل رفعة ترفعها أو خطوة تخطوها يُفتَرَض أن تستغرق عددًا من الثواني موصوفًا لها بدقة، لكن هذا التقدير الزمني لا يأخذ في الاعتبار أمورًا مثل محادثة قصيرة مع مسنٍّ قعيد أو لحظة لهوٍ خاطفة مع كلب ودود، حتى إن زوجًا من كلاب البوردر كولي كانا ينتظران مرورها كي يلقيا أمامها الدُّمى التي يمضغونها، عن هذا تقول هي: «هذا اللهو مع الكلاب أحتاجه أنا والكلاب، لكنني لم أعُد أمتلك الوقت لهذا.»

إنني عندما أمشي مع بناتي عائدين من المدرسة، دائمًا ما أقابل رجل البريد الذي يخدم حَيَّنَا ودائمًا ما يقف ليدردش معي، ما إن ترى البنتان «جيلز» حتى تتسابقا لتحيته فيقول لهما غامزًا بعينه: «لديَّ طرد لكما من جدتكما» أو «مجلة القطط التي تحبينها معي»، ذات مرة حدث أنه استدعى سيارة إسعاف لأحد الجيران الذي سقط فجُرِح جرحًا بالغًا، وقام على رعايته حتى وصل المسعفون، وبين الحين والآخر نجده يساعد السكان في نقل أرائكهم أو رفع قواربهم فوق أسقُف السيارات، وبرغم براءة تلك اللقاءات مع «جيلز» إلا أنه بدأ يتمرد.

إن ذلك الوجود الدائم لرجل البريد في حَيِّنَا هو أمر باعث على الطمأنينة، أو كما تقول جريدة النيويورك تايمز: «هو رمز حميد لتلك الشبكة الحكومية المعقدة الأكبر، بل للمجتمع الوطني ككل»، وكما يقول ذلك الكاتب الذي يكتب تحت اسم مستعار هو «بيل واكر» في مقال له لمجلة

«والرس»: «كما هو رجل الإطفاء ومن يسهل على الناس عبور الطريق كذلك هو حامل الخطابات شخصية موحدة الزي تساعد أطفال الأرض في الحياة في ذلك العالم الذي لا يفهمونه بالكلية»، ذلك العالم الذي يتغير بسرعة.

في عام 2008 قامت هيئة البريد الكندية بإماطة اللثام عن استراتيجيتها الطَّمُوحة لتغيير الخدمات البريدية، وهي استراتيجية تتضمَّن إنفاق ملياري دولار على إعادة تقييم القيم الزمنية وشراء مئات الشاحنات البيضاء المكتنزة، لقد كانت هذه المؤسسة الحكومية تتلقَّى ضغطًا شديدًا كي تقوم بتسهيل وعصرنة عملياتها، لقد كان التغيير حالًّا لكن الأمور لم تَسِرْ بالشكل المطلوب، تقول «موراي»: إن تلك القيم الزمنية الجديدة قد حسبها مديرون لم يعملوا يومًا في تسليم البريد، ارتفعت نسبة الإصابات بالتواء الكاحل وغيرها من الإصابات بين رجال البريد فاحتجَّت نقابتهم، كما أن الهدف الأساسي من تلك الاستراتيجية ألا وهو الاستقرار المالي ظل عصيًّا على التحقيق.

قالت لي «موراي» في ذلك اليوم الذي قضيناه معًا: «إن عملنا هذا صار يمشي في مسار سيمضي إلى اليوم الذي نختفي فيه جميعًا على الأرجح، سوف يختفي توصيل البريد من الباب إلى الباب تمامًا في خلال بضع أعوام.»

ولم يمضِ شهر على حوارنا هذا حتى صدحت هيئة البريد الكندية بالأمر علانية؛ فقد أعلنت أن نظام التوصيل الحضري المنزلي سوف يُتخلَّص منه تدريجيًّا في فترة زمنية تبلغ خمس سنوات، وهو ما سوف يكون من شأنه القضاء على ثمانية آلاف وظيفة، معظم هؤلاء العاملين سيفقدون وظائفهم بشكل تلقائي (يُتَوقَّع أن يحال الآلاف منهم للتقاعد)، ولم يَعُد إلا ثلث سكان كندا البالغ عددهم 3.15 مليون نسمة يتلقَّوْن بريدهم على عتبات دورهم، أما البقية فيلتقطون خطاباتهم وبقية بريدهم من الصناديق الأهلية، إذا ما نظرنا للأمر من الخارج لوجدناه قرارًا حصيفًا، فمع التراجع في نسبة البريد المتداول بقدر 25 بالمائة ما بين عامَي 2008 و2013، والتراجع المتوقَّع بنسبة 25 بالمائة أخرى في الخمس سنين المقبلة يتوقع أن تواجه هيئة البريد الكندية عجزًا سنويًّا يُقَدَّر بمليار دولار بحلول عام 2020 طبقًا للهيئة الاستشارية الكندية، هنا اتضحت ضرورة القيام بإجراء ما.

لكن لنتمهَّل قليلًا، فهذه المؤسسة قد حققت أرباحًا في سبع عشرة سنة من الثماني عشرة التي سبقت إعلانها عام 2013؛ بل إنها حققت فائض ربح قياسي قُدِّرَ بـ 443 مليون دولار عام 2010، كما أن تداوُلَ الطرود آخذ في الازدهار تغذِّيه التجارة الإلكترونية، في الوقت ذاته حققت هيئة

الخدمات البريدية في الولايات المتحدة والتي هي كيان بالغ الضخامة مُقام في معقل الرأسمالية أرباحًا تُقدَّر بـ 3.67 مليار دولار عام 2012، كما أنها حافظت على قوة عاملة تربو عن خمسمائة ألف عامل من بينهم ثمانية آلاف حاملي خطابات من الذين يوصِّلون البريد سائرين على أقدامهم، وفي المملكة المتحدة حققت هيئة البريد الملكية ربحًا يُقَدَّر بـ 363 مليون جنيه إسترليني قبل حسم الضرائب خلال العام المالي 2013و 2014، لكن لكونِها مؤسسة قد خُصخِصَت مؤخَّرًا فقد طرأ عليها تغيير أجراه المدير التنفيذي «مويا جرين» والذي سبق وأنْ عمل مديرًا تنفيذيًّا لهيئة بريد كندا، (في محاولة منه للدفاع عن الاستقطاع من نفقات تلك الخدمة، صرح الرئيس التنفيذي الحالي للبريد «ديباك شوبرا» لمجلس العموم أن المشي بانتظام إلى صناديق البريد الأهلية هو أمر مفيد لكبار السن، وهي فكرة جيدة بالفعل لأولئك الذين يقدِرُون على المشي).

لقد رغبت في أن أقضي نوبة كاملة من نوبات عمل رجال البريد مع واحد منهم؛ وذلك لأنهم يقضون النهار كله في المشي، وتساءلت في نفسي عمَّا إذا كان من يمتهنون المشي أكثر صحة وسعادة من بقيتنا؟ وإذا ما كان هذا صحيحًا، فما الرؤى التي يمكن يُطلِعُونا عليها؟ وإذا ما كانوا يرغبون في تعيين موظفين جدد؟ لكن المناخ الذي ساد في هيئة البريد الكندية أجهض كل تلك الأسئلة في مهدها ومعها رغبتي في أن أرفُل في زي سُعاة البريد، قد كانت خُطة رائعة على الأرجح، لكن حتى قبل أن يتصدَّر خبر إلغاء التوصيل المنزلي عناوين الصحف نصحتني «موراي» بأن أفتِّش عن مهنة أخرى.

لكنني رأيت مصائب أكبر؛ رأيت مخططًا عالميًّا هرميًّا آخذًا في التمدد، فبرغم شهيتنا المفتوحة تجاه التسوق الإلكتروني والذي يُعَد مؤسسة عمرها من عمر الاتحاد الكونفدرالي ذاته، إلا أن القائمين على المؤسسة رأوا أنهم بحاجة إلى التخلُّص من جوهر تلك الخدمة كي تظل باقية، إن المعلومات تتحرك بسرعة خطيرة، ولا يستطيع موظفو هيئة البريد الكندية اللحاق بها، وهي مضار ذلك الاقتصاد الذي يغذيه رخص سعر الوقود والعائدات السريعة والظمأ الذي لا يُرْوَى للنمو، لا بد للصناعات أن تتكيف مع هذا الاقتصاد وإلا ستموت، لكن هل السرعة هي الإجابة الصحيحة؟ وهل إذا ما أبطأنا الوتيرة سيعود هذا علينا بالنفع؟

يُعَدُّ موقع أمازون الإلكتروني هو أكبر بائع إلكتروني في العالم؛ ففي عام 2013 قد حقق عائدات تُقدَّر بـ 74 مليار دولار في الولايات المتحدة، كما أنه يبيع سلع البقالة القابلة للتلف في مدن

أمريكية منتقاة، بالإضافة إلى ما لديه من مخزون من الكتب والإلكترونيات والأثاث القابل للنفخ، والحفاضات وأزياء عيد الهالوين الخاصة بالكلاب، وقوالب الهلام التي تتخذ شكل أدمغة الموتى الأحياء، والألعاب الجنسية، وكل منتج تتخيله ولا تتخيله، (هل من أحد يريد مجسَّمًا لسيجموند فرويد؟) بل إن تلك الشركة ترغب في استخدام الطائرات الآلية لتوصيل المنتجات، وهناك إشاعة تقول: إن الروبوتات سوف تتولى إدارة مراكز التوزيع في المستقبل، لكن حاليًّا وبسبب الكم المتنوع من البضائع التي يقدمها موقع أمازون، والخليط المنظم الموجود على أرفُفها، متى أتممت عملية شراء من مسكنك المريح، هنا يتلقى شخص جالس في مستودع مساحته بحجم بضعة ملاعب كرة قدم أمرًا بالمشي، وهكذا فإننا نوكِل مَشيَنا لآخرين بضغطة واحدة على أيقونة الشراء في الموقع.

يمشي رجال التوصيل ما بين سبعة أميال وخمسة عشر ميلًا يوميًّا، يمشون وفي أيديهم وحدات إرشاد إلكترونية متصلة بالأقمار الصناعية تدلُّهم على الأروقة والأرفُف المطلوبة، وتَعُد الثواني التي يستغرقونها كي يصلوا إليها، كما أن هذه الأجهزة تساعد المشرفين على رصد القدرة الإنتاجية لموظفيهم، أو كما صرح أحد المديرين في أمازون لصحيفة الفاينانشيال تايمز: «إن أحدهم يصير مثل روبوت في هيئة بشرية، أو هي عملية ميكنة للبشرية إذا ما جاز التعبير.»

عندما طلب متابع لهذا الموقع من العاملين أن يُطلِعُوه على بعض من الخبرات الخاصة التي تعرَّضوا لها، قال له أحد رجال التوصيل من نيفادا والذي لم يذكر اسمه: إن هذه الوظيفة هي أكثر الوظائف التي أحبها صعوبة، فقد كتب يقول: «عملي في هذه المهنة قد جعلني أفقد وزني الزائد وأصير أكثر تناسقًا جسديًّا، وهو أمر لم أحققه في سنوات مضت، كما أنني من خلالها قابلت شخصيات جديدة لم آلَفْها في محيطي الذي أعيش به، فمثلًا هل تساءل أحدكم أين يعمل أولئك الرجال الذين ينقشون وُشومًا ويصنعون ثقوبًا من ثقافة الموهاك الهندية تغطي أجسادهم بالكامل؟» لكن هذا التوجه هو توجُّه غير اعتيادي، فمعظم رجال التوصيل يَشْكُون من عملية التعيين غير المفهومة وغير كافية التدريب، وفترات الراحة القصيرة، والإجبار على العمل لساعات إضافية، والوعود الزائفة بالحوافز والجداول المرنة، أو كما كتب أحد الموظفين من تينيسي: «إن الفكرة الأولى التي تكوَّنت لديَّ عن هذه الوظيفة هي أنها سجن كبير، حتى إنني فكرت في أن أسأل أيًّا من الجالسين بجواري أو الواقفين في صف بجانبي: ما تهمتك التي جئت هنا بسببها؟»

في مدينة روجيلي البريطانية والتي تقع في شمال برمنجهام، والتي ينتمي غالبية سكانها إلى طبقة العمال، نجد مستودعًا ضخمًا لأمازون بمساحة تِسعة ملاعب كرة قدم، يقبع فوق مجموعة من الأنفاق المهجورة وفوهات مناجم الفحم التي كانت يومًا قلب الاقتصاد المحلي، إن العمل في مناجم الفحم يمكن أن يكون عملًا من الجحيم، لكنه كان يوفر راتبًا ومعاشًا محترمَيْن كما كانت معظم الوظائف التي تقوم على خطوط الإنتاج التجميعية، أما رجال التوصيل فيتقاضون الحد الأدنى من الأجر، والعديد منهم يُوظَّفون من قِبَل وكالات توظيف مؤقتة، ويُضطَرُّون لقضاء أشهر في طرق الأرضيات الخرسانية قبل أن يوظِّفهم أمازون، لكن وظائفهم تلك تُعَدُّ وظائف عابرة؛ فهم بصورةٍ ما أقل قيمة من الماكينات التي يمكن أن تحل محلهم يومًا ما، صحيح أن رجال التوصيل في روجيلي يشعرون بالامتنان لكونهم يحظَوْن بهذه الوظيفة، لكنهم لا يملكون ما يكفي لدعم استقرار اقتصاد مدينتهم، بل وحتى المسؤولون عن تطوير المدينة الذين رحَّبوا بمستودع أمازون في بداية الأمر، صاروا الآن يتشكَّكون فيما إذا كان هذا المستودع سوف يساعد المجتمع على المدى الطويل، هي ليست رؤية مبهجة للاقتصاد الجديد.

إن أيام العمل الرتيبة التي تعيشها «كرستين موراي» تستمر لثماني ساعات، ينتهي هذا اليوم بعدما تسلم آخر خطاب ثم تعيد السيارة إلى المستودع، لكن عندما استطالت الرحلات بعد بدء تلك التغيرات صارت نادرًا ما تنتهي من مهامِّها اليومية مبكرًا حتى وإن فوتت فترات راحتها، (كتب «بيل واكر» يقول: «ورغم إلغاء رحلات المشي الهيِّنة تلك، لم نشهد أي انخفاض في عدد الطرق الطويلة العريضة التي تُعرَف أيضًا باسم الخنازير أو المرملات، لقد قيل لنا: إن مقاييس الطريق هي علم معيب بالضرورة»)، تعمل «موراي» مقابل خمسة وعشرين دولارًا في الساعة، وهو أجر متدنٍّ جدًّا، وفي النوبات الجيدة مثل ذلك اليوم الخريفي المنعش الذي تبعتها فيه كانت تستمتع بعملها، رغم الصراعات مع الإدارة وما يصيبها من إنهاك للعضلات، وما ينتابها من خوف بشأن المستقبل الضبابي، فإنها تعي أنها تمشي في الهواء الطلق تمارس الرياضة، وتحظى بفرصة لتشاهد كل ركن وشقٍّ في المنطقة التي تغطيها.

توغلنا في ممر خدمي مفروش بالعُشب، ثم توقفنا لننظر بعطف إلى مجموعة من الكلاب الراقصة، أفرغت «موراي» محتويات حقيبتها على طول صَفٍّ من البيوت المتراصة، ثم عادت إلى سيارتها وقادتها إلى مبنى أهلي لكبار السن، وفي غرفة البريد البسيطة تلك تضع مطبوعات سلسلة متاجر كاناديان تاير ومطاعم سوي شاليه في 252 صندوق بريد، حتى بسرعتها الخارقة لا

تنتهي من هذا قبل عَشْرِ دقائق، إنها ليست متأكدة كم سيستغرق العجائز من الوقت كي يقرأوا ما أحضرت، لكنها تعلم أن معظم تلك المطبوعات ستذهب مباشرة إلى سلة القمامة في بهو المنزل.

فجأة ظهر رجل يحدق من فتحة صندوق البريد الصغيرة المربَّعة، وصاح بلهجة مسرحية نافدة الصبر: «ماذا تفعلين هنا؟ أسرعي، إنني أنتظر شيكًا بقيمة خمسين ألف دولار.»

لكن «موراي» ردَّت بذات اللهجة المتجهمة: «كلا، كل ما لديَّ هو منشورات.»

وعلى مقعد في البهو كان مجموعة من العجائز يتوقون لتفحص البريد؛ فهو موعد شيكات المعاشات وتعويضات الإعاقة.

استقلت «موراي» المصعد لتوصِّل طردًا للطابق السابع عشر، ودلفت معها، ثم انضم إلينا رجل قد اشتعل رأسه شيبًا يرتدي سترة جلدية، ثم وضع إصبعين من أصابعه فوق ضمادة تغطي فتحة جراحية في حلقِه وقال بصوت صريري: «إنه يوم جميل».

قالت له «موراي» وهي تُخرِج حفنة من الضمادات الزرقاء اللدنة من جيبها: «هاك، لديَّ شيء لأجلك.»

سألته: «فيم تستخدمها؟»

قال وهو يبتسم: «أحتاجها كي ألفَّ فيها كل ما لديَّ من نقود.»

خطرت هذه المحادثة على بالي رغم كونها محادثة عابرة عندما سمعت عن إلغاء التوصيل المنزلي، لقد كانت في هذا المصعد «موراي» تؤدي دورها كعاملة مجتمعية ضمن فريق، وتوزع ما هو أكثر من البريد، إننا نظن أنفسنا قادرين على أن نميكن كامل حياتنا كي نحقق السعادة والرفاهية، لكننا عندما نقيل «موراي» من وظيفتها نُفقِد المجتمع تلك اللمسة الإنسانية.

ليست «موراي» من النوع الذي يحنُّ للماضي؛ ففي حين لا يفتأ رفاقها في محطة الفرز يتذكرون الأيام الخوالي، تقول هي: «هذا شيء من الماضي وقد ولَّى زمانه، ما يهم الآن هو الحاضر.»

إن رجال البريد الآخرين يرثون لتلك القيم الضائعة، كتبت «ميلاني ماكنزي» وهي ساعية بريد من هاليفاكس في نوفا سكوشا في الجريدة الأسبوعية البديلة في المدينة والمُسمَّاة الساحل، بعد أن أعلنت هيئة البريد الكندية خُطتها بإنهاء التوصيل إلى المنازل فقالت: «إن وظيفتي هي أن أوصل إليكم عالمًا أفضل.»

هذه الفكرة قد عبَّرت عنها بوضوح هيئة البريد الأمريكية والتي زُيِّنَ مبنى مركزها الرئيس بمانهاتن بكلمات شهيرة لهيرودوت تقول: «لا الثلوج ولا الأمطار ولا وحشة الليل ستمنع أولئك السعاة من إكمال سعيهم الموكَّل إليهم»، وعبَّرت عنها هوليوود بشكل أكبر في فيلم «كيفن كوستنر» المسمى «ساعي البريد» والذي فاز بجوائز التوتة الذهبية لأسوأ فيلم وأسوأ ممثل وأسوأ مخرج لعام 1998 والذي يصور رجلًا رحَّالة يعثر على شاحنة بريد تخص ساعي بريد مُتوَفَّى وتدور أحداثه في أمريكا بعد أن مرت بجائحة كبرى (يفترض أن يكون هذا عام 2013)، في الفيلم يرتدي «كوستنر» زيًّا على شكل هيكل عظمي، ويلتقط حقيبة البريد، ثم يشرع في مهمته البطولية الخطرة التي تتمثل في إعادة التواصل بين المستوطنات المعزولة بتوصيل الخطابات الواحد تلو الآخر، وفي إحدى جمله الملهمة في الفيلم يقول: «في الماضي لم يكن هناك شارع في أمريكا بدون ساعي بريد، فعندما يتلقَّى المرء خطابًا؛ فهذا يعني أنه قد صار كيانًا أكبر من ذاته، لا أظننا فهمنا قيمتهم لدينا حتى خسرناهم»، ولتحليل ما تفعله قلة المشي بالاقتصاد وبالعكس ما يوفره المشي من استقرار للاقتصاد، علينا أن نبدأ بالأساسيات والتي تتمثل في صحتنا، ففي الولايات المتحدة انخفضت مستويات المشي بنسبة 66 بالمائة ما بين عامي 1960 و2009 طبقًا لما جاء في تقرير رسمي صدر عام 2012 من تحالف المشي وركوب الدراجات الذي يتخذ من واشنطن مركزًا له، والذي يُموَّل من قِبَل المراكز الأمريكية للسيطرة على الأمراض والوقاية منها، وهذا الانخفاض قد تزامن مع ارتفاع بنسبة 156 بالمائة في معدلات السمنة، وفي عام 2009 كان 40 بالمائة من عدد الرحلات التي قطعها الأمريكيون أقل من ميلين من حيث المسافة، لكن برغم هذا كان ما نسبته 87 بالمائة منها قد قُطِعت بالسيارات وهو ذاته ما ينطبق على ما نسبته 62 بالمائة من الرحلات الأقصر مسافة من ميل واحد، إننا قد نستطيع أن نقطع تلك الرحلات مشيًا.

كان الباحثان في الدراسات الإكتوارية «دونالد بين» و«سام كوكس» قد كُلِّفَا من جمعية الدراسات الاكتوارية بحساب تكاليف المواطنين الذين يعانون السمنة وزيادة الوزن في الولايات

المتحدة وكندا، فقدروها بمجموع 300 مليار دولار، 127 مليار منها تكلفة الرعاية الطبية، و49 مليار تكلفة فقدان الإنتاجية نتيجة لارتفاع معدل الوَفَيات بين العاملين الفاعلين، و 43 مليار تكلفة فقدان الإنتاجية الذي تسببه الإعاقة بين العاملين الفاعلين، و 72 مليار تكلفة فقدان الإنتاجية الذي تسببه الإعاقة الكاملة بين العاملين، كما أشارا في تقديرهما إلى أن المصابين بمرض السُّكَّري مسؤولون عن ثلث نفقات الرعاية الصحية في الولايات المتحدة.

لن يجعل المشي أولئك الناس يستعيدون قوامهم المثالي بطريقة سحرية، لكن «بين» يقول: إن الحسابات الاكتوارية تقول بوضوح: إن السمنة وزيادة الوزن لها «آثار ضارة بالاقتصاد»؛ ولهذا فقد أهاب بأرباب العمل وبالعاملين في مجال التأمين بمساعدة الناس على «اتخاذ قرارات ذكية وصحية»؛ ولهذا فقد قامت جمعية الدراسات الاكتوارية بعد أن نشرت تلك النتائج بعمل استبيان بين البالغين الأمريكيين أظهر أن نسبة 83 بالمائة منهم «منفتحون تجاه اتباع نمط حياتي صحي على غرار الاشتراك في برامج صحية إذا ما حُفِّزوا خلال تلك الخطة الصحية»، فإذا ما شرع واحد من كل عشرة في السير على برنامج للمشي، حينها يمكن للدولة أن توفر 6.5 مليار دولار سنويًّا، وهو ما يكفي لدفع الرسوم الدراسية لأكثر من مليون طالب جامعي.

ذكر «بوريس لوشنياك» الجراح الأمريكي العام خلال أحد المنتديات التي انعقدت في واشنطن عام 2014 أن الاقتصاد لن ينجح في تحقيق أي من أهدافه دون قوة عاملة صحيحة البدن؛ لذا «علينا أن نعود أدراجنا يا رفاق، لقد كان مجتمعنا في الماضي لا يتوقف عن المشي، هل يكلفنا المشي 150 دولارًا لنبتاع بها حذاءً رياضيًّا أو ما بين الستين والتسعين دولارًا للحصول على عضوية نادٍ صحي؟ كلا، لا نحتاج لهذه التكاليف، ما علينا إلا أن نمشي، ولنعدَّه واجبًا وطنيًّا لخير أمتنا.»

أسفرت جهود اتحاد المُشاة وراكبي الدراجات، التي تفتقر إلى الأدلة الحاسمة، عن تجميع الدراسات الحديثة التي جرت في جميع أرجاء الولايات المتحدة؛ لتظهر أننا نرى المجتمعات التي تستثمر في مشاريع المشي وركوب الدراجات حتى مع افتقاد الدعم الحكومي توفر الكثير ماديًّا، ليس فقط بسبب الصحة التي يتمتع بها مواطنيها، ولكن أيضًا من خلال تقليل الاختناقات المرورية وتقليص أزمنة الانتقال الداخلي، وبهذا الشكل تحظى هذه المجتمعات بقيم عقارية أعلى، وتخلق المزيد من فرص العمل، وتجذب المزيد من السياح، يذكر التقرير أنه «في حين ضرب الركود

الاقتصادي كل مستويات المجتمع الذي نعيش فيه تقريبًا على مدى السنوات القليلة الماضية، برز قطاع المواصلات الفاعل كقطاع واعد بنموٍّ وانتعاش اقتصادي».

يعيش غالبية مواطني أمريكا الشمالية في المدن، حيث تمثل المنشآت الخرسانية العمود الفقري للبنية التحتية للمواصلات، وعندما تتوسع تلك الغابة الخرسانية أو تتطلب صيانة، حينها يرسم المهندسون الخُطط، فيعلو ضجيج الماكينات الثقيلة وأولئك الذين يشغلونها، فإصلاح شيء بسيط كطريق للمشاة أو رصيف خرساني لا بد من حفره وإعادة رصفه من جديد، وكذلك يجب إيلاء الاهتمام لنظام تصريف المياه على الأرجح، لا بد كذلك أن تُزْرَعَ الأشجار وتوضع الزينات المبنية بالطوب، وتُبنى منحدرات للمشاة وتوضع لهم لافتات، وكذلك مشاريع الحارات الخاصة براكبي الدراجات الهوائية لها طابعها الخاص، فلا بد أن تُرسَم العلامات في الشوارع وتقام الحواجز وأماكن ربط الدراجات، إن أعمال إصلاح الطرق تنقسم إلى فئتين رئيستين؛ أولها: هو شق الطرق، وهو عملية تنطوي على الحفر والتعبيد والطلاء وغيرها من المشاريع الدقيقة التي تستلزم هندسة وسيطرة على تصريف المياه والتآكل، بل وربما نقل بعض المنشآت، هذه الأوصاف تمنحك صورة عامة عن أعمال بنية المواصلات التحتية في بالتيمور بولاية ميريلاند، إنها أعمال نموذجية، لكن عندما درست إحدى عالمات الاقتصاد كيف تؤثر مثل تلك المشروعات على العمالة كانت النتائج التي خرجت بها جديرة بجذب الانتباه.

إن أيًّا من الذين يقودون جرافات شق الطرق أو الذين ترتج أجسادهم وهم يتشبثون بمقبض آلات ثقب الصخور في واحد من تلك المشاريع، قد صاروا عاملين بسبب هذه المشروعات، وسلاسل الصناعات الداعمة لهذه المشروعات كمصانع الإسمنت وشركات النقل عن طريق الشاحنات تكون مستفيدًا غير مباشر لهذه العمالة.

كما أن هناك بعض الوظائف التي تُخلَق نتيجة لهذه المشروعات، كإقامة مطاعم ومتاجر مجاورة لمواقع العمل ينفق العمال فيها أجورهم، وكل ما يحيط بالمشروع من خدمات من المقاهي التي يصطَفُّ أمامها معتمرو القبعات الصُّلبة كي يبتاعوا القهوة الأمريكية، إلى محالِّ الألبان التي توفر لهم القشدة تدخل في الفئة ذاتها، قدَّمت مدينة بالتيمور بيانات مشاريع المواصلات لـ «هايدي جاريت بيلتيير» الباحثة بمعهد دراسات الاقتصاد السياسي بجامعة ماساتشوستس، ومن تلك البيانات خلصت إلى أن كل مليون دولار تُنفَق على إنشاء حارات لراكبي الدراجات، قد خلقت 4.14 وظيفة،

في مقابل 3.11 وظيفة لكل مليون دولار أُنفِقت على مشروعات للمشاة، و7 وظائف لكل مليون أُنفِقت على البنية التحتية للطرق، ولتفسير هذه الأرقام تقول: إن المشاريع الخاصة بالمشاة وراكبي الدراجات تميل لأن تستخدم عمالة أكثر من تلك الخاصة بإصلاح الطرق، وإلى أن نسبة تكاليف العمالة عاليةٌ مقارنةً بنسبة تكاليف الخامات والأعمال الهندسية وأعمال الإنشاءات.

إن تخصيص الكثير من النفقات لمشاريع المشاة وراكبي الدراجات سوف يقلص إلى حدٍّ ما من مجال المركبات والمجالات المشتقة عنه، لكن كما سنرى لاحقًا في هذا الفصل ستخسر السوق المحلية معظم الأموال التي تُنفَق على السيارات والجازولين، وكما هو التحوُّل من استخدام الوقود الأحفوري إلى الطاقة المتجددة، سيقود إلى اضطرابات في سوق العمالة، إلا أن الالتجاء إلى الاقتصاد الأخضر محليًّا والوظائف التي سيخلقها هو فرصة فضلى تجاه الاستدامة، (إن كتاب «كريس تيرنر» «القفزة» يعرض لنا توضيحًا ممتازًا لهذا التحول، والذي هو ماضٍ بصورة ممتازة في ألمانيا والتي في النصف الأول من عام 2014 ولَّدت نسبة 31 بالمائة من كهربائها من مصادر للطاقة المتجددة).

ولقد دعمت «جاريت بيلتيير» إحصاءات بالتيمور تلك عن طريق إجراء دراسة قومية لآثار البنية التحتية للمشاة وراكبي الدراجات الهوائية ومستخدمي الطرق على العمالة، فبعد أن درست 58 مشروعًا إنشائيًّا في 11 مدينة أمريكية، من بينها آنكوريج وهيوستن وماديسون بولاية وسكونسن؛ وجدت أن مشاريع ركوب الدراجات تخلق تقريبًا 4.11 وظيفة مقابل كل مليون دولار ينفق لهذا الغرض، في مقابل عشر وظائف لمشاريع المشاة، و 8.7 وظيفة لمشاريع الطرق، كتبت تقول: «إن الولايات المتحدة تمر حاليًّا بارتفاع في معدل البطالة واستخدام غير ثابت للطاقة الكربونية وارتفاع في النسبة القومية للبدانة، وهذه المشاكل الثلاثة تواجهها زيادة ممارسة المشي وركوب الدراجات»، وتضيف قائلة: إن توفير البنية التحتية للانتقال عن طريق هاتين الوسيلتين هو أكثر من أمر متعلق بالصحة.

لكن ما يعود على مجتمع بالتيمور من نفع يتجاوز العمالة بكثير، ففي عام 2010 تبَنَّى مجلس المدينة هناك سياسة «الشوارع الشاملة» والتي تتلخَّص في التزام منها بتوفير احتياجات من يستقلون المواصلات وراكبي الدراجات الهوائية والمشاة من جميع الأعمار والإمكانيات، جنبًا إلى جنب مع قائدي السيارات، في كل التطويرات التي يُزْمِعون عملها في المستقبل، كانت أكثر من

ستمائة دائرة قضائية أمريكية قد وقَّعت على وثائق الشوارع الشاملة، وكان ذلك مدفوع جزئيًّا بالحرص على صحة المواطنين وسلامتهم وكذلك إدارة البيئة، كما أن المجتمع الصديق للمشاة يعلي من القيمة السوقية للعقارات كما ذكر تقرير من تحالف وسط بالتيمور العائلي والذي صدر عام 2011.

لقد أصبحت شركة «واك سكور» والتي هي شركة كائنة في سياتل والتي تقوم بترتيب الأحياء السكنية من حيث انفتاحها على المشي، طبقًا لقربها من المتنزهات والمدارس وطرق المواصلات العامة ومتاجر البقالة أداة مفيدة في أيدي المختصين بالعقارات، والمقياس التي تستخدمه هذه الشركة يتدرج من صفر إلى مائة، والمجتمعات التي تدنو عن 24 توصف بأنها مجتمعات معتمدة على السيارات، أما تلك التي تعلو عن 90 تستحق لقب جنة المشاة، في عام 2009 قام الاقتصادي «جو كورترايت» بتحليل 94000 من الصفقات العقارية في خمس عشرة من الأسواق العقارية الأمريكية، فوجد الارتفاع نقطة واحدة في تصنيف «واك سكور» يرفع قيمة العقارية بقدر يتراوح ما بين سبعمائة وثلاثة آلاف دولار وفقًا للسوق ذاته، وإذا ما تطور مستوى المشي من المعدل الطبيعي إلى ما فوقه فسوف ترفع شركة «واك سكور» قيمة العقار بقدر يتراوح ما بين أربعة آلاف وأربعة وثلاثين ألف دولار، ولقد كانت لاس فيجاس المدينة الوحيدة التي لم يكن هناك رابط لديها بين سعر الوحدة السكنية والقابلية للمشي، «كورترايت» الذي أجرى هذا البحث لصالح شبكة من المديرين التنفيذيين العاملين في المجالات الاقتصادية والتعليمية والحكومية، ويطلقون على أنفسهم اسم مديرين تنفيذيين للمدن، يقدم لنا بعض الوظائف: «إن قادة الأمة الحضريين ينبغي عليهم أن يُولُوا اهتمامًا شديدًا للقابلية للمشي؛ لكونه مقياسًا للحيوية الحضرية، وكذلك لكونه محركًا لسياسة عامة من شأنها أن تزيد القيمة العقارية الكلية، والتي هي بدورها مصدر أساسي للثروة الفردية وأيضًا للعائدات النقدية الحكومية في ظل الاقتصاد المتعثر».

كان «كورترايت» قد جمع تلك البيانات في أعقاب انهيار سوق الأسهم الذي حدث عام 2008، وقتها غرقت الولايات المتحدة في الركود وانهارت القيمة العقارية، قد يبدو أمرًا منافيًا للعقل أن نصور ارتفاع القيمة العقارية على أنها مؤشر لجودة الحياة في الحضَر، لكن ليس إذا ما عددنا أن تكلفة العقار تعكس جودة الحي السكني بقدر ما تعكسه بنيته المادية، كما أن تراجع القيم في المجتمع يُعَد دلالة على كون هذا المجتمع مجتمعًا مضطربًا؛ مما يؤدي في بعض الحالات المتطرفة إلى انهيار اجتماعي واقتصادي تمامًا كما حدث في ديترويت من هجرة جماعية منها وإفلاس، قد

تكون تلك الأزمة المالية الحادة التي حدثت عامَي 2008 و 2009 قد مرت مؤقتًا، إلا أن الركود قد منح الملايين من الأمريكيين الفرصة للتأمُّل في الدور الذي قد يلعبه الانفتاح تجاه المشي في خلق رؤية جديدة للمدن التي يعيشون فيها، تقوم أساسًا على إعطاء المزيد من القيمة لتحسين المواصلات العامة وزيادة المزج في استخدام الأراضي بين الاستخدامات التجارية والسكنية، وأخيرًا جعل الشوارع متصلة شاملة، ولعل صدمة مالية أخرى ستعطينا دفعة إضافية تجاه هذا الاتجاه.

كتب «كورترايت» يقول: «إن التغير الثوري في الأسواق المالية والتدهور الدراماتيكي في أسعار العقارات والانكماش في سوق التجزئة وإعادة الهيكلة القائمة في صناعة المركبات كلها تنذر بتغييرات في مدن هذه الدولة، كما أن انعدام اليقين المستمر في مستقبل أسعار الطاقة مع الحاجة إلى إجراء حاسم تجاه التغير المناخي تتطلب تبنِّي استراتيجيات جديدة خلال السنوات المقبلة؛ ولهذا فإن بحثنا هذا يطرح فكرة مفادها أن الانفتاح تجاه المشي هو بالفعل مكون هام من مكونات قيمة المدن، وأن تحسين القابلية للمشي هو كذلك واحد من المفاتيح الهامة للمستقبل».

وجد التحالف العائلي لوسط بالتيمور كذلك أن إقامة مناطق للمشاة في وسط المدينة قد زاد من حركة المشاة بنسبة تتراوح ما بين الـ 20 والـ 40 بالمائة؛ مما أدى إلى زيادة مبيعات التجزئة بنسبة تتراوح ما بين الـ 10 والـ 25 بالمائة، كانت إحدى الدراسات التي أُجرِيَت حول ما ينفقه المستهلكون في المدن البريطانية قد توصلت إلى أن المستهلكين الراجلين ينفقون أكثر مما ينفق مَن يستقلُّون سياراتهم أو يستخدمون المواصلات العامة، وحددت متوسط الإنفاق بـ 91 جنيهًا إسترلينيًّا أسبوعيًّا للماشين في مقابل 64 جنيهًا إسترلينيًّا لسائقي السيارات و46 جنيهًا إسترلينيًّا لركاب القطارات، بعض هؤلاء المتسوقين هم من سكان المدينة، لكن مراكز المدينة المنفتحة على المشاة تجذب المسافرين، وهو الذي يُعَدُّ مصدرًا آخر من مصادر تحقيق المكاسب المادية للمدينة، وكذلك إذا ما قويت المؤسسات التجارية زادت ضرائب العوائد التي تحصلها المدينة.

إذا ما كنت من المؤمنين بشيخ الدراسات الحضرية «ريتشارد فلوريدا»، والذي نال شهرة عالمية في هذا المجال من خلال مناداته بأن مصير المدن مرتبط بقدرتها على اجتذاب أشخاص ينتمون إلى ما يُعْرَف بالطبقة المبدعة، ستجد أن هناك مكاسب أخرى، فمن بين كل عشرة أمريكيين ستجد ستة منهم يقولون: إنهم سيختارون إذا ما تسنى لهم ذلك أن يعيشوا في أحياء سكنية صديقة للمشاة، سواء كانت تلك الأحياء في وسط المدينة أو كانت في الضواحي، يشير «فلوريدا» الذي هو

مدير معهد مارتن للرفاهية التابع لكلية «روتمان» للإدارة بجامعة تورونتو، إلى أن المناطق المركزية المنفتحة للمشي تسكنها مستويات فوق المتوسطة من السكان ذوي التعليم العالي، وكذلك ذوي الدخول الكبرى، كما تتمركز فيها شركات أكثر حداثة تكنولوجية، وأضاف قائلًا: «إن الانفتاح على المشي هو أمر أكبر من مجرد مناخ محبب جاذب للناس، وإنما هو كذلك مركز لجذب المشاريع الأكثر إبداعية والأفراد الأكثر مهارة القادرين على دفع النمو الاقتصادي والحفاظ عليهم.»

كذلك تلك المدينة التي تبعد نحو ساعة عن بالتيمور تحمل لنا بعض العبر، في كتابه «امش بهذه الطريقة: الوعد الاقتصادي الذي تمنحه المناطق المنفتحة للمشي في واشنطن العاصمة» يشرح «كريستوفر لينبرجر» الباحث الاقتصادي بمعهد بروكنجز و«ماريلا ألفونزو» الزميل الباحث بكلية بوليتكنيك للهندسة بجامعة نيويورك أن الانهيار في أسعار العقارات والذي حدث عام 2008 لم يكن فقط ناتجًا عن انفجار فقاعة القروض منخفضة الفائدة، والتي تنطوي على مخاطر كبيرة، وإنما أيضًا بسبب البدء في «التحول الهيكلي في السوق العقاري»، كانت أكبر الانخفاضات في الضواحي النائية، أما تلك البيوت الكائنة في الأحياء المركزية فقد ظلت محتفظة بقيمتها، بل إنها في بعض الحالات زادت قيمتها، وقد عَزَا الباحثان هذا إلى اتجاه الناس إلى تفضيل «الأحياء السكنية المُدمَجة ذات الاستخدام المختلط الثرية نوعًا ما، والتي تتاح فيها المواصلات العامة أو الأماكن المنفتحة على المشي ... لكن هذا التوجه الآخذ في الانتشار يبتعد عن الأحياء السكنية التي تتكون أساسًا من كتلة كبيرة من المنازل التي تسكن كل منها عائلة واحدة؛ إذ تتسم تلك المنازل بقلة أرصفة المشي واتساع مساحات ركن السيارات والتي تعد قيادة السيارات فيها الوسيلة الرئيسة للنقل»، حاليًّا يُعَدُّ الانفتاح تجاه المشي هو الدافع لشراء المنازل لدى ثلثي الأمريكيين.

إن ما سبق يدفع البلاد إلى معضلة يمكن أن نسميها الجرف السكني، هناك قلة في المعروض من المنازل الصغيرة المتصلة، وهو نقص يقدَّر بما بين 12 و5.13 مليون وحدة، وفي المقابل توجد تخمة في المعروض من المنازل الكبيرة تبلغ نحو 28 مليون منزل، إن بناة المنازل متباطئون في تلبية الاحتياجات السكنية الجديدة، وهذا يرجع جزئيًّا إلى الموانع على الصعيدين العام والخاص، والتي تعقد من تطور البيئة المنفتحة للمشي، هذه الموانع تتمثل في السياسات المحلية وقوانين ترسيم المناطق وقوانين التمويل؛ مما يسدُّ عليهم هذا الطريق، إن التطويرات ذات الكثافة العالية ومختلطة الاستخدام يمكن أن تكون فوضوية؛ ولهذا فإن المصارف والمستثمرين لا يرتاحون لمخاطر المتطلبات الرأسمالية، يرى «لينبرجر» و«ألفونزو» في الانفتاح على المشي آليةً يمكن لها أن تدفع

للأمام المكونات الثلاثة الأساسية للأحياء السكنية، ألا وهي الأرباح والناس والكوكب، أضافًا أيضًا يقولان: إن مجال التمويل العقاري «يفتقر إلى الخبرة أو الهيكل المؤسسي أو حتى الغطاء الائتماني الذي يمكنه من الاهتمام بتطوير الأحياء المنفتحة على المشي سواء بالاستثمار فيها أو عن طريق القروض».

إن هذا التحليل الذي أُجْرِيَ على العاصمة قد خرج علينا بتوصيات مهمة، كأن نعيد صياغة قوانين ترسيم المناطق المكلفة والمستهلكة للوقت، وتطويعها لصالح رجال البناء الراغبين في إجراء تطويرات ترمي لجعل الأحياء السكنية منفتحة على المشي ومتعددة الاستخدامات، وكذلك دعم الأحياء السكنية المصممة؛ كي تكون أكثر انفتاحًا على المشي والعمل على إنشاء المزيد منها، فعندما تكون مساحة الأرض صغيرة فإنها تتطلب الحد الأدنى من النفقات اللازمة لإقامة البنية التحتية، كما أن تطبيق برامج الإسكان المدعومة للتعويض عن نقص التطويرات المنفتحة على المشي، إلى أن يحدَّ من ذلك التفاوت بين العرض والطلب، وتنخفض الأسعار كي تصل إلى مستويات في متناول أيدي الناس، وكذلك علينا أن ندعو المطورين العقاريين الذين ينتمون إلى القطاع الخاص والمستثمرين، ومناصري المساواة الاجتماعية وجماعات المجتمع المدني التي يقودها المواطنون؛ إلى الحوار، أو كما كتب «لنبرجر» و«ألفونزو» يقولان: «إننا إذا ما نظرنا للمكاسب الاقتصادية لوجدنا الانفتاح على المشي جزءًا أساسيًّا في كل خُطط النمو الاستراتيجية.»

يقول «تود ليتمان» المدير التنفيذي لمعهد فيكتوريا لسياسة النقل بكولومبيا البريطانية: إن أهل أمريكا الشمالية يقودون سياراتهم لمسافات تبلغ خمسين ضِعْفًا لتلك الأميال التي يقطعونها مشيًا، وقد كتب بحثًا عن القيمة الاقتصادية للانفتاح على المشي، قال فيه: إن ما سبق هو السبب في كون السيارات مركز سياسات النقل، ولأن مُخطِّطِي المدن قد أقاموا خططهم على السيارات، فإنهم قلَّلوا من قيمة التنقل بغير مركبات آلية، إنهم يُغفلون فكرة أن مَن لا يقودون السيارات (وأولئك الذين يقودون فقط عند الضرورة القصوى) يدعمون أولئك الذين لا يبحثون عن خيارات أخرى بجانب قيادة سياراتهم، فبغضِّ النظر عن المسافات التي تقطعها بسيارتك، فإن النسبة ذاتها من الضرائب تذهب لصيانة الطرق، وعلاوة على ذلك تميل الدراسات الخاصة باقتصاديات المرور إلى التركيز على طول مسافة الرحلة، متجاهلة عوامل أخرى مثل تكاليف كل من امتلاك المركبة والاختناقات المرورية وركن السيارات، بالإضافة إلى المخاطر الصحية المترتبة على الانتقال باستخدام المركبات الآلية، دائمًا ما ينأى الناس عن المشي لأنهم يرونه فعلًا متدني المكانة؛ وذلك لأنه ما من

جماعة من جماعات الضغط تحشد له، ولأنه يسهُل على الناس الاستهانة به، فالمرء قد لا يحتاج إلى رصيف مشاة كي يمشي حذاءَ الطريق، إن هذا الفعل يجدِّد تجاهلًا؛ وذلك لأنه أمر عالمي يشترك فيه جميع البشر، ويُعَدُّ هذا واحدًا من الأسباب التي دفعت بجمعية الاكتواريين إلى الرغبة في برامج تمرينات تحفزها خطط صحية، ورغم كون المشي نشاطًا سهلًا ومجانيًّا، فإننا نجد هناك حاجزًا يحُول دونه، فمن الصعب المنافسة مع إعلانات السيارات الجذابة.

غير أن النفقات التي ستُدَّخَر من خلال تقليص استهلاك السيارات هو أمر لا يمكن التغاضي عنه بسهولة، فالأُسَر التي تعيش في مجتمعات تعتمد على السيارات في التنقل تنفق ما نسبته 50 بالمائة على التنقل (حوالي 8500 دولار سنويًّا) عن نظيرتها التي تعيش في أحياء سكنية منفتحة على المشي (والتي تنفق أقل من 5500 دولار سنويًّا)، وهذا الفارق راجع إلى استهلاك الوقود ونفقات التأمين ورسوم ركن السيارات واستهلاك السيارات وغيرها من العوامل، كما أن المجتمعات المعتمدة على السيارات تستخدم مساحات الأرض بصورة أقل كفاءة، إن التطويرات السكنية والتجارية تتطلب مساحة أقل ومرائب سيارات أقل ومسافات أقل من الطريق؛ كي تخفف ضوضاء المرور وتقلل مخاطرَه.

الجدول الذي أورده «ليتمان» والقائم على البيانات الصادرة عن هيئة النقل الأمريكية يُقدِّر الإنفاق السنوي للدولة والولاية والحكومة المحلية على الطرق بـ 8.30 مليار دولار و 4.66 مليار دولار و 3.31 مليار دولار على الترتيب بمتوسط 5.3 من هذا التمويل 6.0 و 1 بالمائة و10 في المستويات الثلاثة مخصص للمشي، وكل هذا دون حساب النفقات العامة التي تنطوي عليها مرائب السيارات وقوانين المرور، كتب «ليتمان» يقول: إن الحكومات المتعثرة التي تدعم البنية التحتية اللازمة للانفتاح على المشي بما يتراوح بين 10 و20 بالمائة من مجموع موارد النقل بالإضافة إلى تغيير أولويات التخطيط سوف يكون لهما أكبر الأثر على تعافي الاقتصاد في تلك الدولة، وهكذا فإن أرصفة المشي تنتج سكانًا أكثر صحة وأكثر استرخاءً يحملون نقودًا أكثر في جيوبهم.

أما تقرير تحالف المشاة وراكبي الدراجات الهوائية فيقحم الجيوبوليتيكا في الموضوع، فالعائلة الأمريكية المتوسطة تنفق ستة عشر سنتًا من كل دولار تجنيه على النقل، وهذا يأتي في المرتبة الثانية من حيث الإنفاق بعد المأوى، وإذا ما تأمَّلنا مصادر هذه المركبات والوقود الذي يُغذِّيها، سنجد معظم تلك الدولارات تذهب إلى «شركات سيارات أجنبية ولشراء وقود آتٍ من بلاد

أجنبية»، وإذا ما تجاوزنا المخاوف المتعلقة بالاعتماد الكُلِّي على الطاقة، سنجد أمامنا سببًا بسيطًا يجعلنا نحذر هذا الإنفاق المبالغ فيه، ألا وهو أن هذه الدولارات تتدفق خارجة من الحي السكني.

قام «جو كورترايت» مستخدمًا بيانات هيئة العائد الداخلي بدراسة ما يُنْفَق على الوقود والسيارات في الولايات المتحدة عام 2010، فوجد أن ما نسبته 73 و68 على الترتيب يتدفق خارج الاقتصاد المحلي، ولأن أهل نيويورك يعتمدون على المشي والمواصلات العامة أكثر من غيرهم من معظم سكان المدن الأمريكية الأخرى، فإن الـ 19 مليار دولار تقريبًا التي ينفقونها على السيارات والتي هي دون متوسط الإنفاق في هذا المجال تُترجَم إلى 16 مليار دولار «متاحة لتنفق في داخل الاقتصاد المحلي؛ لأن هذه الأموال يُسْتَحْسَن أن يعاد إنفاقها في قطاعات أخرى تحفز الرواج في الاقتصاد».

وضع «كريستوفر لنبرجر» كشف حساب للمشي، وفيه أبرز المدخولات النقدية التي سوف تنتهي بانتهاء تلك الأجيال التي تنتمي إلى فترة الألفية وفترة طفرة المواليد والتي هي تعشق المشي (والتي تتمثَّل في مُدَّخَرات كبيرة مع عدم وجود أطفال لتعال) كسبيل لإعادة الانتعاش في المراكز الحضرية في الولايات المتحدة، وكما كتب في كتابه «الخيار الحضري: الاستثمار في حلم أمريكي جديد»: إنه بحلول عام 2025 سوف تنشأ مائة مليون أسرة، وسيكون ما نسبته 88 بالمائة منها بلا أطفال، وهذا ينطوي على نفقات زائدة كثير منها يتوجه نحو وسط المدينة، أو على حد قوله: «إن المدن الكبرى التي لا توفِّر بيئة حضرية منفتحة على المشي مصيرها أن تفقد فرص التطور الاقتصادي.»

تعد بورتلاند بولاية أوريجون والتي هي مقر إقامة «كورترايت» نموذجًا مثاليًّا للمناطق الحضرية، هذه المدينة ذات الـ 590000 نسمة والتي يقطن نحو ثلاثة ملايين منهم التجمعات الحضرية معروفة بسياساتها التقدمية، وما يقرُب من ستين مصنعًا من مصانع الجعة المصغَّرة ونمط الحياة الخلوي، رغم ما تشتهر بها من هطول لأمطار شمال شرقي المحيط الباسيفيكي، بطريقة أو بأخرى تُعَد بورتلاند مدينة أمريكية عادية، فهي تتسم بكثافة سكانية متوسطة، وتقوم بها صناعات تقليدية مثل صناعة الصُّلب، ويلعب مجال شحن البضائع دورًا مهمًّا في اقتصادها، ورغم أنها تتميز بشبكة مواصلات عامة قوية فإن 8 بالمائة من سكانها يذهبون لأعمالهم راكبين الدراجات الهوائية، وهي النسبة الكبرى من نوعها في الولايات المتحدة، كما أن نسبة المشاة فيها تضعها في

المركز الثاني عشر بين أكثر المجتمعات لجوءًا للمشي ضمن قائمة المدن الخمسين الأكبر في الولايات المتحدة.

لقد تمتعت بورتلاند بهذه المكانة الرفيعة في مجال النقل بسبب اثنين من القرارات بعيدة المدى التي اتخذَتْها، فقد تبنت المدينة مبكرًا بدعم من الولاية فلسفة «الشوارع النحيلة» والتي هي حركة تنادي بوضع قواعد جديدة في البلديات تقلص اتساع الطرق، فالشوارع الضيقة تقلل من «السرعة» ومن تصادم المركبات ومن تكاليف الإنشاءات ومن المسافات التي يتعيَّن على المشاة قطعها ومن الأسطح غير النفاذة (ومن ثَمَّ من إمكانية تصريف مياه السيول)، ومن تكاليف صيانة الطرق وإعادة رصفها، ومن إعادة انتشار الحرارة والذي يُسهم في تأثير الجزر الحرارية الحضرية»، إن شوارعنا قد زِيد في اتساعها لسبب يتجاوز الرغبة في استيعاب كل السيارات، وإنما هو أيضًا أثر من متطلبات السلامة في الطرق قديمًا، فقد كانت الطرق تخطط بهذا الشكل كي تتيح للعربات التي تجرها الجياد أن تستدير استدارة كاملة في المنعطفات العمودية، وأن تمر سيارات الإطفاء بجوار أحدها الآخر رغم أن مواد البناء الحديثة وأنظمة رش المياه قد ساهمت في تقليل تواتر حدوث تلك المواقف، أما تقليص عرض الشوارع فيساعد المدينة على أن تجني مزايا زيادة حركة المشاة.

كذلك فإن بورتلاند منذ عام 1980 قد وضعت حَدًّا للنمو الحضري، لكن هذا لم يمنع التمدُّد، فقد كان هذا الحد ذا فجوات منفذة، فقد زادت المساحات الحضرية ستة وثلاثين مرة بإضافة آلاف الأفدنة إلى المناطق المستغلة في الإسكان والمشاريع الصناعية، لكن مع هذا ظل هذا التمدد تمددًا محدودًا يخالف ذلك الذي شهدته في كاليجاري وإدمونتون، وهو الأمر الذي كما فصَّله «كورترايت» في ورقة بيضاء يستهدف بها المديرين التنفيذيين للمدن أسماها «تقسيم مساحات بورتلاند البيضاء»؛ أدَّى إلى أن بلغت المسافات التي يقطعها الساكن لبورتلاند بالسيارة تبلغ ذروتها عام 1996، لكنها مع ذلك تقل بمسافة عشرين ميلًا عن متوسط ما يقطعه المواطن الأمريكي عامة بالسيارة، إن الأميال التي تقطعها المركبات – والتي تُحْسَب بقسمة مجمل الأميال التي قُطِعَت على عدد السكان تواصل التزايُد في الولايات المتحدة ككُل، والفارق بين ما يقطعه الأمريكيون وأهل بورتلاند والذي يبلغ أربعة أميال يوميًّا، عندما يقترن معه انخفاض في التنقل أثناء ساعات الذروة والذي يبلغ اثنتي عشرة دقيقة في اليوم يوفر على السكان ما يقرب من 5.2 مليار سنوي من حيث

تكاليف المركبات وإهدار الإنتاجية، ومعظم هذه الأموال الموفرة كما هو الحال في نيويورك لا تخرج من المدينة.

إن المناخ السائد في بورتلاند يجتذب الشباب، فخلال تسعينيات القرن الماضي زاد عدد سكان المدينة الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والرابعة والثلاثين من ذوي التعليم الجامعي بنسبة خمسين بالمائة، وهي النسبة التي تبلغ خمسة أضعاف نظيرتها على المستوى القومي، تلك هي الطبقة المبدعة التي عرفها «ريتشارد فلوريدا»، وهي قد توافدت زرافات على تلك الأحياء السكنية المركزية المُرَحِّبة بالمشاة، وهو الأمر الذي دفع الباحث المختص بالسكان «ويليام فراي» لأنْ يطلق على تلك الهجرات: «الهجرات الذكية»، على خلاف تلك «الهجرات البيضاء» التي انطلقت إلى الضواحي منذ خمسين عامًا مضت، لكن على الرغم من هذا الجدل البيزنطي القائم حول هذه المسألة، فقد وجدنا أكثر من 1200 شركة متخصصة في التكنولوجيا قد ازدهرت وتوسعت في بورتلاند، كما أن 30 بالمائة من جميع الوظائف في تلك المدينة تقَع في نطاق ثلاثة أميال من المنطقة المركزية للأعمال؛ مما يجعل بورتلاند تحل ثالثة بعد نيويورك وسان فرانسيسكو في تلك الفئة من قائمة المناطق الخمسين الكبرى في الولايات المتحدة.

في تورونتو تلك المدينة الكبيرة، والتي تستنزف شبكات المرور المعقدة فيها ما يُقَدَّر بستة مليارات سنويًّا من اقتصادها تتمثل في تأخير الرحلات وتكاليف المركبات، قامت رئيسة التخطيط في المدينة بجعل المشي مصبًّا أساسيًّا لاهتمامها كسبيل لتخفيف الاختناقات المرورية، تقول «جنيفر كيسامات»: إن التاريخ يعلمنا أن الكثير من قرارات التخطيط قد اتخذها رجال يحبون الرُّؤَى الكبرى التي تتكلف الواحدة منها مليار دولار، هناك إفراط في قطارات الأنفاق والطرق السريعة، لكن الواقع يقول: إن اتخاذ إجراء ذكي كجَعْل المزيد من الأطفال يمشون إلى المدارس، سيكون له أثر أعظم على حركة المرور، فإن أكثر من عشرين بالمائة من الرحلات الصباحية في ساعات الذروة في تورونتو ترجع إلى اصطحاب الأهالي لأطفالهم في السيارات ذاهبين بهم إلى المدارس، تقول «كيسامات»: «إننا نحتاج لأن نعيد بناء ثقافة تتمحور حول المشي، فثقافة كتلك تُعَد استثمارًا في البنية التحتية أعمق أثرًا من أي طرق أو قطارات أنفاق نبنيها.»

بعد أن تجولت في أرجاء المملكة المتحدة مستقلًّا القطار خلال صيف 2013، ذهبت لالتقاط أنفاسي في رحلة مشي على طول الساحل الصخري لإحدى أشباه الجزر في ويلز الشمالية، إن

المشي في الثقافة البريطانية كرياضة الهوكي في كندا متجذر ومندمج؛ فنادرًا ما لا يجد المرء وقتًا أو مكانًا لممارسته أو مشاهدته أو مناقشته، أعرف رجلًا وُلِدَ وترعرع في تلك الأراضي الأسطورية الخضراء، وكان والداه حتى بلوغه السن التي يستطيعان فيها أن يصطحباه معهما قد حدَّدا موعدًا ثابتًا كل عطلة نهاية أسبوع مع إحدى الحاضنات كي تجالسه؛ حتى يتسنى لهما أن يَهِيما في التلال والوديان، كان أمرًا جديًّا لا مزاح فيه.

في ويلز يخدم المشي غرضًا محدَّدًا مهمًّا، فهو يجعل الناس يجدون الطعام على موائدهم، ففي عام 2009 قام مسافرون محليين وزوار دوليين بأكثر من 28 مليون رحلة مشي في ريف ويلز وساحله، كما ذكرت إحدى الدراسات التي أجْرَتْهَا وحدة دراسات الاقتصاد الويلزية بجامعة كارديف، هؤلاء المشاة قد أنفقوا في رحلاتهم 632 مليون جنيه إسترليني، وأيضًا كانوا مسؤولين عن ضخ 275 مليون أخرى في الأنشطة الاقتصادية بشكل غير مباشر، وبسببهم احتفظ 11980 شخصًا بوظائفهم وحققوا أرباحًا فيها في مجالات السياحة وغيرها من القطاعات المتنوعة كالتصنيع والخدمات المالية، وهي أرقام كبيرة في أُمَّة يزيد تعدادها قليلًا عن الثلاثة ملايين نسمة.

رحلتي التي استغرقت خمسة أيام امتدت لتتخذ قطاعًا قصيرًا من طريق ساحل ويلز، وهو طريق يمتد لثمانمائة وسبعين ميلًا ويمتد بطول ساحل الدولة، جاعلًا ويلز الدولة الوحيدة في العالم التي تمتلك طريق مشي يظهر كل أراضيها المواجِهة للبحر، ما بين أكتوبر من عام 2011 وسبتمبر من عام 2012 مشى نحو 9.2 مليون شخص في طريق ويلز الساحلي وأنفقوا 2.33 مليون جنيه إسترليني على العتاد والإقامة والأطعمة والأشربة وغيرها ووسائل الراحة، وفي شبه جزيرة لين التي مكثت فيها تساعد هذه المدخولات الفلاحين وصيادي السمك ومتاجر البقالة والمخابز والنزل والحانات على استمرار نشاطها.

في عام 2012 تم الانتهاء من طريق ويلز الساحلي بشق مسارات جديدة به وربط مساراته القديمة وتركيب لافتات إشارية، لقد تم الانتهاء منه بسرعة بعد أن تلقَّى تمويلًا إضافيًّا بقيمة 6.14 مليون جنيه إسترليني، كما سيُدعَم بمليوني جنيه إضافية ستُخَصَّص سنويًّا للإنفاق على صيانته والترويج له، غير أن هذه الاستثمارات لا تُعَد هدفًا رئيسًا للحكومة الويلزية، والتي لا تفتأ تعزز من قيمة السلع والخدمات التي تولدها البيئة الطبيعية في البلاد بنحو 9 مليارات جنيه إسترليني سنويًّا، قد يرى البعض أن المشي هو رابط أساسي بين الحفاظ على القيم التقليدية وتحقيق العائد، تقول دراسة

جامعة كارديف في خلاصتها: «في حين قد يصعُب الربط بين القيمة المالية والتنوع البيولوجي والأراضي الطبيعية، إلا أنه من الممكن الربط بين القيمة المالية ومجموعة من الأنشطة الترويجية وثيقة الصلة بمدى جودة الموجودات البيئية الإقليمية.»

في المناطق الأكثر تطورًا والأكثر كثافة سكانية في المملكة المتحدة نجد قدرًا كبيرًا من الشد والجذب بين البيئة والاقتصاد، ولكي أعلم أكثر عن هذا الجدال صعدت مشيًا إلى قمة جبل وي الإسكتلندي مع «جوزيف ميرفي».

«ميرفي» هو جغرافي يعيش في جنوب جلاسجو قرب فندق كين بريدج في قرية نيو جالاواي، وكان ذلك الرجل ذو الأصول الأيرلندية والذي وُلِدَ في إنجلترا، قد قطع 933 ميل بطول الساحل الغربي لأيرلندا وإسكتلندا عام 2006 مستكشفًا أصوله الغالِيَّة، وأثناء سيره في طريقه أخذ ذلك الأستاذ في جامعة جلاسجو والمتخصص في الدراسات البيئية يبحث في فرص التنمية المستدامة والتحديات التي تواجهها، وأخذ يتساءل: هل يُعَدُّ المجتمع هو نقطة البداية؟

اصطحبني «ميرفي» إلى ميريك وهو أكبر تلال إسكتلندا ارتفاعًا، انطلقنا من مرآب سيارات في جلينترول والتي هي عبارة عن وادٍ أخضر جميل في جالاواي فورست بارك، بينما كان كلبه من فصيلة كولي جيد يهرول أمامنا، ثلاثمائة ميل مربع من التلال الخضراء والنتوءات الجرانيتية والتي هي موطن للغزال الأحمر والنسور الذهبية، إنها الغابة الكبرى في بريطانيا، كما أنها جزء من محمية المحيط الحيوي التابعة لمنظمة اليونسكو، هي محمية المحيط الحيوي «ذات النمط الجديد» الأولى في إسكتلندا، وقد أُنشِئت بهدف نشر ثقافة الحفاظ على البَرِّيَّة والبحث العلمي والتنمية المستدامة، يبدأ الطريق من جانب غدير سريع التيار، ثم يجري صعودًا خلال بساط من الأَجَمات السرخسية وأشجار الصفصاف والعرعر القصيرة، ولم نلبث سوى لحظات معدودة حتى صِرْنا في غابة من أشجار الراتنج الأستيكي، هذه الأشجار التي كانت قد غُرِست منذ بضعة عقود مضت سوف تُجْتَث عَمَّا قريب.

عملية اجتثاث الأشجار هذه غالبًا ما تتم بشكل ميكانيكي ولا تخلق إلا وظائف قليلة، لكن معظم تلك الأشجار المقطوعة تُعالَج في مناشر محلية توظف أكثر من خمسمائة عامل في مجالات الشحن والتقطيع (وهو تقريبًا نفس عدد الوظائف الدائمة التي سيوفرها خط أنابيب شمال كندا المقترَح)، تقوم لجنة الغابات الإسكتلندية بإدارة نشاط الاحتطاب، وتزعم أنها تُولِي اهتمامًا خاصًّا

للسياحة والحفاظ على الحياة الطبيعية، لكن هذا ليس مجرد نشاط ترويجي، فالثمانمائة والخمسين ألف شخص الذين يزورون غابة جالاواي سنويًّا يضخُّون ما يقرب من ستة عشر مليون جنيه إسترليني في مختلف مجالات الأعمال في تلك المنطقة، دافعة السياحة لتحتل المركز الثالث في الاقتصاد المحلي بعد الغابات والزراعة.

بعد أن ارتقينا مرج السراخس تبدَّت أمامنا تشكيلة من التلال الخضراء والبحيرات الزرقاء، وأخذ «مورفي» يقص عليَّ خبراته عن المشي في أرجاء أيرلندا وإسكتلندا، في قرية روسبورت التي تقع في مقاطعة مايو بأيرلندا، قابل مجموعة من المحتجين خارج بوابات محطة تحت الإنشاء لتكرير الغاز الطبيعي تابعة لشركة شِل، قبلها بعام واحد كان خمسة منهم قد قضوا أربعة وتسعين يومًا في الحبس بتهمة منع الدخول إلى أراضيهم؛ رفضًا لمد خطوط الأنابيب ذات الضغط العالي، تعاطف «مورفي» مع المُحْتَجِّين فكتب يقول في كتابه «على الحافَة» والذي يناقش فيه المشي: «على مدى عقود مضت فُرِضَت مشروعات تطويرية سيئة التنفيذ على المجتمعات الريفية في جميع أنحاء العالم، لكننا الآن صرنا ندرك أن علينا أن نسأل أنفسنا سؤالًا مهمًّا ألا وهو: هل يطور المجتمع نفسه بنفسه أم يحتاج لمن يطوره؟» وهو يعتقد أن السياسة التي تطبقها أيرلندا في مجال الطاقة سياسة قد عفاها الزمن وأنها: «تتنبأ بالاحتياجات المستقبلية من الطاقة وتوفرها من خلال عدد كبير متنوع من المشروعات»، لكنه خلال مشيه في تلك الأرجاء لم يلحظ أي دليل على أي محاولة لتقليل استهلاك الطاقة؛ فقد وجد الآلاف من منازل الضواحي الجديدة، لكنه لم يجد مولدًا للكهرباء عن طريق الرياح ولا حتى خلية شمسية ولا ضوئية واحدة لتسخين المياه.

وفي لويس أكبر جزر الهبرايد الخارجية في إسكتلندا والتي تقع على بُعْد أربعمائة ميل شمال روسبورت قابل حملة معارضة مشابهة، غير أن المعارضين هنا كانوا مزارعين يعملون في مزارع صغيرة يعارضون إنشاء مزارع الرياح الكبيرة، كان تحالف من شركات الطاقة والهندسة الدولية قد أبدى الرغبة في إقامة 234 توربينًا على تلك الأراضي البَرِّيَّة، والتي يقتطع السكان المحليون الجفت منها لا لتصديره وإنما لتدفئة بيوتهم به، فهو محصول قد اعتمدوا عليه لقرون، ولأجل المخاوف الحضارية والبيئية حيث اشتكى السكان المحليون من تحويل أراضيهم لمناطق صناعية وما لهذا من تأثير مهدِّد لوجود الطيور النادرة قُلِّص حجم مزارع الرياح المقترحة تلك، لكن رغم هذا رفضت الحكومة هذا المشروع الذي يبلغ رأس ماله خمسمائة مليون جنيه إسترليني،

والذي كان من شأنه أن يولد 10 بالمائة من مجمل كهرباء إسكتلندا، وقد كان رَفْض الحكومة مَرَدُّه إلى المخاوف الدولية التي ثارت بشأن تأثير المشروع على محاصيل الجفت.

أما اليوم توجد على جزيرة لويس مزرعة رياح جديدة محدودة النطاق تسعى للحصول على تمويل، وفيها ستكون هناك ثلاثة توربينات مملوكة للمجتمع، هذه الكهرباء المولَّدة سوف تباع إلى شبكة الكهرباء القومية، والعائد منها سوف يذهب لدعم التطوير المحلي، يقول رئيس صندوق التنمية المسؤول عن هذا المقترح: «إن هذا المشروع يتعدى مجرد توليد الكهرباء إلى توليد الطاقة، إنه يُعَدُّ ثورة كبيرة.»

إن الاقتصاد بأكمله هو نظام تدعمه البيئة، هذه المقولة لـ «جايلورد نيلسون» الحاكم الأسبق لوسكونسن والسيناتور الديمقراطي الذي نَظَّم أول يوم للأرض عام 1970، وقد كتب يقول: «إن جميع الأنشطة الاقتصادية تعتمد على البيئة وما تحوي من موارد أساسية من غابات ومياه وهواء وتربة ومعادن، وعندما تُفْلِس البيئة بسبب ما يعتري مواردها الأساسية من تلوُّث وتدهوُر وتبديد وإفساد لا يمكن إصلاحه؛ يفلس الاقتصاد كذلك.»

في الولايات المتحدة ينتج ما نسبته ثمانية وعشرين بالمائة من انبعاثات الغازات الدفيئة من وسائل المواصلات، وتُعَد عربات القطارات والشاحنات ذات الحمولة الخفيفة مسؤولة عن نصف ما ينتج عن قطاع النقل من انبعاثات، توليد الكهرباء وحده يُسبِّب حرقًا لمزيد من الكربون، ما يبلغ ثلث الناتج القومي، وما تبلغ نسبته 80 بالمائة منه تنتج من حرق الفحم، لكن هناك بعض الأسئلة التي تثير الفضول، فالسيارات تبعث غاز العوادم عندما تكون محركاتها باردة؛ مما يُعظم فائدة قطع المسافات القصيرة سيرًا على الأقدام، لكن لا حاجة بنا لأن نُهدِر صفحات هذا الكتاب في تعداد الفوائد البيئية لترشيد استهلاك الطاقة وتقليل التلوث باستخدام أجسادنا في التحرك، إنها وسيلة سهلة للبدء في إحداث تغيير، ومن الناحية النظرية يساعد المشي على توضيح العلاقة التكافلية بين البيئة والاقتصاد، وخاصة إذا ما خبر المرء سلسلة من القضايا المتشابكة في رحلة مشي واحدة.

وبعد أن تأمَّل «ميرفي» تلك الصراعات القائمة والناجمة عن مصافي الغاز ومزارع الرياح، بينما كان يتقدم ببطء شمالًا، بدأ يدرك أنه في القرن الحادي والعشرين، يمكننا أن نعرِّف الاستعمار والإمبريالية بكونهما إسقاط للطاقة فوق المكان تمامًا كما تُسْتَغَل الأطراف لصالح القلب، والمجتمعات النائية دائمًا تتلقى الدعوات لأن تنضم إلى ذلك الصراع ضد التغيُّر المناخي عن طريق

بناء مزارع ضخمة للرياح، على الرغم من أن الطاقة التي تولدها تلك المزارع تَصُبُّ بعيدًا عن مصدرها، على الرغم من أنه لا يبدو أننا نأخذ مبدأ ترشيد استهلاك الطاقة على محمل الجِد، قال لي «ميرفي»: إن هذا يمكن أن نَعُدَّه استعمارًا للمستقبل: «إن جيلنا المعاصر لا يَنفَكُّ يهدد مستقبل الأجيال التالية حتى قد لا تستطيع أن تحيا حياة مريحة معقولة مقبولة، إننا نستهلك المستقبل كما لو كان أمرًا تافهًا.»

لكنك عندما تنتقل من القلب إلى الأطراف تستطيع أن تربط بين المكانين بطريقة مفهومة، فحينها تستطيع أن ترى المشاكل والفرص وتزِنها بميزان بشري، وحينها ترى أثر القرارات التي تتخذها الحكومات والمؤسسات العملاقة من على بُعْدِ مئات الأميال، وترى التطور التاريخي لمنطقة ما وتحظى بلمحة من المستقبل الذي ينتظرها.

وصلت مع «ميرفي» إلى نتوء جبلي ضيق، ثم تبعنا جدارًا صخريًّا حتى قمة جبل ميريك، من هناك بَدَتْ لنا القناة الشمالية للبحر الأيرلندي خطًّا أزرقَ مشوَّشًا يمُرُّ غربًا، لم يسبق لـ «ميرفي» الوصول لتلك القمة من قبل، أخذ يتفحص الأفق فوقعت عيناه على بعض توربينات قليلة موزَّعة بين هنا وهناك، فقال: «كم هذا لطيف أن مزارع الرياح لا تحيطنا من كل جانب.»

بعد تلك الرحلة بشهور كنت في منزلي فجالَتْ بخاطري كلمات «ميرفي»، لكني وجدت صعوبة في استحضار الصفاء النفسي الذي شهدته فوق قمة الجبل، ليس فقط بسبب عدم مناسبة أسلوب الاختصار الذي أكتُب به، ولكن أيضًا لأن عقولنا تتذكر الأفعال بشكل مختلف عندما نكون سائرين على أقدامنا، وهي ظاهرة ملحوظة في عالم الأعمال.

إن الثلاثة أميال ونصف التي يمشيها «دان بالوتا» رئيس منظمة الدفاع عن الإنسانية حول حيه السكني في نيوإنجلاند تساعده على التمرُّن على إلقاء خطاباته وخلق مفاهيم جديدة، فقد كتب في منشوره الثابت في صحيفة هارفرد بيزنس ريفيو قائلًا: «أثناء الميل الأول من تمشيتي اليومية، تعلو ضجة الأصوات في عقلي، وهي مزيج من أصوات متصارعة، وأخرى تنبهني لمهام يجب أن أنجزها، لكنني بعد أن أمشي لميلين، مهما كان مدى سوء مزاجي في البداية، لا تلبث هذه الأصوات حتى تهدأ»، كما أن «ستيف جوبس» كبير المديرين التنفيذيين لشركة أبل كان يُجري أكثر حواراته أهمية أثناء مشيه، و«لويس سوليفان» وزير الصحة الأمريكي في أوائل التسعينيات من القرن الماضي كان يمشي مع زملائه عند زيارة مكاتب وزارته الإقليمية، ومن خلال هذا عَرَفَ الكثير

عن آراء الموظفين في سياساته ورُوحهم المعنوية، وتَسَنَّى لهؤلاء الموظفين أن يلتقوا رئيسهم، وهي تجربة لم يمر بها بعضهم رغم طُول مسيرتهم المهنية.

إن ما مارسه كل من «جوبس» و«سوليفان» هو عادة تُسمَّى الإدارة عن طريق المشي، شاعت هذه العادة في خمسينيات القرن العشرين بواسطة «بيل هيولت» و«ديف باكارد» مؤسسي شركة الإلكترونيات التي سُمِّيَتْ باسميهما، لكنها صارت صيحة كاسحة في ثمانينيات القرن ذاته بعد صدور الكتاب ذائع الصيت في مجال الأعمال والمُعَنوَن «في البحث عن التفوق» والذي فيه أطلق كاتباه على هذه العادة لقب «تكنولوجيا ما هو واضح»، فمع انتشار البريد الإلكتروني وحلوله محل اللقاءات المباشرة في الكثير من المكاتب، يمكن أن تساعد المحادثات العابرة بجانب المكاتب المديرين على التواصل مع مرؤوسيهم، كما أنه يشجع الموظفين على الانتماء أكثر للمكان، وطالما كانت تلك الجولات الراجلة منتظمة وليست سبيلًا للمفاجأة أو التجسس، فإنها يمكن أن تساعد على خلق مؤسسة أكثر ترابُطًا وتواصلًا، يقول الاستشاري الأمريكي في مجال الإدارة «دبليو، إدواردز ديمنج»: «إذا ما انتظرت أن يأتيك الناس فلن تعرف إلا الصغير من المشاكل، أما المشاكل الكبرى فلا تتكشَّف إلا إذا ما أحس الناس أنهم ينتمون إلى شخص في مركز القيادة».

كما أن الاجتماعات التي تُعْقَد أثناء المشي، والتي تتلاءم جدًّا مع ثقافة الأعمال في عصرنا هذا والتي هي ثقافة متدفِّقة متحركة، تتجاوز هذا كثيرًا، فمنذ أعوام قليلة عندما أرادت «نيلوفر ميرشانت» مناقشة أمر ما مع إحدى زميلاتها المشغولات، اقترحت عليها المرأة الأخرى الكلام في أمور العمل بينما تنزِّه هي كلابها، كانت تلك لحظة صفاء كاشفة، عنها قالت «ميرشانت» في ندوة ألقتها في منتدى تيد عن ثقافة المؤسسات التي تسابق الزمن للإنجاز: «قد تُعنى بصحتك، أو تُعنى بالتزاماتك، ودائمًا ما يجور أحدها على الآخر»، إن المواطن العادي في شمال أمريكا يظل جالسًا لـ 9.3ساعة يوميًّا، إن هذا يقتلنا، لكن اليوم تعقد «ميرشانت» اجتماعات ماشية تقطع فيها ما بين العشرين والثلاثين ميلًا كل أسبوع تقريبًا.

وكما كان الحال مع الدوريات الراجلة في شمال فيلادلفيا، كان لهذه المشيات فوائد جانبية؛ فهذا النشاط الخفيف يولِّد لدى الإنسان الطاقة ويعرِّضه للهواء المنعش والضوء الطبيعي، واللذين يحفزانه لمزيد من الابتكار والمحادثات المنفتحة أكثر ممَّا تحفزه غرف الاجتماعات المغلقة المضاءة بمصابيح الفلورسنت، تقول «ميرشانت»: «إن الخروج من الصندوق يدفعك للتفكير خارج

الصندوق»، فإنها بعد أن أدركت عدم حاجتها لأن تختار بين لياقتها الرياضية وحياتها العملية، فهمت أننا يجب ألَّا ننظر إلى مشاكل العمل على أنها صراع بين خيارات متعارضة، بل إن دمج التمرين الرياضي في جدول أعمالك الذي يستمر من التاسعة صباحًا حتى الخامسة مساءً، هو وسيلة لجعل الصحة البدنية جزءًا من حياتك اليومية ومن شأنها ألَّا تعامل التريُّض على أنه نشاط منفصل تهمله عندما يزدحم جدول أعمالك، حينها سترى حياتك كلًّا متكاملًا لا مهام منفصلة عليك أن تنجز كلًّا منها على حدة.

وفي السياق ذاته نجد «مارجريت ماكنيل» اختصاصية التواصل الصحي في جامعة تورونتو، والتي كانت قد حذرتني من تحويل التمرين الرياضي إلى إجراء طبي، نجدها بدلًا من أن تحاضر الأطباء والممرضين في داخل قاعات مغلقة عن الصحة، كانت تصطحبهم إلى خارج المبنى كي يمشوا ويتحدثوا، هذا من شأنه أن يذيب الحواجز الإدارية بينهما ويسمح للأفكار أن تتدفق، تقول هي عن هذا: «إن المشي من أفضل الطرق لإذابة الحواجز بين الناس، كما أنه يُسرِّع من وتيرة الأيض الغذائي ويجعل خلايا المخ تتَّقِد»، ولكي تجعل هذه المشيات ناجحة، هناك عدة مفاتيح تتمثل في المشي في جماعات صغيرة، واختيار طرق هادئة وانتعال أحذية مريحة وانتقاء موضوع للحديث يتطلب قدرًا أقل من تدوين الملاحظات (كبداية مشروع مثلًا)، كما أن عدم اصطحاب الهواتف الذكية سيكون له أثر عظيم كذلك.

غير أن «دانييل كانيمان» لم يُبدِ اقتناعًا بهذه الفكرة؛ فقد كان عالم النفس الأمريكي من أصول إسرائيلية والذي حاز جائزة نوبل في الاقتصاد عام 2002، يعتقد أنه رغم روعة فكرة ممارسة المشي مع التفكير في ذات الوقت، فإن هذين النشاطين سوف ينافس كل منهما الآخر على موارد ذلك الجزء من المخ المسؤول عن اتخاذ القرارات المنطقية المتأنية، فقد كتب في كتابه «التفكير بسرعة وببطء» يقول: «إذا ما تعيَّن عليَّ أن آتي بحجة معقدة تحت ضغط عامل الزمن، أفضِّل حينها أن أكون ساكنًا لا أتحرك، وأفضِّل أن أكون جالسًا لا واقفًا»، فعندما يسير المرء بسرعة تتعدى سرعة الهرولة العادية حينها تُحجِم قدرته على الوصول لنتائج منطقية، أو كما يقول «كانيمان»: «حين زيادة السرعة يحتاج المرء لأن يبذل مجهودًا عقليًّا بالتحكم الذاتي كي يقاوم حاجته لأن يبطئ سرعته، وعلى ما يبدو فإن التحكم الذاتي والتفكير المتأني يَنهَلَان من ذات المَعِين الشحيح».

معظمنا يتبنى فكرة «كانيمان»، فإننا عندما ننشغل نذهب لنَتَمَتْرَسَ وراء طاولات مكاتبنا، لكنها ممارسة تحُفُّها مخاطر شديدة إذا ما تأملنا الآثار الصحية طويلة المدى للجلوس أكثر مما يجب، لكننا أسرى لعاداتنا.

بعد أن توقفت عن السفر والمراسلة الصحفية ضاق وقتي جدًّا، فبدأت أكتب هذا الكتاب، ولأنني كنت أجمع بين التكليفات التي أتلقَّاها من المجلات وواجباتي المنزلية، فلم أجد إلا اليسير من الوقت لأمشي، فقد جلست كثيرًا وكثيرًا حتى لجأت إلى الجري لمسافات قصيرة متواترة بطول ضفة نهر ريدو بأوتاوا؛ كي أتخفف من الضغوط العملية والأبوية، (لقد نجحت الجراحة التي أجريتها على ركبتي، رغم أنني ظللتُ أحذر من مهرجانات الموسيقى الشعبية)، لكنني بعدها أُصِبْتُ بالتهاب جلدي غامض، ربما بفعل لدغة حشرة ما؛ مما جعل يدي اليمنى تتورَّم حتى صارت تشبه شريحة اللحم المشوي، في غرفة الطوارئ بالمستشفى حقنني الأطباء بمضادات حيوية وريدية على مدى ثلاثة أيام، ثم أعادوني للمنزل بعد أن منحوني مضخة مغروزة في أوردتي وصالحة للمشي، وكانت تضخ العقاقير في أوردتي كل ثماني ساعات، وهكذا فقد ثُبِّتت كمية من الأنابيب البلاستيكية المتشابكة والموضوعة في حقيبة صغيرة إلى فخذي؛ مما أعجزني عن الجري؛ لذا فقد جربت المكتب المثبَّت إلى حصيرة جري.

كانت فكرة هذا المكتب بسيطة للغاية تتمثل في طاولة مكتب على حامل طويل، وتحته حصيرة جري مسطَّحة، أعارتني إحدى الشركات الأمريكية والمسماة «لايف سبان» نموذجًا رمادي اللون من نماذجها المسمى DT5-TRI200، وهذا النموذج يتميز بطاولة علوية متينة يمكن تعديل ارتفاعها، وتتنوع سرعاتها ما بين 0.4 و4 أميال في الساعة؛ مما يتيح للمرء الكتابة على الحاسب الآلي والمشي بكل أريحية، وهكذا تتدفَّق الأفكار دون التعرُّض لمخاطر أمراض الجلوس، لقد تطورت حصائر الجري التي كان المرء يصنعها بنفسه مثل ذلك النموذج الأوَّلِي الذي صنعه «جيمس لفين» الباحث في مجال السمنة بمستشفى مايو كلينك في تسعينيات القرن الماضي إلى النماذج التجارية التي نعرفها اليوم والتي تقيس السعرات الحرارية وبها خاصية البلوتوث، والتي تتراوح أسعار الواحد منها ما بين ألف وخمسة آلاف دولار، إن محركات حصائر الجري مصمَّمة بحيث تكون أفضل حالاتها عند السرعات البطيئة لساعات طويلة، لكنني تساءلت: هل إذا عزلت

نفسي في مقر عملي الذي أقمته في قبوٍ ملحقٍ بمنزلي، وضبطت سرعة الحصيرة على سرعة ميل ونصف في الساعة، يمكنني وقتها أن أنجز أي شيء أيًّا كان؟

ومثل جميع من يعملون مستقلين، بدأت يومي بالرَّدِّ على ما وردني من رسائل عبر البريد الإلكتروني وتويتر، ثم الانتهاء من جميع المهام التي يجب أن أُكمِلها عن طريق الإنترنت (مثل تجديد رخصة القيادة)، وبعد قضاء 45دقيقة على تلك الآلة نسيت أنني أمشي، وبدأ الجزء السفلي من ظهري يؤلمني وقدماي كذلك، فرفعت مستوى الطاولة واستبدلت بخفيَّ اللذين كنت أنتعلهما حذاءً رياضيًّا.

بعدها بساعتين وجدت الألم قد زال عني، لكنني مع تعرُّقي بعض الشيء حاولت أن أنزع غطاء الرأس المتصل بسترتي أثناء الحركة، كانت فكرة سيئة، فقد أوقف زر الأمان المثبت إلى بنطالي حزام الحصيرة؛ مما دفعني لأن أتعثر فأرتطم بالسطح الخشبي للمكتب، بعدها تحامَلْتُ وكتبت بضعة مئات من الكلمات، لكنني بعد أن نزلت من على الحصيرة وقت الغداء ترنحت كما لو كنت قد نزلت لتوِّي على ميناء من رحلة بحرية.

لكنني بعدها وقت الظهيرة أجريتُ بعض الاتصالات الهاتفية بنجاح، فلم أجد مشكلة في الحديث في تلك المرحلة، لكنني وجدت صعوبة في تدوين الملاحظات بنمط كتابة الحروف المتشابكة، لكنني وقت أن استنفدت طاقتي كنت قد جريت لـ 8.8 أميال وحرقت 716 سعرًا حراريًّا، كان يومي الأول يومًا مثمرًا.

صرح «لفين» لـ «سوزان أورلين» الصحفية بجريدة النيويوركر بينما كان كلاهما يجريان على مكتبيهما المثبتين إلى حصيرة الجري: «إن الميل إلى الجلوس على الكراسي، لم يفهم أي حد حقيقة كم خسرنا بإطالة زمن جلوسنا.»

رغم أن «لفين» و«أورلينز» من أتباع المكاتب المثبَّتَة إلى حصيرة الجري فإن الأبحاث التي تُجرَى عن العمل أثناء الجري على حصيرة المشي تميل لأن تعضد رأي «كانيمان»، في جامعة تينيسي قام «ديفيد أر. باسيت» المختص بالتمارين الفسيولوجية بجعل طلبة الدراسات العليا ينجزون عددًا من المهام تارة أثناء الجلوس وتارة أخرى أثناء المشي على حصيرة بسرعة ميل واحد في الساعة، ومن تلك التجرِبة وجد أن الخاضعين للدراسة لم تتحسن قدرتهم على الكتابة على

الكمبيوتر واستخدام الفارة وهم جلوس فقط، وإنما صاروا أيضًا أكثر مهارة في العمليات الحسابية بحَقٍّ، لكن قدرتهم على الانتباه واستيعاب ما يقرأون لم تتأثر عندما اختُبِروا أثناء المشي.

احتفظت بمكتبي المثبَّت لحصيرة الجري لعدة أشهر لاحقة مختَبِرًا إياه مع سرعات مختلفة ومتنقلًا بين قبو منزلي وكرسي مكتبي في الطابق الأرضي، ربما كان السبب هو الضوء الطبيعي أو الهواء المنعِش، لكنني كنت أعمل بشكل أفضل وأنا جالس، تحب «جوانا كولز» رئيسة تحرير مجلة الكوزموبوليتان مكتبها المثبت لحصيرة الجري كما تقرأ عليه، لكنها بخلاف ذلك تمتلك مكتبًا كبيرًا نمطي الطراز في مكتبها الجانبي في الطابق الثاني والأربعين ببرج هيرست بوسط مانهاتن، في رأيي أن ما أنجزته في مكتبي الأعلى مَنحني المزيد من الوقت لأقضيه في الخارج، فعندما كنت أعمل على تلك الماكينة شعرت بتلك الصعوبات الإدراكية التي تكلم عنها «كانيمان»، وغير هذا أخذت أتساءل هل يعد هذا مشيًا إذا لم تكن لديَّ وجهة أقصدها؟ أو كما قال لي أحد الأصدقاء المتذمرين منها: إن حصائر الجري ما هي إلا عجلات دوَّارة من تلك التي تجري فيها حيوانات الهمستر، غير أنها للبشر.

بعد أن شحنت الحصيرة معيدًا إياها إلى شركة لايف سبان، حَلَّ على أواتاوا شتاء هو الأكثر برودة منذ عشرين عامًا، كنت قد تعلمت خلال رحلتي في آلبرتا أن ارتداء الكلاسين وحب الثلوج والجليد هو الوسيلة المُثلى للشعور بالدفء والتخلُّص من ذلك الاكتئاب الموسمي الذي يتملك المرء؛ لذا فقد وجدتُ نفسي أتلمس الحُجج كي أخرج من المنزل، ومن البحث السريع في الإنترنت عثرت على شخص يمكنه أن يساعدني في هذا.

قابلني «أندرو ماركل» وهو رجل طويل نحيل في العقد الرابع من عمره خارج مقهى يقع في منعطف مزدحم، فتح لي «ماركل» الباب الخلفي لسيارته الهوندا إليمنت والمبطَّنة من الداخل بالبلاستيك، وفي المقعد الأمامي للسيارة كان كلب من فصيلة الباسيت جالسًا واللُّعاب يسيل من شدقيه، فشرح لي «ماركل» أن كلبه «سبينس» لا بد أن يجلس في المقدمة وإلا بال في السيارة.

يمتلك «ماركل» وزوجته «بريكن هانكوك» شركة لتنزيه الكلاب تسمى «واك إت أوف»، هي شاعرة بينما هو كاتب لروايات الخيال العلمي، كما أنها تضطلع ببعض الأعمال المتعلقة بسياسات الحكومة الفيدرالية، عندما انتقلا للعيش في هذه المدينة عام 2012 أرادا أن يقيما مشروعًا لهما، فأنشآ هذه الشركة، وبعد عام واحد من إنشائها صارت هناك قائمة انتظار للعملاء الراغبين من

الاستفادة من خدماتهما، كان «ماركل» يتقاضى 19 دولارًا أمريكيًّا لكل نزهة لأحد الكلاب إذا ما تعاقد معه مالكو الكلب لمدة خمسة أيام متصلة، ويمكن لـ «هانكوك» أن تجني التكلفة نفسها إذا ما عملت نفس عدد الساعات التي يعملها.

ركبتُ السيارة وقابلت بقية رفاقي الركاب وهم: «زيرمات» من فصيلة المسترد الأحمر، و«فين» و«بيكسي» من فصيلة الجولدن دودل، و«فرانكلين» من فصيلة البول ماستيف، و«فاني» أصغرهم حجمًا التي هي مهجَّنة من فصيلة البيجل، لكنها كانت مربوطة في صندوق حيوانات محمول؛ لأنها دائمًا راغبة في العراك، قال لي «ماركل» بينما يقود السيارة تجاه غابته السرية الموجودة في الضواحي: إن «أولي» في عطلة حاليًّا.

اهتاج الرفاق عندما انعطفنا عن الطريق السريع، فتوقف «ماركل» على الجانب العريض للطريق الزراعي، ثم وضع الأطواق حول أعناق الكلاب الستة، وكانت هذه الأعناق كلها مثبتة إلى مشبك قوي في حزامه، مشينا بحذاء طريق ثلجي طويل متوغلين خلال أجمات عديمة الأوراق لأشجار بلوط وأشجار تفاح، لكنه بعد دقيقة أطلق سراح الكلاب لتجري بحُرِّيَّة، أخذت الكلاب تمرح وسط الثلوج؛ فقد كانت تعدو وتتقافز وتنبح وتنبش الأرض، إن هذا مجمع للكلاب موجود داخل المدينة لا تحدُّه أية أسيجة، إنه مكان لتجديد الحياة، لقد ذكَّرني هذا المشهد بمشهد تلاميذ المدارس الذين يندفعون خارج أبواب قاعات الدرس في الفسحة، وبمشهد موظفي المكاتب حين ينعتقون من حجيراتهم المكعَّبة.

قضت الكلاب حاجتها، فجمع «ماركل» روثها في أكياس، وأخذت «فاني» و«فرانكلين» يتصارعان على جذب أحد الأغصان وهما يزومان، دُرْنا في محيط يبلغ نحو ميلين، وهي مسافة نزهة من نزهاتهم المتوسطة، كانت الأشجار ومعها سلسلة التلال تصد عنا الرياح، لم يقتنع «سبينس» بأن يبقى ضمن المجموعة إلا بعد أن قُدِّمت له الحلوى، وظل «ماركل» يحثه على الإسراع قائلًا: «هيا يا صديقي، أَسْرِع»، وبعد ساعة عاد «سبينس» إلى السيارة وأراح رأسه على عصا تبديل السرعات ثم غرق في النوم.

منذ إنشاء شركة «واك إت أوف» صار «ماركل» يقود سيارته لفترات أكبر عن ذي قبل، لكنه أثناء القيادة يستمع إلى كتب مسجلة صوتيًّا، كما أنه يتحرك في تلك الفترة التي تتسم بالسلاسة المرورية، والتي هي بين ساعتي ذروة الصباح وما بعد الظهيرة، معظم عملائه الذين يعملون ما

بين التاسعة صباحًا والخامسة مساءً لا يمتلكون الحرية لقضاء ساعة في الغابة في منتصف النهار مع كلابهم، ليس باستطاعتنا جميعًا أن نحظى بوظائف كوظيفة «ماركل»؛ فلسنا جميعًا قادرين على العمل لجزء مستقطَع من اليوم، غير أن هناك الآن حركة قائمة تنادي بتطبيق نظام العمل لأربعة أيام فقط أسبوعيًّا، فهذا النظام يتيح لنا أن نحظى بمزيد من الوقت كي نُعنى بأنفسنا وعائلاتنا، كما أنه يوفر المزيد من الوظائف لأناس آخرين، إذن ما العيب في العمل لأربع ساعات يوميًّا؟ إن «ماركل» يعشق ذلك التوازن الحادث في حياته بين الحرية والتريُّض والعائد المادي المناسب ومشاعر الرضا التي تنتابه والتي يبعثها الابتكار، ورغم أنه لم ينسحب تمامًا من عجلة الوظيفة اليومية الدائرة بقسوة فإنه لم ينخرط فيها كلية كذلك.

سألته قبل أن أترجل من السيارة: «ما أكثر شيء تفضله في مثل هذا النوع من الوظائف؟»

قال: «عائدها المالي جيد، كما أنها لا تستغرق سوى نصف النهار؛ مما يسمح لي بالعمل على أمور أخرى أهتم بها، وكذلك المشي هو على الأرجح أفضل ما في الأمر.»

الخامس
السياسة

«هل الديمقراطية كما نعرفها هي خير ما في وسع الحكومة على صعيد الإصلاحات؟ ألا يمكن اتخاذ خطوة متقدِّمة نحو الإقرار بحقوق الإنسان وتنظيمها؟»

هنري ديفيد ثورو، العصيان المدني.

«لقد أدركت كم كنت وزملائي في الحكومة بعيدين عن الحياة التي يحياها الآخرون؛ فقد كانت دراساتنا السياسية تدور في فلك من الرطانة الشوهاء وتفعمها عبارات مضللة تتكلم عن تلك العمليات المالية الواضحة المنطقية الخاضعة للمساءلة، لكنني غدوت أكثر ثقةً في زيف كل هذا... وذلك لأنني عندما مشيت رأيت أناسًا حقيقيين في أماكن حقيقية.»

«روري ستيوارت»، العضو البرلماني، المملكة المتحدة.

«تتصنع أنثى سمك السلمون النشوة الجنسية.»

على الأرض الصخرية المنبسطة بجوار نهر لون شمال غربيِّ إنجلترا يقف ستة رجال يناقشون التهديدات التي تواجه مصايد الأسماك المحلية، لقد كان هذا النهر فيما مضى واحدًا من أفضل الأنهار التي يُصطاد منها سمك التراوت في المملكة المتحدة، لكنه لم يعُدْ كذلك؛ وذلك لأن النترات والفوسفات التي تدخل في تركيب التربة المخصبة والتي تُنْثَر على سطح الحقول المجاورة قد تسرَّبت إلى الماء، كما أن عواصف الأمطار العاتية، الآخذة في التزايد في الفترة الأخيرة، تجرف الحصى القابع في مجرى النهر وتدمر أعشاش بيض السمك، هناك مشروع مقترَح متعلق بالطاقة الكهربية المائية من شأنه أن يعيق تدفُّق النهر؛ مما يجعل الأسماك الفارَّة من مزرعة السلمون الواقعة عند ثغر نهر لون على بُعْد خمسة عشر كيلومترًا ترتحل عبر قناة كنت حاملةً معها قُمَّل البحر وأمراضًا أخرى.

الواقع أنهم كانوا يتحدثون في البداية عن الصيد، لكن حديثهم الآن قد اتخذ مجرى آخر.

أخذ ذلك الرجل الذي يرتدي قميص جولف أخضر، ويتدلى من عنقه منظار مقرب، يكرر: «تتصنع إناث السلمون الوصول للنشوة الجنسية». «جون هات» هو كاتب سابق متخصص في الترحال، لكنه بعدها أنشأ موقعًا إلكترونيًّا مربحًا يسمى Cheapflights، ولكونه أمينًا لصندوق نهر لون فهو يُعَد مواطنًا مرموقًا وموقَّرًا، وهو على ما يبدو لا يخجل من التعبير عما يدور في ذهنه.

قال «هات»: «هذا حقيقي»، ثم استطرد شارحًا، فقال: إن الأنثى عندما تكون مستعدة لوضع البيض تحفر حفرة في الحصى القابع في قاع النهر، وتحوم حولها فاتحة فمها وتتملكها رعشة شديدة، ثم ما يلبث أن يلتحق بها الذَّكَر ويفعل الشيء ذاته، وعندما تطلق البيض يطلق الذكر مَنِيَّه فيحيا آلاف من صغار السمك في الماء، إلا إذا لم يكن الذَّكَر متخذًا موقعه فوق البيض مباشرة، هنا تتصنَّع هي النشوة الجنسية.

سأله أحد الرجال وهو يغالب الضحك: «لكنهم لا يكونون صاخبين خلال هذه العملية، أليس كذلك؟»

تضاحَكَ الرجال عدا ذلك الرجل النحيل ذي الحلة الرمادية المجعَّدة والقميص الأزرق المقلم، وربطة العنق المعقودة عقدة ضيقة، والمزدانة برسوم لمراسٍ ومراكب شراعية وجزر استوائية صغيرة ذات نخلات زيت صغيرة، كان شعره البني الطويل الأشعث كرأس ممسحة وحذاؤه البالي الإشارتين الوحيدتين إلى أنه لم يكن مرتاحًا في هذا المكان، كان عاقدًا ذراعيه وآخذًا في تأمُّل المياه الضحلة وهي تُهْدَر فوق الصخور الناعمة، وكانت النحلات والفراشات تتناغم مع زهور القصوان وعِصِيِّ الذهب التي تحف ضفة النهر، لكنه تكلم أخيرًا.

قال لـ «جون» وهو يلكزه بكوعه: «تتصرف كسياسي الآن أنت يا جون، تحاول تغيير الموضوع.»

ضحك الجميع، لم تكمن المشكلة في كون هؤلاء الصيادين مجموعة من الصعب أن ينخرط فيها «روري ستيوارت» العضو المستجَد بالبرلمان البريطاني، وإنما لكونه ممثلًا لدائرة «بينيرث» و«بوردر» الانتخابية التي تُعَد أقل مجتمعات إنجلترا من حيث الكثافة السكانية، والتي تتألف من ألفَي ميل مربع من الحقول والتلال والجداول المائية الرائقة والمرتفعات الصخرية، وهي مكان

يستحضر فيه «جلين بيك» منظرًا لغدير يجري خلال الوادي الضيق العميق، ولا يستحضر فيه مشهد ذلك المذيع المستفز، والذي يقدِّم برنامجًا حواريًّا على قناة فوكس نيوز، هناك تتسم السياسة بالتهذيب، وعلاوة على هذا ظلت هذه الدائرة الانتخابية تمثل مقعدًا مضمونًا لحزب المحافظين طوال القرن الفائت، فهي منطقة كانت قبل ذلك خاضعة لحكم «بيت» الأصغر، بل ورغم كون «روري» الإسكتلندي الذي ينتمي لحزب المحافظين ينحدر من سلالة ملكية، فإنه كان يعرف كيف يتكلم مع الناس بلغتهم.

لحظة أن وصل «ستيوارت» إلى جسر تيباي القديم توجَّه بالشكر إلى أولئك الرجال الذين وافقوا على الانضمام إليه على ضفة ذلك المجرى المائي، الذي هو في حد ذاته موضوع نقاشهم بدلًا من أن يتكلموا عنه في غرف اجتماعات مغلقة، ثم طلب أن يخاطبهم قائلًا: «هلا ذهبنا لرؤية النهر؟» ثم تسلق بسرعة القائمَ الخشبي المؤدي لسور تعلوه أسلاك شائكة ونزل إلى الشاطئ.

انطلقت مع «ستيوارت» من مزرعة «بروجهام هال» الواقعة على بُعْد 20 ميلًا شمالًا متجهين نحو نهر لون، حيث قضى «جل» يومه بين الناخبين في معرض «بينريث»، وهو معرض زراعي تم الاحتفال بذكراه المائة والسبعين عام 2013، عندما وصلت لتلك المقاطعة مترامية الأطراف، التي تستغرق المسافة إليها نصف ساعة مشيًا من الفندق بطول الشارع التجاري الواقع في سوق بلدة «بينريث»، وأرغمت نفسي على الامتناع عن مشاهدة «فالنتينو» مجازف الدراجات النارية، وهو يقفز فوق إطار كبير حلقة نارية، وجدت «ستيوارت» جالسًا على كرسي قابل للطي داخل خيمة حزب المحافظين، يستمع لمجموعة من المزارعين كلهم في أوائل العشرينيات من عمرهم، بينما يصفون معاناتهم وإحباطاتهم اليومية.

قال أحد المزارعين: «يُدْفَع لنا مبلغ زهيد من المال مقابل تسييج الحقول وإبعاد الأغنام عنها، لحماية زهور الأوركيد البرية»، كانت إحدى الهيئات القومية العامة والمسماة «إنجلترا الطبيعية» قد وضعت تلك الخطة للحفاظ على الزهور المهدَّدة بالانقراض، لكن المشكلة تكمن في أن زهرات الأوركيد البرية تحتاج للأغنام، حيث تقوم الأغنام بالتهام نباتات العليق والزعرور البري التي تخنق تلك الزهور، كانت تلك واحدة من حالات افتقار الاتصال العديدة بين السياسات والشعب، لكن «ستيوارت» قد وعد المزارعين باتخاذ إجراء حيال ذلك الأمر.

قال لي «ماثيو بلير» المزارع الشاب بعد انتهاء تلك الجلسة بالخيمة: «كم هو أمر طيب أن يرغب نائبنا البرلماني في أن يسمع منا، وأن يأتي من ويستمينستر ويقضي بعض الوقت مع أناس مثلنا.»

قابَلَتْ عائلة «بلير» «ستيوارت» أثناء الحملة الانتخابية لعام 2010، عندما طرق باب مزرعتهم، يُعَدُّ «طرق الأبواب» استراتيجية حاسمة في جمع الأصوات حتى في الدوائر الانتخابية الريفية، لكن مَقْدِم «ستيوارت» لمزرعة «بلير» لم يكن بالأمر المعتاد، فهو قد أتاهم مشيًا على الأقدام.

وبعد أن اختير مرشحًا عن حزب المحافظين لـ «بينريث» و«بوردر»، بدأ يقوم بذلك الإجراء الشاق الذي يقوم به كل منافس مُدْرَج على القوائم الانتخابية، والذي يتمثل في توجيه خطاب للعامة لمدة خمس دقائق من ساحة العرض بسوق بيع قطعان المواشي بالمزاد العلني، وهو الأمر الذي قال عنه «ستيوارت»: «إن التعبيرات التي صدرت عن المزارعين كانت تنمُّ عن أنهم كانوا يرون في الخراف المهجَّنة مرشحين أفضل ليمثلوهم في البرلمان»، كان يرغب في أن يتعرَّف بحق على هذه المنطقة؛ لذلك فقد ذهب في جولة بلغ طولها ثلاثمائة ميل حول أرجاء دائرته الانتخابية، موزعًا منشورات بطرقات البلدة، ومتوقفًا لدى التجمعات الأهلية، ومنضمًّا إلى مسابقات للمعلومات العامة تُقام في حانات القرية، ونائمًا أينما عُرِضت عليه الإقامة الليلية سواء في حصن من حصون القرون الوسطى، أو في بيت ريفي أُنْشِئَ في القرن السابع عشر، أو في غرفة تعلو إحدى الحانات (وذلك لأن افتقاره للمعرفة بموسيقى البوب والمسلسلات التلفزيونية الصباحية جعله يتأخَّر في البقاء في الحانة؛ لأنه كان دائمًا يحل في المركز الأخير)، كان شطر كبير من تلك الجولة قد نُسِّق بعناية؛ ففي إحدى الليالي، انطلق «ستيوارت» عائدًا إلى «بينريث» لتناول العشاء مع رئيس بلدية مدينة نيويورك آنذاك «مايكل بلومبيرج»، لكن معظم مقابلات «ستيوارت» في الحملة الانتخابية كانت غير مرتَّبة، مثل جولته سيرًا على الأقدام لمزرعة «بروجهام هال».

بعد أن التُقِطت صورة جماعية لـ «ستيوارت» مع جيل المزارعين الشباب، مشى «ستيوارت» بخطًى واسعة حول أرض المعرض، زائرًا غرف مجلس كمبريا للحياة البَرِّيَّة، ومجلس كمبريا لتدريب الكلاب، ثم اشترى تذكرة يانصيب بقيمة جنيه إسترليني واحد لربح سيارة بيجو في خيمة وادي عدن للضيافة، تصافح «ستيوارت» مع تجار الجرارات وتجار المزادات،

وتفحَّص حظائر بها نحو عشرين سلالة مختلفة من سلالات الأغنام، معرِّفًا إياي بمالكهم، والذي حاول أن يعلمني كيفية التعرف على الفروق البسيطة التي تميز كل سلالة منها، (بالنسبة لي كانت كلها أغنام، لكنني عرفت بعد ذلك أن «هيو هاريسون» مالك تلك الأغنام الذي يعتمر قبعة مدبَّبة قد وُلِدَ في مزرعة توارثها أجداده عبر الزمن، وأنه قد ساعد في إخراج فيلم «ويثنال آند آي»، وهو فيلم كلاسيكي متعلق بالحياة الرعوية تم تصويره في جنوب بينريث، وقد قال عنه: «لقد استمتعت به كثيرًا، ولكنك عندما ترى كيف تُصنَع النقانق قد يجعلك هذا لا تستمتع بها.»)

توقفنا بشكل مؤقَّت لمشاهدة اثنين من الرجال السِّمَان يرتدون ما بَدَا لنا ملابس داخلية طويلة، وذراع كل منهما يلتف حول كتف الآخر، ويلصق كل منهما رأسه برأس الآخر، وبالتدريج تحلَّق المتفرجون حولهما على شكل دائرة، وأخذوا يشاهدونهما إلى أن حاول أحدهما أن يرفع الآخر لكنه انزلق وسقط على ظهره.

وعلى حين غِرَّة ظهر رجل غريب الأطوار أشيب الشعر وقال: «مصارعة كمبرلاند»، ثم مال نحونا وقال مفسرًا: «إنها نشاط محلي، محلي جدًّا».

مشى «ستيوارت» بين الحشد الرعوي البسيط بكل سهولة، فلم يجد أي صعوبة في إيجاد طريقه بينهم، ولقد كان «ستيوارت» الذي تخرَّج من جامعتَي إيتون وأكسفورد يعمل معلِّمًا خاصًّا للأميرين: «وليام» و«هاري» في الفترة الصيفية، وصار صديقًا لوالدهما، وبصفته عضوًا بمكتب وزارة الخارجية البريطانية، فقد أُوفِد إلى إندونيسيا للمساعدة في كتابة التقارير عن تِيمور الشرقية، ثم أُوفِد بعدها إلى الجبل الأسود خلال فترة نزاع كوسوفو، كما شغل منصب نائب الحاكم لمحافظتين بجنوبي العراق، وقام بإدارة مؤسسة خيرية في كابول مهمتها إعادة إحياء الفنون والعمارة الأفغانية التقليدية، وكذلك كان «ستيوارت» أستاذًا لحقوق الإنسان بجامعة هارفرد، ومديرًا لمركز «كار» لسياسات حقوق الإنسان بمدرسة كينيدي للحكم بالجامعة ذاتها، كل هذا ولم يكن قد تجاوز سن الأربعين بعد.

كان «ستيوارت» يتمتَّع بمكانة مرموقة وسيرة ذاتية حافلة في المجتمع؛ فقد وضعته مجلة فانيتي فير قبل أن يقترن بزوجته ضمن قائمة أكثر العُزَّاب وسامة وطلبًا للخطر، لكنها برغم هذا كالت له الهجاء مشبِّهة إياه بأحد متقمصي شخصيات أفراد فريق الرولنج ستونز؛ وذلك لكبر أنفه وكثافة حاجبيه وبروز شفتيه وشعث شعره، واختارته مجلة «إسكواير» واحدًا من ضمن خمسة

وسبعين شخصية هي الأكثر تأثيرًا في القرن الحادي والعشرين؛ وذلك لأنه «قد يصبح رئيسًا للوزراء يومًا ما، إذا ما أثار ذلك المنصب اهتمامه» على حد قول المجلة، كما أن شركة «براد بيت» للإنتاج السينمائي قد قامت بشراء حقوق ملكية لإنتاج عمل عن قصة حياة «ستيوارت»، ووردت تقارير عن مشروع فيلم يروي سيرته حيث يقوم «أورلاندو بلوم» بدور البطولة، لكن انضمام «روري ستيوارت» لحزب المحافظين على ما يبدو قد وأد المشروع في مهده، أو كما صرح هو لجريدة «الجارديان» قائلًا: «تلك هي أسوأ نهاية لأي فيلم».

ولقد كتب «جوليان جلوفر» في تلك الجريدة أثناء الحملة الانتخابية لعام 2010 قائلًا: «إن «روري ستيوارت» على ما يبدو يمثل انفصالًا يشبه الحلم، انفصالًا عن ذلك العالم الذي يعرفه البشر الفانون، لدرجة أنني عندما أمشي برفقته يساورني شعور بأنني ربما سأنتقل في أي لحظة إلى مجرته الأم التي جاء منها.»

لذلك فهو ليس كغيره من أعضاء البرلمان ولا هو كغيره من المشاة الرُّحَّل، وذلك هو ما فتنني بما لديه من هوس بالمشي، والسؤال هنا هو كيف ساهم المشي في تغذيته بكمٍّ كبير من المعلومات التي أثْرَت رُؤاه؟ وهل سيتيح له هذا مزيدًا من الانخراط السياسي الحقيقي؟ وهل سيسحق معتقداتي المثالية تحت حذاء تلك الواقعية المادية؟

بعد تركه لوزارة الخارجية البريطانية قضى «ستيوارت» عامًا ونصف العام يمشي في جميع أنحاء الشرق الأوسط وآسيا الوسطى حتى وصل نيبال، لكنَّ هناك جزءًا من منتصف تلك الرحلة ما يزال مفقودًا؛ لذلك ففي يناير من عام 2002، وفي ظل دَوِيِّ قصف القنابل الأمريكية والبريطانية، دخل «ستيوارت» أفغانستان دون تأشيرة، آملًا في أن يباشر العمل على مسيرة امتدت لستة أسابيع من المشي المنفرد عبر الجبال، بدءًا من هيرات وصولًا إلى كابول، كتب «ستيوارت» في كتابه الرائع The Places In Between يقول: إن هذه البلاد المحيرة التي دائمًا ما كانت تُصَوَّر على أنها «بلاد رجعية هامشية لا صلة لها بالعالم، قد صارت اليوم مَحَطَّ اهتمام العالم، لقد تاق «ستيوارت» لأن يستكشف «ذلك المكان الواقع بين الصحاري ومرتفعات الهيمالايا، وبين الحضارات الفارسية والهيلينة والهندوسية، وبين الإسلام والبوذية، وبين الإسلام الصوفي ونظيره العسكري»، لقد أراد أن يعرف «كيف اندمجت تلك الثقافات بعضها في بعض، وكيف لمست العالم الذي انفتح بعضه على بعض وأثَّرت فيه».

لكن الشرطة السرية الأفغانية والتي أظهرت كفاءة ملحوظة بعد أسبوعين فقط من تعيينها من قِبَل الحكومة المؤقتة بعد سقوط طالبان بستة أسابيع، لم تعتقد أن هذه فكرة جيدة «فالطرق الحيوية يغطيها الثلج بارتفاع ثلاثة أمتار وهناك الذئاب وهناك الحرب»، وكان أحد المحققين قد قال لـ «ستيوارت» بعد أن أخرجه من الفندق الذي ينزل فيه: «إنك سوف تموت، هذا أضمنه لك».

انفضَّت جلسة مجلس نهر لون بموجة أخرى من التضاحك على الجنس الذي يمارسه سمك السلمون، أما أنا فقد مشيت مع «ستيوارت» نحو مصبِّ النهر، بمحاذاة طريق لمزرعة قديمة، كان ما يزال مرتديًا حُلَّته وربطة عنقه المعقودة بإحكام حين فض الاجتماع، قائلًا: إنه من المهم قطعًا حماية مصالح الصيادين؛ فإنهم كانوا منذ عهد بعيد جزءًا لا يتجزَّأ من الثقافة الكمبريانية، فهم يعملون على المساعدة في حماية التراث الطبيعي للمنطقة، فنشاط الصيد يُعَدُّ تسلية صحية ذات منفعة غذائية، كما أنه يضخُّ أموالًا في الاقتصاد المحلي، لكن من جهة أخرى تُعَد الزراعة العمود الفقري للاقتصاد في تلك المنطقة، ولقد اشتكى المزارعون لـ «ستيوارت» من قسوة التشريعات التي سُنَّت للحدِّ من استخدام الأسمدة، كما أنه من مناصري الطاقة المولَّدة من الماء؛ لأنها طاقة متجدِّدة وهو يَعُدُّها ذات مضار أقل من توربينات الرياح التي أثير حولها جدل كثير في كمبريا، معظمه بسبب تشويهها لمشهد التلال الخلَّابة والذي يقلِّص من حجم السياحة في المنطقة، إن تربية الأحياء المائية على الساحل الإسكتلندي في ظل تلك العواصف المطيرة العاتية التي يتسبب فيها الاحتباس الحراري، تساهم في تعقيد تلك الأسئلة التي تثار حول الصيد.

تساءل «ستيوارت» بصوته الرقيق: «كيف يفترض بي أن أعالج كل تلك المشاكل؟ ماذا يجب أن أفعل؟»

توقف ليفتح لنا بوابة أَبْدَت الاعتراض على فتحها بصرير عالٍ، ثم أغلقها بعد مرورنا منها، ثم قال: «إن ذلك الاجتماع مع الصيادين لم يكشف إلا عن القليل من حياة النهر». لمحة عن القضايا المتخصصة والتي يجب على المرء أن يصارعها محاولًا الوصول إلى الحكم الصحيح، «عندما تبدأ في الحديث عن تلك الأشياء؛ تدرك حينها ما يحدث للمجتمعات المعاصرة، فنحن نعيش بتلك العقبات الاستثنائية»، يضيف قائلًا وهو يحوِّل نظره بعيدًا عن نهر لون «لأنني شخص رومانسي أعتقد أن إيجاد الحلول أمر غير مستحيل»، وأننا إذا ما أَوْلَينا القدر الكافي من الاهتمام والصبر وأنفقنا القدر المناسب من الوقت، فسنقدر على الوصول للحل الصحيح.

«لا تبدو هذه أمور سياسية، بل إن هذه الأمور تبدو في الواقع محض تضارب بين مصالح متعارضة منعزلة لا سبيل لحلها.»

ينحني «ستيوارت» ليقتلع عُشبة مورِقة من وسط رقعة عشبية كثيفة تنمو بجوار الطريق الذي تمر به عربات ذات عجلات ثقيلة تاركة أثرًا في الأرض اللينة، قال «ستيوارت»: «لدينا مشكلة هنا»، وأشار إلى سنابل الحبوب الريشية، يحتاج ذلك العشب لأن يؤكل قبل أن تتكوَّن به الحبوب، وإلا لن يمد الأغنام بالمواد الغذائية الكافية، لكن المزارعين يمتلكون قطعانًا صغيرة، وبالتالي فإن العشب ينمو دون أن يُجَزَّ، ومن ثَمَّ تفقد قطعان الأغنام الاهتمام بتلك المراعي، حيث ينمو الشوك وتنتشر نباتات القراص الشائكة، وتتقلص مساحات مراعي الأعشاب القابلة للأكل، وهو الأمر الذي يؤدي بدوره إلى ارتفاع أسعار الأعلاف، والتوسُّع في استخدام المخصبات الكيميائية وتدهور المراعي؛ مما يثقل عاتق المزارعين، ويمثل مصدر إزعاج للمشاة والسائحين، لقد احتاج «ستيوارت» لثلاث سنوات كاملة في منصبه كي يستطيع فَهم مسألة المراعي.

وفي نهاية أول صيف قضاه كنائب برلماني، أكمل «ستيوارت» جولة مدتها أربعة أيام مشيًا على الأقدام، قطع فيها ثمانين ميلًا على امتداد نهر عدن، شرق نهر لون، بدءًا من منبعه وصولًا إلى البحر، كان برفقته مدير مجلس أنهار عدن، بالإضافة إلى مجموعة من الشخصيات المختلفة، من بينهم أحد أعضاء منظمة «طبيعة إنجلترا»، ونائب وكالة البيئة في المملكة المتحدة، ومُزارع بمزرعة للألبان، وصياد، وعالم أحياء، وقد نجحت تلك الرحلة في جمع التبرعات المالية لصالح برنامج يجلب تلاميذ المدارس إلى النهر بغرض التثقيف البيئي، نُفِّذَتِ العديد من الأنشطة العملية والتي تضمنت البحث عن سلطعون البحر ذي المخالب البيضاء وهو الكائن المهدَّد بالانقراض، والذي يُعَدُّ الوحيد القار في الجزر البريطانية، ووادي عدن الذي تميزه التلال الجيرية ويعود تاريخه للعصر الروماني هو وادٍ أخضر خصيب يعج بأشجار البلوط والكستناء، وبينما كان «ستيوارت» يمشي باتجاه سولواي فيرث، أخذ يجمع كل ما أتيح له من معلومات عن الوادي، أشار عامل مزرعة الألبان، والذي توارثت عائلته العمل على ضفاف النهر لعدة قرون، إلى أن سلطعون البحر يعيش فقط على الحجر الجيري، حيث يحصل منه على الكالسيوم لبناء الصدفات، ثم أشار أحد المشاة وهو طبيب لـ «ستيوارت» إلى كهوف التأمُّل، والتي نحتها الرهبان المسيحيون الأوائل في منحدرات التلال، وبعد أربعة أيام من التعثُّر في الشقوق الطينية على ضفة النهر، أدرك «ستيوارت» كم قطع من مسافة، وكم من الأمور لم يدرك بعدُ.

وفي أفغانستان، وبالرغم من أنه يتحدَّث اللغة الدارية وبعض الأُردية الرديئة، وبرغم خبرته كسياسي ورحَّالة منفرد في بلدان مختلفة كالعراق وإيران، لم يَخْبُ هذا الشعور في نفسه أبدًا.

منحت الشرطة السرية «ستيوارت» إذنًا لمتابعة المشي رغم سُخطها منه، ولكن مع اشتراط وجود اثنين من المرافقين المسلَّحِين، كانت المليشيات الهمجية لا تفتأ تجوب الريف، ولقد قُتِلَ العشرات من مراسلي الحرب الأجانب خلال الشهرين الماضيين، لكن الرجلين اللذين عُيّنا لحماية «ستيوارت» «قاسم» وهو رجل ضئيل الجسد في منتصف العقد الخامس من عمره، و«عبد الحق» الأطول قامة والأصغر سنًّا مجهزان بشكل جيد، إن هؤلاء المجاهدين الذين حاربوا الروس بداية، ثم حاربوا طالبان، صاروا الآن يعملون لصالح أحد أمراء الحرب الذي صار فيما بعدُ حاكمًا لتلك المنطقة، كانوا يحملون فقط البنادق وأكياسًا للنوم، من دون طعام ولا ملابس ثقيلة، والأسوأ من ذلك أن مسؤولي الإدارة المحلية في هيرات لا يحظَوْن بأي سلطة حقيقية على قُرى الطاجيك السُّنِّيَّة التي تبعد عن المكان مسيرة بضعة أيام باتجاه الشرق، كان السفر مع «قاسم» و«عبد الحق»، فقد كانت الوديان المتاخمة للطريق الذي سلكه «ستيوارت» تقع تحت سيطرة قادة عسكريين متحاربين.

لقد ظلت الحرب مستعرة لأكثر من عِقْدين متتاليين، لكن نادرًا ما اتَّضح مَن يحارب مَن؛ فقد كانت هناك ثلاث مجموعات عِرقية رئيسة أخرى، كما كانت هناك فرقة إسلامية أخرى، وفرقة من المحاربين الأقوياء الذين قد يكونوا قد تحالفوا مع طالبان قبل هذا بأسابيع قليلة، أو قد يكون هذا لم يحدث، بعضهم يحظى بعلاقات مع الحكومة الإيرانية، بينما يتلقى الآخرون الإمدادات المالية والأسلحة من باكستان، في أفغانستان تُعَد التحالفات مصدرًا للقوة، لكنها صارت تتقلب كثيرًا بعد القصف الذي طال البلاد من الغرب.

عندما انطلق «ستيوارت» مستهلًّا مسيرته من هيرات التي تبعُد ستين ميلًا عن الحدود الإيرانية وهو يرتدي القميص الأفغاني المُسَمَّى شالوار مع سروال واسع وقبعة لينة مستديرة دون أن يغتسل، لم يكن مظهره يختلف كثيرًا عن أيٍّ من المواطنين المحليين، كانت الصحراء المفترشة بالحصباء تخلو تمامًا من الأشجار، وتحيط بها التلال الجرداء، وفي ظل درجة الحرارة المعتدلة، راقَ له المشي في المكان؛ لأنه كان يروي عطشه للتاريخ والثقافة والحركة.

كان توفير الإقامة الليلية لـ «ستيوارت» كل ليلة مغامرة في حد ذاته، كانت التقاليد الإسلامية تحض المسلمين على إكرام الضيف، فقد قال النبي محمد في حديث له: «ما آمن بي مَنْ بات شبعانَ

وجاره جائع إلى جواره وهو يعلم»، وهنا نجد إشكالًا، لكن برغم هذا تعددت طرق استقبالهم لهم، لم يستطع «ستيوارت» أبدًا أن يخمن ما يمكن أن يحدث إذا ما طَرَقَ باب مسجد أو بوابة مجمع سكني ذي أسوار عالية، في بعض المنازل الطينية المتواضعة دُعِيَ بترحاب إلى غرفة الضيوف، ثم جلس على سجادة الغرفة البسيطة مع رجال القرية بعد أن بادروه بسلسلة من التحيات العربية التقليدية، وسألوه بعض الأسئلة الشخصية المعتادة عن وطنه وعاداته على غرار: «السلام عليكم، أتمنى من الله ألا تكون مرهقًا، أتمنى أن تكون عائلتك بخير وبأفضل حال، أمن الممكن للرجل منكم أن يتزوج ابنة عمه؟» بعض المضيفين كانوا مرتابين منه، لكنه كان يحمل خطابات توصية من مسؤولين رفيعي المستوى، وكان معظم الرجال الذين قابلهم إما فضوليين أو كُرَماء، حتى مع جهلهم بالقراءة، أُشعِلَت النيران، ووُزِّعَت الأغطية، وتم توزيع الوجبات وتناولها في هدوء، كان العشاء أرزًا مع قليل من قطع لحم الضأن الصغيرة، وكان الإفطار عبارة عن خبز النان مع الشاي الحلو ، لكن في منازلَ أخرى أكثر ثراءً كان الخدم يقدِّمون له الجوز والبرتقال، بينما يجلس على سجاد ناعم فخيم، لكن الكهرباء أو خدمات مياه الشرب والصرف الصحي لم تتواجد داخل أي منزل من المنازل، وحتى وصل منطقة هزارا في منتصف رحلته لم يَرَ أي نساء تظهر في العلن، ولقد كتب يقول: «في تلك المنطقة لم أَرَ من التكنولوجيا سوى الكلاشنكوف، ولم أَرَ من الظواهر العالَمية سوى الإسلام.»

خلال الأسبوع الأول من رحلته، وفي إحدى غرف الضيوف المزدحمة، وبينما يعاني الإسهال والسأم من تلك الأحاديث القليلة والتي تجنَّب فيها الخوض في الدين بينما أسهب في السياسة؛ سأل «ستيوارت» أحد الملالي عن رأيه في الرئيس الأفغاني الجديد وقتها «حامد كرزاي».

أجاب الشيخ: «جيد، حتى الآن.»

«حتى الآن؟!»

«تنظيم القاعدة كان جيدًا في البداية.»

سأل «ستيوارت» رجلًا آخر وهو من مُلَّاك الأراضي الأثرياء عن السبب الذي جعله يصير مجاهدًا.

أجاب الرجل: «لأن الحكومة الروسية منعت نسائي من أن يغطين شعورهن وصادرت حميري».

ولماذا تحارب طالبان؟

«لأنهم أجبروا نسائي على تغطية وجوههن وسرقوا حميري».

يأتي الحكام ويذهبون، لا يهمُّ إن كانوا عسكريين متدينين، أم كانوا يمثلون قوى أجنبية عظمى؛ فالشعوب لها حاجات عاجلة أكثر أهمية.

وصل «ستيوارت» في غضون يومين إلى نهر هاري رود، في بعض المناطق، يجري النهر بممرات ضيّقة للغاية بين منحدرات التلال المتدرجة، ويهدر خلال تلك الممرات التي تثير في المرء رُهاب الأماكن المغلقة، وتُعَدُّ مكانًا مثاليًّا لنصب الكمائن، أعطى «ستيوارت» «قاسم» و«عبد الحق» بعض المال فوافق الرجلان المسلحان على العودة، وبمجرد أن أصبح «ستيوارت» بمفرده، حمل القرويون أسلحتهم على أكتافهم، مُصِرِّين على مرافقته حتى كتلة المنازل التالية، كتب «ستيوارت» قائلًا: «لقد كنت أُناوَل كأنني طرد من زعيم منطقة إلى الزعيم الذي يليه.»

ولقد كان هؤلاء الزعماء هم القوة الحقيقية الوحيدة في تلك الأماكن، ففي القرى الجبلية القبلية بأفغانستان لا يدفع السكان الضرائب، ولا يتلقون أي خدمات من الدولة، أما القوانين فتُسَن طبقًا للعُرف والدين والضرورة، وطبقًا للأرض والمناخ، بينما تكون الحكومات، في أماكن أخرى «في المباني الضخمة المليئة بثقوب خلفتها طلقات الرصاص في هيرات وكابول».

في «تشغشاران»، وهي بلدة يبلغ عدد سكانها خمسة عشر ألف نسمة، في منتصف رحلته، رأى «ستيوارت» مدى اتساع الفجوة بين الخطاب الغربي والواقع الأفغاني، هبطت اثنتان من مروحيات التشينوك، ونزل منهما اثنان من مسؤولي الأمم المتحدة خافضين رؤوسهم لتفادي ريش المروحية سريعة الدوران، كان أحدهما أيرلنديًّا والآخر ألمانيًّا، وكانا يتمتعان بخبرة كبيرة في مجال السياسة الدولية، وعلى درجة من الدراية بأفغانستان يحسدهما عليها أي أوروبي، وعبر مكبر للصوت بدأوا يخاطبون الناس من أمام المبنى الخرساني الوحيد في المدينة، شارحين لهم كيف أن عملية تشكيل مجلس اللويا جيرجا الجديد سوف تؤدي في النهاية إلى اختيار قائد للبلاد، وفي هذا

المجلس سيُنتخب به أناس عاديون من بينهم نساء، بعدها دخل رجال الأمم المتحدة إلى المروحية مرة أخرى وطاروا مبتعدين.

كان لدى «ستيوارت» أصدقاء يعملون لصالح الأمم المتحدة ووكالات دولية أخرى ومراكز أبحاث في كابول، لقد قاموا بإدارة مشاريع تكلِّف ملايين الدولارات، ولكنهم نادرًا ما غادروا المجمعات المحصَّنة التي يسكنون فيها، كتب «ستيوارت» مقتبسًا من وثيقة للأمم المتحدة أن هدفهم كان «إنشاء حكومة مركزية متعددة العرقيات على نطاق واسع، ملتزمة بالديمقراطية وحقوق الإنسان وسيادة القانون»، وبغَضِّ النظر عن نواياهم وحساسيتهم، فلقد جاءوا من دول علمانية منفتحة تنتمي لمرحلة ما بعد الحداثة وذات تقاليد ليبرالية متوغِّلة في القانون ونظم الحكم، ألم يدركوا أن الحكم المركزي في هذا الجزء من العالم عادة ما يعني الإخضاع بالعنف؟ وأن ذلك النوع من الديمقراطية والمساواة بين الجنسين لن يجد له سوقًا رائجة؟ ولقد أعلن «ستيوارت» في كتابه The Places In Between أن «واضعي السياسات» لم يمتلكوا الوقت ولا الأفراد ولا الموارد اللازمة لإجراء دراسة جادَّة عن تلك الثقافة الغريبة عنهم، ولقد برروا افتقارهم للمعرفة والخبرة بتركيزهم على الفقر، والإلماح إلى عدم وجود تلك الاختلافات الثقافية الجذرية.

استمع «ستيوارت» في أحد المنتديات التي أُقِيمَت في كابول إلى «ماري روبنسون»، المفوض الأعلى لحقوق الإنسان بالأمم المتحدة، والتي أشارت إلى أن القرويين الأفغان هم كغيرهم من فقراء العالم يكمُن أكبر همهم في كيفية توفير الوجبة التالية، غير أن المزارعين الذين التقاهم «ستيوارت» كانوا يعرفون كيف يأتون بوجبتهم التالية أكثر من مُعظَمِنا من حقولهم وقطعان ماشيتهم.

بينما كنت أمشي مع «ستيوارت» على طول نهر لون قال لي: إنه من السهل عليك أن تعرف الكثير عن أي قرية أفغانية بسرعة شديدة، الحياة هناك درامية؛ فالناس هناك يطلقون النار على جيرانهم حرفيًّا، وأحيانًا ينفد مخزونهم من الطعام، وإذا ما مشيت مع أحدهم قد تجده يحكي لك عن مآثره مشيرًا إلى شواهد على غرار: هنا قتلتُ ذئبًا، وهناك قتلتُ أحد منتسبي طالبان، وكان «ستيوارت» بعد أن يصل لمنزل أحدهم بفترة قصيرة، ما يلبث أن يجلس مرة أخرى في غرفة مع عشرات من الرجال الذين يسألونه أسئلة فَظَّة ثم ينام معه نصفهم في المكان نفسه.

إن فَهم مدينة بريطانية والتعرُّف على مشاكلها يستغرق وقتًا أطول بكثير، فهناك يتمتع الناس بقدر كبير من الخصوصية، حيث يقضون أغلب أوقاتهم داخل بيوتهم، وعلى الرغم من امتلاكهم لمساحات شاسعة من المزارع والمراعي لكنها خالية من الرعاة الذين ينادون عليك صائحين من فوق التلال داعينك للانضمام إليهم لاحتساء الشاي، عندما بدأت حملة المشي على الأقدام، حاول «ستيوارت» أن ينقل ذات الأسلوب الذي انتهجه في أفغانستان إلى إنجلترا، لكن أحدًا من السكان المحليين رغم ما يتمتعون به من ودٍّ لم يَدْعُه لدخول منزله، بل إن أحد أصدقائه حذَّرَه قائلًا: «إذا ما طرق شخص بذات هيئتك بابي ليلًا سأستدعي له الشرطة على الأرجح، فلن يأمن لك أحد، والمحتمل أن تتعرض للسطو في اليوم الأول، لو كنت مكانك لبقيت مع طالبان».

يظهر التناقض جليًّا عندما يصير المرء مسؤولًا محليًّا أو برلمانيًّا فاعلًا، عاد «ستيوارت» إلى أفغانستان عام 2005، وعاش في كابول لمدة ثلاث سنوات ليدير مؤسسة الجبل الفيروزي، وأثناء تلك السنوات، أسست الجمعية الخيرية عيادةً صحية ومدرسة ابتدائية، وأعادت بناء تسعين مبنًى، وأدخلت الكهرباء والمياه لمئات المنازل، وكان من أكبر إنجازات «ستيوارت» في أول ثلاث سنوات له في ذلك المنصب المنتخب هو توصيل شبكة إنترنت واسعة المدى لأكثر من اثنين وخمسين منزلًا ريفيًّا، ولقد كان ذلك الإنجاز الضخم نتاج مائة وعشرين ساعة من الاجتماعات.

يقول «ستيوارت»: «في مجتمع كهذا للناس احتياجات حقيقية، ولكنها أكثر تعقيدًا من أن تُفهَم، فقد يستيقظ المرء يومًا ما وينظر خارج بابه، فلا يبدو له الوضع بذلك السوء؛ إذ تتوافر المدارس والطرق وإمدادات المياه، وليس هناك من يتضوَّر جوعًا، إذن ما دوري هنا؟ ما الجدوى من كوني أعمل بالسياسة؟»

يتابع «ستيوارت» قائلًا: «يمكن للمرء أن يشعر بعدم جدواه كسياسي، فالظاهر أن المشاكل الكبرى قد حُلَّت كلها، وأننا في مجتمع يعيش في سلام ويجري بنَسَق سليم، وإذا ما صدمتني حافلة، بل وإذا لم يشغل مكاني في البرلمان أي عضو آخر لمدة عشرين عامًا، سيستمر إصلاح الطرق، وستظل القطارات تعمل، ولن تنقطع الكهرباء؛ ففي ديمقراطية راشدة كتلك، نحتاج لأن نكون شديدي الحساسية تجاه أي تغييرات ثانوية، ويتحتم على المرء أن يعمل أكثر ويدرس أكثر ويعرف أكثر، محاولًا بذل كل ما في وسعه لتسخير كل إمكانياته كموظف عام.»

من خلال المشي عبر البيئات الطبيعية المحلية البعيدة، أصبح «روري ستيوارت» أكثر قربًا من شعوب وثقافات مختلفة، كما أنه قد اكتسب فَهمًا دقيقًا لدائرته الانتخابية وللمناطق التي تدور فيها رَحَى الحرب أكثر من أي سياسي آخر، يقول الكاتب السياسي البريطاني «إيان دونت»: إن «ستيوارت» هو أكثر استقلالية من أن يُسمَح له بأن يدنو من مجلس صانعي القرار، هو مُحِقٌّ على الأرجح، لكن التغيير نادرًا ما يخرج من مجالس أصحاب السلطة.

لقد قام «ستيوارت» بالمشي عبر كمبريا لجذب انتباه سكانها، لكن في باقي بقاع العالم يمشي الناس لجذب انتباه السَّاسة، إن العصيان المدني الذي لا ينطوي على العنف هو زحف مؤلم بطيء نحو التغيير.

كان «هنري ديفيد ثورو» قد كتب واحدًا من النصوص المؤسِّسة لحركته، ولقد كتب «ثورو» مدفوعًا باشمئزازه من العبودية والإمبريالية الأمريكية، وسجنه لوقت قصير بسبب رفضه دفع ضريبة الرؤوس؛ مقالة «العصيان المدني» عام 1849، بعد رحيله عن «والدون بوند» بفترة قصيرة، وقد كتب يدعو الناس إلى التصرُّف كما تملي عليهم ضمائرهم لا أن يقفوا مكتوفي الأيدي منتظرين العدالة في حال اختلافهم مع حكومة تزعُم أنها تتصرف لحساب مصلحتهم، وعلى مدى السنوات العشر التالية، نقَّح «ثورو» عددًا من المحاضرات وقدَّم لها، والتي تطورت إلى أن صارت مقالًا آخر سمَّاه «المشي»، وقد نُشِر مباشرة بعد وفاته إثر إصابته بمرض السُّلِّ في عام 1862، وفي المقال يمتدح «ثورو» فضائل الانغماس في الطبيعة، ويدين المِلكية الخاصة للحياة البَرِّيَّة، كما قال: إنه حتى المشي في الأماكن المعتادة يمكن أن يولِّد أفكارًا جديدة لمن يمارسه.

كان «المهاتما غاندي» أول شخصية عالمية تجسد كلمات «ثورو» وتوجِد صلة بين العصيان المدني والمشي، صلة استمرَّت للأبد، كانت القوانين الاحتكارية البريطانية قد حظرت على الهنود إنتاج الملح أو بيعه؛ مما أجبر السكان الفقراء على شراء ملح باهظ الثمن غالبًا ما يستوردونه من مستعمريهم، لكن في مارس من عام 1930 بدأ «غاندي» مسيرة عبر المدن الغربية لإقليم الجوجارات بدءًا من معبده الهندوسي، وصولًا إلى البحر العربي، تبعه في البداية العشرات، وكان يخطب في الناس في كل قرية يمُرُّ بها، ثم ما لبث المئات أن انضموا إليه، وفي الخامس من أبريل، وبعد أن قطع نحو مائتين وخمسين ميلًا، وصل قرية «داندي» الساحلية وحَثَا حَفنات من الملح بيده من على شاطئ البحر خارقًا للقانون، ولقد استمرت الاحتجاجات لشهرين آخرين، أُلقِيَ القبض على

«غاندي» في مايو، بعدما ألهم الكثيرين من الناس لاستخلاص الملح من ماء البحر، وبنهاية العام وصل عدد المقبوض عليهم إلى ستين ألف شخص، لكن لم يبدُ أن هناك سبيلًا لإيقاف رحلة البحث عن استقلال الهند.

بصرف النظر عن انخفاض الرغبة في المشي هذه الأيام، فإن الأمريكيين معروفون بقدرتهم على لفت الأنظار عن طريق أقدامهم، ففي الثالث من مارس من عام 1913 في اليوم السابق على تنصيب الرئيس المنتخَب «ودرو ويلسون» خرجت مسيرة نسائية حاشدة في شارع بنسلفانيا بواشنطن؛ للمطالبة بتعديل دستوري يمنح المرأة الحق في التصويت، بلغ عدد المتظاهرات ثمانية آلاف امرأة، وعشرين مسرحًا متنقلًا، وتسع فِرَق موسيقية، ازدحم الطريق بعشرات الآلاف من المتفرجين، كان معظمهم من الرجال الذين وفدوا إلى المدينة لحضور حفل تنصيب «ويلسون» رئيسًا، وأثناء تلك المسيرة تعرضت النساء للدفع والعرقلة والإيذاء، ونُقِل مائة منهن إلى المستشفى دونما أي رد فعل من الشرطة، تصدَّرت تلك الحادثة عناوين الصحف الرئيسة، وأُقِيل رئيس الشرطة على إثرها، ثم بدأ الرئيس «ويلسون» يتخلَّى عما يتميز به من لا مبالاة، وبعد سبع سنين من الواقعة مُرِّر التعديل الدستوري التاسع عشر، ووُلِدَ حق الاقتراع للنساء من رحِم معاناتهن.

ومنذ ذلك الحين لم تتوقف المظاهرات الاحتجاجية عن الخروج في شوارع واشنطن، سواء تلك التي تنتمي للمنهج الفكري السائد في البلاد أو إلى الأيديولوجيات الهامشية؛ ففي عام 1925 خرجت مسيرة من خمسين ألف عضو في منظمة «كوكلو كلان» بامتداد شارع بنسلفانيا، معتمرين القلانس البيضاء كالأشباح، ومشى على نهجهم حاخامات ومحاربون قدامى ونشطاء سلام ومناصرون للحركة النسائية وحملات للمتدينين رافضي الإجهاض ومزارعين ورجال مثليين وسحاقيات، وممثلين للنقابات التجارية، ومدافعين عن البيئة، وأعضاء في حركة الشاي، ومئات من الأحزاب الأخرى التي تمثل الجماهير الغاضبة والباحثة عن حقها في ذات الوقت.

في الرابع والعشرين من أغسطس لسنة 1963 أخذت واشنطن أُهبتها تحسُّبًا لاندلاع أعمال شغب؛ حيث تمركز أربعة آلاف جندي في الضواحي، واستُنفِر خمسة عشر ألف من جنود المظلات في كارولينا الشمالية، كانت مبيعات الخمور قد عُلِّقت في العاصمة لأول مرة منذ تحريم بيعها، شحَنت محلات بيع الخمر بضائعها لأماكن بعيدة تجنبًا لنهبها، انهمر مائتان وخمسون ألفًا من المتظاهرين على الأقل إلى المتنزَّه الوطني في مسيرة للمطالبة بمزيد من الوظائف ومزيد من

الحرية، وفيها قدم كل من «جون بابيز» و«بوب ديلان» عروضًا، كتب أحد المراسلين يقول: «لقد ظل الحشد مسالمًا ومتآلفًا، تتداخل خلاله السيقان البيضاء مع السيقان السوداء في البركة العاكسة»، وعندما قام «مارتن لوثر كينج الابن» أخيرًا بأخذ الميكروفون ووقف أسفل نصب «لنكولن» التذكاري تخلَّى عن خطابه الذي كان قد أَعَدَّه سلفًا، ثم أخذ يرتجل خطابًا للحشد عن حلمه بالحرية.

كتب المؤرخ البريطاني «إريك هوبزبوم» يقول: «بعد الجنس، يُعَد النشاط الذي يجمع بين الخبرة الجسدية وأعلى مستوى من العواطف الجياشة هو المشاركة في مظاهرة جماهيرية في وقت حماس جماهيري كبير، لكن على عكس ممارسة الجنس التي هي في الأساس نشاط فردي يُعَد هو نشاط جمعي ... يمكن أن يطول لساعات ... وينطوي كذلك على ممارسة جسدية تتمثل في المشي وإنشاد الشعارات الحماسية من خلالها يجد الفرد المندمج مع الحشد المتظاهر وهو الاندماج الذي يُعَد جوهر التجرِبة الجماعية الفرصة للتعبير».

كانت مسيرة واشنطن قد مهَّدت الطريق لنقلة أخرى للأمام؛ ففي السابع من مارس من عام 1965 بدأ 600 من النشطاء مسيرة من سيلما بولاية آلاباما متجهين إلى مونتجومري عاصمة الولاية، مطالبين بحقوق السود في التصويت، ووضع حدٍّ للعنف والتمييز العنصري الذي يُمارَس ضدهم، كانوا مستعدين للمرور والتخييم في مقاطعة لوندز التي تهيمن عليها منظمة كو كلو كلان، ورغم أن السود يشكِّلون سبعين بالمائة من سكان تلك المقاطعة، فإن أحدًا منهم لم يجرِّب التصويت بالانتخابات منذ عام 1900، تعرض المشاة للضرب من قِبَل شرطة مكافحة الشغب باستخدام العِصِي والغاز المُسِيل للدموع، بعد أن عبروا جسر سيلما الرئيس، بعدها بيومين وبعد أن انتشرت الصور الوحشية في جميع أرجاء البلاد، قاد «كينج» ألفين وخمسمائة شخص مرة أخرى إلى الجسر نفسه، كانوا ينتظرون أمرًا من المحكمة بمنع الشرطة من التدخُّل، لكنهم عندما وصلوا نهر آلاباما تم تطويقهم من قِبَل مجموعة من شرطة الولاية، فتوقفوا وشرعوا في الصلاة، حبست الأمة أنفاسها مترقبة، ثم صاح «كينج» قائلًا: «سنعود للكنيسة الآن» فتراجع المشاة.

كتب المؤرخ للحقوق المدنية «روبرت برانش» في كتابه «سنوات كينج: لحظات تاريخية في حركة الحقوق المدنية» يقول: إن هذا التبيان للصبر والقدرة على حل المواقف المعقَّدة يجسد «سعيًا يجنَح للاعُنف لتغيير ما عُدَّ وقتها مسلَّمات»، وكان «برانش» قد سلَّط الضوء في كتابه هذا على تلك «المسيرة التي عادت أدراجها» والتي طالما تغافل عنها الناس، وأظهرها بعَدِّها واحدة من

اللحظات الفارقة في تلك الحقبة، لكن عقب هذا التراجع بخمسة أيام، وتحديدًا في الحادي والعشرين من مارس، بدأ ثمانية آلاف شخص مسيرة مسافتها أربعة وخمسين ميلًا إلى مونتجومري، لكن هذه المرة كانوا تحت حماية مذكرة موقَّعة من قاض فيدرالي وبضعة آلاف من جنود الجيش الأمريكي، وعن هذا قال الحاخام «إبراهام هيشيل»: «شعرت بقدميَّ وكأنهما كانتا تصليان»، وبعد أربعة أيام ألقى «كينج» خطابًا في العاصمة عُرِفَ باسم «إلى متى، لزمن ليس بالبعيد» قال فيه: «مرة أخرى خرج منهج المقاومة السلمية من قُمقمه، ومرة أخرى تحرك مجتمع بأكمله لمواجهة خَصمه، مجددًا تزعق وحشية الموت بأعلى صوت في كل أرجاء البلاد، لكن سيلما بولاية آلاباما قد صارت لحظة ساطعة في الضمير الإنساني ... إذا كان أسوأ ما في الحياة الأمريكية يكمُن في شوارعها الحالكة، فإن أفضل ما في الفطرة الأمريكية قد نهض محمومًا من كل بقاعها ليهزم ذلك السوء.»

لا يفتأ المواطنون الأصليون لأمريكا وكندا يمشون لأجل العدالة، ورغم أن نضالهم لم يتوقَّف منذ خمسمائة عام، فإنه اكتسب زَخَمًا أثناء حقبة الحقوق المدنية، تأسست المجموعة المناصرة لحركة الأمريكيين الهنود عام 1968، بعدها بعشر سنوات نظمت الحركة مسيرة بلغ طولها 3200 ميل من سان فرانسيسكو إلى واشنطن، كانت المسيرة تهدف للَفت الانتباه للتشريع الفيدرالي المقترَح، والذي يتعارض مع اتفاقيات حماية حقوق الأرض والماء، أكمل ثمانية وعشرون شخصًا تلك المسيرة التي استمرت لخمسة أشهر، وفي سبيلها تحمَّلوا العواصف الثلجية التي ثارت عليهم عندما كانوا يعبرون جبال سييرا نيفادا، كما لاقوا عَنَتًا عند مرورهم بولايات لا يُسمَح لهم فيها بالمشي على الطرق السريعة والجسور؛ ففي رينو مثلًا لم يُسمَح لهم باستخدام الشارع الرئيس، وعند النصب التذكاري في واشنطن تحدَّث البروفيسور «ليمان برايتمان»، وهو أحد مواطني ولاية ساوث داكوتا وتعود أصوله لقبيلة السو الهندية الأمريكية، وهو الذي أسس عام 1969 أول برنامج للأمريكيين الأصليين في البلاد بجامعة كاليفورنيا ببيركلي؛ تحدث عن الموارد التي تحويها مواطن الأمريكيين الأصليين كاليورانيوم والفحم والنفط والغاز والأخشاب والمياه، وهي الموارد التي تريد الحكومة سرقتها، قال «برايتمان» مقتبسًا من كلام «الجواد الجامح» الزعيم الهندي الشهير بتصرف: «إنه ليوم مجيد، نحاربهم فيه كي لا يمرِّروا ذاك التشريع»، وبالفعل لم يُمرَّر أيٌّ من القوانين الأحد عشر المقترحة.

في عام 2000، قام حوالي عشرين شخصًا من هنود سيري وتوهونو أوهام بمسيرة صحراوية تنادي بالتنوُّع البيولوجي والحفاظ على الصحة والتراث، وقد استمرت تلك المسيرة لمدة

اثني عشر يومًا بطول 230 ميل من الديسيمبوك بالمكسيك إلى توسان بولاية أريزونا، كان طعامهم خلال الرحلة يقتصر فقط على ما تُنبِت الأرض، كما أنهم عرفوا الكثير عن التداخلات الحادثة بين البيئة الصحراوية والصحة البشرية والثقافة، كتبت «سوزي أوبراين» أستاذة الدراسات الثقافية بجامعة ماكماستر بهاملتون أونتاريو تقول: «لقد كانت تلك الرحلة خوضًا في غمار ذلك تنافسًا مع الزمن على السيطرة ... وقد منحت تلك الرحلة المشاركين فيها دورًا في تأسيس عالم يصلح لأن يسكنه البشر في المستقبل، مرُّوا في طريقهم عبر مناطق حارَّة شديدة الجفاف، كان آلاف المهاجرين غير الشرعيين قد لقوا حتفهم فيها أثناء محاولاتهم العبور إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لكن تلك المسيرة الصحراوية لم تكن تهدف للتركيز على سياسات الهجرة وإنما كانت احتجاجًا على استعمار المستقبل.

تقول «ليان سيمبسون» الأكاديمية والباحثة التي تعود أصولها إلى بلدة آلدرفيل فيرست نيشن الواقعة شمال شرقي ولاية تورونتو: إن تاريخ السكان الأصليين القدامى يزخر بحكايات عن أناس قطعوا مسافات كبيرة مشيًا لإحداث تغيير ما، فبالمشي يتاح لهم التواصل الاجتماعي وتقوية الروابط الأسرية وممارسة الدبلوماسية، وتضيف قائلة: «إن ما حفز أجدادي على المشي في الماضي هو ذاته ما يحفز الناس الآن.»

تقول «سيمبسون» التي درَّست مادة علمية في جامعة ألبرتا أثابسكا عن نضال السكان المحليين: إن المسيرات الطويلة هي أكثر بكثير من مجرد تكتيك أو استراتيجية، «فلطالما احتشد السكان الأصليون رافضين المحو: المحو من الأرض، والمحو من الوعي الأمريكي والكندي، وما نفعله عندما نغمر أجسادنا في الأرض مرة أخرى هو فعل ذو قوة خارقة».

حتى الخمسينيات من القرن الفائت كان قانون الهنود في كندا يحظر على السكان الأصليين التحرُّك في مجموعات كبيرة، لكن التعديلات التي جرت على القوانين قد خففت من القيود المفروضة على الاحتجاجات العامة، وعاد تقليد المشي للحياة من جديد، وفي عام 1947 جذب موكب السكان المحليين المتوجِّه إلى أوتاوا النشطاء من جميع أنحاء البلاد، وقد مشى كثير منهم إلى نقاط التجمُّع قبل أن يستقلُّوا القطار متجهين إلى العاصمة لتقديم شكوى حول المعاهدات التي خُرِقَت، لكن شرطة الخيَّالة الملكية الكندية فرَّقت المتظاهرين بالقوة وأبعدتهم عن منطقة بارليمنت هيل، وذلك لخشيتهم من الحركة الأمريكية الهندية، ومن تأثير أولئك الراديكاليين الأمريكان.

بعد ثلاث سنوات، عادت «ساندرا لوفليس» التي تنتمي إلى عرقية الماليسيت بتوبيك فيرست نيشن في نيو برونسويك إلى مستعمرتها بعد طلاقها من زوجها الأمريكي، وكانت منازل أقاربها مكتظة جدًّا بالنسبة لها ولابنها، ولم يساعدها مجلس الرابطة في تأمين مكان للعيش لها ولابنها؛ لأنها كانت «غير مسجلة في الرابطة؛ لأنها تزوجت من رجل أبيض»، كانت غاضبة لأن القانون الهندي حرَّم عليها الدخول إلى أرضها، وفرض عليها نظام الهوية الأبوي؛ ولهذا فقد قدمت «لوفليس» شكوى للجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ثم في يوليو من عام 1979م، وبعد أن ألهمتها رحلة الحركة الهندية الأمريكية إلى واشنطن، قادت مسيرة لنساء من السكان الأصليين متجهة إلى أوتاوا.

غادرت «لوفليس» مدينة توبيك مستقلَّة حافلة توقفت في مستعمرات أخرى، وأقلَّت المزيد من الناس في طريقها غربًا، وبعد أن عبروا بمونتريال بمسافة قصيرة قضوا الليل نائمين على الأرض في بهو مجلس مدينة أوك بالكيبك، والذي سيحاصره محاربو الموهاك لاحقًا عام 1990، وفي الصباح التالي بدأ خمسون امرأة وطفلًا مسيرتهم، وصلت درجة الحرارة 100 درجة فهرنهايت، وتألمت الأقدام والكواحل، لكن المجتمعات الصغيرة التي مرُّوا بها على الطريق قدَّمت لهم الماء البارد والشطائر وأماكن النوم، اهتمت وسائل الإعلام المحلية بالقصة، والتقاهم الساسة سواء الفيدراليون منهم أو الذين ينتمون للعرقيات الأصلية، وبعد سبعة أيام وبعد المشي لمائة ميل، تقدموا وسط حشد نحو بارلمنت هيل، تعهَّد رئيس الوزراء «جون كلارك» بإعادة النظر في أمر القانون الهندي، وفي عام 1985، تم أخيرًا تغيير قانون الأحوال النسائية.

تقول «لوفليس» التي أصبحت في عام 2005 أول امرأة من السكان الأصليين تتولى منصب سيناتور في كندا: «لم نعتقد حينها أن أحدًا سيستمع إلينا، أو أننا سنحقق أي شيء من مطالبنا، لقد كان مجرد الوصول إلى هناك لحظة مليئة بالعواطف الجياشة.»

في السنوات القليلة الماضية، مَشَتْ نساء من السكان الأصليين مئات الأميال في جليد القطب الشمالي لجمع التبرعات لمكافحة السرطان، وعلى امتداد طريق كولومبيا البريطانية المسمى «طريق الدموع» الذي فيه قُتِلت وفقدت العشرات من الفتيات وجميعهن تقريبًا كُنَّ من السكان الأصليين، ولقد قامت «جوزفين ماندامين» وهي مُسِنَّة من قبيلة أنيشينابي بأونتاريو الشمالية، بقيادة سلسلة من المسيرات لمسافات طويلة على طول شواطئ البحيرات العظمى، كانت خلال نشأتها تشرب المياه مباشرة من خليج جورجيا، وتأكل السمك الطازج منه كل يوم، وهي ترى أن التلوُّث

والاحتباس الحراري ليست بأشياء مجردة، يقول «كيفن مكمان» مخرج الفيلم الوثائقي «الحياة المائية» والذي ظهرت فيه «ماندامين»: «إن الجدات في الأمم الأولى لا يحببن أحفادهن أكثر مما يحب كل منكم حفيده، لكنهن قد يكُنَّ يتمتعن برؤية أكثر وضوحًا للأفق.»

يقول «ليو باسكاتوانج» الذي ينتمي لقبيلة أنيشينابي في أونتاريو الشمالية: يظل القانون الهندي حجر عَثْرة أمام التغيير، فهو لا يفتأ يرسِّخ للأبوية والعنصرية، في صيف عام 2012 وأثناء دراسته لنيل درجة الماجستير في دراسات السكان الأصليين قام «باسكاتوانج» بربط نسخة من ذلك القانون بساقه ومشى من فانكوفر لأوتاوا، وأثناء مشيه لما متوسِّطُه عشرون ميلًا في اليوم عبر طريق كندا العابر السريع، أبلى أربعين نسخة من ذلك التشريع، يقول «باكساتوانج» الذي لم يَعْتَد المشي قبل أن يخدم في جولتين في العراق كجندي في الجيش الأمريكي: «إن أنماط المشي تلك ليست حصرية على السكان الأصليين»، كان مصدر إلهامه الأكبر هو «تيري فوكس» الذي قام في عام 1980 بالركض لمسافة تبلغ نصف مساحة كندا على ساق واحدة بهدف إقناع الناس بدعم أبحاث مرض السرطان، وهو الأمر الذي يشبه ما فعله «باسكاتوانج» الذي يقول: «لقد كان مشيي وسيلة لمشاركة رسالتي مع كثير من الناس على مدى فترة طويلة من الزمن، فإذا ما أردت أن ترى تغييرًا يحدث، عليك أن تخرج وتنشط في السعي إليه.»

لا تختلف وجهة نظر «ستانلي فولان» بخصوص القانون الهندي، لكن «إنو مشكينو» يتمحور أكثر حول المعالجة الفردية والقوة المجتمعية، إنه ينظر للسياسة من خلال عدسة واسعة الزوايا؛ فعندما سألته عن الحزب الحاكم بكندا، اصطحبني في رحلة عبر الزمن رجوعًا لمعركة ماراثون عام 490 قبل الميلاد، عندما انتصر الإغريق على الجيش الفارسي الذي كان يفوقه عددًا بفارق كبير، ثم قال لي بعد ذلك: إنه قد طُلِبَ منه أن يترشح للوزارة من قِبَل الديمقراطيين الجدد الفيدراليين وليبراليي الكيبيك، وعلى الرغم من أنه كان يطمح لمنصب وزير الصحة فإنه لم يكن ليفكر في مثل تلك الخطوة قبل عشر سنوات على الأقل، وقد قال لي: «إنني أرى إنهاء ما في يدي أهم من البدء في أمور أخرى جديدة؛ فهذه المسيرات تمنحني قدرًا أكبر من المعرفة ببلدي وشعبي، وبالتحديات الحقيقية التي يواجهها الناس.»

في فبراير من عام 2013 وبينما كنت أتأهب للسفر إلى ماناوان في حملة مع «فولان»، قام زعيم قبيلة نامجيس «بو ديك» بقيادة مسيرة استمرت لتسعة أيام بداية من خليج آلرت بكولومبيا

البريطانية إلى مبنى عاصمة الإقليم بفيكتوريا، كانت المسيرة إلى جزيرة فانكوفر جزءًا من حركة خاملة تدعو لإيقاف الاحتجاجات، كان الزعيم «ديك» يرمي إلى زيادة الوعي بالتشريع الفيدرالي المقترَح C-38، وهو تشريع مركَّب مكتوب في بضع مئات من صفحات، وينطوي على تعديلات من شأنها إضعاف القوانين البيئية الكندية.

مع اقتراب وصول المجموعة إلى فيكتوريا، زادت أعداد السائرين من عشرات قليلة إلى عدة مئات، وفي الأميال الستة الأخيرة من المسيرة انضم إليها عضو مجلس المدينة «بين إسيت»، كانت المحادثات التي أجراها أثناء مشيِه لمدة ساعتين هادفة في الواقع؛ فرجال الأعمال يعرفون جيدًا كيف تُبْنَى العلاقات وتؤسَّس الشراكات على أرض ملعب الجولف، يقول «إسيت»: «يُعَدُّ ذلك الاندماج غير الرسمي بين الناس سواء في المسيرات أو في الاعتصامات وسيلة لتشجيع وتعزيز التضامن ومساعدة النشطاء على تحقيق أهدافهم الجمعية.»

كان «إسيت» قبل أن يُنتَخَب رئيسًا للبلدية يكتب ويحاضر عن التاريخ في جامعتَي كولومبيا البريطانية ونيو برونزويك، حيث كانت أطروحته للدكتوراه تتناول الطبقة العاملة والتغيير السياسي، وعندما سألته عن التلازُم التاريخي بين المشي والعصيان المدني، روى لي «إسيت» عن واحدة من أطول المسيرات الاحتجاجية التي جرت على أرض كولومبيا البريطانية، ففي خمسينيات القرن الماضي وفي جبال كوتيناي، قام أبناء الحرية وهم فرع متطرِّف منشَقٌّ عن الطائفة المسيحية المسالمة دوخوبور بسحب أولادهم من المدارس العامة التي عَدُّوها آنذاك مؤسسات عسكرية ومُغرِقة في الماديات، كانت الحكومة تجمع الأطفال رغمًا عنهم، وتُلحِقهم بالمدارس الداخلية، فما كان من بعض الأهالي إلا أن ردُّوا على هذه التصرفات بتفجير إحدى المحاكم وأحد أبراج نقل الكهرباء وبعض جسور وأشرطة السكة الحديد، وكذلك إضرام النيران بالمدارس، أُدِين أكثر من مائة شخص بارتكاب تلك الجرائم، وفي ربيع عام 1962 وُضِعوا في سجن جديد بُنِي خصيصًا لهم في أجاسيز على نهر فريجر شرقيِّ فانكوفر، وكان مضادًّا للحرائق مُشدَّد الحراسة.

في شهر سبتمبر من العام ذاته، مشى ما يقرب من ستمائة من «أبناء الحرية» في مسيرة هجرة امتدت من جبال كوتناي حتى فانكوفر، وفي الصيف التالي وصلوا إلى بوابات السجن حيث أقاموا مخيَّمًا للاعتصام، لكن تباينت ردود أفعال سكان أجاسيز تجاه جيرانهم الجدد، فبعضهم (كالبقالين والصيادلة) رحَّبوا بتلك الهجرة التي تنعش أعمالهم، بينما قابل آخرون الأمر بسلوكيات

عدَائية، لكن ظلت الشرطة الكندية الفيدرالية في حالة تأهُّب كامل ومراقبة رزينة، أما مفتشو الصحة فقد أظهروا رِضا عن الظروف الصحية للمخيم، التحق أطفال أبناء الحرية بالمدارس المحلية، لكنهم كانوا يُستَثْنَوْن من إنشاد الأغاني الوطنية احترامًا لمعتقداتهم الدينية، أما الرجال فكانوا إمَّا يعملون لدى أصحاب المزارع المجاورة، أو يقومون ببناء المنازل وطلائها، ولأنها لم تعد مخفية داخل وديان كولومبيا البريطانية المنعزلة، فقد أظهرت الهجرة أبناء الحرية (بل طائفة دوخوبور بأكملها) للوعي العام، لقد صمدت قرية الخيام تلك ما يقرُب من عقد من الزمن إلى أن أنهى كل السجناء مدة عقوبتهم، وعندما أُطلِق سراحهم، عاد أبناء الحرية إلى مواطنهم وتلاشت كل الاضطرابات، حيث تم التوصل إلى فهم وسلام دائمين.

يقول «إيزيت»: إن المشي لمسافة طويلة لتحقيق هدف ما بدلًا من استقلال حافلة أو قيادة سيارة هو أمر ذو قوة رمزية، والسفر عبر طرق النقل الرئيسة والمرور بالتجمعات السكنية يمكن أن يسترعي انتباه العامة بطريقة قد لا تحدثها طرق الاحتجاج الأخرى، وهذه المسيرات تنتمي إلى سلسلة تشمل أيضًا مواكب الجنازات ومسيرات أخرى قد تكون سياسية أو احتفالية أو بين هذا وذاك، فقد تكون مسيرة افتخار للمثليين جنسيًّا مظهرًا احتفاليًّا في إحدى المدن، بينما هي مظهر من مظاهر الغضب والتحدِّي في مدينة أخرى، وبغَضِّ النظر عن هذا كله تُعَدُّ المسيرات وسيلة من الوسائل الأساسية لسدِّ الفجوة حرفيًّا ومجازيًّا بين المكان الذي أنت فيه الآن وذلك الذي ترمي لأن تصل إليه.

الحكومات هي كِيانات كبيرة أشبه بالسفن الثقيلة في عُرض البحر، نادرًا ما تغير مسارها بسرعة، وقد تؤدِّي الأفعال الفردية أو الجماعية إلى دفع السياسة في اتجاهٍ أو آخر، ولكن حتى لو كان الأمر يتعلق بقضية مقنعة كإثابة نوع معين من وسائل الانتقال مثلًا فإن المسيرات المناصرة للأيديولوجيات الراسخة، يمكن أن تكون شيئًا مثيرًا للغضب كما يذكر «ديف سوتشين» الباحث في التغير المناخي بجامعة ريجينا.

ولكون «سوتشين» من عشاق المشي، لدرجة أنه انتقل للسكن بعيدًا عن حرم الجامعة خصيصًا كي يزيد المسافة التي يمشيها على قدميه؛ فقد عانى الأمرَّيْن من جراء عدَاء مدينة ريجينا للمشاة حيث شوارع بلا أرصفة أو ممرات للمشاة، وطرق مسدودة تعرقل الطرق المباشرة؛ مما كان

يدفعه لطَرْق أبواب المنازل وطلب المرور خلال أفنيتها الخلفية، وعن هذا يقول: «كان أصحاب المنازل يُحدقون في وجهي، يظنونني عاطلًا أو مشرَّدًا أو مريضًا عقليًّا.»

طُلِبَ من «سوتشين» بصفته عضوًا في الجمعية التعاونية لأبحاث التكيف مع الحياة البرية التحدث أمام لجنة البيئة والتنمية المستدامة بالحكومة الفيدرالية، ولأنه نصح بأن لا يكون خطابه خطابًا علميًّا جافًّا فقد كتب مقدِّمة خطابه عن المشي، يقول «سوتشين»: «بدأت كلامي بطرح أنه يمكن معالجة اثنتين من أكثر قضايا البرلمان صعوبة، وهما الرعاية الصحية والبيئة، بحلٍّ واحد ألا وهو تشجيع الكنديين على المشي، كان الضحك العفوي هو رد الفعل الذي قابل به أعضاء البرلمان هذا الطرح، ثم تبعته جولة ثانية من الضحك المكتوم عندما أوضح أحد أعضاء البرلمان أنني أعيش في بلدة ريجينا، أعتقد أنهم أساؤوا تفسير نصيحتي المخلصة تلك كمحاولة مني لاستهلال حديثي ببعض الفكاهة.»

يُعَد البحث الذي قام به «سوتشين» بحثًا تقنيًّا، حيث يدرس كيف استجابت نقاط تكاثف المياه في الغلاف الجوي للتغيرات المناخية على مدار الألفية الماضية، لكن رسومه البيانية القطاعية لم تكُن مشجِّعة على الإطلاق؛ لذلك فإنه في بعض الأيام بعد أن يتحدث إلى أعضاء جمعيات رجال الأعمال أو الساسة، ينتابُه شعور بالسخرية المريرة، وفي أوقات أخرى، عندما يكون وسط المزارعين أو مُرَبِّي الماشية أو مَن هم مرتبطون بالأرض، يغدو «سوتشين» أكثر تفاؤلًا؛ حيث يستمد الإلهام من الإنجازات المحلية، ويشعر بمسؤولية تجاه إيصال رسالة شخصية مفادها أننا «بحاجة إلى أنماط حياة تتواءم مع آثار الاحتباس الحراري الحادثة، إن أي شيء يمثل تحوُّلًا في التوجه عن ثقافة قيادة السيارة مثلًا، هو يمثل كذلك تكيُّفًا مع التغير المناخي أو محاولة للتخفيف من آثاره».

يدرك «سوتشين» أن مسألة حث الناس على المشي هي ليست مسؤولية الحكومة الفيدرالية، فخَلق مجتمعات منفتحة على المشي هو مسؤولية بلدية في معظمها، لكن ريجينا رغم ما تشتهر به من شتاءٍ قاسٍ كما في إدمونتون، إلا أنها آخذة في التطور، قبل أن تتولى «جنيفر كيسامات» منصب كبيرة مخطِّطي مدينة تورونتو، عملت مستشارة لدى شركة كُلِّفَت بتطوير خُطة لأحياء وسط المدينة، وكتبت عام 2009 وثيقة بعنوان «امش إلى العمل» دعت فيها خمسة آلاف من سكان وسط المدينة ممن تتجاوز أعمارهم الخمسة عشر عامًا، كانت تستهدف قاعدة سكَّانية قوامها من المهنيين

الشباب والفنانين والطلاب وكبار السن والعائلات، وهي الفئات التي من شأنها دعم تجارة التجزئة في تلك المدينة التي تشهد نموًّا غير مسبوق، إذا ما اتبعت مدينة ريجينا توصيات «جنيفر» سيمشي الناس إلى العمل في شوارع مصمَّمة خصيصًا للمشاة؛ شوارع ذات واجهات جميلة ووصلات للتحول من شارع لآخر ومتنزهات وأماكن للتجمع من تلك التي امتدحها «جيف سبيك» في كتابه «مدينة ترحب بالمشي».

كانت مدينة ريجينا منذ أن وُضِعت خطط تطوير أحياء منتصف المدينة الأولية عام 1986 قد استثمرت الحد الأدنى في الأماكن العامة، بل إن هدم الأماكن الأثرية لإقامة مرائب للسيارات لم يكُن بالأمر غير المُعتاد، على الرغم من أن باحات مواقف السيارات كانت تغطي أكثر من رُبع الأحوِزة العقارية في منتصف المدينة، لكن هذا النهج لم يشجع الكثير من المطاعم والمحال التجارية والمعارض والمسارح التي من شأنها إبقاء الناس في قلب المناطق الحضرية بعد حلول الظلام، وأولئك الناس هم الذين يجعلون المدينة آمنة تنبض بالحياة.

في عام 2012 وافق مجلس بلدية ريجينا على خطة «كيسامات»، ولكن قبل هذه الموافقة كان قد تم بالفعل وضع التصميمات لاثنين من المباني الرئيسة الجديدة (برج للشركات وبرج شاهق للشقق) التي تشمل ساحات عامة ومقاعد في الشوارع ومظلات تخفف من تأثير الرياح التي تهب في شوارع الأبراج الشاهقة وناطحات السحاب، قامت المدينة بوضع خُطَط تسمح بعدد أكبر من المقاهي التي تُقَام على أرصفة المشاة، كما توقفت عن توسيع شبكة طرق المشاة المرتفعة والمُشَيَّدة بين المباني؛ لأنها تتسبب في إبعاد الناس عن الشوارع، ذكر عمدة ريجينا في مقابلة إذاعية له أن: «آخر مرة حدث فيها شيء من هذا القبيل في وسط المدينة كان هذا منذ عشرين عامًا؛ لذلك فقد أردنا أن نتأكد أننا على الطريق الصحيح».

كذلك تشارك الحكومة الإقليمية بكندا بنصيب في هذا المعترك؛ ففي أونتاريو حيث تبلغ الفاتورة السنوية للرعاية الصحية ما يقارب الخمسين مليار دولار، تدعم وزارة الصحة ممارسة المشي كطريقة لمواجهة السمنة وداء السُّكَّري والسرطانات وعشرات الأمراض الجسدية والعقلية الأخرى، كما أن وزارة الشئون المحلية والإسكان تدعم فكرة تطوير الأحياء متعدِّدة الاستخدامات، والتي تزيد من معدلات الانتقال النشط، يوضح دليل تخطيط استغلال الأراضي أن «تصميم المجتمع يؤثر على الكيفية التي يسافر بها الناس، وكيفية ممارستهم للنشاط البدني على مدى اليوم»، تضع

ميترولينكس الوكالة الإقليمية التي أُنْشِئَت لتنسيق ودمج جميع وسائل النقل في المناطق الكبيرة بتورونتو وهاملتون التي هي أحد أسرع المناطق نموًّا في الدولة تصورًا لإتاحة سبيل آمن ومريح للمشاة، يمكِّنهم من الوصول لشبكة من وسائل النقل، حيث تتصل فيها الحافلات بالقطارات، تسعى وزارة البنية التحتية لجعل المشي وركوب الدراجات جزءًا لا يتجزَّأ من الانتقال اليومي في الحضَر.

إن هذا العمل المتعلِّق بوضع السياسات يُعَد مجال الخدمة العامة؛ فهو يتسرب لتفاصيل حياتنا ببطء، فالمرء منا لا يستمع لتلك المناظرات التي تحتدم بين جنبات المجلس التشريعي في الولاية عن المشي، فالمشي ليس من الموضوعات التي تثير الجدالات في بدايات الحملات الانتخابية، لكن ذلك لم يردع عقلي أحادي الاتجاه عندما رأيت «جون فريزر» يخطو نحو مدخل منزلي.

كنت في الصندوق الخلفي لشاحنتي أحزِم أغراض رحلة التخييم، كانت هناك انتخابات خاصة لشَغْل منصب نائب قد شغر حديثًا؛ فقد تنحى الزعيم الليبرالي «دالتون ماكجينتي»، وكان «فريزر» ساعده الأيمن يأمل في التصعيد والحصول على منصبه.

رآني أصارع أكياس النوم والسلال البلاستيكية المكتظة بمعدات الوقاية من المطر فقال لي: «أنت مشغول، لذا لن أطيل عليك.»

فأجبته وأنا أقفز من الشاحنة: «لا، من فضلك، لديَّ وقت.»

كان رجلًا ضخمًا ذا شعر رمادي كثيف كأنه مزيج من «جون كيري» و«جاي لينو»، وقد جاء ليحكي لي عن مسيرته المهنية في مجال البقالة، وكيف أخذ منها إذن غياب «مؤقت» للعمل مع «دالتون ماكجينيتي» قبل ثمانية عشر عامًا، وأنه يطلب دعمي، واعدًا إياي بمواصلة خدمة سكان أوتاوا الجنوبية.

استمعت له حتى انتهى من حديثه ثم قلت: «وهل تطرق أبواب الناس كثيرًا؟»، أجاب «فريزر»: «أفعلها سبعة أيام بالأسبوع، حتى إنني فقدت 16 رطلًا من وزني حتى الآن، ومع ذلك، تظل ركبتاي تسبِّبان لي الألم، فإنني عندما بدأت المشي كنت ثقيلًا جدًّا، وكنت أمشي لفترات طويلة؛ فاضْطُرِرت لأن أزور مختصًّا بالعلاج الطبيعي.»

شرحت له سر اهتمامي بالتجوُّل في أرجاء الدائرة الانتخابية؛ فقال لي: إنه لطالما كان يفعل ذلك مع «ماكجينيتي» وسياسيين آخرين، وأكمل قائلًا: «سأخبرك بشيء، يبدو الأمر مختلفًا تمامًا عندما تكون أنت المرشح.»

واستطرد قائلًا: «وهل تعلم أمرًا، إذا مارس المزيد من الناس المشي، سيصبح العالم مكانًا أفضل.»

دعاني «فريزر» للانضمام إليه في حملته الانتخابية، وبعد مرور بضعة أسابيع، التقيت به ومعه خمسة من الشباب المتطوعين بشارع سكني ليس ببعيد عن منزلي، كان «فريزر» ومرشح حزب المحافظين متعادلَيْن في استطلاعات الرأي، وكانت الانتخابات على بُعْد خمسة أيام.

سألني «فريزر»: «كيف كانت رحلة التخييم؟» كان بهذا ينفِّذ أول مبدأ من مبادئ استراتيجية طَرْق الأبواب وهو: اعرف شيئًا عن كل شخص تصافحه ثم تذكَّرْه، كان دوره الأساسي هو أن يُثبِت للناخبين أنهم إذا ما احتاجوا للمساعدة فسيصلون له بسهولة، وقال لي: «في العملية السياسية يتشكَّك الناس كثيرًا»، اليوم صارت التغطية الإعلامية التي يتلقاها المرشحون في يوم واحد بعد أي تغريدة على موقع تويتر أو منشور على موقع فيسبوك، من الضخامة بحيث كان الواحد منهم يحتاج قبل ثلاثين عامًا لستة أشهر كي يحظى بمثلها، ولهذا الأمر مفعول يزيل الكثير من التحفُّظ بين الناخبين والمرشحين؛ فعندما يكون الناخبون مشغولين، تحتاج إلى إيجاد طريقة جديدة للتواصل، ولقد قالت لي مديرة حملة «فريزر» الانتخابية «جاكي شوكويت»: «تلك هي الطريقة التي يربح بها المرشحون الانتخابات، المشي؛ فلا شيء يحل محل استراتيجية الطَّرْق على الأبواب.»

أخرج «فريزر» زجاجة غسول فَمٍ صغيرة من جيبه، ثم مضمض فاه قليلًا قبل أن يبصق الغسول في مصرف المجارير، كانت الشاورما المفعَمة بالثوم بندًا ثابتًا بقائمة طعام مكتب الحملة الانتخابية، وبعد الاطلاع على بيانات الناخبين الذين لم يحسموا أمرهم في التصويت، انطلق المتطوعون منتشرين في تلك المناطق، أما «فريزر» فقد كانت لديه قائمة ببعض العناوين التي عليه أن يزورها، طرق على بابٍ شبكيٍّ فأجابته امرأة ذات شعر أبيض، قدم «فريزر» لها نفسه بينما كانت هي منهمكة في إعداد العشاء، ثم قال لها: «أريد فقط أن أخبرك بشيء واحد، إنني أحب ما أفعل، وأعتقد أنني قادر على إحداث تغيير.»

على مدى الساعة التي تَلَت ذلك؛ طَرَق «فريزر» الأبواب وسأل الأهالي عن أحوالهم ومخاوفهم، الرعاية المنزلية لكبار السن ووظائف للشباب وتمويل المستشفيات، تحدَّث «فريزر» عن كل تلك القضايا من منطلق دراية كبيرة؛ فبينما كان يعمل خلف الكواليس لصالح رئيس وزراء أونتاريو، كان «فريزر» العضو الفعلي للبرلمان الشعبي لدائرته الانتخابية، يعرف ماذا يقول ومتى يقوله (على غرار ملاحظته التي ذكرها في الدقائق الأولى من مقابلتنا، عندما قال: إن المشي يمكن أن يحوِّل العالم إلى مكان أفضل)، مرة واحدة فقط ظهر عليه القلق والرغبة في الانصراف، عندما بدأت امرأة الحديث عن مشاركتها بفريق عمل خاص بالرعاية المنزلية النهارية، كان الوقت يُوشِك على النفاد، وكان عليه أن يزور ثمانين ألف ناخب، بينما كانت مدة الحملة سبعة أسابيع فقط، وبينما كنا نقترب من المنزل التالي قال لي: «من المهم أن نتذكر أن أذكى شخص بالغرفة هو الذي يعرف ما لا يعرفون هم.»

كانت أمسية حارَّة رطبة، تلبَّدت فيها السماء بالغيوم الداكنة وأظلمت، وهَدَرَ الرعد بضراوة، وبدأت قطرات المطر في التساقط، عاد «فريزر» والمتطوعون بسرعة إلى الشاحنة، فسألهم: «من يريد المثلجات؟ دعونا نذهب لنبتاع بعضه، نستطيع أن نسلي به أنفسنا حتى تنتهي العاصفة.»

قال لي «روري ستيوارت» بينما كنا نغادر عرض بينريث في طريقنا لنهر لون: «في أي دولة يُعَد الساسة أحقر المخلوقات الحية، لكن على الواحد منا أن يضحي بنفسه على مذبح الديمقراطية.»

كتبت مجلة نيويورك تايمز تقول: «يحيا «ستيوارت» حياة لم يحيَها إلا الأبرز من بين الشخصيات العامة»، فهو حالم، أقل تقيُّدًا بالتقاليد من جميع أقرانه، ولكن تلك الجملة التي ذكرها بأن كل المشاكل الكبيرة قد حُلَّت لم تكن إلا محض مزحة، لقد كان مزيجًا من كمبريا الرعوية وأفغانستان التي دمرتها الحرب، فعندما تندلع الحرب أو ينشب العنف المتطرف في دولة كالعراق أو سوريا، وحينما يتصدَّر الجهاديون المقيمون في الدول الغربية عناوين الأخبار الرئيسة في الصحف، يغدو هو المعلِّق الدائم في البرامج التي تناقش الأحداث الجارية، وكذلك الكاتب الدائم في صفحات الجرائد الأولى، مؤكدًا على «الحاجة لخوض تجربة متعمقة في مكان بعينه»، والحث على ضبط النفس وعدم الاستعلاء عند التفكير في التدخل في بلاد أخرى، ولأنه كان يفكِّر فيما بعد

الانتخابات المقبلة ويسعى من أجل قراءة عميقة على أرض الواقع، فقد استطاع أن يستشعر التوتر الآخذ في الانتشار في جميع أرجاء العالم.

بينما تجمعنا خلف جدار حجري هربًا من الريح، وشَرَعْنَا في تناول بعض الشطائر على قمة جبل ميريك، أخبرني «جوزيف ميرفي» عن البيان الرسمي الخاص بالجبل المظلم، ففي عام 2009 قام مجموعة من الكُتَّاب والفنانين بأكسفورد بنشر كتيب يحذر من «الانهيار البيئي والانكماش المادي والانهيار الاجتماعي والسياسي»، حيث حذروا من أن «السياسة كما عرفناها تتداعى مثل ماكينة بُنِيَت لتستمر لكن ذلك لم يحدث»، تعد الحلول التي قدمتها الحكومة وقدمها قادة المؤسسات، والتي تنطوي عادة على «حتمية التوصل إلى اتفاق سياسي عاجل، وتطبيق حكيم لعبقرية التكنولوجية البشرية» ما هي إلا مظاهر خداعة، «قرون من الغطرسة سَدَّت آذاننا كسدادات الشمع فصرنا لا نستطيع سماع الرسالة التي يصرخ بها الواقع»، والآن ونحن على شفا تحول هائل جدًّا لا نستطيع حتى إدراك حجمه، يوصينا البيان الرسمي بأن ننظر للأسفل، ننظر للأرض، لأنفسنا، للحظة الحالية، للوعي المؤقت كوسيلة للمقاومة.

في طريق عودتنا لجسر تيباي القديم، توقف «ستيوارت» وانحنى على السياج بينما نهر لون يثور خلفه، ثم قال: إنه في هذا العالم المعاصر يُعَد من أهم الامتيازات العظيمة التي يتمتع بها المشاة هو أنهم يستطيعون الوصول لأماكن ليس لها طُرُق، وإلى مجتمعات يسألهم الناس فيها عن المكان الذي قدِموا منه، حيث يشعرون بالامتنان لما تمتعوا به من حق السفر إلى تلك البلاد.

أشار إلى الشرق حيث المساحات الخضراء الشاسعة وقال: «تنتهي دائرتي الانتخابية عند قمة ذلك التل هناك»، ثم أشار نحو الغرب وقال: «وعند قمة ذلك التل أيضًا».

وأكمل مشيرًا للجنوب: «إذا تسلقت هذا التل الكبير فسترى دائرتي الانتخابية ولا شيء آخر يلوح في الأفق، أشعر بأني محظوظ؛ لأن لديَّ وطنًا كهذا ذو حدود وروابط.»

ثم أخذ يروي لي عن ليلته المفضلة التي قضاها أثناء مشيه في حملته الانتخابية، كانت تلك الليلة في مدينة ويجتون، بالقرب من حدودنا مع إسكتلندا، في ضاحية سكنية عامة تشتمل على مائة وخمسين منزل، في ذلك الحي معدلات مرتفعة للبطالة وتعاطي المخدرات، وواحد من كل خمسة أشخاص قد قضى وقتًا في السجن، لكنه بعد أن تجوَّل في طرقاته وأزِقَّته لمدة ست ساعات مع أحد

سكان البلدة، وقابل عشرات البالغين والأطفال، واستمع إلى قصصهم، ثم نام على أريكة في شقة تضم عائلة من ثلاثة أجيال، شعر بالكثير من التأثر، عن هذا يقول: «عندما غادرت المكان، غمرني الفرح والتفاؤل، وصرت على قناعة تامة بأن هذا المجتمع هو أكثر المجتمعات روعة، لكن من المحتمل أن يكون ذلك الشعور مضلِّلًا؛ فهناك الكثير من المآسي في ذلك المكان.»

ثم أكمل قائلًا: «إنني أومن إيمانًا شديدًا أن فكرة المشي في الدول المتقدمة بشمال أمريكا وأوروبا تتغير عما كانت عليه في السابق، وهناك يحتاج المرء للكثير من الأساليب المدروسة والمبتكرة كالذهاب لنفس المكان مرتين، والحرص على الطريقة التي يقدم بها نفسه والسفر مع واحد من أهل البلاد الأصليين كي يتعلم من التجربة، بل إن المجهود الذي يبذله قاطن تلك البلاد أكثر من ذلك الذي يبذله إذا مشى في أرجاء أفغانستان.

حُلمي هو أن أكون قادرًا على أخذ إجازة لمدة عام كامل، أمشي فيه عبر كمبريا، أقضي بعض الوقت في كل قرية وأقابل الجميع، فبصفتي عضوًا في البرلمان أريد أن أعرف أكثر، لكنني أظن الناخبين سيضجرون مني إذا أخذت إجازة لمدة عام كامل كي أتجول ماشيًا.

السادس

الإبداع

«إن المشي يجعل البيئة المحيطة بنا في حالة تغيُّر دائم، وهو أمر يمنحنا عددًا غير متناهٍ من الخبرات الجديدة والمتفرِّدة، والتي ما إن تختلط مع ذكريات ماضينا فقط عن طريق الصدفة حتى تنشأ بيننا وبينها صلات جديدة، وتتمخض عنها أفكار جديدة.»

بول سودن، عالم النفس بجامعة سري، إنجلترا.

«لا أتأمل إلا وأنا أمشي، وعندما أتوقف عن المشي يتوقف تفكيري، فعقلي لا يعمل إلا مع حركة قدميَّ.»

جان جاك روسو، من كتابه اعترافات.

أهبط درجات السلم الخرساني في وضع معكوس متأبطًا ذراع سيدة قابلتها منذ نصف ساعة مضت، وكانت درجات السلم مفترَشة بأوراق الأشجار وزلِقة بفعل مياه الأمطار.

خلال ستينيات القرن التاسع عشر تحوَّل قرابة الستمائة فدان من الجداول المتكوِّنة بفعل الأنهار الجليدية والتي يُطْلَق عليها جداول بروكلين إلى متنزَّه، وكان ذلك من صنيع المهندِسَين المعماريين اللذين تخصَّصَا في تصميم المساحات الطبيعية، واللذين اشتهرا قبل عشر سنين من ذلك الوقت عندما صَمَّمَا مسطحًا أكبر من ذلك يقع في وسط مدينة مانهاتن، المهندسان هما «فريدريك لو ألمستد» و«كالفرت فو»، لقد أُنْشِئَ متنزَّه بروكلين ليكون مساحة خضراء تكسر عنفوان تلك المدينة متسارعة النمو، تقود هذه الدرجات إلى بستان «كونسيرت جروف» الذي يُعَدُّ واحدًا من المعالم العديدة التي صُمِّمت للجمع بين الجمال الطبيعي ووسائل الاستجمام التي ينشدها قاطنو هذا الجانب من النهر.

كنت ورفيقتي نتحسس كل خطوة بأطراف أصابع أقدامنا قبل أن ننزل أي درجة، حتى وصلنا إلى الأسفل، فترك كل منا ذراع الآخر وأدارها لمائة وثمانين درجة مع تثبيت وجوهنا إلى الأمام، ثم مددنا أيدينا نحو السماء، حينها قام ثمانية من معارفنا بالتهليل والتصفيق فقد كنا نصنع فنًّا.

بينما كنا محتمين تحت مظلة سوداء، أشعل «تود شالوم» رفيقنا هذا المساء سيجارة وقال لزميله «بن ويبر»: «لا تقلق فلدينا الصلاحيات».

تبعنا توجيهات «شالوم» اللطيفة فاصطففنا الواحد تلو الآخر وراء سيدة تحمل مظلة تجمع بين اللونين: الأبيض والأسود، حتى إنها تبدو كنصف كرة قدم، مشت السيدة أمامنا كأنها ترقص الباليه في طريق مُهّدَ بأحجار كبيرة تصطَفُّ على جانبيه أشجار القيقب والسنديان، مشينا نحن خلفها ببطءٍ محاولين تقليد حركتها بدقة قدرَ المستطاع، بعدها دلفنا إلى سُرادق كبير له شكل ثُمانِيٌّ وتهويته جيدة، حيث وجدنا اثني عشر رجلًا يرقصون رقصة الكاباويرا، قام «ويبر» بتقسيمنا إلى مجموعتين: نصفهم يرقصون كتماثيل تتلوَّى حيث كنا نقرفص ونتقوَّس، وتلتفُّ ساق كل منَّا حول ساق الآخر للحفاظ على التوازن، كانت الأوضاع التي نتخذها تحاكي التماثيل الحديدية الموجودة فوق أعمدة السُّرادق وقبته شرقية الطابع، ظللنا ثابتَيْن لدقيقة، بعدها قام الباقون بتعديل أوضاعنا من خلال تغيير وضعية الأذرع والأرجل، حتى وصلوا للوضعية التي راقت لهم، وصارت أطرافنا الممتدة وجذوعنا المتشكِّلة كالزوايا تصور قفزات رقصة الكاباويرا واندفاعاتها.

كانت تلك رحلتي الأولى إلى متنزَّه بروسبكت، والذي يقع قبالة المنزل الذي استقر به كُلٌّ من جدايَ وأمي بعد هجرتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل الستينيات من القرن العشرين، هأنذا أقف على قدم واحدة مغمضًا عينيَّ أستند إلى كتف شخص لا أعرفه، أسأل نفسي عمَّا إذا كان جدي قد احتمى ذات يوم من الأمطار تحت هذا السقف، بينما أنا أستمع إلى أصوات السيارات البعيدة التي لا يخفِّفها سوى ما تبقَّى من غابة بروكلين الطبيعية، ظل صوت «شالوم» يتردَّد في ذهني وهو يقول: «إن هدفنا هنا هو أن نقدم للناس منظورًا جديدًا للبيئة التي تحيط بهم، نريد أن نشجع التفاعل الأدبي بين الناس والأماكن التي يزورونها ويعيشون فيها.»

كان «شالوم» الذي يرتدي سروالًا ضيقًا وحذاءً رياضيًّا ذا أربطة صفراء لامعة، قد بدأ تنظيم تلك المسيرات الفنية الجماعية في عام 2004، نشأ هذا الرجل في نيوجيرسي وتخرَّج في جامعة بوسطن، ونال منها شهادة في إدارة الأعمال، ثم ارتحل إلى سان فرانسيسكو لدراسة الأدب

وكتابة الشعر، كان المشي بالنسبة له وسيلة لإخراج الكلمات من الصفحات إلى الواقع وكسر الحواجز بين الكاتب وجمهوره، وللحصول على خبرة الترحال دون مغادرة الوطن، لكنه بعدما جرب العمل على المشاهد الصوتية الطبيعية، ثم انتقل إلى مدينة بوينس آيرس ومعاناته مع أمراض المرتفعات في البيرو؛ فقد قرر أن يجعل عمله أكثر بساطة؛ لذا فقد توقَّف عن العبث بتلك المجسات فوق الصوتية والشفرات الإلكترونية، واستقر في مدينة بروكلين، وفي عام 2010 أطلق مبادرة جماعية سمَّاها المدينة المتمددة، وهي عبارة عن سلسلة من مسيرات ترويحية يقودها فنانون، عن هذا يقول: «كنت قد سئمت التكنولوجيا، وأردت أن أرى وأكتشف ما أقدر على فعله بجسدي ومعي فقط مجموعة من الناس في بيئة مفتوحة.»

رغم أن كثيرًا من السياح يحرصون على الاشتراك في مسيرات المدينة المتمددة، فإنها لم تكن رحلات تقليدية كتلك التي يصفها «شالوم» بأنها وسيلة: «لإعادة حكي خبرات ماضية لشخص ما أو لجمع ما من خلال معلومات وحقائق»، أما تلك المسيرات أو الطرق كما يحب «شالوم» أن يسميها تشبه في مرونتها لوحة بيضاء تتوق لأن «تصور عليها خبرات آنية أكثر قوة»، فهي تنطوي على تأمُّل ومرونة ورقص بحرية بين أغراب، وهي تمنح البالغين القدرة على رؤية الواقع الحياتي من منظور الأطفال، وكذلك على تجربة أشياء جديدة.

إنني لا أحب أن أكون كالمعروض أمام الجمهور، فإنني أُصَاب بالغثيان عندما أمارس الكاروكي أو الرقص؛ لذا فقد شعرت بعدم الارتياح في سُرادق بروسبكت بارك، وقد كان «شالوم» يتوقع رد الفعل هذا من الناس، فالكثير من الناس يهابون المشاركة مع الآخرين، ولكن المرء عندما يكون ماشيًا يغدو مشاركًا بشكل تلقائي، وهو يصفها بأنها حيلة ماكرة تدفع الناس للمشاركة، أو هي طريقة للتغلُّب على الحواجز الداخلية والخلفيات موروثة، وتحولنا لطريق نتخلى فيه عن تلك الموانع، إن المشي يهيئ العقل لحالة أسماها الفيلسوف الفرنسي «فردريك جرو» «الحرية المعلقة»، وعندما يتنور طريقك تنطلق الأفكار.

في هذه الليلة الماطرة من ليالي شهر يونيو وبعد عطلتي الأسبوعية التي قضيتها مع شرطة فيلادلفيا قبل أن أقضي ذلك اليوم في حي هارلم مع «مات جرين» انضممت إلى مسيرة المدينة المرنة ذات الطابع الخاص، والذي يتألَّف من مجموعة من أفضل إبداعاتهم التي تتنوَّع ما بين أنشطة جسدية وسمعية ونَصِّيَّة، أما المسيرات الأخرى فتسلِّط الضوء على الأصوات والشمس

والظلال، أو على أماكن بعينها في مدينة نيويورك، سواء كانت أماكن خارجية (مثل تلك المنطقة الخاصة الواقعة خارج مركز لنكولن) أو كانت داخلية (مثل محطة جراند سنترال).

غادرنا السرادق قاصدين طريق أوشن الذي تحُفُّه الأشجار، ذلك الطريق المزدحم المحيط بالمتنزَّه، طلب منا «شالوم» أن نبحث عن أغراض مثيرة للاهتمام في هذا الطريق، ثم نضعها على رصيف المشاة وقال: «لديَّ هنا معقم للأيدي إذا ما احتجتم إليه.»

التقطتُ قطعة من فطر لونه يميل إلى الأحمر من جذع قريب مني، أما رفاقي فقد جلبوا أشياء مثل فطر عيش الغراب ثنائي الرأس، وأوراق شجر خضراء وبنية، وممحاة قلم رصاص مكسور، وأغلفة حلوي، وأغطية زجاجات وقشور برتقال، ثم بعد ذلك صففناها على الأرض الواحد تلو الآخر، ثم قال «شالوم»: «حسنًا، والآن على كل منكم أن يحرك واحدًا من تلك العناصر، وليس بالضرورة أن يكون هو من أحضره»، وبعد مرور ساعة علينا معًا لم يعُد أي منا يخجل من عرض قطعته الفنية، وفي غمضة عين تشكلت لوحة فنية مساحتها قدم مربعة واحدة، بعض العناصر كُوِّمت بعضها فوق بعض، بينما تُرِك البعض الآخر مستقلًّا بذاته، فبَدَت اللوحة كأنها تجمُّع عشوائي، فقط النظرة المتفحِّصة عن قرب هي التي تستطيع التعرُّف على هذا الإبداع وعلى الهدف من ورائه.

هذه العلاقة وهذا التفاعل بين ممارسة المشي وبعث الأفكار الجديدة لطالما خلبت لُبَّ الفنانين والكُتَّاب والمفكرين منذ بدء الخليقة، ففي أثينا القديمة لم يفتأ «أرسطو» يذرع الليسيوم جيئةً وذهابًا أثناء إلقائه للمحاضرات، وكان أتباعه يُعرَفون باسم «المشائين»، نسبةً إلى طريقة إلقاء «أرسطو» لمحاضراته أثناء المشي، وهي كلمة مشتقَّة من الكلمة اللاتينية Pateo، وهي فعل يعني «أن يمشي»، وفيلسوف إغريقي آخر يُدْعَى «ديوجينوس» وهو الذي أخرج لنا طريقة حل الأمور المعقدة من خلال المشي، كما أن «سيجموند فرويد» قد رسَم خريطة النفس البشرية أثناء مشيات جبلية طويلة، وقد كتب «مايكل ميكالكو» يقول: «إن كتاب تفسير الأحلام لـ «فرويد» قد صُمِّم ليكون له ذات تأثير واحدة من مشياته التي ذهب فيها للتَّجوال في أحد الطرق الخفِيَّة بغابة مظلمة ليتجلى بعد ذلك مشهد السهول المنبسطة.»

في أواخر القرن الثامن عشر انطلق الشاعر «ويليام وردسوورث» من كوخه الواقع في مقاطعة ليك بإنجلترا غرب بينيرث إلى مغامراته التجوالية، والتي قطع فيها قرابة المائة والثمانين ألف ميل، كان يمشي في مسيرات تأمُّلِيَّة بمرافقة أخته «دوروثي»، أو كان يمشي «وحيدًا كسحابة»

على حد تعبيره، وهناك نَظَمَ من الشعر الغنائي ما مهَّد الطريق للعصر الرومانسي للأدب الإنجليزي، والذي جاء كرد فعل للثورة الصناعية والسياسات الأرستقراطية والنظم الاجتماعية القائمة في تلك الحقبة، قالت «ترينا ماري بيرد» في مقال لها عن «وردسوورث» تقول: «حينما تكون مُجبَرًا على أن تركز على الحقائق المكانية سريعة الإيقاع مثل المشي على أرض غير مستوية، يتحرر حينها العقل من التفكير في الأفكار المرهقة، والتي هي أكثر مللًا وأصعب تحديدًا من تلك الأرض غير المستوية أسفل قدميك ... حينها يصير العقل أشبه بإبرة منظار جراحي نُزِعَت من مسارها الأساسي وصارت حرة تذهب في أي مسار ترغب فيه.»

خلال ذات الفترة، في شرق بروسيا، حيث كان «إمانويل كانط» يعاني من اعتلال في صحته، كان يخرج للتجول حول المدينة الجامعية في كونيسبرج بشكل يومي بعد تناوله لوجبة الإفطار، ذكرت الموسوعة البريطانية أن «الناس كانوا يضبطون ساعاتهم على موعد مشيته اليومية»، وبعد تلك الفترة بقرن كامل وفي سويسرا كان «فريدريك نيتشه» يحافظ على الالتزام بجدول زمني لا يختلف في الانضباط عن جدول «كانط»، فقد كان يعمل من الفجر حتى الحادية عشرة صباحًا من كل يوم، ثم يخرج للتنزُّه لمدة ساعتين إما في الغابة أو على شاطئ البحيرة، وكان قد كتب في كتابه «غروب الآلهة» أن الأفكار وليدة المشي هي وحدها ذات القيمة.

مع الاحترام للفلاسفة والشعراء العظماء لكنني مهتمٌّ أكثر بما يمكن للمشي أن يكشف عنه فيما يخص وضعنا المتضائل في تلك الحقبة الزمنية التي نعيش فيها، أو ما يمكن أن يصل إليه طليعة المفكرين.

في شهر يونيو من عام 1967 كان هناك شاب يُدْعَى «ريتشارد لونج» يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا ويدرس الأدب الإنجليزي، ركب هذا الشاب القطار متجهًا إلى الجنوب الشرقي من محطة ووترلو بلندن، ونزل بعد عشرين ميلًا فوجد نفسه في حقل لا توجد به أية علامات مميّزة، ومحاطًا بأشجار طويلة، أخذ يمشي على العشب ذهابًا وإيابًا حتى صار أثر أقدامه واضحًا للعِيان، ثم التقط صورة بتقنية اللونين: الأبيض والأسود صوَّرَت شريطًا عموديًّا مائلًا للبياض يخترق منتصف ذلك الحقل الوعر، وتظهر في خلفيتها أشجار كثيفة، كانت تلك الصورة التي كان حجمها 8.14 بوصة عرضًا و 8.12 بوصة طولًا، وملصقة على لوح من الورق المقوَّى لونه أبيض مطفي،

واحدة من الأعمال المهمة المبكرة التي استهلت مسيرته المهنية الثرية التي تتمحور حصريًّا حول المشي.

يقول «لونج»: «لطالما صوَّر الفنانون الطبيعة، بدايةً من الرسوم على جدران كهوف عصر ما قبل التاريخ وصولًا إلى التصوير الفوتوغرافي للمشاهد الطبيعية في القرن العشرين، ولقد أردتُ أنا أيضًا أن أجعل من الطبيعة هدفًا لعملي ولكن بطرائق جديدة»، كان «لونج» قد أقام العشرات من المعارض الفنية منفردًا في مختلف أنحاء العالم من متحف نيويورك للفن الحديث إلى متحف جوجنهايم للفن الحديث في بلباو بإسبانيا، وقد رُشِّح أربع مرات لجائزة تيرنر البريطانية التي تُعَد أرفع الجوائز الفنية في بريطانيا، وقد فاز بها عام 1989 على مجمل أعماله الفنية، يقول: «بدأت أعمل في البيئات المفتوحة معتمدًا على عناصر طبيعية مثل العشب والمياه، ثم تطورت إلى فكرة إنتاج منحوتات بواسطة المشي... كان مقصدي أن أبدع نوعًا جديدًا من الفن هو أيضًا طريقة جديدة للمشي.»

كان «لونج» يرغب في أن يستعير الأرض لا أن يتملكها، وقد كان أن تملَّك معرض تيت لوحة «خط صنعه المشي» التي فتحت أبواب الشهرة لـ «لونج»، فذلك العمل الذي «يبدو في ظاهره بسيطًا ركيكًا» يصوِّر أثر خطوٍ على العشب نظر إليه على أنه «فن تجريدي»، عمل فانٍ بسيط هَشٌّ، يصف دليل معروضات معرض تيت هذه اللوحة بأنها جاءت ناقدة لمادية المجتمع الاستهلاكي، متحايلة على سوق الأعمال الفنية، ومبشِّرة بمولد الأدائي في سبعينيات القرن العشرين، يقول مدير المعرض «نيكولاس سيروتا»: «لقد غيَّر «لونج» مفهومنا عن النحت، وقدَّم لنا معنًى جديدًا لتلك الممارسة التي تعود في قدمها إلى قدم الإنسان نفسه، غير أننا لم نحظَ خلال تاريخ الفن بما كان من شأنه أن يؤهِّلَنا لأصالة فن هذا الرجل.»

في شهر يونيو من عام 2013 ركبت قطارًا من لندن متجهًا شمالًا؛ لأرى ما سبب كل تلك الضجة المثارة هناك، هنالك أقيمت مسيرة فنية دولية لم يسبِق أن أقيم مثلها تسمى «مشي مستمر: من ريتشارد لونج إلى جانيت كارديف أربعون عامًا من المشي الفني»، وقد افتتحت هذه المسيرة معرضًا فنيًّا في ساندرلاند، وهي مدينة ساحلية صغيرة شرق نيوكاسل، وهناك عُرِضَ على أحد مسؤولي المعرض أن يصطحبني في جولة بين جنباته.

إن ذائقتي الفنية لا أستطيع أن أصفها بالرفيعة، فكلما زرت معرضًا فنيًّا حضر في ذهني مشهد من فيلم «قصة من لوس أنجلوس» فيه تقترب الكاميرا من وجه الممثل «ستيف مارتن»، وهو يشرح لوحة بارزة لثلاثة من مرافقيه، يبدون كأنهم تحت تأثير المخدرات، يقول «مارتن» وهو يصف بافتتان كيف استطاع ذلك الفنان أن يصوِّر تلك القبلة الوشيكة: «انظروا لتلك الطريقة التي يمسكها بها تكاد تكون فاحشة»، ثم مضى يعلِّق على تشابك الأرجل، والنهدين البارزين تحت سترة شفافة، ونظرات المتلصصين المسترَقة من خلف الأبواب، ثم أضاف بحماس قائلًا: «يجب أن أعترف هنا أنه حينما أصادف لوحة مثل تلك فإن مشاعري ... تنتصب لأجلها»، ثم تتحول الكاميرا لتظهر اللوحة القماشية التي على شكل مثلث أحمر.

إن الكتابة عن الفن تشبه الرقص لأجل الهندسة المعمارية، أو أن تعيد صياغة جملة لا يتوقف الناس عن إعادة صياغتها، لكنني مع هذا انهمكت في قراءة مقالات عن «لونج» وأقرانه بينما كنت في طريقي إلى نيوكاسل.

يُعَدُّ كلٌّ من «لونج» و«هامش فولتون» زميله في مدرسة سان مارتن للفنون في لندن في الفترة ما بين عامي 1966 و1968 الأكثر شهرة بين فناني المشي، وهو المجال الذي اتضح أنه مجال متسع جدًّا، وفي حين يتلمَّس العشرات من الفنانين السُّبُل لدمج المشي مع أعمالهم الفنية، نجد كل الفن الذي يُبدِعُه هذان الرجلان مُستقًى من ذلك النشاط الأساسي، لقد ارتبط كلاهما بحركة فَنِّ الأرض الأكثر انتشارًا، هي حركة فنية تضرب بجذورها في الطبيعة، وقد نشأت في أواخر الستينيات من القرن العشرين بالولايات المتحدة كحركة معارضة لما صار إليه الفن من تجارية واصطناعية، لكنهما رفضا هذا التشخيص للطبيعة، ففن الأرض عادةً ما ينطوي على تغييرات في المشاهد الطبيعية، (واحد من الأعمال التي أسَّست لهذه الحركة كان «الحاجز الحلزوني» والذي أبدعه النحات الأمريكي «روبرت سميثون»، وهو عبارة عن نتوء لولبي يبلغ طوله ألف وخمسمائة قدم، وعرضه خمسة عشر قدمًا يبرز من بحيرة يوتاه المِلحية العظمى، وقد استغرق بناؤه ستة أيام، وتطلَّب ناقلتين وماكينة تحميل وجرارًا وستة آلاف وستمائة وخمسين طنًّا من الأحجار والتربة)، غير أن أعمال «فولتون» مثل معظم أعمال «لونج» هي أعمال زائلة، لكن مع ذلك هناك فروق أساسية بين أعمال الرجلين.

اشتهر «لونج» بمسيراته الملحمية التي تستمر لأيام قليلة، أو حتى لعدة أسابيع يمشي فيها طوال الأربع والعشرين ساعة دون توقُّف، أحيانًا كان يقوم بترتيب الصخور أو الأحجار الإردوازية والأخشاب الطافية والمواد الطبيعية الأخرى في شكل خطوط أو دوائر أنماط حلزونية، ثم يقوم بتصوير تلك المناظر المجمعة عشوائيًّا، وأحيانًا كان يشحن تلك المواد إلى الأستوديو الخاص به ليجمعها في شكل منحوتات، قام «لونج» أيضًا بتصميم مطبوعات فنية جدارية كتلك المسماة «في أي مكان»، والتي أُدرِجَت عليها بقطع الصخور الحمراء كل ما قابله الفنان أثناء مسيرته التي استمرت لأحد عشر يومًا خلال شتاء إنجلترا؛ كالطرقات وممرَّات المشاة والأحجار والأنهار وكذا النجوم والضباب ووقت الفجر والغسق والأمطار والحيوانات والساحات والمرتفعات والمخيَّمات والعظام والرُّكامات الخشبية وآثار الأقدام وتغريد الطيور والورود والسحب والمياه والرياح والقمم الشاهقة والأفق ومشهد اكتمال القمر وود الغرباء؛ إن الأشياء البسيطة لها قدسية ومحبة نابعة من ذواتها لا ممَّا نقابلها به أو نستخدمها فيه.

لقد ارتحل «لونج» خلال جميع أنحاء العالم من المملكة المتحدة وأوروبا إلى سلسلة جبال الأنديز وآسيا وأفريقيا وأطراف أمريكا الشمالية، حيث قدرة احتمال هائلة (فقد قطع اثنين وثمانين ميلًا على قدميه في أربعٍ وعشرين ساعة) وأبدع قطعًا فنية معقَّدة من حيث تقنيتها مثل «دائرة الربيع»، وهي حلقة من أحجار الإردواز الأزرق المائل للخُضرة قُطِعَت من محجر بكورنوال بإنجلترا كان يُعَد قبل ذلك أعمق حفرة حفرها الإنسان في العالم، كتبت الناقدة الفنية «دوروثي فيفر» عن هذا العمل تقول: «هذا العمل الذي كان مفترِشًا أرضية المعرض، وكان ذا شكل دائري يبلغ قطره العشرة أقدام أملس من الأعلى وعند المحيط الخارجي وخشنًا في المنتصف، كان له أفقه الداخلي، وكان قاسيًا وَعرًا ينمُّ عن مصدره، فقد أخذ من المشهد الطبيعي ووضع في ذلك المكعب الأبيض الذي يتمثل في المعرض الفني، لقد حظيت دائرة الربيع باستقلاليتها الذاتية عن الزمان والمكان.»

لم يكن «هاميش فولتون» يصطحب معه أيًّا من تلك المواد إلى موطنه ولا كان يترك أيًّا منها خلفه، فمنذ نهاية ستينيات القرن الماضي انخرط في سلسلة من المسيرات التي كانت الواحدة منها تستمر لعدة أيام أو عدة أسابيع في الغرب الأمريكي، أو في سلاسل جبال الهيمالايا النيبالية وفي عشرين دولة أخرى، كان فنه الذي ينطوي على ثقافة رياضة تسلق الجبال والمعتقدات البوذية والرُّوحانيات الأمريكية الهندية، يتكوَّن في معظمه من الصور الفوتوغرافية والطباعات، وفيها تقل

النصوص المكتوبة وعادة ما تسجل تفاصيل المشي من خلال صورة فوتوغرافية واحدة، وبدلًا من التسجيل الحرفي أو المفصَّل لرحلاته، كان يستخلص جوهر تلك الخبرة التي مَرَّ بها، ثم يوسع نطاقها من خلال تكبير الصور البصرية والنصوص لتصير بحجم الجدار، تكوِّن مطبوعته المسماة «Dust Echo Fall Rock» كتابة شعرية تكونت من ستة عشر حرفًا – أربعة أحرف كُتِبَت أفقيًّا والأربعة الأخرى رأسيًّا كُتِبت هذه الأحرف بدون ذنابة باللونين الأسود والبرتقالي بالتناوب بين اللونين على قطعة قماش لها لون وردي باهت وهي نسَق متفرق ومتكرر في أسفل قطعة من قماش «الكنافا» وهو ما استغرق إتمامه أحد عشر يومًا ونصف اليوم من المشي في جزيرة «بافين» الكندية القطب شمالية في أثناء صيف 1988، هناك نسق نثري آخر متناسق من الكلمات وهو «Tide River Paths Water» وهي خلاصة لمشي ستة أيام على ضفاف نهر التايمز من منبعه وصولًا إلى البحر، كل هذه التأويلات التقليدية ربما تكون قد أتاحت الفرصة للجمهور للتأمل في الطرق التي مشوا بها بأنفسهم للتواصل مجددًا مع خبراتهم التي عاشوها في عالم الطبيعة.

في السنوات الأخيرة تناول «فولتون» موضوع شكل الكتابة، فقد أنتج فيلمًا نادرًا عن معرض أحادي في عام 2012، أُقِيم في معرض «تونر» المعاصر في بلدة «مارجيت» البريطانية في الممر النهري الإنجليزي شمال نهر «دوفر» الإنجليزي، يحكي عن المشي للمرة الثانية على رمال شاطئ «مارجيت»، حيث مشى المئات من الناس على محيط البحيرة الواقعة في الممر الصخري المتكوِّن بفعل المَدِّ والجذر على شاطئ المدينة، عند استخدام تقنية الشاشة المنقسمة أثناء التصوير التلفزيوني، فإن المارة يشبهون جنود المشاة، ولكن بالنظر إلى الجانب الآخر من الشاشة ومن مسافة بعيدة فلا يبدو عليهم حراك «وكأن البحيرة قد تسوَّرت بحجاب داكن، فالمشي هو تعريف للكيان البشري»، هكذا قالت عنا الناقدة الفنية «لورا كمنج».

قام «فولتون» بتقديم عرض مسرحي جديد قبل افتتاح معرضه في مدينة «ترنر» سمَّاه «Slowalk» بمساعدة الفنان الصيني «آي وي وي»، وقد استطاعوا معًا جلب مائة شخص في قاعة «توبرماين» الكهفية الشكل في معرض «تيت» الجديد في لندن، حينئذ كان تقليد «آي وي وي» بجائزة عن لوحته «بذور نبات عباد الشمس»، تلك اللوحة التي تكلفت الملايين من بذور النبات الخزفية الصنع التي تركبت معًا بطريقة يدوية معقَّدة، تعبر تلك النماذج الدقيقة عن الاستقلالية والصناعة الجماعية معًا، هذا الفنان والمعماري والناشط الصيني قُبِضَ عليه للتوِّ في

مدينة «بيجين»، حيث قبل هذا الحدث لم تكن أماكن تواجُده معروفة، سأل «فولتون» عدد من المشاركين أن يقوموا بتخطيط أضلاع مستطيل كبير مفتوح على أرضية المعرض وإيجاد نقطة ما في كل من الجوانب الأربعة للمستطيل، ثم عليهم الوصول مشيًا إلى كل نقطة على مدار نصف ساعة، وسيكون عليهم العودة لأماكنهم الرئيسة بعد ساعتين، بعدها قرع الجرس وبدأ المشاركون بالمشي، وعندما أنهوا عملهم دق الجرس ثانية ووجَّه لهم «فولتون» الكلام قائلًا: «إن كل الجزيئات بما فيها البشر كلها مشتَّتة.»

«فالفن هو النتيجة الوحيدة المستخلَصة من المشي الفردي» هكذا كان وصفه لعمله الذي كان «احتجاجًا ضمنيًّا على المجتمع الحضري الذي يفصل بين البشر والطبيعة».

أقلَّني رجل يُدْعى «مايك كولبير» يبلغ من العمر تسعة وخمسين عامًا يعيش في ليفربول وشعره يأخذ شكل ذيل الحصان في محطة القطار بجانب نهر «تاين» في وسط مدينة «نيو كاسل»، إن شمال شرق إنجلترا مثل مدينة «جلاسكو» الإسكتلندية تعاني من تشوُّش ما بعد الثورة الصناعية، فمجالات مثل صناعات السفن والتنقيب عن الفحم وصناعات ثقيلة أخرى قد تضاءلت أو اندثرت مخلِّفَة وراءها اقتصادًا غيرَ مستقر فيما يخص الخدمات العامة وعدد قليل من الوظائف، هذا ولكن المنطقة تليق بأن تُصنَّف كمنطقة فنية، قالها «كولبير» أثناء قيادته باتجاه مدينة «سندرلاند» على بُعْدِ خمسة عشرة ميلًا شرقًا، ففي تلك المنطقة النائية تتدنى إيجارات العقارات كثيرًا، ولا يطمح الناس في الحصول على تقدير من أهل لندن.

تشجع جامعة «سندرلاند» حيث يعمل كولبير مدرسًا جامعيًّا على نشر مبادئ المساواة بين البشر، تدعم الجامعة في المقام الأول تعدُّدية الفنون والميول الفردية في طريقة التعلُّم، وفي بلد يتحطم فيه نظام طبقي صارم والذي فيه يكون تركيز الجامعات منصبًّا على المواد الرئيسة مثل العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات، وحيث المعايير المتحجرة تجبر الفنون ومؤسسات البيئة أن تتنافس على دعم مادي محدود بشكل متزايد، وهو ما يُعَدُّ تنافسًا على مكانة مشغولة بالفعل، بالإضافة إلى المحاضرات والإشراف على الخريجين والوصاية المشتركة على تنظيم الجولات وإدارة كلٍّ من الجولات والفن والمجموعات القائمة على أبحاث المناظر الطبيعية، وما يخص المشي من معرفة في الجامعة، كان «كولبير» يلعب دور الراعي والناقد الصديق لممارسات فن المشي بمساعدة اثنين من الزملاء الجامعيين، كان «كولبير» يمتلك معرضه التصويري الخاص به،

مسترشدًا بالشاعر «وردس وورث» وقائد شعر «الهايكو» الياباني في القرن السابع عشر «ماتسو باشو»، فكلاهما درس جذريًّا علاقة البشر بالطبيعة؛ وذلك بالاعتماد على الكلمات الدارجة اليومية، وهو الذي كان مُغرَمًا بالأسماء العامية للنباتات والحيوانات، يمشي «كولبير» في التلال وبجانب الأنهار في إنجلترا وإسكتلندا، ثم يشكل بعد ذلك لوحاته المرقَّمة على قماش الكانافا والتي غالبًا ما يلائمها فقط النص مكتوبًا بحروف ألوانها حيوية، لقد سمَّى النباتات والحيوانات التي قابلها باستخدام المصطلحات الشعبية المندثرة مثل طائر «الزقزاق الشامي» ونسيج «هوجاباك»، ويختار مجموعة ألوان نموذجية تعيد الخبرة الشعورية للمشي، فالرسم التقليدي للمناظر الطبيعية لم يقدم المنظور الساكن إحياؤه للغة ينمُّ عن روح الاتجاه المحافظ، وهو التوقير غير المسبوق بثقافة التنوع المهملة.

يقول «كولبير» وهو يتوقف بعربته في شارع جانبي في وسط مدينة «سندرلاند»: لو على تحديد محور الفن فيمكنني القول: إنه يدور حول هؤلاء الناس الذين يستطيعون صياغة رؤيتهم للعالم وتوصيل هذه الرؤية للآخرين، بحيث يكونوا قادرين على مشاركتهم هذه الخبرة، وواحد من أبسط الأنشطة التي نقوم بها وواحدة من أبسط الطرق التي نرى بها العالم هي المشي خلاله، فالمشي يعطينا الوقت الكافي حتى نتعلق بالأشياء، إنه يسمح لكل المشاعر بالتجاذب.

عندما اعترفت بأن الكلمات التي أعتمد عليها في كتاباتي بدائية، منحني «كولبير» وعدًا بمساعدتي في أن أتجاوز معرضه، مذكرًا إياي بأن محبي المشي دائمًا تربطهم المودة فقط مثلهم مثل راكبي الدراجات النارية، فلو تعطلت دراجتك على جانب الطريق فحتمًا ستجد هناك أحدهم يساعدك.

وقبل أن ندلف إلى المعرض الشمالي للفنون المعاصرة، وفي الطابق الأخير لمبنى تابع للمحليات البلدية كان تحية زوارِه عبارة عن مقطوعات غنائية عديدة للفانة «جانيت جارديف» التي عاشت في كلٍّ من بريطانيا وكولومبيا وبرلين وواحدة من أبرع فناني كندا المعاصرين، وقتها وضعت سماعات أذني الخاصة بي واستمعت لمقطوعة غنائية قدمتها «جينا وواك» باسم «حقل الذكريات»، وهي كلمات من تأليف «جارديف» بالاشتراك مع شريكها «جورج بوريس ميللر» بتكليف من حكومة المدينة الألمانية الشرقية «جينا»، حيث قاتل «نابليون» سكان بروسيا في أوائل 1800، وحينما انقلبت المؤن الروسية في الطين بنهاية الحرب العالمية الثانية، كنت وقتها ويكأني أستمع إلى أصوات جلَبة حرب القرن التاسع عشر من المدافع والبندقيات وأصوات عَدْوِ الأحصنة

في الماضي، كانت هناك في الأعلى سيدة تقرأ مقتطفًا من يوميات «لويس سيدلر»، ذاك الرسام المنحدر من بلدة «جينا» وصديق الأديب الأماني «جوته»، بل كان جارًا له أيضًا في السكن، لقد كان شيئًا رائعًا الاستماع إلى أعماله حيثما كنت، فقد أخذني ما أستمع إليه إلى أماكن أبعد من «سندرلاند»، في أثناء سيري قرأت جملة الفنان بأن «المشي هو فعل تأملي»، وأيضًا هذا السرد الطبقي: «عندما تتعامل مع الطبيعة المادية للذاكرة، فإنك تجد أن الزمن ينتقل من قرن إلى آخر أثناء مشي المستمعين وبإحساسهم بوقْع أقدامهم على الأرض ومداعبة الرياح لوجوههم، وقتها سيدركون أن الأرض التي يمشون عليها هي ذاتها التي وطئها الآخرون منذ قرنين، فالقصص التي يعيشونها هناك مَن عاشها في الماضي.»

بداخل المعرض كانت معظم الأرض في أول غرفة قد سُوِّرت من أجل عرض القطعة الفنية للنحَّات البريطاني «ريتشارد لونج» والتي يُطلَق عليها «أربعة عشر حجرًا»، تتكوَّن اللوحة من أربعة عشر حجرًا لهم اللون البني الفاتح والبرتقالي الباهت تراوحت أحجامهم ما بين حجم الفخذ إلى حجم القدم، وقد جمعهم من شاطئ قرب منزله في مدينة «بريستول»، عندما قام بتجميع اللوحة لأول مرة في عام 1977 كانت دائرية الشكل محتواها يشبه مجرة «كوكبة الجبار» حيث الشكل عصوي؛ والأرجل منبسطة والأذرع ممتدة، لكن هذه اللوحة لم تلهب مشاعري.

بعد ذلك ركزت على واحدة من أعماله الكلاسيكية المثبَّتة على الحائط والمسماة «إنجلترا 1968»، أعدها عن طريق المشي مسافات غير محدَّدة في حقول «البابونج»، والتقط لها صورة بتقنية التصوير الأبيض والأسود، ولقد اختفى مسارُه بمجرد نمو الزهور ثانية، أطلقت على واحدة من بناتي اسم نبات «البليس المعمر»؛ لذا أثارت اللوحة في ذهني ذكرى أولى خطواتها أثناء مشيها في الطريق الجانبي خلف منزلنا بـ «أدمنتون»، على الأضواء الخافتة في مساء ازدهار «البابونج» كانت «دايزي» وأختها «ماجي» يتمايلون بعد بيت جارنا وأخذوا يصيحون في مرح عند زاويته، ثم توقفوا مُحملِقِين بملء أعينهم في ما قد يكون خلف ذاك الحاجز الزجاجي أمامهم، لقد التقط فيلمًا تسجيليًّا لهذه اللحظات بالكاميرا الرقمية لاسترجاعها في أي وقت.

الأعمال الفنية المتعلقة بالمشي أظهرت للعالم مجهود سبعة وثلاثين فنانًا، حينما تركني «كولبير» بمفردي ليتجوَّل في المعرض كان «ستيف مارتن» قد خرج منه، تسحرني الأفلام التي يقدمها «فرانسيس إليز»، ذاك الفنان المعماري البلجيكي المنشأ والذي انتقل إلى المكسيك، انشغل

«إليز» بثقافة الحراسة، كما في فيلمه «الحراس» وهو عبارة عن تسجيل لمدة سبعة وعشرين دقيقة، حيث كان هناك ستة وأربعون فردًا من حرس الشرف البريطاني مرتدين السترات القرمزية التقليدية والخوذات المصنوعة من جلد الدب، ويدخلون متواترين إلى الشوارع التي غالبًا تكون شاغرة في وسط لندن، وباتباع مجموعة التعليمات الموضوعة مسبقًا يقوم كل منهم بالدوران حول نفسه إلى أن يقابل جنديًّا زميلًا له، وعندما يتقابلان يسيران جنبًا إلى جنب حتى يقابلهم جندي آخر وينضم إليهم، وفي النهاية تمشي كل المجموعة المكوَّنة من 64 جندي في شبكة مربَّعة كل حافة بها ثمانية جنود، هذا التسجيل يربط بين فكرتي المشي على الأقدام والحراس؛ حيث البنادق المعلَّقة على أكتافهم وأذرعهم التي تتأرجح بجانبهم أثناء مشيهم، أيضًا صوت دق الأحذية العسكرية التي يرتدونها على سطح الرصيف بقوة من منظور شخص أحد المارة، إن مشاهدة مثل هذا الفيلم تُشعِرُك أنك تتجسس على دورية سيكوجيوغرافية.

صوَّر الفنان «تيم نولز» أفلامه مرتديًا خوذة مرفقًا بجانبها كاميرا، ترتفع الخوذة على دوَّارة مركزية تشبه الطائرة الورقية، بعد ذلك يترك للرياح مهمة توجيهه حول شوارع لندن، في منتصف الليل حيث يشبه ورقة جريدة انتفخت من الهواء أرسله النسيم ذات مرة إلى حيث منطقة بناء أسوار، بعدها انطلق إلى ميدان «ترافالجار»، يذكر أحد التقارير الواردة في جريدة الجارديان أن مشية الريح تلك التي يمشيها «نولز» تتضمن تصويرًا لمقاطع فيديو والتقاطًا لصور فوتوغرافية، ويستخدم فيها مُعَدات يثبتها على رأسه شبيهة بتلك التي يعتمرها المخرج السينمائي «تيري جيليام»، بالإضافة إلى تلك الخطوط التي يرسمها مستخدمًا تقنية GPS لتحديد مسار المشي، وهي الأمور التي من شأنها أن ترسم لنا صورة لتلك العلاقة المتقلبة التي تنشأ بين الإنسان والطبيعة.

كانت الصحفية «سارة كولين» التي عاشت ما بين «تورونتو» و«لندن» دائمًا ما تصطحب معها كاميرا ذات تقنية ليست عالية، أيضًا كانت تمتلك صندوق رسم خاص بها عبارة عن صندوق خشبي به ريشة رسم معلَّقة في سلسلة من الداخل مع حزمة من الأوراق ترقد في قاع الصندوق، أتمت «كولين» على مدار عقد كامل مجموعتها الكتابية تحت اسم «المدينة كما تكتب عنها المدينة»، وهي عبارة عن توثيق سريع بالقلم الجرافيتي لمسيرات مشتها هي في «أستراليا»، حيث كانت تبحث عن منزل الكاتب المسرحي «دايفيد هربرت لورانس» وفي «فلورنسا» حيث زارت كاتدرائية «دومو» أربعة مرات وصور لمناظر طبيعية أعرفها بشكل جيد مثل زيارتها لجزر «تورونتو»، وصورتها وهي تمشي فوق «جبل النفق» برفقة «هامش فولتون» أثناء إقامتها في

مركز الفنون في «بانف» في «ألبرتا»، لقد كانت الصور نموذجية مثلها مثل كل ما رأيت من قبل في أي معرض، لكنها فقط بلدتي فأشعر وكأن الجبال تخصني وهذا هو السبب وراء انجذابي نحوها.

عاد إلى «كولبير» نازعًا عني سحر التأمل، قائلًا: إن الوقت قد حان لنتوجَّه سويًّا حيث افتتاح المعرض في بلدة تقع في شمال «سندرلاند» وقال: «إن الناس أحيانًا تأتي إلى المعارض، ويشعرون برغبة في الفَهم، لكن في الحقيقة ما يحتاجونه هو الاستجابة.»

عندما قابلت المغنية الكندية «سوك ين لي» أبرز أفراد فرقة «راديوهيد» البريطانية في الفناء خلف منزلها في تورونتو وجَّهَت سؤالها إلى نجم الروك المتميز عن «من يكون إلهك؟»

كان جوابه أنه «لا أعلم، ليس هذا تمامًا ما قصدت، أعني أنه لا اسم له.»

سألته مجددًا: «هل تعتقد في البعث بعد الموت؟»

بعد أن أجابها بالنفي توقَّف مليًّا وراجع نفسه قائلًا: «لقد تعرَّفت إليه عن طريق مثلًا المشي، تمامًا مثل ما قال «وردسوورث» من قبل إنه المشي في أنحاء البلدة، عن طريق المشي في المنحدرات حتى اللهاث، أو الوقوف مرتعدًا خلف الأسياج أثناء حدوث عاصفة رعدية، أشياء من هذا القبيل»، سألته مجددًا: «ما سبيلك لتعزية نفسك؟ ما الشيء الذي يمنحك السعادة القصوى؟» أجابها: «السباحة أو المشي ثم المشي ثم المشي ثم المشي، هذا مُنصِف بشكل كافٍ، أليس كذلك؟»

لقد كان «يورك» يقتبس كلمات أغنياته من أغنية فريق «راديوهيد» المسماة «جرس الصباح»، قد يكون مضمون الأغنية يدور حول الطلاق أو الرأسمالية أو الضواحي، ولا شيء مما سبق ذكره، فالمعنى غامض، هو واضح؛ ولذا يشتاق الأبطال لاستكشافه، «لا يريد أحد أن يعيش عبدًا» غناها «يورك» بصوته الخفيض الرخيم مستخدمًا آلة الأورج والجيتار.

«المشي، المشي، المشي، المشي، المشي، المشي، المشي، المشي ... » لم يكن هو مؤلف الأغاني الوحيد الذي قال هذا.

هذه النعال صُنِعت من أجل المشي، امشِ في خط مستقيم، امشِ في الجانب البري، في أسفل الممر، المشي تحت أشعة الشمس، امشِ كرجل، امشِ كما يفعل المصري، لا تبتعد، امشِ في هذا

الطريق، المشي في مدينة «ممفيس»، المشي بعد منتصف الليل، المشي على الزجاج المكسور، نعم أنا أمشي بالفعل.

في أوائل ثمانينيات القرن الماضي بعد أخذ الطائرة إلى اليابان عبر المحيط الهادي، قام المغني الأمريكي «جارفنكل» بالتنزُّه في الجزيرة من شرقها إلى غربها، لقد تمشَّى بين حقل الأرز مهتديًا بالشمس والأفق، قال عنها: «المكان ليس واسعًا لكنَّه بشكل عام جيد»؛ لذا في عام 1984 وبعد أن قرَّر، وفي أقل من يوم، تحرَّك من منزله في نيويورك مرتديًا حقيبة ظهر صغيرة عبر سنترال بارك وكوبري جورج واشنطن في نيوجيرسي وأكمل مسيرته، على مدار الاثني عشر عامًا التالية قام «جارفنكل» بالسفر ثلاث أو أربع مرات حتى وصل إلى ساحل مدينة واشنطن، قضى أغلب الوقت بمفرده باستثناء رفقته لخريطة ومفكرة، وبالطبع مسجل أغانٍ صغير أثناء رحلته، في البداية كان حينما يحل الغَسَق يركب عائدًا إلى أقرب فندق، وفي الصباح يعود مجددًا من النقطة التي توقَّف عندها، بعد ذلك أخذ في التصرُّف كرجل غَنِي حيث كان ينتظره مساعده في آخر كل يوم، مع وضع قواعد للمشي «القاعدة الأولي: لا تختلس النظر لما حولك، ولا تتوقع شيئًا» كما كتب في سبورتس اللسترايتد، عندما يمشي في طرق مهجورة لا ينظر حوله أبدًا، «القاعدة الثانية: لا تتوقف عن المشي، أكمل كما بدأت فالتوقف يضيع طاقتك.»

قال: «جارفنكل» في حوار له في الراديو: «لقد كان معي كارت أمريكان إكسبرس في حقيبة ظهري، ولكني دائمًا كنت أحفز روح الرحلة بداخلي، فبدلًا من القول: أين مفاتيح عربتي؟ كنت أقول: هذا هو الاتجاه الغربي وأنا لديَّ خريطتي، وبعد ذلك ما عليك إلا أن تطلق العنان لإحساسك بالاتجاهات، بعدها سوف تمشي في الأرض بفطرتك وكأن عمرك سنتين فقط.»

أطلق «جارفنكل» في عام 2017 ألبومًا غنائيًّا مباشرًا سمَّاه «عبر أمريكا»، والذي أراد به إحياء ذكرى رحلته التي مشاها عبر البلد بمجموعة من المختارات القديمة، وتضمنت المجموعة أغنيات ناجحة مثل «’Groovy Feelin» والتي تتماشى مع الاتجاه الكلاسيكي العظوي المنادي بالمشي على مهل؛ لأنك تتحرك مسرعًا، بعد عام أخذ الطائرة إلى «أيرلندا» ومن هناك بدأ رحلته إلى «إسطنبول» مشيًا، في ربيع عام 2014 كان مستعدًّا لاستعادة رحلاته بعد ما عاناه على مدار أربعة أعوام من محاربة إنهاك الأحبال الصوتية فقد وصل إلى شمال اليونان وهو ما يعادل 370 ميلًا من وجهته.

بالرغم من الأدلة القصصية على مدار العديد من العقود، فإن هناك القليل جدًا من الأبحاث المتعلقة بالربط بين الفكر الإبداعي والأنشطة الجسدية، حلَّل العلماء الكيفية الحركية للجسد البشري من الرأس إلى أخمص القدم، كما لم يعُد العقل البشري صندوقًا أسودَ، وهناك العديد من الكتب التي تكشف عن العلاقة بين التمارين والعمليات المعرفية المتنوعة، هذا ولكننا بدأنا فقط في فَهم السبب والكيفية التي يمكن للمشي أن يُذكِي فيها الخيال.

في المشروع البحثي الأول من نوعه، درس الباحثون النفسيون في جامعات «كانساس» و«أوتا» إمكانية تأثير المشي في الطبيعة في التوصل لطرق مبتكرة لحل المشكلات، وبالتوسع في الدراسات السابقة لنظرية «استدعاء الانتباه»، نجد أن هناك ستة وخمسين شخصًا بالغًا ممَّن يشاركون في رحلات برية استكشافية خارج البلاد، قد أُرْسِلوا إلى رحلات مشي في ألاسكا وكلورادو واشنطن وماين، لقد قُطِعت كل صلة لهم بالأجهزة الإلكترونية طوال فترة الاختبار، أربعة وعشرون من المشاركين توصلوا في صباح أول يوم لرحلتهم التنزُّهية لمنطق إبداعي ووضعوا مقياسًا لحل المشكلات أطلقوا عليه «اختبار الروابط البعيدة»، والمشاركون الآخرون أتموا اختبارهم في صباح اليوم الرابع، سأل THE RAT المشاركين أن يأتوا بكلمة من الممكن أن تربط بين ثلاث كلمات أخرى، على سبيل المثال: كلمة كوخ، وسويسري، وكعك؛ فالإجابة ستكون: الجبن، من ثلاثين إلى أربعين من المشاركين جاوبوا على الأسئلة في أكثر من نصف الساعة، وقتها انتاب الباحثين إحساس رائع كيف أن الوصول إلى مرحلة المرونة النفسية أمر ليس ببسيط، هؤلاء الذين أتمُّوا الاختبار قبل نهاية رحلتهم التنزُّهية كان أداؤهم أفضل بنسبة خمسين بالمائة من المجموعة التي تقيَّدَت بوقت.

وقد كتب الباحثون النفسيون في جريدة «الإبداع في الحياة البرية» أنه من الصعب تحديد إذا ما كان السبب وراء هذا الاختلاف هو اندماجهم في الطبيعة أم أنه انفصالهم عن التكنولوجيات، حيث إن العاملين هما وجهان لعملة واحدة، كما أن أغلب الناس يعيشون بيئة فيها قد تحوَّل فيها بشكل كلي التوازن بين الوقت الذي يمارسون فيه أنشطة ما أجواء طبيعية ووقت انغماسهم في التكنولوجيا، وكما أن اندماج الناس في الطبيعة يقل، فعلى الناحية الأخرى نجد أن استخدامهم واعتمادهم على التكنولوجيا يزداد، ففي بلدة كالولايات المتحدة نجد أن الأطفال يقضون ما يعادل نحو عشرين دقيقة يلعبون خارج المنزل يوميًّا، ونحو ثمانية ساعات يستغرقونها في استخدام أجهزة الكمبيوتر أو الحاسب اللوحي أو الهواتف الذكية أو مشاهدة التلفاز، وتراهم يتنقَّلون من جهاز لآخر

بسلاسة، كل هذه الأجهزة الرقمية متعددة المهام المثيرة للانتباه تسترق تركيزنا وتقتل قدرتنا على إنجاز مهام عقلية رفيعة المستوى، أيضًا تحُدُّ من فرص الاستفادة لو تمكَّنَّا من استعادة خواص البيئات الطبيعية، حيث هذه النقطة هي السحر الكامن في نظرية «استعادة الانتباه» سالفة الذكر.

في حالة سرعة الافتنان يميل العقل للاستبطان والتساؤل، فيشغل ذلك شبكة «الغياب الشكلي»، وهو عبارة عن تواصل بين أجزاء معينة في العقل البشري التي تَنْشَط أثناء غفوته، وهذا ليس ضروريًّا فقط لاكتمال الصحة النفسية، ولكن أيضًا للتفكير الجانبي والمتشعب، التفكير التجمعي يستلزم اتِّباع مجموعة من الخطوات المنطقية للوصول إلى حل واحد، التفكير التشعُّبي هو عملية غير مخطَّطة لاستكشاف العديد من الحلول الممكنة.

قارن الجغرافي «جوزيف مورفي» تضارب تطوير الطاقة في كلٍّ من «روسبورت» و«أيرلندا» وجزيرة «لويس» في إسكتلندا؛ لأنه رآهم قليلًا في المرة ذاتها التي مشى فيها هناك، الطريقة التي يعمل بها هاتفه يمنحه وقتًا للتفكير ولفصل الأمور بعضها عن بعض بطرق مبتكرة، وقد أخبرني حينما كنا نمشي سويًّا أنه «عندما تمشي فإنك تقوم بالجمع بين الأشياء والناس التي سوف تشكِّل طريقة نظرتك للعالم، والتي من شأنها أن ترغمك على إعادة التكيف مع ما حولك من ظروف، لديك فرص أقل للحفاظ على طريقتك الحالية في التفكير وفيما تفعله؛ لأنك طوال الوقت تتشارك مع الآخرين، وهذا لا يشبه ما تقوم به حينما تغير مسار عربتك لتتَّجه لمكان آخر».

من ناحية أخرى فإن «الإبداع في الحياة البرية» هو البحث الوحيد الآخر الذي وجدته في مجال المشي والإبداع الذي أنجزه قسم التربية والتعليم التهيُّئي والتقدمي في جامعة «ستانفورد» والذي يُرمَز له أيضًا بـ The AAA Lab، هناك وصل العلماء بين سلسلة من الخبرات باستخدام القليل من معايير الإبداع المختلفة، بما في ذلك اختبار «جيلفورد» المُسمَّى «الاستخدامات البديلة»، والذي يطلب من المشاركين طرح العديد من الاستخدامات لأدوات منزلية موحدة بينهم، أيضًا اختبار «التكافؤ الرمزي» لـ «باروون» وفيها يكون على المشتركين ابتكار الاستعارات المكنية بمعنى صور لغوية رمزية متكافئة للتعبير عن شيء ما لمجموعة من الجُمَل، مثل التعبير المجازي عن «انطفاء الشمعة وانتهاء الحياة وتدفُّق المياه في المجرى»، قام بالمشاركة قرابة مائة وثمانين من طلبة القسم النفسي، جزء منهم أتم الاختبار وهم جالسون وجزء أتمه وهو يمشي، آخرون أتمُّوه أثناء استخدامهم لجهاز المشي الرياضي في غرفة حوائطها تخلو من أية نقوش، والبعض أثناء مشيهم في

الحرم الجامعي الجميل في جامعة كاليفورنيا في ستانفورد، وعدد منهم اختار أن يكون مدفوعًا علي كرسي متحرك في الحرم الجامعي، تم تصنيف إجابتهم ومقارنتها، وكانت النتيجة واضحة، فقد تميزت إجابات هؤلاء اللذين تخيروا المشي على الجهاز والمشي في الفضاء بشكل واضح في اختبار «الاستخدامات البديلة» من هؤلاء الذين تخيروا الجلوس؛ فقد قدموا نحو خمس استخدامات بديلة أكثر من الجالسين، كما اتضح تراجع أثر الإبداع بعد أن طُرِحَت المواضيع نفسها للسؤال بعد أن توقفوا عن المشي، بالنسبة لاختبار «بارون» للتكافؤ الرمزي، فقد قدم المشاة استعارات لغوية مبتكرة في خمسة وتسعين بالمائة من الوقت المحدَّد، وفي المقابل أتم الجالسون الاختبار في خمسين بالمائة من الوقت المحدَّد، ومع المشي في الفضاء الخارجي قدَّم المشتركون «التناظر اللغوي الأكثر إبداعًا والأعلى جودة»، وبسبب اختبار الكراسيِّ المتحركة وعلى العكس من تجربة التنزُّه في الحياة البرِّيَّة فإن آثار التحفيز والمشي الخارجيين كانت قابلة للفصل.

قالت «مارلي إبيزو» الباحثة النفسية في المختبر التعليمي AAA : «رغم أن المشي في الخارج بإمكانه تفجير كل الطاقات بداخلنا، إلا أن المشي باستخدام جهاز المشي الرياضي في غرفة صغيرة ومملَّة له أيضًا نتائجه القوية التي أذهلتني»، لم يكن هذا انطباعي أثناء استخدامي لجهاز المشي خاصتي، بالرغم من اقتراح أحد صانعيه على أنه في حال استخدمته لعدة أسابيع، فإن ذلك سيصبح بالنسبة لي طبيعيًّا.

من الواضح أن المشي لا يساعد هؤلاء المنغمسين في أنواع تفكير مركزة ومتقاربة مثلما تكون مضطرًّا لاختيار إجابة واحدة صحيحة، هكذا قالت «إبيزو»، وهي التي عرَّفت الابتكار على أنه نتاج إبداعات مناسب، تستطيع فقط التفكُّر في الاستجابات الإدراكية للمشي التي تحفز على التفكير المتشعِّب كقدرته على تقليل نسبة الإصابة بالكبت الذي من الممكن أن يقف بين الإنسان وقدرته على التنقية الداخلية لمفاهيمه الخيالية.

تعرض نظرية المعالجة المزدوجة للإدراك أن البشر لديهم نوعان أساسيان من التفكير: النظام الأول مستقلٌّ وآلي، سريع ويقوم على العاطفة، أما النظام الثاني فهو أبطأ ويتطلب المزيد من المجهود والمنطقية، لقد لاقت قبولًا كبيرًا من قِبَل الباحثين النفسيين وذاع صيتهما عن طريق التعرُّض لهما في الكتابين: «التفكير» و«سريع وبطيء» للكاتب «دانيال كانمان»، وهذه الطرق المزدوجة بإمكانها أيضًا تفسير معنى الإبداع، فالنظام الأول يساعدنا في الربط بين ما لدينا من

معلومات مختزَنة في الذاكرة وما نكتسبه من العالم الخارجي، أما الطريقة الثانية فهي تساعدنا في تقييم وتنقيح المعلومات التي تكونت في أذهاننا أثناء العملية الترابطية المذكورة سالفًا، النتيجة من الممكن أن تكون تبصرة مفاجئة كأن تتوصل لحل مشكلة كنت قد علقت بها، إنه أمر يشبه لحظة الاكتشاف التي تتجلى عليك أثناء تنزهك في الحديقة، كلحظة اكتشاف «جيمس وات» للمحرك البخاري.

في أثناء المشي تستقبل مشاعرنا وابلًا من المعلومات الجديدة، فهذه المشاهد والأصوات والروائح والمجسات الحسية التي نتعرض لها يوميًّا تندمج مع خبرات ومعلومات الماضي، حيث يدمج العقل البشري أفكارًا لم توضع بجانب بعضها من قبل، وهذا من شأنه أن يحفز الابتكار حيث إنها طريقة مباشرة نلجأ لها في أوقات تشتُّت التفكير.

قال «بول سودن» الباحث النفسي ومدير «الليم» أو المركز الجامعي لأبحاث الإبداع: إن الإبداع مهم لعدد من الأسباب، فبالنسبة للأفراد فهو يمنحهم الشعور بامتلاكهم رؤية للأمور ويساعدهم في إيجاد طرق جديدة للعيش في العالم، أيضًا يمنح البعض الإحساس بالسعادة، وبأن هناك غرضًا من وجودهم في الحياة، إنه يساعدنا في التصدي لتحديات الحياة، هذه الفوائد تستمتع بها المؤسسات أيضًا؛ فالإبداع يمكِّن الشركات من تقديم منتجات وخدمات أفضل، ويضمن أن يكون الموظفون مرتاحين ومنكبين على العمل، أيضًا يساعد في مكافحة إدمان الكحوليات والحزن والصدمات، حتى الإحباط من الممكن اعتبار أن السبب وراءه هو الافتقار إلى الإبداع، فلا يمكن التخيل أن المشكلات العظام ينتج عنها أية أحداث مفرحة.

يقول «سودن»: إن الإبداع هو عامل رئيس للخبرات الإنسانية، فبالنظر إلى النظرية النشوئية، فقد مكَّن الإبداع الإنسان من التكيُّف مع بيئته، وفي الآونة الحالية فإنه يرفع من قدرة الإنسان على إنجاز أشياء مثل العلم والفن، فبدون فهم الإبداع وفهم كيفية تحسين طرق الإبداع على المستويين الفردي والمؤسسي لن نتمكن من تحسين الطرق التي نحصِّل بها العلم والفن والتكنولوجيا ومؤسساتنا، كما يمكن القول بأننا لن نتمكن من تحسين خبراتنا الشخصية الحياتية.

يعطينا المشي الوقت والمساحة الذهنية الكافية لنفكر بطرق إبداعية، من ثم نقيِّم تلك الأفكار أي ما يعني فترة نقاهة ذهنية نتمكَّن فيها من التأمُّل بحرية بعدها تتضاعف الأفكار في عقولنا تلقائيًّا، ظهر تدريب جديد بإمكانه المساعدة على المرونة المعرفية أو القدرة على التفكير في مواضيعَ

مختلفة في ذات اللحظة، وهذا من شأنه أن يزيد احتمالية حدوث التلقيح المتبادَل للأفكار، يقول «سودن»: «يعتمد الإبداع على كثير من الأشياء التي يستطيع المشي توفيرها بطريقة أو بأخرى.»

بينما كنت أحدِّثه عبر التليفون استقيت فكرة من «سودن»، وهي أن هناك صلة قديمة تربط بين المشي والإبداع حيث لعب كلاهما دورًا رئيسًا في تطويرنا نحن كسلالة بشرية، رد عليَّ قائلًا: «لكن ليس هناك أية معلومات تتحدَّث عن تلك الصلة، ولكن لدينا رابط واحد، فقد كان المشي جزءًا حيويًّا في حياة أسلافنا، وعند نقطة معينة أصبح الإنسان من بعدها مبدعًا.»

اقترح «سودن» على الاتصال بواحدة من المشتركين الموسميين وهي «ليان جابورا»، وهي باحثة نفسية في الجامعة البريطانية الكولومبية في وادي «أوكاناجان»، وهي تبحث في مجال التطور والإبداع، عندما بدأت في شرح نظريتي بطريقة تخلو من البراعة قاطعتني هي قائلة «المشي والإبداع مترابطان بشكل قاطع»، وكررت عليَّ: «مترابطان بشكل قاطع».

عندما توقَّفْنا عن استخدام أيدينا في الحركة ومشينا فقط على أقدامنا حصلنا على مهارات بارعة في أصابعنا وأيدينا، وبدأنا نفكر في نوعية ما يمكن فعله بهذه الأصابع متزايدة البراعة، بإمكاننا أن نعالج الأشياء من حولنا ببراعة ونحسِّن بيئتنا على نطاق أوسع مما فعل أسلافنا، فعلى مدار آلاف الأجيال قد اقترن تطور كلٍّ من خطوات المشي على القدمين والتفكير الإبداعي.

أكمل علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الآثار والعلماء النفسيون مناقشاتهم حول بدايات ونتائج الإبداع، حيث إنهم ما يزالون يتناقشون في نظريات تطور المشي عند الإنسان، صنعت اختراعاتنا الأولية المشهورة من الحجر، وكانت تُسْتَخدم في تقطيع الفواكه والمكسرات، ويرجع زمن تلك الفترة إلى ما بين 6.2 و 7.1 مليون سنة، وهذه كانت بداية القفزة العقلية التي منحتنا القدرة على إطلاق صاروخ إلى القمر وفك شفرة التحليل الوراثي DNA وتشكيل سيمفونيات موسيقية تقوم على تنظيم التنفُّس، منذ ما بين ثلاثين وستين ألفًا سنة مضت عاش أجدادنا التجرِبة المدوية للإبداع، فكما كتبت «جابورا» في فصل شاركت في كتابته ضمن مؤلف «كتاب كامبردج اليدوي عن الإبداع»؛ أن هذا الانفجار قد تزامن مع ظهور استراتيجية الصيد الموسمي، والتوسع في طقوس الدفن، وممارسة الرقص «والعديد من الأشكال الأخرى للفنون مثل النقوشات الطبيعية في الكهوف التي تشكلت بهيئة الحيوانات، والأدوات والأواني المزخرفة، والأدوات المصنَّعة من العظام وقرون الحيوانات والتي نُقِشَت بالحفر الغائر، ورسم الحيوانات ومحار البحر باللون العاجي،

كذلك الأشكال التي تَزيَّنَ بها أسلافنا من ارتداء السلاسل الخرزية والقلادات وأسنان الحيوانات المثقوبة»، كلما نضجت أذهاننا كلما تمكَّنَّا من وضع شفرات للذكريات بتفاصيل كثيرة، هكذا أخبرتني «جابورا»، بعد أن قطعنا مسافة من المشي لم نستطع تذكر مجرد شجرة واحدة ضخمة؛ بل تذكرنا السماء الجميلة وكيف كانت تبدو السحب وأشجار كثيرة مختلفة، تلك الذكريات لها العديد من المصادر التي من خلالها يستطيع أي فرد من خلال عملية الاستدعاء الذهني للذكريات أن يستنبط حدثًا يذكره بحدث آخر، هذا الاستدعاء التلقائي يمكِّننا من تنظيم الذكريات وتلخيص الأفكار معًا، يمكننا التفكير في حركة أجسادنا الحالية بالمقارنة بما كانت عليه في الماضي، حيث نستطيع ممارسة المهارات والتدريب عليها في أذهاننا «بإمكاننا أن ننخرط في العديد من الأفكار التي بإمكانها أن تأخذنا من المكان والزمان الحاليين إلى حيث الخيال» هكذا قالت «جابورا».

«يتحصل الناس على الأفكار أثناء المشي حيث يبتعدون عن تلك الأشياء التي تسيطر على انتباهنا، فبإمكانك أن تذهب بتفكيرك بعيدًا عن الحاضر من خلال إعادة ترتيب أو التفكير فيما حدث في الماضي، وأيضًا من خلال محاولة الوصول لما سيحدث في المستقبل.»

الآن وبعد مليونيَّتين تطوَّر فيهما الجنس البشرى تشعر «جابورا» بالقلق من تأثير المجتمع الحالي على الإبداع، فالأنواع العديدة للتكنولوجيا تزداد وتقلُّ أمامها قدرتنا على ابتكار أفكار جديدة، إتاحة الأدوات الرقمية الجديدة وفرط أوقات الفراغ بإمكانهم أن يلهمونا التعبير عن أنفسنا، وبطرق جديدة وحيث بإمكاننا أن نصل لأي شخص ونخاطبه، وهذه المحادثات تقودنا إلى فكرة عدم التقيُّد بمكان، على سبيل المثال: لولا وجود شبكة الإنترنت لما أمكنني أن أجد «جابورا» ولا أن أقرأ أبحاثها، فالآن أصبحت الإجابات لكل تساؤلاتنا بالفعل رهن حركة من أطراف أصابعنا، شكرًا للمتصفح جوجل، ولكل أداة مجسدة يمكن تخيلها تُعرَض للبيع في متجر «هوم ديبو» أو على موقع «أمازون»، وعلاوة على ذلك فإن الأطفال الآن يقضون الكثير جدًّا من الوقت يلعبون ألعاب الفيديو، حيث يعرفون أن هناك دائمًا حلولًا موجودة لكل ما يواجههم، كل ما يفعلونه هو البحث عن هذه الحلول بدلًا من على سبيل المثال أن يخرجوا في نزهة حول جدول مائي مثل هذا الموجود خلف بيت «جابورا»، وحيث هناك شكوك ما ومجهول تبحث عنه، «فهو عالم لا يمكن توقعه، وهو العالم الذي اعتاد الناس العيش فيه»، هكذا قالت «جابورا» عن الجداول»، والآن نتعامل مع عوالم فعلية قد صُنِّعت مسبقًا من قِبَل عقول بشرية أخرى وعلى الطريقة التي تجعل الأطفال تدمنهم، كل طفل بالخارج يواجه المشكلة نفسها ومجبر أن يوجد نفس الحل، فلو أنهم تنزهوا بالخارج فسوف

يتشاركون مواقف مختلفة قليلًا والتي بدورها سوف تصقُل عقولهم بطرق مختلفة نوعًا ما، وعندما يفكرون سويًّا فسوف يتحصَّلون على أفكار أكثر غناءً وتشعُّبًا، حيث إنهم يواجهون تحديات مختلفة.

وتقول «جابورا»: «عندما تمشي فإنك مع كل خطوة ترى وتسمع العالم من منظور مختلف نوعًا ما، وهذا له علاقة بأن يجعلك تنظر إلى مشكلاتك، أو ما يشغلك من وجهة نظر مختلفة أيضًا كلما تقدمت في مشيك، وهذا الشيء اعتاد الناس على فعله على مدار آلاف السنين، فكانوا يفكرون في أمورهم أثناء مشيهم، فالأمر يشبه تمامًا قطعة الأرض التي كلما اقتربت منها رأيتها بمنظر مختلف، فكذلك مفاهيمك ووجهات نظرك تتغير شيئًا فشيئًا كلما مشيت.»

في أوائل ستينيات القرن الماضي ظهر رسام موهوب ولكنه مريض هو «ران لاركن»، والذي بدأ العمل في المجلس الوطني لأفلام كندا، في طفولته أخذ «لاركن» دروسًا في مدرسة مونتريال للفنون الجميلة، حيث كان أحد معلميه هو الرسام «آرثر ليسمر»، وهو عضو في مجموعة «Group Of Seven» في المجلس الوطني لأفلام كندا، كان يشارك بإنجاز الأجزاء المتحركة في أفلام تعليمية عن الجيش والبحرية، كان هذا قبل أن يخطف نظر المخرج الأسطوري «نورمان ماك لارين»، أنجز «لاركن» فيلمين تجريبيين متحركين ناجحين، وفي وقت فراغه، بينما يتنزَّه رفاقه على طريقة «الأسيد» أو يرسمون نموذجًا للوجبة الإسكندنافية «سمرجاسبورد»، كان يذهب هو إلى المقاهي والحانات يشاهد ويرسم بشكل رسومات تخطيطية لهيئات هؤلاء المارين حوله، كان «لاركن» محددًا مكتبه الصغير بمرايا يقوم فيها بدراسة هيئته وهو يمشي، لقد قضى سنتين في تجهيز الفيلم المتحرك «المشي»، والذي اعتمد فيه على تقنية رسمة خط الخمس دقائق بتقنية التظليل والذي جسَّد حركات وإيماءات وتعبيرات مجموعة من شخوص قاطنة الحضر، تميز الفيلم بأسلوبه الجديد وبنائه القصصي المسهب، لقد ترشح الفيلم لجائزة «Academy Award» في عام 1960 ولُقِّب واحدًا من أفضل الأفلام المتحركة على الإطلاق.

لقد تذكرت مشاهدتي للفيلم وأنا طفل، كان يستهل بنغمة مبهجة حيث يقف أحدهم منفرِج الساقين لغرض ما وواضعًا يديه في جيبه، بينما يقف الناس في صَفٍّ منتظرين قدوم الحافلة ينظرون إليه بغيره لكن بها أيضًا لمحة من الحزن والخطر، وبالنظر إلى المذاهب الفنية والبحوث الجغرافية، نجد أن رمزية المشي تتأرجح بشكل كبير بين العبودية والخوف، ولكل بطل قصصي يسعى لبداية جديدة فهناك كتاب مثل «الطريق» للمؤلف «كورماك مكارثي»، وهو يدور حول رحلة

فيما بعد نهاية العالم، وتدور الأحداث على أرض الرماد والموتى المروِّعة، أثار المؤلف «ستيفن كينج» الاتجاه نفسه في الكتابة حيث في واحدة من أوائل رواياته «المشي المطول»، والذي تناول فيها مسابقة سباق المشي، والذي تم في أمريكا الديكتاتورية، والذي دار بين مائة من الذكور المراهقين، وكان على الواحد منهم أن يعدو بسرعة على الأقل أربعة أميال في الساعة الواحدة، والمكان المخطط للعَدْو كان أسفل الشاطئ الشرقي، ومن يتوقف عن العَدْو فسوف يموت، وانتهت المسابقة عندما تبقَّى ولد واحد على قيد الحياة.

كان المشي أيضًا في قلب العملية الإبداعية التي تبنَّاها «كينج»، فبعد توقُّف دام أشهرًا عاد بخاتمة لروايته «الموقف» والتي استلهمها في واحدة من مرات مشيه اليومية التي كانت تستغرق أربعة أميال، لقد مات «كينج» غالبًا ذات مساءٍ أثناء مشيه في الطريق السريع المسفلت مزدوج الممرات بجانب منزله الصيفي غرب ولاية «مين»، عندما كان أحدهم يقود عربته «الفان» ويحاول منع كلبه «الروت وايلر» من دسِّ أنفه في المبرد الذي يحوي لحومًا تفصيلة كأنها اقتُطِعت من أحد مؤلفاته في هذه الأثناء صدم الكاتب من جهة الرأس، كانت ساقه اليُسرى بها تسعة كسور وركبته اليمنى قد انقسمت من المنتصف وتهشَّمت عظام فخِذه اليمنى، وتشظَّت فقرات عموده الفقري وتكسرت أربعة من أضلاعه، وتطلَّبت الجروح الغائرة في رأسه ثلاثين غُرزة كي تلتئم، بعد أسبوعين من إجراء خمس عمليات استطاع المشي في ردهة المستشفى عشرة خطوات، بعد مرور ثلاثة أسابيع أخرى قامت زوجته بتزويد منضدة في الكرسي المتحرك الذي يستخدمه وبعدها استأنف كتاباته: «أتحرك بين الكلمة والأخرى مثل محاولة رجل طاعن في السن أن يجد طريقه وهو يسير في مجرى متعرِّج وسط صخور مبتلَّة ... لم يكن هناك معجزة اختراق في هذا المساء، ما لم تكن تلك المعجزة الواجبة لخلق الأشياء.»

والأكثر من كل أعمال «كينج» كان كتاب «راي برادبيري» المسمَّى «الماشي»، والذي يروي أنه في عام 2053 كان هناك شخص يُدْعَى «ليونارد ميد» يحب المشي، فكان يمشي كل ليلة بمفرده بطول الطرق الإسمنتية الملتوية في مدينة خاوية وهادئة محدقًا النظر في المنازل التي قد تسمَّر أصحابها أمام شاشات العرض خاصتهم، وفجأة يتوقف بجانب عربة الشرطة الوحيدة في المدينة (حيث لم تعُدْ هناك جرائم ولا أحد يخرج على القانون)، وقد صور لنا الحوار بينهما كالآتي:

«هل أنت هاوٍ أم محترف؟» يوجه السؤال صوت معدني.

«أظن أنه بإمكانك أن تنعتني بالكاتب.»

رد الصوت قائلًا: «لا مهنة لك، ما الذي تفعله بالخارج؟»

رد عليه «ميد» قائلًا: «أمشي».

«تمشي!»

«فقط أمشي».

«تمشي، فقط تمشي، تمشي؟»

«أجل، سيدي».

«أين تمشي، ولماذا؟»

«أمشي لأستنشق الهواء، أمشي لأري ما حولي.»

طلب من «ميد» أن يصعد إلى العربة، لم يكن بها سائق، تقرر نقله إلى مركز الطب النفسي الذي يدرس نزعات الارتداد النفسي.

كان «بيان الجبل الأسود» الذي أخبرتكم عنه في الفصل السابق هو بشكل أساسي احتجاج من مجموعة فنانين أو تذكير حماسي للتأمُّل فيما حولنا.

قام الفنان الإنجليزي «مايك كولبير» في عام 2011 بالمشي ستين ميلًا بجانب نهر «تاين» بمرافقة أربعة من المؤرِّخين الطبيعيين، وعلى مدار أكثر من خمس إجازات صيفية، وبمشاركة أكثر من ثلاثين عضوًا من العامة، تتابعت مجموعات صغيرة على النهر بداية من منبعه ووصولًا إلى قرية «ثورني بيرن» الواقعة في التلال التابعة للمتنزَّه القومي في ولاية «نورثمبرلاند»، لقد تجاوزوا المياه، وعبروا الواجهة المائية لنيو كاسل التي تأسَّست بعد الثورة الصناعية، حيث وصلوا إلى جسر المشاة والمعرض الفني المعاصر الذين حلُّوا محل مستودعات الفحم، تقابل هؤلاء المشاة القرويين على حافة المدينة مفعَمِين بالحياة، حدثت أشياء ممتعة في منطقة الانتقال، حيث تحوَّلت المدينة إلى قرية، وتحوَّل مكان ضفة النهر إلى سهل منبسط، والغابة أصبحت حقلًا وتحوَّل النهار

إلى ليل، عندما رأينا المكان يتغير بمرأًى من أعيننا، أبصرنا علاقتنا المتشابكة والفعالة بالأشياء الماضية وتلك المحتمل وجودها في المستقبل.

بينما يمشي كان «كولبير» يدوِّن أسماء ما رآه أو سمعه أو اشتَمَّه أو لمسه من نباتات وحيوانات، بعد العطلة الأخيرة ترأَّس مجموعة من ورش العمل في مجتمعات قروية بطول الطريق، تمت دعوة الحضور لإعداد مسيرات قصيرة فنية وزراعية وفكرية، قام «كولبير» بتجهيز نسخ رقمية لثلاثين ورقة من يومياته مضافًا إليها ملحوظات مرقَّمة، عُرِضَت الأعمال في معرض «مرونة الحياة البرية»، كشفت ملحوظاته عن الطبيعة الموجودة على رأس منازلنا، حيث قام الناس باستبدال المناظر الطبيعية على مدار قرون، ومع ذلك وجدت الحياة البرية طريقًا لها تتواجد من خلاله، فأصبحنا لا نحتاج إلى السفر للبحث عنها.

ذهب «كولبير» بانتباه المُشاهد إلى حيث يوجد ما يرتحل من أجل رؤيته، فمسيرات «المدينة المرنة» تشجِّعك على الإحساس بما هو متاح، من ثَمَّ تبدع شيئًا جديدًا، المجموعة تفرَّعت جغرافيًّا من «بروكلين» إلى «مانهاتن»، ولكن منهجها يدور حول طبيعة المدينة أو الطبيعة فيها: مثل المشي طوال الليل على جزيرة «فاير أيلاند»، وهي قطعة أرض صغيرة تقع بعيدًا عن «لونج آيلاند» وتحتضن شواطئ جميلة ومشاهد مزدهرة وزاهية، أيضًا كنزهة الثلاث ليالي في مقاطعة «ديتروات» والتي من أجلها استُخْدِمَت الطائرة والسيارات الفان، بالرغم من قضاء أغلب الوقت مشيًا يقودنا قاطن سابق لمدينة «موتور سيتي» والذي لديه «بعض الصعاب وعليه حلُّها»، ودعا آخرين للانضمام إليه والقيام بمثل ما يفعله.

مسيرة التوقيع هي المنارة، فبعد تركيب العناصر التي قمنا بتجميعها على جانب الطريق أكملنا التداخل بين أغنية «أوشن آفينيو» ومدينة «أعاني» فلات بوش، إنها الآن السابعة والنصف مساءً حيث أخيرًا تنتهي ساعة الذروة، هناك صف انتظار طويل بجانب شاحنة الطعام، سألنا «تود شالوم» أن ندرس خلال دقائق قليلة الكلمات المدونة على كل الإعلانات في المشهد المعروض أمامنا، بعدها سيكون على كلٍّ منا تأليف قصيدة باستخدام ما حصَّله من كلمات، أنا سعيد جدًّا بالنثر الذي ألفته وهو كالتالي: ليس هناك سلطة دجاج، الصيف يبدأ مع، تأهيل ممتاز، لكن «بين ويبر» الذي لديه خلفية بالعمل المسرحي فقد استدعى الشاعر الكامن بداخله وبصوت عميق تفوَّق علينا جميعًا بشعره:

«آف فلورا».

«آف ويدني».

«آف فلات بوش».

«شومر شابات».

«لا وجود لمستحيل في المشي الجانبي».

«أية مقياس ساخن».

«إمبراطورية الماء».

شيء ما في أداء «ويبر» قد يكون الطريقة التي قال بها «شومر شابات» جعلني أدرك أنه بالرغم من اسمه الأمريكي ونشأته في ولاية وسكنسون الأمريكية فإنه يهودي مثل «شالوم» ومثلي، بعد أن أنهينا المشي وبالنظر إلى الطريقة التي يتراقص بها ما تبقى من الضوء المتلاشي منعكسًا على المعدن اللامع لكشك التليفون، تناقش ثلاثتنا حول مذاهبنا العلمانية المتشابهة أثناء تناولنا لوجبة العشاء، تأمل «شالوم» في أنه من الممكن أن يكون هناك وجود قوي لليهودية متضمن في مسيرة «المدينة المتمددة»، فقال: «لو أنك تفكرت في تاريخ اليهود، تجد أنه لم يكن مسموحًا لهم بتملُّك رؤوس أموال ولا أية ممتلكات ولكن ماذا حدث؟ لقد غدوا محاسبين وموظفي بنوك أي أصبحوا هم من يقرض الأموال، لكن بالرغم من هذا فلم يتملكوا شيئًا ماديًّا، فقد كانوا مجرد سماسرة أو وسطاء، من المحتمل أن يكون الشيء نفسه، يقال عن الفنان الذي يدلك في المشي، فأنتم لا تتبادلون شيئًا ملموسًا لكنكم تمنحون الخبرة لأحدهم.»

السابع
الروح

«الحج يتيح لنا الحركة الجسدية، من خلال تحرُّك الجسم خطوة بخُطوة نحو الأهداف الرُّوحية غير المرئية، والتي بغير ذلك تكون صعبة المنال، نعيش نحن البشر في حيرة أبدية في كيفية التحرُّك نحو الغفران أو الشفاء أو الحقيقة، لكننا الآن نعرف طريقنا من هنا إلى هناك رغم ما في الرحلة من مشقة.»

الكاتبة «ريبيكا سولنت» في كتابها «غرام الترحال».

«لو أنك مشيت كثيرًا بشكل كافٍ، فمن المحتمل أنك لن تحتاج إلى إله آخر بعد ذلك.»

«بروس شاتوين» في كتابه «في باتاجونيا».

«هل تريد شرابًا تأخذه إلى غرفتك؟»

كنت قد انتهيت للتو من المشي في حرارة الشمس الحارقة لمسافة واحد وعشرين ميلًا، خلال المنحدرات والتجاويف والممرات المسيَّجة في شمال مدينة «ويلز»، بالتنقُّل من قرية «أبريسوتش» الصغيرة إلى البلدة الأصغر «أبيردارون»، وبالرغم من كون الحانة وغرفة تناول العشاء في فندق «السفينة»، كانوا يعجُّون بصخب الصيادين والفلاحين والعائلات الإنجليزية التي تقضي عطلة نهاية الأسبوع، فإن مالك الفندق تمكَّن من قراءة ما بعيني، فسحب نصف لتر من شراب «المزر» المجهَّز في برميل خشبي المُعَد في مصنع للجَعَّة يبعُد عن الفندق بمسافة أقل من نصف ساعة، ثم خرج بي من غرفة «ساعة ذروة الهرج والمرج في يوم السبت» وقادني إلى غرفة بالأعلى، حيث وجدت أمتعتي بانتظاري، كانت السجادة رَثَّة شيئًا ما والأرضية مائلة قليلًا، لكن النافدة كانت تتأرجح مفتوحة بفعل حركة تلاطُم الأمواج والتشبُّع بملوحة المحيط، إنه يومي الأول في المشي في طريق حج قديم، تنتهي الأرض حيث تتلاقى العادات القديمة مع الانفلات العصري

في مَمَرِّ المشاة، احتسيتُ رشفة ومشيتُ في المطر، على الشباب أن يعتادوا على العادات بذات الطريقة.

أنا الآن في شبه جزيرة «لين» والتي تُعَدُّ لسانًا بحريًّا بالنسبة إلى «ويلز» يمتد بطول ثلاثين ميلًا، وأيضًا تنبسط غربًا إلى حيث البحر الأيرلندي وشمالًا تصل بالكاد إلى جزيرة «أنجلزي»، طلبت مني جريدة «مجلة السفر» أن آخذ عينة صغيرة من «ممر شاطئ ويلز»، وأن أعدو خارج النطاق المحدَّد للمشاة بمقدار المسافة التي يستطيع الفرد أن يقطعها في اليوم، لكن بالنسبة لي فقد كان ذلك بمثابة مهمة بالغة السمو، فهي محاولة للتوضيح الوجودي في مكان يُعَد فيه المشي جزءًا من التكوين البشري، في مكان امتلأ بالطرق المتشكِّلة بالممرَّات العتيقة والمشاهد المبهجة والقرى المرحبة، في مكان حيث العائق الأكبر للاستيعاب هي اللهجة المحلية للسكان هناك، والتي قد تتسبب في حدوث خلع في فكِّك إذا ما حاولت نطقها.

يشير سكان «ويلز» إلى أنفسهم بكلمة «كمري»، في جزيرة «لين» الطريقة الصحيحة لنطقها تكون بدفع اللسان عكس الأسنان العلوية الأمامية مع إحداث صوت شفهي مثل (ك ل ه – ل ي ن) يتحدث أغلب الكمريين اللغة الويلزية، فيتعلم الأطفال لغتهم الأم في المدرسة أو المنزل قبل أن يتعلموا اللغة الإنجليزية نفسها، وهناك اللافتات تجدها مكتوبة باللغتين، الأمر الذي يضفي شعورًا بأنك حقًّا في مكان غريب، وبالرغم من أن لندن تبتعد خمس ساعات فقط عن هنا، فإن المشي هنا أكثر بطئًا وخوفًا؛ فهو تحوُّل مقارب للمقارنة بين العاصمة «أوتاوا» ومنطقة «أتيكاميكو»، وفي هاتين القطعتين المتقاربتين جغرافيًّا والمتباعدتين ثقافيًّا كل شخص مرحِّب بفكرة اكتشاف كل فرد لسحر المكان وتاريخه وجماله، ويمكن تحقيق هذا في جزيرة «لين» على أفضل وجه عن طريق المشي، وكان انعزال شبه الجزيرة هو السبب وراء بقاء اللغة الويليزية وثقافة المشي، كما حافظ على نطاق صغير من الزراعة والصيد وحب للشعر باقٍ حتى الآن.

يقودني الآن «بيتر هيوليت» الذي يمتلك الأدوات اللازمة للرحلة، ولديه شركة سياحة تسمى «على حافة متنزَّهات ويلز»، كان يتكل بنقل معداتي من نقطة وقوف إلى أخرى، كل ما كان عليَّ فعله هو المشي متمهلًا حاملًا حقيبة ظهر خفيفة، على الأقل إلى أن يحين وقت عبور البحر المتلاطم الأمواج.

يرتحل الحجاج إلى جزيرة «باردسي» الصغيرة والمسافة إليها أقل بميلين من تلك إلى «لين» منذ الأيام الأولى للمسيحية للتخلُّص من خطاياهم، يقال: إن منطقة «ينيس إنلي» تحوي مقبرة لعشرين ألف قديس، تعادل ثلاث زيارات لها واحدة لروما، الآن توجد بقايا الكنيسة الأُغسطية الواقعة في جزيرة «باردسي»، والتي تعود للقرن الثالث عشر حيث كان يوجد دير «سيلتك» الذي يعود للقرن السادس، عندما فرض الملك هنري الثامن أوامره الصارمة على الأديِرة في منتصف القرن السادس عشر، تصدى لعدد من الرهبان وقوات الاستطلاع الكَنَسِيَّة وطردوهم واستولوا على أموالهم، فيما بعدُ أصبحت الجزيرة قاعدة للقرصنة ولتهريب البضائع، بعد ذلك بثلاثمائة عام وَجدت مجموعات صغيرة من المزارعين والصيادين في الجزيرة فرصة لهم لجلب الرزق.

ما زالت الخراف والماشية ترعى في مزرعة «باردسي» المسوَّرة بالأحجار، كذلك أسماك مثل سرطان البحر والماكريل وحيوانات أخرى شهية في مياهها المحيطة، القليل فقط من الناس يحتمون بالأكواخ المسقوفة بأحجار الإردواز على مدار السنة، عكس الحجاج الذين يداومون على المجيء، على العشاء في «السفينة» ذاك الفندق الصغير المؤسس في القرن السابع عشر حيث كنت أتناول واحدًا من أسماك سرطان البحر الذي اصطاده شقيق مالك الفندق، أخبرني «هيوليت» أن البعض لا زالوا يمشون بطول شاطئ جزيرة «لين» ويقطعون الممر المؤدي إلى «باردسي» لأغراض عَقَدِيَّة، وأن أغلب نزلائه بالرغم من ذلك يأتون مثلي ساعين إلى التصوف والخلود من خلال المشي الجيد لفترة طويلة.

بدأت طريقي اليوم من جانب ذاك المرفأ التابع لمنتجع قرية «أبير سونتش»، كانت تعتلي ممر المشاة تعريشة من نباتات مثل «حشيشة المكنسة» و«الجولق» والتي امتدت في طريق واحد ملتصق بحافة الأرض الرئيسة في «سلاند»، كانت جميع الحقول مسيَّجة، لكن الشارات الخاصة بمسار ساحل «ويلز» قادتني عبر بوابات ومراقٍ إلى قطعة أرض خاصة، حيث كانت هناك الخراف ترعَى بتكاسل، وطيور العاسوق تحلِّق مع النسيم الآتي من الشاطئ والمراكب الشراعية، وقد اختفى نصفها السفلي تحت المياه الزرقاء، توقفتُ في حقل «راي» أشاهد أوراق النباتات الذهبية تتماوج مع الرياح، لقد شعرت بذلك الانتشاء الذي تملَّك جسدي وعقلي وروحي، وأيضًا ذلك التأثير الذي حفَّز عضلات جسدي وحرَّك معدتي، وذاك الوخز في صدغي وحلقي وشعرت بشيء آخر ... شيء يحدث في أمعائي، شعرت بالعطش.

اعتدت في وطني أن أمشي بكمية مياه تكفي لإطفاء نار مخيَّم، وطعام يكفي لمدة أسبوعين، ربما هي رفاهية السفر ذهابًا وإيابًا التي جعلتني طائشًا هكذا، لكني الآن أحضرت معي فقط لترًا واحدًا من الماء، وعبوتين من المخبوزات سرقتهما من الفندق، بعد المكوث ثلاث ساعات في الشمس الساخنة، جددتُ نشاطي بتمديد جسدي على شاطئ «هيلزماوث بيتش»، وملأت زجاجتي في غرفة الاغتسال في واحدة من الملكيات التي تعود إلى عهد الملكة إليزابيث التي تحوَّلت الآن إلى متحف، وقبل أن أغادر اقتطفت تفاحة من على الشجرة، نزلت وبدأت المشي بين تلك المعالم التي تجدها مطبوعة على البطاقة البريدية لجزيرة «أبيردارون» من مجموعة المباني البيضاء الممتدة فوق الشاطئ الرملي، وتلك السهول الخضراء التي تبدو وكأنها متصلة بالأفق، ووجدتني أبتسم من تذكر قصة الفاكهة المحرمة.

في صباح اليوم التالي وبتشجيع من «هيوليت» المترنِّح من أثر السُّكْر، وكعادتي من الماضي، ذهبت إلى الكنيسة.

إنها كنيسة القديس «هيوين» ذات الصحن الكنسي المزدوج هرمي الشكل، والتي تأسست منذ نحو ألف سنة على هيكل المصلي السلتي، وهي تبعُد عن الفندق مسافة تعادل عبور الطريق فقط، إنها تعلو الأمواج المتلاطمة فقط، «إنه لشيء جميل أنه بإمكاننا استقبال المريدين المسمين للكنيسة»، هذا ما قالته السيدة الوقور «سوزان بلاجدين» وهي تنظر للخارج باتجاه جموع المصلين، وقد ازداد عددهم بأولئك الذين يقضون عطلاتهم في الكنيسة، جلست في المقاعد الخلفية الخشبية، واختبأت خلف زوجين ورضيعهما، وأمعنت النظر في كتيب تاريخي حيث كانت «بلاجدين» تقود المصلين، لعبت الكنيسة دور الملاذ عبر قرون عديدة، كما كانت البلدان العبرية بالنسبة للاجئين، حيث منحت الفرصة للهاربين للمكوث بأمان مع التوصُّل للاتفاق مع خصومهم، ويصبح هذا أمرًا سهلًا في حالة كان عدوك شيخ قبيلة خطرًا، وتُعَد أيضًا وسيلة لمنع مخاوف أكثر خطرًا.

عادت «بلاجدين» لتوها إلى جزيرة «لين» بعد حضورها لتوثيق التجاء، وكانت خطبتها تدور حول حاجتنا إلى ضبط حياتنا المليئة بالمشاغل والتحكم فيها، وجَّهَت سؤالًا للحضور قائلة: «ما الطاقة الكامنة في هواتفكم الذكية؟ إنها فقط تلك الطاقة التي تبثُّونها فيها»، تنبهت أذناي لما أسمعه، فخفضت الكتيب وأنصتُّ لما تقول حيث أكملت قائلة: «في ظل الثقافة الغربية التي نحياها،

نجده أمرًا شديد الصعوبة أن تعرف المقدار الذي يكفي من احتياجاتك»، وأكملت قولها بأنه ليس متاحًا دائمًا أن تذهب في توثيق حدث مثل الالتجاء كما نصحت الإبراشيين بتخصيص وقت يومي تهدأ فيه عقولهم وقلوبهم.

همست لنفسي قائلًا: «آمين» مُبدِيًا التأكيد على ما قالته بدون تهكُّم لأول مرة في حياتي.

واحد من أسلاف «بلاجدين» الذين عاشوا في هذه الكنيسة كان الكاهن «ر.س. توماس» وهو ثاني أشهر شاعر يحصل على هذا اللقب في جزيرة «ويلز»، وكان رجلًا إسبرطيًّا مشهورًا، كان هذا الكاهن يعتقد أن الفلاحين المحليين هم قوم يعيشون على سجيتهم؛ وبالتالي هم أقرب أهل الأرض إلى الله، وتُنسَب إليه قصيدة «أعياد ميلاد للأطفال على جزيرة ويلز»، وكان قد كتب في إحدى قصائده: «إن الأمطار والرياح لأَسياد قاسون، لقد تأخر الوقت، لقد علمتك أن تتغافل عن قسوتهم.»

تسللتُ خارجًا من الكنيسة بعد أن خرجت أيضًا بصحبة ابنها الباكي، وفي خلال ثوانٍ بدأ هطول الأمطار.

كانت نزهتي اليوم حول جزيرة «لين»، وفي طريق العودة مررتُ على جزيرة «آبيردارن» ولم أكترث لكوني مبتلًّا لمعرفتي أن هناك كابينة للاغتسال أخرى في نهاية الممر، كانت أول نقطة أتوقف عندها هي ينبوع «القديسة ماري» المقدَّس، والذي يرتوي منه الحجيج على مدار مئات الأعوام، والذي مثَّل لهم نقطة الأمان الأخيرة قبل البدء في رحلتهم المحفوفة بالمخاطر إلى «باردسي» بالزوارق المجدافية، تحدرت على سُلَّم عميق وزلِق مصنوع من صخور طبيعية، يقع في صدع مسنَّن بعدها سلكت طريقًا ضيقًا أسود الصخور قادني إلى بحيرة صغيرة مثلثة الشكل مغطاة بالطحالب، تطفو فوق دوامة مياه أو لنَقُلْ: تعلقت بين البحر والسماء كما كتب عن ذلك «د. س.» اغترفت قليلًا من المياه الباردة اللذيذة، ثم عدت أنظر إلى الضباب مجددًا.

بعض الناس يمتلئون بالهدوء الداخلي، إنهم يعرفون أنفسهم، لكن من المحتمل أنهم لم يكتشفوا معنى الحياة بعدُ، لكنهم قد كوَّنوا مفهومًا مقبولًا عن حياتهم، حتى وإن كان هذا مجرد نشاط فإنني أغار من ذلك أيضًا، أشعر بإحساس مقارب لذلك حينما أمشي، لكنه إحساس نادرًا ما يستمر.

يشعر أغلبنا بشيء من الضياع والتشوُّش ولو لقليل من الوقت، وهذا بسبب أنه في غير أوقات الانشغال بالاحتياجات الأساسية في الحياة عندما نفقد رغبتنا في النوم أو في وقت أحلام يقظتنا، فإننا نتعجب ونقلق ونشتاق لشيء ما، إن المخلوقات البشرية هي كائنات فضولية بشكل متفرِّد، فهناك خاصية تطورية تُسمَّى «نيوتني» والتي تبقي لنا الصفات الصبيانية حتي نبلغ مرحلة النضج، وعلى عكس بقية الثدييات يظل الإنسان شَغوفًا للمعرفة رغم بلوغه؛ ولذا عندما تتشابك النجوم، وعندما تتاح الفرص، فإننا نمنح أنفسنا الإجازة السبتية ساعة واحدة في اليوم أو عطلة آخر أسبوع طويلة أو تذكرة سفر مفتوحة نركز فقط على حاجاتنا المُلِحَّة الأساسية بهدف تطهير النفس من الآثام.

إن الحَج هو رحلة إلى مكان خاص، إن الكلمات «رحلة وخاص ومكان» لهي كلمات ذاتية تمامًا، وسواء أكان الحج لغرض ديني أو دنيوي، فهو طلب للخلاص من الآثام، وتلمُّس للإلهام والهداية، أو هو مجموع كل هذه الأغراض، ويمكن القول: إنه مجهود خارجي لتحقيق التوازن الداخلي في نفوسنا، فلو ذكرنا الحج عند المسلمين فإننا نراهم يتجهون إلى مكة، والهندوس نجدهم يغتسلون في نهر «الجانج»، واليهود يدفعون بالمصلين إلى حيث الصدوع في حائط المبكى في القدس، والذي عاصر الحرب الفيتنامية من المحتمل أن يستند إلى شاهد الذكريات الجرانيتي الأسود في «واشنطن»، وهواة كرة «البيسبول» يبتاعون التسجيل الصوتي لكتاب «حقل الأحلام»، ويقطعون المسافة إلى متحف «البيسبول الوطني» في «كوبرستاون» تنزُّهًا، وقاد «ستانلي فولان» الحملات التبشيرية من موطن لآخر، وهو الفكر الذي دفعته بعيدًا عن منزل العائلة أو حاولت ذلك على الأقل.

تمنحنا كل ساعات التأمل الشاغرة هذه الفرصة للتأمل الروحاني أثناء الترحُّل مشيًا، ولا نتمكَّن دائمًا من معرفة ما نراه أو ما الذي نراه، ويعتقد الباحثان المُختَصَّان في أصول البشر «إديث وفيكتور ترنر» أن الحجيج يمرون بمرحلة العتبة النفسية التي تضعهم في مرحلة تأمُّل الهويات كيف كانت في الماضي، وكيف ستكون في المستقبل، ويمكن القول: إنه حالة من الاستغراق فيما هو ممكن، هناك علاقة تكافلية بين الرحلة ونقطة الوصول أيضًا، «هناك خيط رفيع بين الاتجاه الرُّوحاني والمادي» هكذا كتب «ربيكا سولنت»، فنحن نعبر مرحلة فارقة في الجغرافيا المعنوية وبرغم الرهبة من فداحة أسئلتنا، فإننا نمضي في الطريق ذاته الذي قطعه أسلافنا معتمدين في ذلك على أقدامنا ونبض قلوبنا.

يتمكَّن النُّسَّاك البوذيون من الوصول لمرحلة التنوير من خلال المشي التأملي، فهم يَعْدُون في الممرات ذهابًا وإيابًا لمسافة لا تزيد عن ثلاثين أو ستين قدمًا، وفي بعض الأحيان يقضون يومًا كاملًا في ذلك، والنهايتان تقويان البنية وتصقلان الوعي؛ حيث النشاط الجسماني يشحذ الذهن ويساعده على الاسترخاء في الوقت ذاته بما يمنحه من طاقة تساعد على التركيز في كل خطوة، «فلو تمكَّنت من التطبيق اليومي لمثل هذه التمرينات العقلية؛ لصار وعيُك متنبهًا ومتقدًا دائمًا، فالتحول من الحياة التقليدية إلى الممارسات التأملية الواعية من الحياة الدنيوية إلى تلك المعنوية بدون تحديد هدف لإنجازه أو وجهة مقصودة، كل ذلك يساعد في الوصول للتحرر العقلي الحقيقي»، هكذا كتب الراهب البوذي «جون كيانكيوس» في جريدة «يوجا جورنال».

القليل منا فقط يستطيع تطبيق مثل هذا الانضباط حيث نتبع قاعدة السير مع القافلة.

ويُعَد طريق إلكامينو دي سانتياجو واحدًا من أقدم وجهات الحج التي تُقصَد مشيًا على الأقدام في العالم، وهي في الحقيقة عبارة عن شبكة متداخلة من الممرات، ونجدها على الخريطة متمثلة فيما يشبه مجموعة من الروافد التي تصبُّ في فرع النهر الرئيس، ويُعَد طريق «كامينو فرانسيس» ذو الخمسمائة ميل وقد تحوَّل إلى الفيلم من إخراج «فولان» سمَّاه «الطريق» وقام فيه الممثل «مارتن شين» بدور الأب المكلوم هو الأكثر ذيوعًا فيهم، ويبدأ طريق القديس يعقوب من منطقة سان جان بييه دو بور في فرنسا، والتي تمر خلال سلسلة جبال «البرانس» في إسبانيا والتي تظل طرق التجارة الرومانية، ويبدأ غربًا بالأراضي الزراعية والغابات والجبال وأيضًا القرى والمدن المُطِلة أو القريبة من الطريق الممهَّد في أغلب الأحيان.

وقال «فرانسيس تابون» الرحَّالة المتحدِّر من كاليفورنيا الذي جاب خلال الولايات المتحدة أربع مرات كما فعل في أفريقيا ووسط أمريكا وأوروبا عن طرق «الكامينو» انهمر المشاة الأكثر طولًا على وجه الأرض بشكل يفوق المعدَّلات المعروفة، كما كتب بعد أن أتم رحلته: «95% من الوقت كنت أستمع إلى الزحام المروري، ومع ما مررتُ به من الأعداد التي لا حصر لها من الحانات والمطاعم والفنادق والماكينات التي تتعامل بالعملة والأفواج السياحية، كل ذلك جعل من الصعب أن تنتزع نفسك من العالم الواقعي»، وبينما أظهر «تابون» إعجابه بالقوة الذهنية المتطلبة لإنهاء المشي في طريق «الكامينو»، إلا أن كتاباته النقدية لاقت هجومًا بشكل كبير من المعلِّقين الذين يمثل لهم المشي علامة البقاء على قيد الحياة.

بعد مرور شهر تقريبًا من المشي في الممر، مَرَّ الحجاج من أبواب الكاتدرائية الموجودة في بلدة «سانتياجو دي كومبوستيلا» والتي اكتُشِف فيها رفات القديس «جايمس الأكبر»، وهو واحد من الاثني عشر حواريًّا التابعين للنبي عيسى، وكان ذلك عام 813 ميلاديًّا، بعض الحجيج أكملوا الستين ميلًا وصولًا إلى قمة صخرة «كييب فينيستر»، وهي التي كانت تعدها القبائل السلتية قديمًا نهاية العالم، وكما كانت الرحلة إلى جزيرة «باردسي» فقد فضَّل الحجاج إلى «كامينو» أن يسلكوا الطرق التي سبقهم إليها الآخرون.

يقدم كتاب «كوديكس كاليكستينيوس» وهو مجموعة مخطوطات توضيحية تعود للقرن الثاني عشر الميلادي قام بتجميعها الرهبان الفرنسيون توجيهًا في كيفية الوصول إلى «سان تياجو»، حيث يُعَد الكتاب الإرشادي الأول في أوروبا الذي كان السبب وراء بعث أفواج من المشاة إلى إسبانيا، حاول ملايين المشاة تجربة الوصول إلى «كامينو» في القرون الوسطى، حيث كانت هذه هي الحركة الأضخم في أوروبا في ذلك الوقت، كانت هذه وجهة مناسبة حيث الوصول لها أسهل من الوصول إلى القدس، وبالنسبة إلى البعض ويعتمد هذا على النقطة التي يبدءون المشي منها هي أسهل في الوصول إليها من روما، لكن حروب القرون الوسطى والكوارث التابعة لها أوقفت سيل الوافدين بما صحبهم من صراعات عصرية، ولكن بالرغم من تراجع الوازع الديني في المجتمع المسيحي في كثير من مناطق العالم الغربي إلا أن عدد العُبَّاد يزداد في السنوات الأخيرة، وساعد على ذلك الأسعار الرخيصة لتذاكر السفر وانتشار عدد من الكتب منها كتاب «الحج» لباولو كويلو الصادر في عام 1987، وهي الرواية التي توجَّهت بالحديث إلى المخرج «فولانت» عن قرب، تفسير الكاتب البريطاني «توم مووري» المختص في أدب الارتحال؛ لقيامه بالمشي بمرافقة حمار من الممكن ألا يكون قد ألهم الحشود من المقلدين، لكن كتاب السيرة الذاتية في أدب الرحلات الذي قدمته الممثلة «شيرلي ماكلاين» باسم «كامينو» بالتأكيد قد زاد لأكثر من 215 ألف حاج أكملوا مشيَهم إلى أن وصلوا إلى ضريح القديس «جايمس» في عام 2013، أي ثلاثة أضعاف عدد الحجيج في العقد الماضي.

يتوجَّه المسلمون كل عام إلى مكة لأداء الحج بعدد نحو ثلاثة ملايين نسمة، حيث إنه يتعين على كل مسلم مُعافًى بَدَنِيًّا زيارة المدينة السعودية «مكة المكرمة» على الأقل مرة واحدة في عمره، ويُعَد هذا مظهرًا من مظاهر التماسك في الدين الإسلامي والاستجابة إلى الله، يستخدم أغلب الحجيج

المسلمين الطائرة أو القطار أو السيارات للوصول إلى هناك والقليلون هم من يقطعون آلاف الأميال مشيًا لكن جوهر تلك الشريعة يتضمن المشي سبعَ مرات عكس عقارب الساعة حول الكعبة، ذلك المبنى المتكعِّب في وسط المسجد الحرام، فالصور تنقل هيئة المصلين وكأنه محيط من البشر قد ارتدَوْا ذاك الزي الأبيض البسيط، بغَضِّ النظر عن مدى ثرائهم أو حالتهم المعيشية؛ فذلك الطواف يعكس التوحد والوَحدة، فكل مرة من تلك السبع تمثل طورًا من أطوار حياتنا، وتكرر الترتيب الطبيعي للكون كما تدور النباتات حول الشمس والإلكترونات حول النواة.

وبالنظر إلى احتفالات «كومبا ميلا» الهندوسية، نجد عددهم قد فاق عدد المصلين في الكعبة، وهو ذاك الطقس الذي يغطس فيه الهندوس في النهر المقدَّس الذي يمتد في أربعة مواقع في شماليِّ الهند، وقد بلغ عدد الحجاج في «الله آباد» في عام 2013 عندما التقى كل من نهر الجانج ونهر يمنا ونهر ساراسواتي مائة مليون فرد، في اليوم الواحد كان يغطس قرابة الثلاثين مليونًا حيث التجمع الأكبر على وجه الأرض، تتكون مدينة الخيام أثناء احتفالات «كومبا ميلا»، وفي الليل تكون درجة الحرارة بالكاد فوق درجة التجمُّد، وكان التخلص من الفضلات وإجراءات الحفاظ على الصحة العامة يتم بطرق بدائية، وهذا ما أدى إلى تفشِّي أوبئة مثل الكوليرا والتهاب السحايا، والضوضاء، حيث كان التعرُّض اليومي لنحو 85 ديسيبل من الضجيج لَقدر كافٍ لإحداث اعتلال في السمع قد يصل إلى الفَقد، ومات ثلاثة وستون في حادثة فرار جماعي في محطة قطار «الله آباد» في عام 2013، وهو ما يُعَد مخاطرة معتادة، حتى في السنوات التي حضر فيها نحو عشرة ملايين من الناس.

ظاهريًّا تبدو الأوضاع في «كومبا ميلا» خطرة أو على الأقل محفوفة بالضغوط، حيث ارتحل عشرون مليون شخص بعيدًا عن أصدقائهم وأقاربهم ليشهدوا أكبر حدث تعميدي في العالم، بحيث قد يستغرق الأمر ثلاث ساعات للمشي بقدر ميل واحدٍ في هذا الزحام، هذا ولكن بالرغم من ذلك يغادر الحجيج وقد تملَّكَهم الشعور بالسكينة والرضا، وذلك طبقًا لما قاله «ستيفن رييتشر» ذلك الباحث النفسي في جامعة «القديس آندرو»، والذي قاد مشروع بحث استغرق ست سنوات عن طقوس «كومبا ميلا»؛ حيث تجد المشاركين قد اكتسبوا هُوِيَّة مشتركة يتدفَّقون برفق، ويقدِّرون العلاقات الاجتماعية أكثر من الهندوسيين الذين قبعوا في منازلهم.

بالرغم من كونه يتعارض مع التأمل فإن الاحتشاد بشكل عام يمنح الناس شعورًا طيبًا، حيث نتبادل سويًّا الثقة والاحترام والتعاون، فدعم الآخرين لنا يساعدنا حتى نصبح أكثر مرونة، فبالرغم من الأوضاع في «كومبا ميلا» فإن الحجاج يكتسبون صحة جسدية أفضل بعد الانتهاء من الطقوس، وقد يكون أحد العوامل وراء ذلك هو اعتلاء الفكر على ما يقع من أحداث، ولكن وضح أيضًا «ريبتشر» في البحث الخاص به أن هناك عاملًا آخر، وهو «قدرة الخبرات المكتسَبة على تغيير طريقة العيش اليومية» وهذا ما صرح به لجريدة «الجارديان»، وأكمل قائلًا: «فهي تعرض كيف أن الشعور بالهوية المشترَكة يضع حجر الأساس في تشكيل الإحساس بالوطن المشترك، ويساعد على التحضر الذين قد قيل عنهما الكثير.»

بالمقارنة مع احتشاد «الكومبا ميلا» والحج الإسلامي، نجد أن الحج إلى «كامينو» يُعَد مشيًا في السحاب، من الممكن أنها لا تبعدك عن عالم اللوحات الإعلانية والأبراج التي تحولت إلى استخدام الكهرباء والمؤسسات الصناعية، لكنها تجعلك بالقرب من البلدان والمدن وشبكة متاحة من فنادق «البيرجوي» الخاصة بالحجاج والأكواخ الجبلية التي تُقدِّم وجبات وأسِرَّة نوم رخيصة، وهو ما يلقي عن عاتقك عبء حمل أشياء ثقيلة، وهو الأمر الذي يساعد في تكوين نوع من الصداقة الحميمة في نُزُل الشباب، بشرط أن تتحمل صديقك وهو يغُطُّ في نومه، فمن المحتمل أن تتشاركوا في محادثات لطيفة أو في الوجبات، يمكنكم حتى التحالف ضد الغرباء الثملين، أو أن تنقَضَّ عليه بمفردك، هذا يتوقف على مدى التآلف بينكم، ما لم تكن ساعيًا لطريق التنوير بمفردك، فإن أسباب الاستمتاع هذه ستكون بمثابة إغراء كبير لك، حيث إنها لَمشقَّةٌ كبيرة أن تمارس رياضة المشي لمسافة طويلة بين نقطتين محدَّدتيْن مسبقًا في ممر في طريق الأبالاش، أو أن تمشي في أمريكا عامة.

وقالت عن مثل هذا التجمع «إلين بادون» الباحثة في علم أصول البشر والأستاذة في الدراسات الدينية في جامعة «ماك ماستر»: «في مثل هذا المكان يمكنك التوصل إلى علاقات إنسانية مباشرة لا تَعتدُّ بالفروق بين البشر؛ ولذا سرعان ما يتواصلون في علاقات حميمة فيما بينهم»، كما أنها في كتابها عن الحج إلى كامينو «رحلات شيقة: البحث في أصول البشر فيما يخص الحج والسياحة» كتبت قائلة: «إن المشي في مثل هذه الأجواء الاستثنائية ينتج عنه علاقات غير عادية أيضًا».

قرر «جايديون لويس كراوس» ممارسة الكامينو في وقت السُّكْر والصخب في «إستونيا»، وكان صديقه الذي يزوره هو المؤلف الأمريكي «توم بيسل» الذي يقوم بعمل أبحاث على مقابر الاثني عشر حواريًّا، ووافق «لويس كراوس» وهو ذاك الكاتب المتقد النشاط منذ أواخر العشرينات من عمره، والذي انتقل من «سان فرانسيسكو» إلى حيث الحريات المطلقة في «برلين» كوسيلة وقائية لتجنُّب الندم المستقبلي أن يرافقه، في أثناء الاستراحات الليلية وفي ممر «بيرينس» كان يتدلَّى كلاهما ويتطلعون بطريقة غير رسمية إلى عشرات الحجاج، فوجدوا أكثرهم صغار السن قادمين من أوروبا وشمال أمريكا، البعض منهم جاء بدافع ديني والبعض الآخر ومنهم «لويس كراوس» المنتمي لأبوين من أحبار اليهود يمكنه أن يفسر السبب وراء مشيهم، هذا ولكن ما زالت الخبرة بداخله كافية لأن تحمله إلى رحلة أكثر عمقًا.

وفي كتابه «الإحساس بالاتجاهات: الحج إلى حيث الاستمرارية والأمل» كتب «لويس كراوس» عن المشي عبر إسبانيا وهي السبعمائة والخمسون ميلًا التالية من المشي الدوري بين ثمانية وثمانين معبدًا بوذيًّا في جزيرة «شي كوكو» اليابانية، والزيارة التي قام بها بصحبة أخيه ووالده إلى مدينة «أومان» الأوكرانية في أثناء موسم الحج السنوي «روش هشنه» لزيارة ضريح «هاسيديك» الغامض، الكتاب الذي يتضمن أبحاثًا فلسفية تجمع محاضرات مصورة للرحلات؛ يجسد السعادة والألم أثناء الحج إلى «كامينو»، وأيضًا يصور الطريق الأكثر بردًا وتوحُّدًا الذي نمشيه لإدراك الحج في «شي كووكو»، كما يقترح المجال لمناقشة العلاقة المضطربة بين «لويس كراوس» مع والده الذي خرج من معزله في منتصف أربعينياته ليقطع أمل العائلة في تعويض سنوات الفَقد التي عاشوها، كل هذا يجتمع في نظرة تأملية في طبيعة الحج.

تصف المؤلفات الأكاديمية هذه الرحلات على أنها «خبرات شعائرية تمثل الخروج عن التنظيم المألوف لحياتنا اليومية، يمكن للحج أن يتحول بعيدًا عن كل القواعد ويتجسد كشخص، شخص ليس له مسؤوليات أو توقعات أو قيود غير المُضِي قُدُمًا نحو هدف بعيد المنال» هكذا قال «لويس-كاروس»، ويرى «سينيك» «الكامينو» المعاصر على أنها رحلات قصيرة رخيصة، لكنه تناقش في أن الاحتكام لا بد أن يكون إلى «الاستمرار الشعائري» الذي يحدِّد طريقة السفر نفسها، فلو كان النموذج الديني هو الإثم والتكفير عنه والخلاص منه، فإن العمل المناظر لذلك سيؤدي إلى القلق، ثم إلى التزمُّت ثم إلى الغفران، في النهاية بالرغم من أنه هو و«بيسل» ومرافقيهم الرحلة قد صاحوا وتعانقوا في مشهد يشبه الدوار العاطفي عندما دلفوا إلى كاتدرائية «سان تياجو دو

كومبوستيلا» فإن السؤال بقي في ذهن «لويس كاروس»، وهو «ماذا بعد أن قطعنا خمسمائة ميل من المشي؟»

هناك بعض الحجاج الذين لا يتوقفون أبدًا للراحة، في أول أيام عام 1953 اتجهت المرأة ذات الأربعة والأربعين عامًا «ميلدرد ريدر» من باسادينا في كاليفورنيا إلى نيويورك مشيًا على الأقدام، وقتها كانت الولايات الأمريكية قد تورطت في الحرب الكورية والحرب الباردة والحركة المكارثية، وأرادت «ريدر» التي ارتدت قميصًا أزرق كُتِبَ عليه من الأمام بحروف بيضاء كبيرة «الحج السلمي» أن تنفض عن الناس حالة اللامبالاة التي هم بها، وكتبت أن «الإنسانية عندما تخطو بخُطًى خائفة ومضطربة، فكأنها تمشي على حافَة سكين بين الشتات اللامتناهي والنهضة الحديثة، وبينما السلطات القوية تدفعنا إلى التشوُّش فإنه ما زال هناك أمل».

هناك سلسلة من الأسرار كانت هي بداية تحول «ريدر» إلى «الحج السلمي»، فبعد أن تربَّت في وسط فقير في مزرعة الدواجن الخاصة بوالديها في ولاية «نيوجيرسي» بعيدًا عن الكنيسة، فقد عملت بوظائف سرية، وتزوجت من رجل أعمال في عام 1938، وحينما تحيرت بشأن الحالة المزدهرة لأقاربها أثناء فترة الانهيار الكبير التي بدأت في أمريكا، اعتادت الكاتبة على المشي ليلًا في الغابات داعية الله أن يهديها، في هذه الأثناء غلَّفَتْها حالة من السلام العميق جعلتها تهب حياتها للعطاء وليس للأخذ.

استُدعِي زوج «ريدر» في الجيش بعد الهجوم على الميناء البحري «بيرل هاربر»، لكنها رفضت أن تصحبه إلى معسكر التدريب، وباعدت بينهما فترة بقائه في البحر مما أدى لانفصالهما بعد فترة قليلة، عملت على تبسيط حياتها فاختزلت عدد ملابسها بحيث تملَّكت فستانين فقط، وأقلعت عن أكل اللحوم وبدأت رحلاتها في البرية، وفي عام 1952 أصبحت أول امرأة تقطع ممر الأبالاش كاملًا في موسم واحد، وكانت لها رؤية حينما زارت التل المطل على «نيو إنجلاند»، حيث قالت: «رأيت خريطة للولايات المتحدة التي تبرز أكبر البلدان، وكانت كأن أحدهم قد أمسك بقلم ملوَّن ورسم خطًّا متعرجًا خلالها من ساحل إلى ساحل ومن تخم إلى آخر ... وقتها عرفت ما ينبغي عليَّ فعله، سأخبر كل من يستمع إليَّ عن الطريق إلى السلام.»

غادرت «ريدر» جزيرة «باسادينا» بدون أية أموال، فقررت أن تصوم إلى أن تتكسَّب قُوتَها ولن تتوقف إلى أن تحصل على مأوى، على مدار الثمانية والعشرين عامًا التالية كانت المرأة النحيلة

ذات الشعر الأبيض التي تعلو على الخمسة أقدام طولًا بقليل قد عبرت البلدة سبع مرات، فكانت تهاجر إلى الشمال صيفًا وإلى الجنوب شتاءً؛ لتقود المغامرات في كندا والمكسيك، وفي الوقت الذي لم تجدْ فيه من يُؤويها كانت تنام في الحقول وتحت الكباري وفي أنابيب الصرف الصحي وعلى جوانب الطرقات وحتى في المقابر والمحطة المركزية الكبرى في نيويورك، قدمت عروضًا في مراكز التواصل الاجتماعي والكنائس والمدارس وحتى في المنازل، وقدمت نفسها من خلال هذه المناقشات إلى أولئك الذين لا يعرفونها أثناء المشي بجانب الطرقات السريعة مثل الطريق إلى الحج، فكانت تقول: «إن المشي لا يكون من أجل الوصول لجهة بعينها، إنما بهدف التوصُّل لفكرة ما»، وكتبت عنها «مارثا دانيال» الكاتبة في مجال السير الذاتية قائلة: «تضمن تعريفها للسلام ذاك السلام بين الشعوب والجماعات والأفراد، وأهم أنواعه كما تعتقد الكاتبة هو السلام الداخلي للفرد والذي به يستطيع الفرد الوصول لأنواع السلام الأخرى»، وصرحت «ريدر» أن الناس بحاجة إلى شيئين ليحيوا حياة ذات معنًى: الأول هو النداء أو المشاركة في برنامج التطوع ببعض الوقت لإسداء خدمات للآخرين، وشيء آخر إما الدين أو الفن أو الطبيعة، حيث بإمكان أيٍّ منهم «إيقاظ الفطرة السليمة الكامنة بداخل الناس».

سجلت نهاية الحج السلمي في عام 1964 الأميال التي قطعتها «ريدر» 25000 ميلًا من المشي، وبتقدير «دانيال» على اعتبار أن تسعة وعشرين زوجًا من حذاء سنيكرز سيقطع كل منها 1500ميل تقريبًا فقد أنجزت 500.43 ميل بنهاية 1981، في هذه السنة وبسبب زيادة الإقبال على الحج وزيادة عدد السيارات في المنطقة اصطدمت السيارة التي كانت تقودها من الجهة العلوية بسيارة أخرى خارج شركة «نوكس» بإنديانا، ولفظت «ريدر» أنفاسها الأخيرة بعد التصادم مباشرة.

كان منهج المشي الذي اعتنقته مؤخرًا «ميلدريد ريدر» سابقًا لزمنه، وقد أنذرت «ريدر» بتحوُّل في الحج من كونه دعوى للتغير الديني فأصبح الحج بمثابة دعوى للتغيير السياسي، وبالرغم من مجيئها بعد «غاندي» فإنها سبقته في تدشين فترة الحقوق المدنية وميلاد المسيرات الخيرية، والاندماج المتواصل لسابقات المشي الشخصية مع المسيرات المعارضة، فكلاهما ينادي للوصول بالعالم للصورة التي يجب أن يكون عليها، هذا ما كتبته عنها «سولنت».

لا يمكننا التحرك المتواصل بشكل متوافق، حتى في رحلات الحج التي تستغرق مسافات طويلة تكون المسافة التي عليهم قطعها محددة مسبقًا، ففي منتصف أربعينيات عمره في محاولة لتحدي أزمات منتصف العمر التي يمر بها قام «جين بوليفيي» لاعب الهوكي المونتريالي بإغلاق مشروعه المخصَّص لصناعة اللافتات النيون، وعبَّأ ثلاث عربات قائمة على عجلات، عبأهم بالمأكولات والملابس وخيمة وملابس لنوم، وفي 18 أغسطس من عام 2000 قبَّل زوجته وأبناءه مغادرًا البلدة متجها إلى رحلة مشي حول العالم كرَّسها للتنديد بفكرة العنف ضد أطفال العالم، قد يبدو الأمر خياليًّا إلا أن العقد الأول من القرن الحادي والعشرين كان هو العقد العالمي الذي حددته الأمم المتحدة لنشر ثقافة السلام وللتنديد بالعنف ضد الأطفال في كل نواحي العالم، كانت زوجته أيضًا تسافر جوًّا لرؤيته من وقت لآخر، كان قد اقترب وقت رحيل «بوليفيي» من «أثيوبيا» لإجراء جراحة بروستاتا عاجلة في «الجريا»، حيث هناك قابل «نيلسون مانديلا» وثلاثة آخرين حاصلين على جائزة نوبل للسلام، وتعلم الكثير من الفلاحين الذين قضى الوقت بصحبتهم في القرى الفقيرة مثل «بيرو» و«موزمبيق»، وكانت له مقولة وجَّهها لمُحاور قبل ذلك في هذا الصدد يقول فيها: «من نكون نحن لنعلمهم؟! نحن ندمر كوكبنا ونزيد من ضغوط مجتمعنا؛ لذا فقد حان الوقت لنتعلم منهم.»

بعد عودته إلى مونتريال بعد أن استغرق أحد عشر عامًا يمشي 46000 ميل كانت له مقولة أيضًا وهي: «لا تسيروا على نهجي واصنعوا لكم طريقًا خاصًّا.»

كان «بول سالوبيك» في طريقه ليبدأ حجًّا صحافيًّا، ففي عام 2013 كان الكاتب التابع لمجلة «ناشيونال جيوغرافيك» قد بدأ رحلة السبع سنوات للمشي لمسافة 21000 ميل تبدأ من أثيوبيا وتنتهي في «تييرا دل فيجو»، كما قال معلِّقًا على رحلته «إنها بمثابة استعادة ذكرى الارتحال في أنحاء العالم على الأقدام التي قام بها أجدادنا»، كان مشروعه المُسمَّى «الخروج من جنة عدن» يهدف إلى وضع عناوين للقصص الرئيسة المتعلقة بنظرية أن الإنسان هو محور الكون من التغير المُناخي إلى التطور التكنولوجي وما تبقى من الثقافات، من نقاط الاستراحة التي مَرَّ بها في طريقه كانت الضفة الغربية وكان ذلك أثناء الاعتداء الإسرائيلي على غزة والجزر المقسمة لقبرص، أيضًا هو ذاك المصور الذي فاز مرتين بجائزة بوليتزر للتصوير وهو المراسل الأجنبي المخضرم الذي بدأ يعتقد أن ممارسة الهبوط بالمظلة في منطقة حرب لتغطية حدود الصراع الدائر لأمر من شأنه

تقييد انطباعاتك، لكن بدلًا من ذلك ومن خلال المُضِي ببطء في أرجاء العالم يأمل المصور في اكتشاف الصلات بين القصص التي يتم تغطيتها بالطرق المنفصلة والمتقطعة لوسائل الإعلام.

قال «سالوبيك»: إن الشيء الأكثر أهمية الذي من الممكن أن يجده الناس مبالغًا فيه هو القدرة على الانتظار، وهو الأمر الذي يبدو أن سكان الشمال يرونه غير مفهوم بشكل متزايد، حيث إن «القدرة على المكوث أسفل الشجرة في انتظار حدث ما، إنها طريقة لفهم عالمنا الآخذ في التباعد حيث بات تحكم علاقاته الأسلاك الكهربائية».

أدرك «سالوبيك» أنه من الممكن ألا يستطيع الاستمرار على الطريق لمدة سبع سنوات؛ لذا كان عليه التنازل عن المشي في بضع نقاط، فرحلات الحج لا تسير دائمًا كما هو مخطط لها، فمن الممكن أن يصيبك إعياء أو جروح أو تعرُّض لأي هجوم في طريقك أو أن تدرك أنك تمشي في المسار الخاطئ.

حيثما يوجد من يشبه «جين بيليفيي» يوجد عشرات من أمثال «دارل واتسون»، ذاك الكاتب المسرحي الأمريكي الذي كان مهووسًا بفكرة «استبيان المهمة التي خُلِق من أجلها»، والذي كان وَرِعًا في مراهقته، لكنه الآن غادر الكنيسة، ولمدة عام كامل ظل يصارع الخوف والشك، ويحلُم فعليًّا كل ليلة في الغرض من وجوده على الأرض؛ ولذا فقد استعار اسمًا جديدًا لنفسه في عام 2009 «حاجُّ السلام»، وغادر من «ديلاوير» إلى «سان فرانسيسكو» في مسيرة مشي استغرقت ستة أشهر للبحث عن صلة متجددة بينه وبين الرب.

ولكي يشبه الاسم الذي لقَّب به نفسه فقد تنازل «واتسون» عن كل ممتلكاته، فوضع كل أمواله في ظرف مغلق وكتب عليه «وقف للأعمال الخيرية»، ووضعه في صندوق البريد، وقد كتب في هذا الصدد في جزء عارض من قصيدة «هذه هي الحياة الأمريكية» قائلًا: «لِمَ لا يتخلص عدد أكبر من الناس من كل ما يملكونه ويخرجون للمشي عبر البلدة؟» في محاولة منه لصبغ قراره المندفع بصبغة المنطق، وكان يقول: «عندما تعيش في هذا العالم، بما فيه من صور الخلل، فهذا ما سوف تفعله.»

في أول أيام رحلته، نام «واتسون» على الإسمنت البارد خارج الكنيسة الكاثوليكية، وفي ليلته الثانية استلقى في الزورق الخشبي المعيني الشكل الخاص بفريق الجامعة لكرة البيسبول ملتفًّا

بقطعة من قماش «الاسترترف»، وفي ليلته الثالثة ومتأثرًا بالبرد والإرهاق والأوجاع قد استسلم «واتسون» وقص منتحبًا قصته للمدير الليلي للفندق «الأفضل في الغرب» الواقع على جانب الطرق السريع ثم هاتَف والدته التي استأجرت له غرفة، وبالاستجمام في مغتَسَل ساخن أدرك أن التساؤلات المعجزة التي كانت تعذبه في السابق لم تَعُد مُلِحَّة كما كانت، وقال معقِّبًا: «عندما غدوت مجهدًا لم أعُدْ أبالي بالوصول للإجابات فلم تَعُد ذات أهمية.»

في فجر عيد ميلادي الخامس والثلاثين، حينما كنت أعيش في «أدمنتون» خرجت من الشرفة الأمامية لمنزلنا للتنزُّه في وسط عاصفة من عواصف أغسطس الرعدية، في محاولة لبدء الإبحار لمدة سبعة أيام حول ممر «وسكاهيجن» ذا المئتي ميل، (لقد كان المقياس الأخير قاسيًا، فلو بذلت مجهودًا في تصوير شيء غير مفهوم فسوف تقتلني «ليسا»).

استغرقت ثلاث ساعات لأصل إلى الحد الشمالي للبلدة سالكًا طريقًا منحدرة حتى وصلت للطريق السريع الرئيس المؤدي إلى «كالجاري»، وهناك قادني سائق سيارة أجرة يُسمَّى «جال» في مسيرة عشرة أميال في طريق مستقيم يؤدي إلى أول مشروع ممرات رسمي، وأخبرني السائق بأنه يتعين عليَّ أن «أمشي في ممر الساحل الغربي بدلًا من ذلك»، واصفًا المواجهة بين الدب والكوجر في غابات «باسيفيك رم» المطيرة بأنها «هذه هي الحياة البَرِّيَّة».

لكنني بعد أن أنهيت الطريق الممهدة وبدأت المشي بطول الساحل الخاص بواحدة من تلك البقاع الوحِلة قليلة المياه التي يسمونها قوم المرج بحيرة، حيث رأيت البجع يرفرف بشكل منظم فوق رأسي، والبط يخرج متسارعًا باتِّجاه حافة المياه، أيضًا كان هناك البلشون الرمادي بالكاد يحاول أن يطير، كما سمعت أصوات صياح الصقور، ورأيت الدببة وهي تقفز ونقار الخشب المقنزع رأيته يؤدي عمله، وقذفت الطواحين نبات القراص فوق رأسي كما أسقطته بغزارة فوق مرعَى الأبقار، بعد ذلك لم أعد أشم رائحة القصعين والراسبيري.

في هذه الليلة وبعد المشي لأكثر من ثلاثين ميلًا جلست مع عائلة تمتلك مزرعة، ويمُر الممشى من خلال أرضهم، سحبني «ليود سكنيك» من حقل الشعير الخاص بجاره لقد تهاتفنا منذ أيام قليلة، وعرض عليَّ زيارته وقامت زوجته «شارلن» بتجهيز وجبة دجاج مع البنجر والبطاطس والبازلاء المزروعة لديهم، وأشارت عليَّ بالمكوث في الغرفة الإضافية في الطابق الأول وأن أضع ثيابي المنقوعة في المجفِّف، ثم في الصباح، وبعد تناول اللحم المقدَّد والبيض على الإفطار، سيكون

من نصيبي كمية كبيرة من فطائر زبدة الفول السوداني، اصطحباني إلى حيث البحيرة الواقعة أسفل مزرعتهم، وودَّعاني عند نقطة ناتئة باتجاه المياه حيث تسلقت المرقَى المؤدِّي إلى المزرعة التالية.

بفضل نبل أخلاقهم تمكَّنت من الوصول إلى هذه الحالة النفسية التي وصفها «إديث وفيكتور ترنر»، فقد شعرت بالقرابة والارتباط، وبعد فترة قريبة بالألم، وفي خلال ساعة بدأت أشعر بألم في ركبتي اليمنى، ولسوء الحظ شعرت به في ظهري وأكتافي، فحملي لشنطة ظهر بالغة الثقل بغير ضرورة كانت تحوي روايتين أو روايتين ذاتا غلاف سميك لن تكون عاقبته أفضل من ذلك، والمرور بالشَّرَك المُحكَم في الممر المتمثِّل في الإعصار الواقع مؤخَّرًا بات أمرًا قريبًا، وحذائي القديم أصبح مملوءًا بالمياه بشكل يعوق حركتي، وبحلول المساء كنت تحت تأثير عقار البروفين، وفي تمام الثالثة عصرًا اكتشفت أن هناك خطأً حسابيًّا قد وقعت فيه، وهو أن بلدة «كامروز» تلك التي انتويت قضاء ليلتي فيها ما زال أمامي خمسة وعشرون ميلًا لأصل إليها.

تساءلت: «ما النقطة التي أعود أواصل منها المشي في حال كوني متعبًا؟» أعدت التفكير في شيء كان قد أخبرني به أحد مؤسسي الممر عندما كنت أسأله عن تفاصيل الطريق، وقال لي: «بالتأكيد يمكنك أن تنجز الأشياء كلها في مسيرة مشية واحدة، ولكني أفضِّل أخذ الوقت الكافي الذي يمكنني من الاستمتاع حقًّا بالطريق.»

وبخيبة أمل هاتفت «ليسا» سائلًا عن طريق العودة، وبالرغم من أنني مشيت طريق «وسكاهيجان» على مدار ثلاثة أشهُر فكل الدروس التي تعلمتها قد نسيتها من قريب.

بوضع خطة للوصول إلى منزل عائلتي كانت النتيجة هي المشي لمدة أربعة أيام أقطع خلالها مائة وأربعة عشر ميلًا، تخيلت نفسي ماشيًا وسط أوراق الشجر اللامعة في فصل الخريف، وألوك غُصَين القش وأقيل أسفل تعريشات البلوط والدردار، وبجانب كل هذه الفوضى ارتكبت أخطاءً أخرى مثل حملي للكثير من الملابس والأطعمة والأحذية الجديدة، وفي اليوم الثاني ازداد عدد الأميال التي عليَّ قطعها بسبب سلوكي لطرق عن طريق الخطأ، مما أدَّى إلى سوء حالة القُرَح التي أُصِبْتُ بها، وبصعوبة بالغة أكلت شطائر زبدة الفول السوداني المسحوقة أثناء اجتيازي لصف من المزارع وشاحنات نقل البطاطس، كانت هناك آثار من النعيم كلما توقفت عن المشي، فعلى سبيل المثال: ما شعرت به أثناء الرحلة التي استهلكت فيها حذاءين والتي خططت لها مؤخرًا، ولاجتياز بحيرة «بالسم» قادني مالك أحد الأحواض المائية والبالغ من العمر أربعة وثمانين عامًا

بعد ما شاركته هو وفريق عمله في تناول القهوة وقصُّوا لي قصصًا عن الرحلات التي أبحروها، في الصباح الباكر لليوم التالي استأجرت منزلًا من شاب مراهق يمتهن تأجير المساكن يطل على نهر «جال» الغامض، حيث ترجلت من السفينة إلى الرصيف الواقع بجانب كوبري وسط البلد، وبدأت التنزُّه مشيًا على قدميَّ.

بعد أن عرجت باتجاه الشمال نزولًا عند قراري في الاستسلام، أدركت أنني وللمرة الثانية كنت قد وضعت خطة للمشي لمسافات بعيدة جدًّا وبسرعة عالية، وبغضِّ النظر عن المجهود المضني الذي تستهلكه الرحلة، إنه من الصعب أن تتفكر في المعنى وراء أي شيء إذا كنت تركز في عدد الأميال التي تقطعها وظلمة الليل التي لاحت في الأفق.

وأخيرًا ها هي «ليسا»، قابلتني عند المنزل برفقة ابنتنا، والتي أمدتني بالإعانة الإلهية حينما أحْضَرَت لي خُفَّين، حيث لن تحتمل قدماي سواه.

حاول «جورج مالوري» الصعود لقمة «إفرست»؛ لأنها كانت هناك، كان تركيزه منصبًّا على القمة، لكنه مات أثناء محاولته الثالثة للصعود.

ممر الكامينو أو ذاك الشاطئ البعيد في البلدة الواسعة أو أي رحلة تستمر لمسافة طويلة تهفو لها الروح، كل هذه الصور لها نفس الجاذبية، هناك أجد ما أرنو إليه وهناك أجد نفسي، فأثناء المشي ستكشف عن شيء ما أو كما يقول التعبير اللاتيني «حُلَّت بالمشي».

وفي كتابه «كيف الطريق: حج المروج خلال الطبيعة والرغبة والروح»، قام الكاتب في شؤون الطبيعة «تريفور هيريوت» بعرض لتاريخ حج قطع لمسافات بسيطة، ولكن كان الهدف من ورائها عميقًا، لقد قام من منزله الواقع في بلدة ريجينا بتصوير مشهد المشي لأربعين ميلًا على مدار ثلاثة أيام حتى تصل إلى بقعة أرض تقع غرب البلدة التي تمتلك فيها عائلته كوخًا صغيرًا له حديقة كبيرة، تكشف أغلب كتابات «هيريوت» مراحل الحياة المزدهرة التي استمرت في الأراضي الزراعية المحصودة والوديان المترامية على ضفاف الأنهار؛ وذلك للتركيز على الجبال الشامخة أو المحيطات التي تحدُّ الدولة، مثل هذه الصور التي تعمَّد بقيتُنا تجاهلها، هذا النوع من المشي يمثِّل عودة للأرض المألوفة والحياة البرِّيَّة الوديعة في موطنه «ساسكاتشيون»، حيث الآن فقط حينما بلغ أوائل الخمسينيات من عمره، انصبَّ تركيزه على المعالم الداخلية لبلده، وأثناء تعافيه من كسر

بالظهر بسبب الانزلاق الخاطئ من أعلى السُّلَّم، وقلقه بشأن الدمار المُحدِق بالطبيعة والمجتمع الواقع بأيدي الحكومات اللاهثة خلف المنفعة الخاصة، وكذلك العقول التي تساندها في تحقيق تلك المنافع، وأراد الكاتب أن يضع يده على الخطأ الحادث معه فقال: «يبدو الأمر وكأن مجموع الكُتَّاب المُختَصِّين في الطبيعة قد أصدروا حكمهم عليَّ بكوني لا أتجاوب مع كل الأنشطة التي من شأنها مساعدتي في النمو أو التعافي أو أي شيء يفترض بي القيام به في هذه المرحلة من عمري.»

قد يكون هذا كله تجلٍّ لهواجسي حول المشي والمشكلات البيئية الكبرى، ولكن التنوير المصاحب للحج إلى الأماكن المقدسة يبدو جذابًا، فعندما تصبح الأشياء قاسية يتجلى وقتها الإحساس بالفقدان والضياع، كما فعلت الكاتبة المكلومة ذات القلب المنكسر «شيلي سترايد»، حينما وجدت نفسها في مؤلَّفِها الأكثر مبيعًا المُسمَّى «البرية» الذي انتهت منه أثناء المشي في ممشى الأمواج الهادئة، وكما فعل «ميلكتوست هارولد فري» البطل غير المرغوب فيه في رواية الروائية البريطانية «راشيل جوسي»، عندما رحل عن بيته في لندن وبدلًا من إرسال رسالة بريدية إلى صديقه المعتل بمرض مميت، قام بتسليم الرسالة بنفسه إلى مرافقه ما يعني مشيه لأكثر من ستمائة ميل، تلك الرحلة الخيالية التي قلَّد فيها مؤلف الأفلام «ويرنير هيرزوج» حينما مشى من «ميونيخ» إلى «باريس» لزيارة الناقد المعتل «لوت إسنر»، وهذا يعكس أيضًا ما فعله شاعر القرن العشرين الأمريكي «فاتشل ليندساي» الذي امتهن الشعر من أجل توفير المأكل والسُّكنَى المؤقتة ليتمكن من التنزُّه لعدة مرات داخل البلد من اللينويس إلى نيوميكسيكو ومن نيويورك إلى أوهايو فقد قطع الشاعر البريطاني «سيمون آرمتيج» طريق «بينين» ذا المائتين والثمانية والستين ميلًا مشيًا، مستبدلًا القراءات الليلية التي اعتاد عليها بتناول الجعة والاستسلام إلى النوم ثم الإفطار في الصباح، وكان قد كتب في قصيدته «العودة إلى الوطن» قائلًا: «لأسباب عديدة يُعَد المشي في طريق «بينين» هو تمرين يفتقر إلى نقاط تحدد بدايته أو نهايته؛ فهو يقودك من نقطة غير محدَّدة إلى أخرى غير محدَّدة أيضًا عبر طريق غير محدَّد بذاته ولسبب غير محدَّد، ولكن أن تبدأ في المشي فيه فهذا يعني رضوخك لتقاليده المعروفة واستسلامك لمنطقه المعمول به، وأن تأخذ على عاتقك التحدِّي لنفسك بشكل جدي».

ينقِّب «هيريوت» عن المقصد والمعنى وراء قنوات الري والمراعي المحيطة بالكوخ الذي يعيش فيه ويتفحَّص في كوكبة النجوم عاليًا، حيث إن خُفَّيَّه كانا قد غاصَا في الوحل بكل ما فيها من تقرُّحات، وقد وجد جمالًا تكافليًّا في العمليات الحيوية كتلك الموجودة في التفاصيل المجهرية في

عملية التلقيح والقدرة على العمل المتراكب في جذور الفطريات، قبل البدء في رحلته التنزُّهية خيَّم «هيريوت» في وادٍ، وواصل المكوث فيه وذلك بتوجيه من صديقه المقيم في «أبوريجيينال»، وبعد ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ من الضيق والبؤس مضافًا إليها لحظات الخوف والقلق، وفي هذه الأثناء جال بخاطري سؤال وهو: كيف يتسنى للفرد أن يتوقف؟ وتفكرت في أزمة منتصف العمر ... والطريقة التي نضجت بها في علاقاتي، وهو يعرف أين يبحث عن إجابات لهذه الأسئلة، فلديه من أصدقائه من ارتحل إلى «نيبال» وإلى «ماتشو بيتشو»، ولكنه تفكَّر في ما إذا كان بإمكاننا الانفصال الرُّوحي عن كل من الحياة والثقافة، وكلاهما تربطه علاقة وثيقة بالتربة والمناخ والفرضيات الأخرى التي يتضمنها المكان...

ويتساءل «هيريوت» عن «إذا كان أمر جيد أن تأكل أكلًا محليًّا من صنع بلدتك، أليس الأفضل بالمثل أن نتداوى ونغذِّي أرواحنا بما هو محلِّيٌّ في بلادنا؟»

انتهيت من قراءة كتاب «هيريوت» أثناء صباح يوم ربيعي كئيب في «أوتاوا»، وعلى مدار أسابيع كنت ملازمًا للمقعد منجذبًا إلى تلك المغامرات في إسبانيا والمواضع الأخرى البعيدة، شددت رباط نعلي الخاصين برحلات التنزُّه، هناك حزام أخضر في جانب منزلي، صف من الحدائق والمستنقعات التي من الممكن في نهاية الأمر أن تُجْرَف وتتحول إلى طريق ممهَّد، اليوم هو يوم الأسبوع، وكل ما رأيته يمشي أثناء عبوري لشجرة الصفصاف هو كلب واحد حيث كنت جالسًا على طاولة الطعام في أعلى التل، أستمع إلى تغريدات لحن السريناد معزوفًا بتناغم من قِبَل طيور الشحرور ذات الأجنحة الحمراء، وها قد أحسست بذلك الشعور مجددًا.

عبرت ذلك الشارع المزدحم الذي يحدُّ المساحة الخضراء، ودلفت إلى بيت المدينة المناسب لفئة محدودي الدخل والسكَن المشترك المُسَمَّى «قرية ممر البلشون»، وعَجَّت الأرصفة بسيدات يرتدين أوشحة وجه ملوَّنة، وتلك الأمهات اللواتي يدفعن أبناءهم في عربات الأطفال، على العكس من منطقة «بليسانت فييل» البيضاء المهجورة الواقعة في المقاطعة التي اتَّخَذ منها مسكنًا، وجدت خلف الأبراج والمباني الأخرى الصغيرة وبينها شبكة من الممرات الخشبية التي تربط بين الشوارع الجانبية وبين المناطق المخصصة للحدائق والمدارس ومحلات التسوُّق، رغم بعدها عن منزلي مسافة خمس دقائق مشيًا على الأقدام إلا أنني لم أرَ طرق المشاة هذه من قبل.

ومثل «هيريوت» فقد سلكت الاتجاه الأقرب، بدأت أتفهم أن ما أرنو إليه من مشاهد موجود بالقرب مني، فأنا مُهتم بكتاب «مات جرين» المطلق عليه «مرات المشي اليومية في نيويورك» أكثر من رحلاته هو عبر البلدة، أنا لا أغرم بقمة واحدة، فأنا أمشي لأن شيئًا ما في مكان هناك سأصل إليه، فالفرد يمكنه الحج كل يوم إذا كان ما تسعى إليه هو ذلك الإحساس العميق الذي يدفعك لمعرفة الدور الصغير الذي جئت لتؤديه في هذا العالم من حولك.

التسامح والشفاء هما طموح محيِّر، ولكنه للأمانة ما زالا هدفًا من الممكن إحرازه، والمشي يكشف لنا الواقع المادي المباشر، وبالرغم من أن عقولنا تضلل الأفكار وتشوِّهها، وبالرغم من أن لدينا جرأة تزيد عن الحد الكافي، وبالرغم أيضًا من أن التضليل الذاتي لأنفسنا يقودنا إلى نتائج مبالَغ فيها، فإننا عندما نبدأ في المشي فإن أفكارنا تصبح أكثر وضوحًا؛ لأن الجسد والعقل يكونان في حالة انتظام، فالتقدم في المشي والحالة المزاجية يصبحان إيقاعًا متناغمًا، فنجد الملحوظات والأفكار تختلط معًا لتكون النتيجة هي الخروج بأقرب الأفكار إلى الحقيقة، أو كما يقول مصطلح سكان «ويلز» عن الحقيقة.

وفي شبه جزيرة «لين» وبعد ما ارتويت من بئر القديسة ماريا، مشيت في ممر آخر دوار منفرد، حيث ظهر مرتفع من يساري ذاك الجرف الصخري الجرانيتي الذي يبلغ طوله خمسمائة قدم الواقع في الجانب الشرقي من جزيرة «بارديسي»، والمسار الذي سوف أمشيه اليوم سيكون موازيًا لحافة اللسان البحري في جزيرة «بنينزويلا»، ثم بعد ذلك سوف أتوقف عن المشي عند مضيقه للعودة إلى جزيرة «أبير دارون»، يا لها من دائرة بسيطة بطول ثلاثة عشر ميلًا! ولديَّ ما يكفيني من المياه والطعام ونعلي متمرس على مثل هذا الشأن ومقاوم للمياه أيضًا، وما أرتديه من ملابس مخصصة للأمطار يبقيني جافًّا كما يمنحني خروفي الثَّغَّاء ما أفتقده من الرفقة، وبالرغم من أن منظر الزهور البَرِّيَّة مع الشاطئ الصخري يبدو خلَّابًا فإنني أشعر في كل خطوة بالثقل والضجر، إنه ليس ألمًا أو عدم ارتياح عضوي هو فقط شعور مزعج، أمضيت حتى الآن أسبوعين بعيدًا عن منزلي وحاليًّا أقضي عطلة نهاية الأسبوع في كندا، أنا لست متأكدًا مما يقوم به كلٌّ من ليسا والبنات، ما أعرفه هو أنني لست معهم والصيف وشيك على الانتهاء، يمكن للمسيحيين وأسلافهم إيجاد الإجابات عن تساؤلاتهم هنا في هذا الممر، لكن بالنسبة لي فمن المحتمل أني أتطلع إلى العودة القريبة إلى منزلي.

كانت ما زالت تمطر في صباح اليوم التالي، وقابلني «روب جونز» ذاك الذي يعمل لدى مكتب سياحة ويلز القومية في غرفة الغداء في فندق «السفينة»، حيث كنا نتناول طعام الإفطار، حيث من المفترض أننا سنخرج سويًّا في رحلة إلى «بارديسي»، لكن هناك عاصفة شديدة هبَّت بالخارج، ولكن المسؤول عن الإبحار بنا أخبرنا أن نراجعه في إمكانية الخروج إلى البحر في غضون ساعتين من الآن.

وثبنا إلى سيارة «توماس» وقطعنا التل من الفندق إلى استراحة بيت «بيتر هيوليت» لتناول الشاي، وفي حجرة الخلوة خاصته وجدناه معلقًا على الحائط لوحة ملوَّنة لها عنوان «الطريق المتسع الضيق» صُنِعَت من الأصل في ألمانيا حوالى عام 1850 ميلاديًّا، وتنقل اللوحة الفكر المسيحي البروتستانتي، فهي ترسم الطريقين اللذَين علينا الاختيار من بينهما: إما أن تحيا حياة الفضيلة أو تنغمس في ملذات الحياة، فالطريق الضيق الذي يحتل الجانب الأيمن من اللوحة في نهايته يوجد الشجر الأخضر القديم والمشروب الروحي، والسيد المسيح وقد صُلِب إلى الجبل المحاط بالملائكة المجنحة والتي قد غمرها النور الذهبي، أما على الجانب الأيسر فيحدها قاعة للرقص وصالة للعب القمار وحانة و«قطار الأحد»، وبها صور لرجال يبدون كالنِّقاط وهم يجلدون الحمير بالأسواط ويقاتلون، وتأتي ذروة الطريق في شكل قلعة مظلمة حيث عناصر مذعورة قد التهمتها النيران، كان هناك أيضًا آيات مُعَنْوَنَة ومرقَّمة من الإنجيل قد تبعثرت مثل «دان 5:27» في الجهة العلوية الشمالية تعلو قليلًا فوق النيران، التقط «هيوليت» الإنجيل من فوق رفِّ الكتب، ووجد فيه آية باسمي تقول: «لقد وُزنتَ على الميزان، ووُجِدَ أنك ضعيف الوزن.»

ما زال أمامنا وقت أنا و«توماس»؛ لذا قمنا بزيارة «فيلين أوتشاف» ذاك المركز التعليمي المكرَّس لممارسة حياة جديدة بالاعتماد على المهارات القديمة لسكان ويلز، يبعد هذا المركز عن «أبيردارون» مسافة ثلاثة أميال، هو الذي كان مكانه قطع أرض من الصحراء الجرداء التي قد ذرَّتْها الرياح، ثم قام المتطوعين بزراعة آلاف الأشجار والحدائق العضوية الجوادة كما قاموا بتأسيس مبانٍ صديقة للبيئة مستخدمين في ذلك الأحجار والتربة والقش والأخشاب المحليين، من بين الأعمال الجماعية التي يتم تعليمها في المركز تلك الدروس الخاصة تصميم أشكال القش وبناء الحوائط من التراب والطوب اللِّبِن وصياغة القوالب من القش والخشب، جاء المتطوعون من جميع أنحاء العالم، وكلما تعلموا ازدادت براعتهم، فمن أعمالهم حظيرة مكتفية الطاقة وسقيفة لبناء الزوارق تحتها، والعديد من المنازل الدائرية المبنية على طراز القرون الوسطى، وقُطِّعت مواسير

المياه من ممرات المشاة القريبة واستُخدمت في تسقيف المباني، وجُمِعت أصواف الخراف ووُضِعت على الحوائط بهدف العزل الكهربي.

قادنا أنا و«توماس» «دافيد دافيز هجز» مدير المشروع ذا الكلام المعسول والابتسامة المبهجة؛ إلى واحد من المنازل الدائرية ذات القاعدة في الأرض، ميز شكل تصميم هذا المنزل بعد العصر الحديدي دور العبادة، تكون من مجموعة مقاعد وأسِرَّة مركبة في الحوائط الطينية والمدفأة تتوسط المنزل، وبالإضافة لتوفيره الإقامة للعمال والطلاب والمسافرين فقد استقبل مركز «فيلين أوتشاف» الأمسيات لقصاصين الروايات والتجمعات حول الموقد، حينما يكون مصدر فتنة المؤدين لجمهورهم هو صوتهم فقط، وكما قال «دافيد دافيز هيوز» وهو بجانب كونه قصاصًا روائيًّا محنكًا فإنه أيضًا رجل مفكر له خبرة الباحث في علوم الأحياء والمعلم والمزارع أيضًا البناء: «يحج الناس إلى شبه جزيرة «لين» في ابتغاء شيء ما، ولكن ليس كل فرد يتخذ من جزيرة «بارديسي» وجهة له رغم أنه مكان حَرِيٌّ بأن يسترعي انتباهك حيث بتواجدك فيه يتسنى لك الاحتفال بكل الحضارات التي سبق وأن مرت بهذا المكان ومعرفة خليط الروايات التي شكَّلت «أوروبا» بصورتها الحالية، وبها ما لم يتم اكتشافُه بعدُ، فإحساسنا بالعناصر التي نصادفها هنا مثل الرياح والأمطار والشمس أقوى من إحساسنا به أثناء تواجدنا في داخل البلد، فنحن كبشر نفضل الأشياء في صورتها الأصلية بعد ما نجده من تعديلات طرأت على طبيعة كل شيء في عالمنا.

وأكمل حديثه مستفيضًا في الكلام عن شبه جزيرة «لين»، تمامًا كما كان وصف الكاتب «روري ستيوارت» لنهر «لون» بأنه ليس مجرد نهر قائلًا: «جزء منها ممتدٌّ غربًا وطالما اعتبر الناس الرحلة إلى أرضها تجسيدًا لما مرت به البشرية طوال عمرها، كان الناس يمرون من البر الرئيس في البلدة ثم يخرجون إلى هذا الجزء المرتفع قليلًا عن الأرض، وهذه المياه التي تفصلنا عن جزيرة «بارديسي» ينظر الناس إليها بعَدِّها «بحر النسيان» أو ما يُطلَق عليه نهر «ستيكس»، أيضًا بها تلك الصخرة التي تصعدنا إلى السماء، إنها شبه جزيرة «بيننزولا» فهي مكان الملتقى، وهي أيضًا العتبة أو هي حافة العالم المعروف، وبالرغم من أن الجملة من الممكن أن تُعَدَّ رمزية فإنك تأتي إلى منطقة حافَة الحياة وما يحدث بعد ذلك لك يظل مجهولًا»، رن الهاتف الخلوي الخاص بتوماس وأبحرت بنا السفينة بعد مُضِي خمس عشرة دقيقة.

ميناء بورثميودي أو كما يسميها الإنجليز ميناء النساك هي المكان لوحيد الذي يمكن من خلاله للسفن أن تبحر بطول الساحل الهائج وراء جزيرة «أبيردارون»، فهي عبارة عن طريق طيني ينحدر من صدع عميق في المنحدرات الصخرية وينتهي شاطئ صخري ضيق مرفق به مزلق سفن إسمنتي متكسِّر، دعانا «سكيبر كولين إيفانز» إلى الصعود إلى زورقه الصغير ذي اللون الذهبي البَرَّاق الذي يبلغ طوله ثلاثين قدمًا، قَصَّ علينا أيضًا أنه يبيته في أعلى مقطورة مثبتة إلى جرار، لكنه صاح ليعلو صوته على صوت الرياح الهادر قائلًا: «معذرة يا رجال، إنها تمطر قليلًا اليوم؛ لذا أرى من الأفضل أن ترتدوا سترات النجاة.»

اللحية البنية الزغباء والسواعد الضخمة جعلت «إيفانز» يبدو مثل ذلك النوع من الأشخاص الذين لا يتجاهلهم إلا شخص أحمق، حتى إن قابلته في يوم هادئ، كان يرتدي سترة صفراء واقية من الأمطار فوق كَنزة زرقاء صوفية، وسروال صيد مرتفع حتى صدره لونه رمادي مختلط بالأزرق ومزوَّد بمطاط، هناك رجل آخر يجلس خلف عجلة قيادة الجرار في مواجهة الأمواج المتكسِّرة على الشاطئ والذي يرتفع بالقارب فوق المقطورة، عَبَرَ «إيفانز» هذا البحر نحو عشرة آلاف مرة، وكان قد أتم أول إبحار بمفرده وهو في سن السادسة عشرة، وبذلك يكون قد تجاوز فترة عنق الزجاجة، انسحبنا من ذاك الخليج الصغير وبدأنا نرتفع عاليًا مع الأمواج، «الأمر كما له منافعه، فبالمثل له من العيوب، وعلينا السفر مرتين في هذه الظروف السيئة لو اضطررنا لذلك».

عندما أخبرني «إيفانز» بهذا كانت مقدمة السفينة تغطس تحت المياه، ثم تعود لترتفع والزَّبَد يتحطم على ظهرها، تلك العواصف والتيارات المائية في هذه البحار تستجلب أكثر من سبعين سفينة، ففي عام 2000 اجتذبت العاصفة الهوجاء سبعة عشر زائرًا إلى الجزيرة ومكثوا فيها لمدة أسبوعين.

أبحرنا حول المنحدرات التي رأيتُها وأنا أمشي البارحة، الآن قد هدأت الأمواج وبَدَا للعِيَان ذلك البيت ذو الإنارة الحمراء والبيضاء بارزًا فوق الحقول الخضراء المتداخلة في جزيرة «بارديسي»، هذا البيت تملكه وتديره جهات خيرية موثوقة، ويبلغ طوله نحو ميل ونصف ميل من الشمال إلى الجنوب، وعرضه يصل إلى نصف ميل، وتُعَد الجزيرة مَحْمِيَّة طبيعية قوميَّة وملجأً للطيور الموسمية والنباتات النادرة، وهذا ما يجعلها مقصدًا ليس فقط للوَرِعين أو الرحَّالة ولكن أيضًا للعلماء الذين يقدمون إلى مرقب الطيور في «بارديسي» لإنجاز أبحاث على أنواع طيور مثل

طائر «جلم الماء مانكس»، ذاك الطائر الجريء الذي يمكنه العيش حتى خمسين عامًا، وكل عام يكون الحد المسموح به من الزيارة اليومية هو ألفي زائر فقط، ولكن «هي ما تزال جزيرة عاملة» كما قال عنها «إيفان»، تحوي الجزيرة نحو ثلاثمائة وسبعين رأسًا من الخراف وأربعة وعشرين من البقر والثيران، «الأمر ليس من أجل الحفاظ على الأنواع، حسنًا، إنه كذلك حقًّا بطريقة ما، فهو يعمل على حماية الشكل القديم للحياة.»

مارست عائلة «إيفانز» الزراعة والصيد هنا منذ القرن السادس عشر على أقل تقدير، ومن الممكن أن يكون من قبل تلك الفترة، فكان والده يصنع الشباك لاصطياد الكركند كما كان حارسًا للمنارة البحرية، وكانت والدته شاعرة هتافية، فيقول: إن «كولن» هكذا كان اسمها أيضًا كانت لها طريقتها الخاصة في تشكيل الكلمات، «يمثل الإبحار استمرارًا لعادة قديمة، فأنا حياتي كلها تقوم حول فكرة سرمدية العادات البائدة؛ لأنهم قابلون للاستمرار، فهم يمثلون طريقًا للأمام، فالماضي لا يختلف عن المستقبل» هكذا قال «إيفانز».

مشينا بتأنٍّ باتجاه الشاطئ الواقع عند الحد الجنوبي لجزيرة «بارديسي»، حيث اصطحبنا جرارًا آخر إلى داخل البلد، لدى هذه الميناء طريقة حماية من الرياح المنتشرة حوله بحيث أصبحت أفضل ميناء في المنطقة كلها يمكنك أن ترسو فيها، وهو مما يعني أن البحارة قد اعتادوا على إبقاء زوارقهم في الجزيرة لا في البَرِّ الرئيس، وأن المهارات المتعلقة بالعمل في البحر قد ترسخت هنا أيضًا.

تسأل «إيفانز» هل سيظل هناك ما يجعل أبناءه يعيشون في «بارديسي» حينما يكبرون، ووجد أن هناك احتمالات مثل معالجة السلطعون وإعداد النقانق وتدخين الأسماك والرحلات المعتمدة على زورق الكاياكو، لكن الجزيرة تعرضت لبعض التذبذب في أحوالها على مدار القليل من العقود، حيث توقَّف النمو الاقتصادي بها، ولكنه يقول «إيفانز» يبدو أمرًا طبيعيًّا ذلك التوازن بين الزراعة والصيد وبين الحماية للمياه وبين الأبحاث والسياحة؛ لأن هناك عائلات لها روابط تاريخية على هذه الجزيرة أي هناك من يوجد ليعتني بها.

يُعَدُّ قدوم الحجاج السلتيين والمسحيين في الآونة الحالية إلى «بارديسي» ظاهرة حديثة نسبيًّا، قالها «إيفانز» على طريقة المرشد السياحي، أحجار الميزوليتي التي عُثِرَ عليها على الجزيرة يشير إلى وجودها منذ خمسة آلاف أو عشرة آلاف سنة مضت، هناك أيضًا دليل على وجود أماكن

شهدت طقس إحراق الموتى الذي يعود للعصر البرونزي، ما يدل على وجود اليقظة الروحية قبل أن يكون هناك وجود لأي كنيسة.

ابتعد كلانا أنا وتوماس عن البحر، ومشينا في شارع به آثار من طين لمعاينة بقايا الكنيسة، ونتطلع إلى الحوائط الحجرية الموجودة في الأكواخ المتاحة للتأجير خلال فترة الصيف، دلفنا إلى الكنيسة الصغيرة، جلس «توماس» بجانب الأرغن وبدأ بالعزف، حييته ثم انصرفت تاركًا إياه مع أنشودته الدينية.

تجولت في المكان لمدة ساعتين بمفردي، فبالرغم من أن عشرين شخصًا يعيشون فوق الجزيرة في الصيف، وأن هناك أربعة وعشرين عالمًا زائرًا متواجدين اليوم بها، فإن كلمات «إيفانز» أثناء إبحارنا تبدو وكأنها نبوءة، حيث حدثنا عن قدرة هذه الجزيرة الغامضة على ابتلاع الناس، وها أنا لا أجد شخصًا آخر غيري بها.

عندما صعدت إلى ممر الماشية المؤدي إلى أعلى نقطة في الجزيرة بزَغت الشمس من جديد لأول مرة منذ يومين، في فترة زمنية ماضية كان الارتحال إلى شاطئ به جزيرة «لين» بغرض التكفير عن الذنوب، أما الآن فأنا أعتقد أنه أصبح ببساطة ينظر إليه على أنه طريقة لتكوين وجهة نظر عن باقي العالم، «الجبل تقريبًا يخفي البر الرئيس بالرغم من كونه وُضِع هناك لهدف ما، فيمكنك أن تنسى وجود البر الرئيس أثناء وجودك هنا، بالفعل يمكنك ذلك، وفي إمكانك أثناء الطقس السيئ أن تبتعد ألف ميل عن البر الرئيس»، هذا ما أخبرني به «إيفانز» أثناء تواجدنا عند سفح الجبل.

وأكمل حديثه قائلًا: «أعتقد بأن هذه الجزيرة تعزِّز التفكير المستقل، إنه مقصد قريب وبعيد في الوقت نفسه، فصخب الحياة يكون هيِّنًا حينما تكون بعيدًا عنه، وهذا هو السبب الذي يجعلك تراه هكذا؛ لأنك لست طرفًا فيه، وهذا يمنحك شعورًا مختلفًا، فكل ما يمكنك رؤيته هو الهدف البعيد.»

الثامن
العائلة

«دع الأطفال يمشون مع الطبيعة، دعهم يرون تلك التمازُجات والتلازُمات الجميلة بين الموت والحياة، دعهم يرَوْن توحُّدهم البديع، كما تظهره الغابات والمروج، كما تظهره السهول والجبال وجداول الأنهار التي أنعم علينا الله بها.»

«جون موير»، ألف ميل مشيتُها للخليج.

«إننا قد غمرتنا ثقافة السرعة حتى صرنا لا نكاد نلاحظ الكُلفة التي تكبدناها على صعيد كل جانب من جوانب حياتنا، وأحيانًا لا يفيق المرء منَّا إلا بعد صدمة تُنَبِّهُه إلى أنه يهرول في حياته مسرعًا دون أن يحياها فعليًّا.»

«كارل أونوري»، في مديح التمهُّل.

دهست السيارة قدمِي فوق الكاحل بالضبط.

تلقت «ماجي» الصدمة الأولى؛ وقد كانت فوق دراجتها، أما أنا فقد كنت أمشي خلفها، وتراجعت «دايزي» بدراجتها لعدة أمتار، كنا على بُعْد أربعة أحياء سكنية من منزلنا في صباح أحد أيام منتصف شهر سبتمبر، وكانت الشمس ساطعة والجو منعشًا وأوراق الدردار والقيقب قد احمرَّت رؤوسها، كنت قد خَطَّطتُ لأن أجري بحذاء النهر، ثم أجلس لأنهي ما لديَّ من عمل بعد أن أوصِّل ابنتيَّ لمدرستهما.

كانت إشارة المرور خضراء، وكنا نمشي على الخطوط البيضاء المخصَّصة لعبور المشاة، كانت «ماجي» قد وصلت لمنتصف التقاطع عندما وجدنا سيارة آتية من الاتجاه المقابل تنعطف يمينًا وتخترق طريقنا.

صِحتُ في «ماجي» وفي السائق معًا «توقفوا».

ثم سمعت ذلك الصوت المثير للغثيان، صوت انسحاق المعدن والبلاستيك بعد ارتطامهما بعضهما ببعض.

سقطت «ماجي» فوق صدري وسقطنا معًا للخلف على أرض الطريق، وغابت دراجتها ذات اللونين الوردي والرمادي تحت مقدمة السيارة، وبينما أنا ممدَّد على رصيف الشارع حَنيتُ عنقي في اللحظة المناسبة لأرى الإطار الأمامي الأيسر لتلك السيارة المكتنِزة ذات الدفع الرباعي تدهس قصبة ساقي، لكن الصَّدمة ودفقة الأدرنالين قد سكَّنا ألمي تمامًا.

عندما رأيت السيارة جاثمة فوق ساقيَّ ومضت في ذهني خاطرتان: أولاهما أن هناك سيارة فوق ساقيَّ، وثانيهما هي «ماجي».

نظرت إلى يساري، فرأيتها بجواري في الشارع لا تصرخ أو تبكي ولا تنزف دمًا، لم يمسَسْها سوء، ثم نظرت إلى يميني فوجدت «دايزي» واقفة فوق دراجتها متشبِّثة بالمِقوَد يظهر عليها الفضول أكثر من القلق.

كان ذلك المنعطف مزدحمًا في ساعة الذروة تلك، فتكدست المركبات في الاتجاهات الأربعة كلها، قال لي أحد الرجال وهو يضع هاتفه المحمول على أذنه: إن سيارة الإسعاف في طريقها إلينا، وبعد ثوانٍ وجدت امرأة جالسة القرفصاء إلى جوار «ماجي» فقالت لها: «أنا طبيبة، أريني ما يؤلمك؟» أشارت «ماجي» إلى جُرح صغير في ركبتها اليسرى، وقد كان الجرح الوحيد الظاهر.

صرخت قائدة سيارة الدفع الرباعي وهي تضع يديها فوق فمها: «يا إلهي، يا إلهي! هل أنتم بخير؟ هل أنتم بخير؟ هل أنتم ...»

قلت وتدفعني الرغبة لأن أظَلَّ هادئًا لأجل البنتين: «هلَّا أبعَدَها أحدكم عنا رجاءً»؛ فاصطحبها أحد المارة بعيدًا.

وبعد أقل من دقيقة حضرت إحدى ضابطات الشرطة وترجَّلت من سيارتها، ثم طلبت من ذلك الرجل الذي يتحدثَّ في الهاتف أن يعمل معها على مساعدتي لأن أقف ثم أتقافز حتى أصل إلى رقعة من العشب تقع بين الشارع ورصيف المشاة، وهناك رقدتُ مجدَّدًا يغمرني إحساس بالغثيان،

ثم جاء مُسعِفَان وأزالا عني حذائي الذي اهترأ وقَصَّا جوربيَّ، بعدها تفحصا الجزء السفلي من جسدي، فلم يبدُ عليهما أي قلق، فرفعاني على مَحفَّة، تسلقت «ماجي» مؤخَّرة سيارة الإسعاف داخلة فيها دون معونة من أحد، أما «دايزي» فقد اصطحبها أحد أصدقائي الذي كان مارًّا بالصدفة إلى المدرسة، ومع تحرُّك السيارة بدأت ساقيَّ تشتعلان ألمًا، لكننا مع هذا كنا محظوظين جدًّا.

جاءتنا ضابطة الشرطة في المستشفى كي تأخذ إفادتنا، وأخبرتنا أن تلك المرأة التي دهستنا كانت قد أوصلت ابنها لتوِّها إلى مدرسته.

حضرت «ليسا» في الوقت المناسب لتشاهد ذلك الطبيب البارع وهو يستخرج حَصاة من جُرح بليغ في كاحلي الأيمن، ونحن في غرفة الطوارئ، قال لي بينما كان يُقطِّب جروحي: إن قضاء بعض الوقت باستخدام المكنسة الكهربائية هو أفضل أنواع إعادة التأهيل، ثم تفحَّص صور الأشعة وأكَّد لي أنه لا يوجد في عظامي أي كسور، وقال: «هيا لنُوقِفَك على قدميك».

نمشي أنا وابنتاي إلى مدرستهم كل صباح، والتي تبعد نصف ميل عن منزلنا، بمعدل ألف ومئتي وخمسين خطوة، وهي أفضل خمس عشرة دقيقة في يومي.

لا توجد أرصفة بجانب الطريق بأول ثلاثة مباني حيث شوارع سكنية واسعة والقليل من الحركة المرورية، أنقذت «ماجي» و«دايزي» الديدان من الطريق بعد أمطار الربيع، وفي الشتاء كانتا تتأرجحان فوق جرافة جليد معبَّأة بتلال من الثلج، نتفحص رؤوس الأشجار تحسُّبًا لوجود طيور الكاردينال والغربان، أو التقاط أقراص الهوكي التي تسقُط أثناء التزلج على الجليد، تُمطرني الفتيات بوابل من الأسئلة المتلاحقة حول تشكيلة العلامات الكبيرة التي تظهر وتزداد بسرعة أثناء الحملات الانتخابية، حول الصخور والمعادن المُدمَجة بالأسفلت، حول الأكاذيب والتباهي، حول فائدة الفروض المنزلية، أجبت متلاعبًا بالكلمات منحرفًا عن الموضوع، التفتت كُلٌّ من «ماجي» و«دايزي» لنِكات أبي، حينها أطلقوا العنان لفَيْض من الفكاهة المتعمَّدة لديهم، أُخبِرهم بقصص عن طفولتي، وتبادلانني باعترافات حول مشاعرهما ومواجهات أو لقاءات سابقة تمت بسرية تامة والوفرة المشتِّتة لكل الأشياء المنتشرة تلك الأيام، عندما لا تتشاجران بالكلمات أو اللكمات أو بتعليقات عن لكمة كل منهما، أو محاولة إحداهن غناء أغاني البوب بصوت أعلى من الأخرى، تتحدث الفتيات بكلمات أسرية لطيفة، تنتقل الأخوات التوأم من المناوشات الصغيرة إلى السفر معًا حول عالم محيِّر، ترفرف محادثاتنا كالفراشات تتمايل بشكل غير متوقَّع عبر ممر لا حدود له.

يقول المؤلف والناشط في مجال الغذاء «مايكل بولان»: إن أفضل وقت للتحدث مع أولادك عندما تطبخون وجبة معًا جنبًا إلى جنب بطاولة المطبخ، تقطِّعون وتحرِّكون الطعام بدون أن تتواصل العيون، حتى المراهق سيتخلى عن تحفظه، يضعك المشي في نفس الحالة بالتساوي، فالمشي بجانب صديق أو قريب أو حتى المعارف العادية، يجعل خطواتك تستقر في تزامن غير واعي؛ وذلك مؤشر على التفاعل الاجتماعي، يقول ذلك علماء الأعصاب المعرفية في معهد كالتك.

كتب اثنان من علماء النفس الهولنديين بجريدة عام 2011 أنه يمكن لذلك النوع من التزامن الحركي أن يكون إشارة على مشاعر مشترَكة للعلاقة وحالة شعورية بالاهتمام والإيجابية المتبادَلة، هدأت وثارت بالحركة في وقت واحد، يجب أولًا أن تنفتح وتستمع إلى ما يجب أن يقوله الآخرون، تتطور العلاقة بين العشاق أو الإخوة أو الأصدقاء أو بين الآباء والأبناء، ليس ذلك فقط، بل وتنضج العلاقة بينك وبين المحيطين بك حيث الانغماس العقلاني في المحيط الذي تعيش به، والمعرفة الأساسية بعالمك.

يشبه المشي الرقص، قال المؤلف وداعي الحياة المتمهلة «كارل أونوري»: يتحرك جسدان أو أكثر بنفس الإيقاع، تتعاون وتتواصل وتكون شراكة ضمنية، وأخبرني أنه «بعيدًا عن الساعات والتكنولوجيا ومشتِّتات العالم المعاصر، يخلق المشي مساحة مفتوحة شاسعة لحدوث الأشياء، ويكون ذلك غالبًا أفضل وقت لنمو العلاقات وازدهارها»، نحن كائنات مادية؛ لذلك أغلب الطرق التي نعبِّر بها عن أنفسنا وكيف نتفاعل مع العالم ومع الآخرين جسدية، إنها حقًّا بدنية، إذا وجدت إيقاعًا مشتركًا مع شخص ما يفتح مجالًا لمستوًى آخر من التدفُّق والتبادل العاطفي والفكري.

ويَعُد «أونوري» المشي خطوة أولى حرة بسيطة وقريبة تجاه التغلُّب على فيروس العجلة الذي يجري بعروقنا، هي عادة تُجبِرُنا على حساب الدقائق بدلًا من تذوُّقها، لفعل كل شيء بأسرع ما نستطيع وليس بالجودة الممكنة، عادةً ما يمكن للعجلة أن تمنع نمو العلاقات المتبادَلة السليمة، يقول «أونوري»: «يحوِّلك المشي للداخل نحو ذلك الحوار النفسي الداخلي، والذي يُعَد جزءًا مهمًّا من كونك إنسانًا، من عيش الاختبار، لكنه يفتح لك الأُفُق أيضًا نحو بنية العالم من حولك وتفاصيله ولأشخاص آخرين، هذان هما وجهان للعملة نفسها، بعد الانتقال للداخل، يصبح لديك الكثير لتعطيه عند عودتك للشخص الذي يمشي بصحبتك، يوجد المزيد منكم في هذا المعترَك.

رحلاتي مع «دايزي» و«ماجي» إلى المدرسة ليست دائمًا شاعرية، تصبح الفتيات أحيانًا أفضل الأصدقاء وأحيانًا أخرى متنافستين بشدة، ولكن عندما تتخاصمان وتختبران صبري، وحتى عندما أكون مضغوطًا أو في عجلة وعلى استعداد لإثارة حديث نندمج سويًّا لنكتشف مدى العلاقة، ومهما كانت حالاتنا المزاجية فنحن نعمِّق الرابط بين مجتمعنا الصغير والمجتمع الذي نعيش فيه، يعرف كل والد كم يكون سهلًا أن تنجو بنفسك عندما تتورَّط في مجادلات طفولية لا، أنت بدأتها ولكن في مشينا الصباحي، يتم إخراجنا من تلك المناوشات بواسطة الجيران الكسالى وهم ينادوننا بأسمائنا ويرحِّبون بنا، وبتلويح المتقاعدين لنا من نوافذ غرف معيشتهم، ثم ننضم بعد ذلك لتيار الأطفال والآباء الذي يزداد كلما اقتربنا من الوصول إلى المدرسة، كقطرات المياه الناتجة من ذوبان الجليد تتجمَّع ثانية فتكون نهرًا يسبب الفيضان، ربما يبدو سلامنا ومحادثاتنا عادية، ولكنها تُعَد رابطًا، تذكيرًا لحصتنا المتبادلة في الطقوس اليومية».

ما زالت «ماجي» و«دايزي»، اللتان كانتا في الثامنة من عمرهما عند وقوع الحادث، تتسابقان للإمساك بيديَّ، وبرغم ذلك كان عناق الوداع في المدرسة يُعَد شيئًا محرجًا للصف الرابع، تقتضي الفكرة بأنهم يكبرون بسرعة، ستصل الفتيات قريبًا لسن البلوغ، حيث تُعَد الاتجاهات الاجتماعية والثقافية التي يتحتم عليهم استكشافها معقدة، ومتغيرة بشكل سريع، سيرِثون عالمًا مختلفًا بشكل كبير عن عالمي، وإن استطاع المشي مساعدتنا في إيجاد إيقاع عام، فيمكنه أيضًا تمهيد ذلك التحوُّل، بالنسبة لهم ولي.

توجد زاوية واحدة فقط مكتظَّة بالحركة المرورية، هي تقاطع «ألتا فيزتا درايف» مع طريق «راندال»، نمُر من خلاله مرتين في اليوم، خمسة أيام في الأسبوع، عشر شهور في السنة، يقع المربع السكني الأقرب إلى منزلنا محاذيًا ساحة المدرسة محاذاة جانبيةً، إذا لم تكن الطريق معرقَلة بالحركة المرورية، فإن السيارات تسير بامتداد طريق «ألتا فيزتا»، وهو شارع رئيس ذو مسارين تصطَفُّ به المنازل من كلا الجانبين بحدٍّ للسرعة ربما يتخطَّى 30 ميلًا في الساعة، يتوقف السائقون أحيانًا ويغيرون مسار الطريق لشارع «راندال» المقابل للمدرسة، دون الانتباه بعناية للمشاة أو سائقي الدراجات، لكن بالنسبة للجزء الأكبر، فهي زاوية مألوفة أشبه بالضواحي بشكل منظَّم، حتى لو لم تكن كذلك.

منذ أربعين عامًا، عندما كنت صغيرًا، كان يمشي ما يقارب من ثلثي الأطفال والمراهقين بأمريكا الشمالية أو يقودون دراجاتهم ذهابًا إلى المدرسة، اليوم، وبالرغم من حقيقة أن الكثير منا الآن يعيش في المدن، يسافر نحو ثلثهم معتمدين على أنفسهم دون عون من أحد، قام 89 بالمائة من طلاب الولايات المتحدة الأمريكية بالمشي أو ركوب الدراجة بداية من مرحلة رياض الأطفال وحتى الصف الثامن، أولئك هم الطلاب الذين عاشوا في نطاق ميل واحد من مدرستهم في عام 1969، بينما اليوم يقطع نسبة 35% تلك المسافة القصيرة سيرًا على الأقدام أو بالدرَّاجة، في كندا أعلن تقرير لعام 2012 أن عدد الأطفال الذين يُنْقَلون بسيارات خاصة إلى المدرسة يبلغ 41%، ارتفاعًا من 13% عندما كان آباؤهم شبابًا، (ربما يُعَد أكثر إنذارًا بأن أكثر من ثلاث أرباع الأطفال بين عمر الثالثة والخامسة يعرِفون كيفية استخدام فأرة الكمبيوتر، لكن أقل من نصفهم يعرفون عنوان منزلهم).

أعطت منظمة «تنشيط الأطفال» بكندا وهي منظمة غير هادفة للربح في تقريرها لعام 2014 أطفال الدولة علامة «D» على إجمالي النشاط البدني، حصلت الولايات المتحدة وأيرلندا وأستراليا على النتيجة نفسها لكن برتبة أقل من كولومبيا وغانا والمكسيك وموزمبيق ونيجيريا وخمس دول أخرى، فقط أسكوتلندا أخفقت بحصولها على «F»، وهي علامة أسوأ ممَّن ذُكِروا سابقًا، وعلى الرغم من وصول 84 في المائة من الأطفال الكنديين الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاث والأربع سنوات للحد الأدنى من مبادئ النشاط، فإن فقط 7 في المائة من أطفال الخامسة وحتى الحادية عشرة تمكنوا من الوصول إلى إتمام ساعة من النشاط اليومي، تنخفض تلك النسبة لتصل إلى 4 في المائة بين البالغين، يعلن نص التقرير: «تقدر بلادنا الكفاءات فعل الكثير في وقت أقل والتي قد تكون على خلاف مباشر ضد تعزيز صحة الأطفال، لقد صممَّنا فُرَصًا للحركة التلقائية (مثل الذهاب إلى الأماكن سيرًا على الأقدام واللعب بالخارج في الهواء الطلق) خارج أساليب الحياة اليومية لأطفالنا.»

لقد بدأ مخطِّطو المناطق الحضرية والسياسيون المحليون والأطباء وعلماء النفس وعلماء الأوبئة وعلماء البيئة في التركيز على قضية المشي إلى المدرسة، يلتَفُّ الجراحون حول المريض استعدادًا لإجراء العملية، يخبروننا بأنها مباراة منتظمة للتمرين في عصر السمنة الوبائية وداء السُّكَّري، يمكن للمشي أن يكبح القلق ويحفِّز الذكاء العقلي، فهو كنشاط بدني يتقدم بحذر على

كوكبنا، حيث قضى على الازدحام المروري، ويجعل الشوارع أكثر أمانًا وأكثر حيويةً، ويشجع الآخرين على استخدام أقدامهم، كما يمنح الأطفال وقتًا أكثر مع آبائهم، وكلما تقدموا في السن، يمنحهم فرصة للاستقلال التدريجي في عالم مفرِط الحماية والبرمجة، ويجادل الطبيب النفسي البريطاني «جراهام ميوزيك» أن المشي يمكنه المساعدة في معادلة الثقافة السامة «بين الأبوة المنهكة والمادية المتفشِّيَة»، الشيء الذي يجعل الأطفال أبسط وأكثر استيعابًا لذاتهم، ويقول: إن «الأطفال ذوي التعاطف القليل يتحوَّلون إلى بالغين نرجسيين محبين للذات بشدة الذين لم يعرفوا أبدًا العائد الحقيقي للانتماء والترابط الاجتماعي»، يكتب الفيلسوف الأسترالي «رومان كرزناريك» في عمله «التعاطف: كتيب الثورة»: «إن من خلال القدرة على فهم ومشاركة مشاعر الآخرين نستطيع تحويل العلاقات من الشخصية إلى السياسية وخلق التغيير الاجتماعي الأساسي.»

يعرف الأطفال الذين يسافرون في الغالب سيرًا على الأقدام أو بالدراجة أحياءهم بشكل مختلف عن أولئك الذين يتجوَّلون في الأرجاء بالسيارات، طلب «بروس أبليارد» الباحث الأمريكي في التصميم المدني من أطفال في التاسعة والعاشرة من العمر من زوايا مختلفة لضاحيتين متشابهتين خارج «أوكلاند، كاليفورنيا» رَسْم «خرائط تقريبية» للطرق ما بين منازلهم ومدارسهم، تم توجيههم خلال عملية الرسم إلى أن يشيروا إلى الأماكن التي أحبُّوها أو كرهوها، المواقع الخطيرة، منازل الأصدقاء، وأماكن أخرى تنزَّهوا بها، في «باركميد» حيث الازدحام المروري والقليل من التنقُّل النشط، يكتب «أبليارد»: «لقد عبَّر الأطفال عن مشاعر الكراهية والخطر، وعجزوا عن تقديم أي تفاصيل عن البيئة المحيطة»، في حدائق «جريجوري» التي كانت تشبه «باركميد»، لكن بما يقارب نصف ذلك الازدحام المروري وسرعة أبطأ لحركة السيارات بشكل ملحوظ، أظهرت الخرائط التي رسمها الأطفال «حاسة أكثر غنى من البيئة التي يعيشون فيها»، الكثير من المنازل والأشجار وأماكن اللعب، والقليل من المخاطر والكراهية، وَهَبَ المشي إلى المدرسة الأطفال تقديرًا أكثر شمولية لحيهم، يبدو أن «أبليارد» مهيَّأ للقيام بذلك النوع من الأبحاث، كتب والده «دونالد أبليارد» المصمِّم المدني المتحضر كتابه المبدع «لايفابل ستريتس»، والذي أثبت فيه بالتجربة أن الناس التي تعيش في شوارع المدينة ذات الحركة المرورية الخفيفة لديهم أصدقاء ومعارف أكثر من أولئك الذين يعيشون في شوارع تعاني من حالات التكدُّس المروري، ومع زيادة معدل حركة المرور، تتقلَّص المساحة التي يَعُدها الناس «مقاطعتهم»، يُترجَم شعور الملكية هذا إلى حالة من الترابط؛ لأنه يوجد مساحة متبادلة أكثر، أو كما قال: «دان بيردن رئيس

مؤسَّسة مجتمعات قادرة على المشي والحياة»: «تكون السيارات أسعد عندما لا توجد حولها سيارات أخرى، ويكون الناس أسعد عندما يكون حولهم أناس آخرون.»

وقبل أن تصبح «جينيفر كيسمات» كبيرة مخططي مدينة تورنتو كانت تتمتع بشعبية لدى جمهور منتدى «TED» الذي تكلَّمت فيه عن أهمية المشي إلى المدرسة، حيث تناقش الصحة الجسدية وحفلات السمر الجماعية حول النيران في الهواء الطلق وقيمة الاستجابات اليومية المحلية لكلا الأزمتين، تقول «كيسمات»: إن المشي إلى المدرسة هو أيضًا طقس عبور تلك الطقوس التي تغير من الوضع الاجتماعي للفرد كالتخرج والزواج متذكرة رحلتها الـ 107 ميل عندما كانت طفلة، المطر، السترات التي كانت خفيفة جدًّا، الأحذية المبلَّلة، أكياس الغَدَاء الورقية التي تبلَّلَت وتمزقت؛ مما اضطرها إلى أن تفكِّر في كيفية الحصول على التفاح المتدحرِج من أكياس الغَدَاء الممزَّقة إلى صندوقها، تقول «كيسمات»: «ينمي المشي إلى المدرسة طفولة مستقلة، الشيء الذي بدوره يساهم في خلق بالغين مستقلين يتمتعون بالحكم الذاتي: إنه فعل بسيط مبشِّر وقوي، إنه علامة على صحة الأطفال، صحة بيئتنا، وصحة مجتمعاتنا.»

«المشي ليس بالأمر الجذاب» قالت لي ذلك «كيسمات» عندما تقابلنا في مكتبها في الطابق الثاني عشر في «سيتي هال»، حيث لا يهيمن على نشرات الأخبار الدورية مثل «روبن فورد» مدخن الكراك وعمدة «تورنتو» بعد ذلك، والذي كان يُطارَد من قِبَل عشرات الصحفيين، تذكرت الماضي وأنا في الطريق إلى المصعد، فما تزال تعلن بشكل قاطع أن المشي هو جوهر استراتيجيتها لتغيير المدينة، عندما تناقش «كيسمات» هذا الموضوع مع الزملاء، يوجد عادة لحظة غريبة كما تقول «كيسمات»: عندما يدرك الناس أن التركيز على هذا «الجزء الأساسي من الحياة اليومية يُعَد قطعًا فكرة متطرفة».

ولقد توقفنا عن المشي إلى المدرسة لأسباب كثيرة: الخوف من الغرباء، الخوف من السيارات، الأحياء والشوارع التي بُنِيَت خصيصًا لوسائل النقل وليست للمشاة، المدارس الكبيرة التي تقع بعيدًا عن منازل الطلاب، غالبًا على أطراف المجتمعات الجديدة حيث تكون الأرض أرخَص سعرًا، يُحدَّد مواقع المدارس وتصميمها دون التفكير في خُطَط التنقلات منها وإليها، برامج تعليمية ممنهَجة على الطرف الآخر من البلدة، في الغالب حان الوقت المناسب، لا يهم ما تبقَّى من أيامنا، فنحن عمومًا في عجلة من أمرنا حيث نوصِّل الأطفال للمدرسة، نذهب للعمل، نجلب الغسيل،

نحضر الأطفال من المدرسة، نتناول الطعام السريع، نذهب إلى تمرين ألعاب القوى ودروس البيانو، ومنزل المدرس الخصوصي، مع التكرار، «لقد احتل الانشغال مكانة اجتماعية»، عبارة تكتبها «بريجيد شولت» في كتابها «أوفر هيلمد: العمل، الحب، اللعب، عندما لا أحد يملك الوقت»، إن مدى الانشغال الحياتي قد أضحى اليوم دليلًا على مكانة اجتماعية، فأنْ يحاول المرء الوصول إلى الطبقة الاجتماعية التي يتمتع بها آل «جونز» يستوجب أن يصير جدول مهامِّه اليومية أكثر ازدحامًا.

يمكن النظر لجميع الأفكار التي يطرحها هذا الكتاب الصحة البدنية والعقلية، التماسك الاجتماعي، الاستدامة البيئية والاقتصادية، الانتماء السياسي، والإنجاز الروحي والإبداعي من منظور المشي إلى المدرسة، يُعَد المشي نقطة الارتكاز، طريقًا في الرمال، يمثل المشي إلى المدرسة في الغرب الحضري، حيث تربطنا تلك الحياة الغريبة المعولَمة التي نحياها مباشرةً ليس فقط بالجانب الآخر من المدينة، ولكن تربطنا أيضًا بالجانب الآخر من الكوكب أحد أسس إعادة التفاعل مع عائلاتنا ومع الناس والأماكن التي تعمر المنطقة التي نعيش فيها، إنه طريقة لإعادة دمج الجغرافيا البشرية والطبيعية، ويساهم في تجديد ثقافة بسيطة للتعاطف.

تعيش جدتي بالطابق الخامس عشر بعقار ذي ملكية مشتركة بحي «دون ميلز» شمال شرقي «تورونتو»، من أول الأحياء التي خُطِّط لها ببراعة عندما كانت تتطوَّر في الخمسينيات (1950)، استُخدِم النموذج المصمَّم لحي «دون ميلز» وهو عبارة عن حفر الطرق والدُّرُوب ذات النهايات المغلَقة، تخطيط مراكز للتسوق وتحديد زمام المساحات الخضراء كمخطط ثابت لجميع أنحاء البلد، أُدْرِجَت طرق المشاة في ذلك التصميم لكن سرعان ما انتشرت السيارات وتولَّت زمام الأمور، أستطيع أن أرى من شرفة جدتي المكان الذي ينقسم فيه طريق «دون ميلز» الذي يشبه الطريق السريع إلى طرق منفصلة شمالًا وجنوبًا، تقع بينهما جزيرة «بينات بلازا» والتي سُمِّيَت كذلك لاتخاذها شكل الساعة الرملية، تُعَد تلك الجزيرة الوسطي موطنًا للمحال التجارية ومركز مجتمعي وكنيسة وزوج من المدارس، وهنا حيث يجب على الطلاب عبور ثلاث حارات مرورية للوصول إلى المدرسة.

كانت المنطقة المحيطة بـ «بينات بلازا» من أحد المواقع التي قُيِّمَت في تقرير عن قابلية المشي في أحياء تورنتو الشاهقة والتي ذُكِرت في الفصل الثالث، يشعر ثلث السكان فقط بأنها مكان

جيد للمشي، فلقد كانت ممرَّات المشي التي تربط بين الطرق المسدودة والشوارع الملتوية جزءًا من الخُطَّة الأصلية، ولكن سُدَّت بعض تلك الممرات بالأسوار على مَرِّ السنين، يصنع الناس طرقًا مختصرة خاصة بهم، فعبر الأراضي العشبية يمشي الناس في طرق طينية أوجدوها بعد أن قطعوا الأسيجة الجانبية، لكن تفتقر تلك الطرق المنشودة إلى نظام الإنارة، وآلية إزالة الثلوج، وأشكال أخرى من الصيانة، يقول غالبية المشاركين في استطلاع الرأي: إنها تمثل خطرًا حقيقيًّا يهدد السلامة البشرية، علاوة على ذلك، يوجد بشوارع مثل «دون ميلز» أرصفة جانبية ضيقة، والتي ترتكز بشكل مباشر على المرور سريع الحركة، هناك عدد قليل من المُشاة، وأوقات إشارات المرور في كثير من الأحيان قصيرة جدًّا للسماح بمرور آمن، يقول التقرير: «على الرغم من أن تلك الطرق صُمِّمَت كمرافق لسير المركبات بأكبر قدر ممكن من الكفاءة، تمثل تلك الطرق الآن على أرض الواقع الشوارع الرئيسة المحلية لسكان المناطق المرتفعة، والتي يجب المرور من خلالها للوصول إلى معظم الاتجاهات.»

منذ بضع سنوات، أثناء عودتها إلى المنزل، تطلَّعت جدتي بحذر إلى زوج من المراهقين على الرصيف البعيد، بينما كانت تعبر طريق «دون ميلز»، كانت ما تزال في منتصف الطريق عندما تغيرت إشارة المرور وبدأت السيارات تتسابق إليها، أمسك المراهقان بذراعيها وساعَدَاها في أن تمشي بسرعة إلى الحاجز الحجري عند حافَة الطريق.

إن العقبات التي تجعل المشي في المدينة صعبًا أو خطرًا تؤثِّر بشكل غير متناسب على أضعف سكانها من الأطفال وكبار السن والأشخاص ذوي الإعاقة أو القدرات المحدودة، كما شهدت في «جلاسكو»، يساعد المشي على مقاومة العزلة والاكتئاب، بالإضافة إلى جميع الفوائد المادية، مع تقدم السكان في العمر في أوروبا وأمريكا الشمالية ستصبح البيئة المُعَدَّة والبرامج المصمَّمة للتشجيع على الحركة بين كبار السن حاسمة بشكل متزايد، يقول الدكتور «مايكل برات» كبير المستشارين بمركز الحد من الأمراض والوقاية منها في «أتلانتا»: يمكن للمشي أن «يعني الفرق بين حياة إنجازية متواصلة أو بداية موتهم».

لم تعُد عيوب المشاة في منطقة «بينات بلازا» تعني جدتي بعد الآن، فهي لا تخرج من المنزل كثيرًا، الآن وهي في منتصف التسعينات من عمرها، لطالما كانت تعيش حياتها على طريقتها الخاصة منذ وفاة جدي عام 2007، حيث يعكس الشكل الخارجي لبنايتها مزيج الأمم

المتحدة للمنطقة، يراقبها أصدقاء من الصين وإيران وجامايكا، يحضرون أطباقها من المنزل، تستقل سيارة أجرة إلى السوبر ماركت القريب عندما لا يكون الجو في غاية البرودة أو الحرارة، ثم تمشي بامتداد مبانٍ طويلة منحدرة عائدة لمنزلها، تحضر حقيبتها الـ «كاديلاك»، وهي مَشَّاية بمقعد مبطَّن وسلة شبكية، وتحتفظ بمسكنات الألم والشوكولاته بمخبأ للطوارئ بالحقيبة الصغيرة التي تضعها حول خصرها، وبالرغم من أن والدي وجيرانها يعرضون عليها باستمرار إحضار أي شيء قد تحتاجه، فإن جدتي تتردد في الموافقة، بالنسبة لها، رحلة بمفردها إلى السوبر ماركت تُعَدُّ علامة على الاستقلال.

اصطحبتُها في رحلة جديدة، وبينما كنا نتجوَّل بين الممرات جنبًا إلى جنب، كنت أدفع عربة التسوق، بينما كانت جدتي تجرُّ حقيبة صغيرة ذات عجلات، كيس من الدقيق هنا وحُزمة من الموز هناك، أكملت القصة التي كانت قد بدأت على طاولة المطبخ الخاص بها، القصة التي لطالما كانت تخبرني بها على مدار سنوات، المشي الذي أنقذ حياتها ووهبني ميلادي.

كانت «تايلا» تبلغ التاسعة عشرة من عمرها، وكانت تعيش في جنوب شرق بولندا عندما بدأ القصف النازي، حيث اجتاح الجنود الألمان قريتها في ديسمبر من عام 1939 بعد أن تعرض والدها للضرب وهاجر بعيدًا لكونه يهوديًّا، انطلقت «تايلا» وصديقها «ديفيد» من «ستاسوف» إلى الحدود الروسية، مشيًا باتجاه الشرق لمدة خمسة أيام وهما يتظاهران بأنهما أخوان، قدم لهما الفلاحون البطاطس والحَساء الروسي، وسمحوا لهما بالنوم في حظائر الدجاج خاصتهم، وكانوا كلما شاهدوا جنودًا، اتجهوا إلى الخنادق للاختباء، قالت الجَدَّة: «لم يقتلني فعل ذلك»، وبدأت بفحص تاريخ انتهاء الصلاحية المكتوب على علبة حليب الصويا، وعادت لتقول: «لذلك لن يقتلني الحديث عنه».

أوقفتهما القوات الروسية أثناء عبورهما مجرًى جليديًّا على الحدود، وأُجْبِرا على الانتظار في منطقة غير مأهولة بالسكان، في النهاية سُمِح لهما بالدخول والتسجيل في وظائف المصنع في منطقة «أورال»؛ معقل أساس الصناعة السوفيتية الشمالية، وألحقوهما بأشخاص من مختلف الأديان، كان الشيء الوحيد الذي يقلقهما هو البقاء على قيد الحياة وليس ارتياد الكنيس اليهودي، في ربيع عام 1941، لم يَعُد ما بينهما مجرد صداقة، وانتقلا جنوبًا للعمل فيما يُعْرَف الآن بجمهورية جورجيا، أحب جدي منذ نشأته التجول في غابات ستازوف أثناء الحرب، كان من الضروري عليه

الذَّهاب إلى المصنع من أجل الاقتراض لتوفير الطعام والدواء، هاجم النازيون روسيا في يونيو من عام 1941 وجُنِّد إلزاميًّا، في ذلك الخريف وُلِدت أمي.

بعد فترة الحرب، عادت عائلتها إلى «بولندا»، ثم تبعوا أقاربهم إلى «نيويورك» واستقروا في «بروكلين»، في تلك الشقة القريبة من حدائق «بروسبيكت»، على الرغم من وقوع سرقتين بالإكراه، وبرغم طول ساعات العمل بخط إنتاج مصنع الأحذية، فإن جدي أعاد اكتشاف شغفه بالمشي، لا يهمُّ إذا كان الطريق وعرًا أو كان يمشي لمهمة روتينية بعد سنوات، وحتى الرحلة إلى «بينات بلازا» حمل تعبير الحرية.

كنت أمشي بصعوبة عندما كنت طفلة، بمجرد ما استطعت التوازن على ساقيَّ، كانت أمي تحب أن تقول: إني أركض، ومع ذلك ثابَرَ والداي ولم يشعرا باليأس، اصطحباني وإخوتي في رحلة عطلة نهاية الأسبوع إلى جرف نياجرا غرب تورونتو، عندما كنت أخسر في سباق تشابُك الجذور أو القفز فوق الشقوق التي توجد بين الصخور، كنت أبدأ بالنحيب مُدَّعِيَة التعب والجوع، وأمتنع عن الحركة، وهذا ما كنت أفعله أيضًا عندما كنا نُجبَر على أن نسير إلى مطاعم بعيدة عن منزلنا، لم نكن نمتلك تلفازًا بالمنزل حتى بلغت سن المراهقة، وقد كان ذلك يمنحنا الفرصة لأن نحظى بأمسيات جميلة وصحية، لم تكن أمي تجيد القيادة؛ ولذلك كانت نزهاتنا معها (إلى المكتبة وإلى السينما وإلى المركز التجاري) بشكل ثابت سيرًا على الأقدام حتى ولو كنا ذاهبين فقط إلى محطة الحافلات، كانت تغرينا مقدَّمًا بقطع الحلوى وبالترفُّق بنا، وقد كان هذا هو الحل الوحيد أمامها كي تقنعنا بالمشي، لكنه مع ذلك قد ساعد في تقوية الروابط العاطفية بيننا وبينها.

برغم شكاواي الكثيرة من المشي، فقد حدث شيء مهم جدًّا خلال تلك التمشيات، فقد اكتسبت الراحة مع العالم الخارجي، وقدرة ذاتية كبيرة على التحمُّل، بدأت أدرك حجم الحي الذي نقطنه، وكيف يتناسب مع الصورة الحضرية الأوسع، شاركت والديَّ الملاحظات والنظريات، وكان لديهما الوقت للاستماع والمناقشة، كنا أنا وشقيقاي مقيدين، حيث لا أصدقاء أو كتب كوميدية أو بطاقات الهوكي لتقوم بإلهائنا، لذلك تفاوضنا على طرق لتسليتنا ولنتسامح بعضنا مع بعض.

عندما كنت في السابعة من عمري، بدأت أمشي إلى المدرسة لثلثي ميل دون إشراف من أي شخص بالغ، مكوِّنًا صداقات على طول الطريق، ما زال باستطاعتي رسم خريطة توضح المنازل العملاقة، والتي حل محلها منازلُ مؤلَّفة من طابق واحد حيث كان رفاقي يعيشون فيها بالتزامن مع

عطلة نهاية الأسبوع وعروض المطاعم، تراود ذهني الذكريات المتوارثة عن الحرب والنفي، إن العرق دسَّاس.

أولًا طاردتنا الكلاب، ثم صُدِمنا بسياج كهربائي، ثم أُصِبْتُ بالطفح الجلدي بسبب الأشجار المتشابكة.

لقد ذهبت مع «ليسا» إلى رحلات ملحمية، لقد رأينا الثور الأمريكي في البراري، وكذلك شروق الشمس فوق مجموعة من البراكين المُغطَّاة بالجليد في ولاية ألاسكا، والحيتان تنشد في ليلة القمر المكتمل في خليج فاندي، لقد اتجهنا بتمهُّل مشيًا على الجانب الآخر من النهر مساء يوم الأحد لتناوُل عشائنا المفضَّل وهو الفطائر، كانت تلك أيامنا الأولى كثنائيات، بدأت قصصنا تتدفَّق قبل الرهون العقارية والأبوة، قبل ألم الركبتين وصعوبة الرؤية، ممسكين بأيدي بعضنا، صامتين أو نتبادل الحديث، لكن كنا نفضل المغامرة في كثير من الأحيان، مثل تلك المرة التي ضللنا فيها الطريق في جبال «البيرنيه» بعد مطاردة كلاب الصيد والصعق بالكهرباء، لبدء مرحلة جديدة.

في الليلة السابقة كنا في عطلة في بلدة صغيرة في إسبانيا، وارتدنا ناديًا حتى الساعة الرابعة صباحًا، لكني كنت مصمِّمًا على الالتزام بالخطة التي وضعناها (اقرأ: خطتي)، السفر لمشاهدة قرى القرون الوسطى ذات المناظر الخلابة الفاتنة التي تقع بنهاية الطرق الجبلية المتعرِّجة، المشي عشرات الأميال عبر الغابات والمزارع، العودة إلى الفندق في الوقت المناسب للاستحمام قبل تناول العشاء.

لقد تسببت بدايتنا البطيئة في المشي في أن نصل إلى نقطة بداية ممر المشاة في وقت الظهيرة، انقضت ست ساعات، والعديد من المنعطفات الخاطئة لاحقًا، بالكاد قطعنا مسافة بلغت ربع الطريق، غرقت أحذيتنا من سلوك المعابر النهرية بشكل متكرِّر، نفد الماء والطعام، لا نرى أي علامات تدلنا على المخرج؛ لذلك اقترحت أن نتسلق إلى قمة الجبل الذي نلتفُّ حوله الآن دون قصد، قلت مبتهجة «ربما» للتعويض عن أخطائي الفادحة سنتمكن من رؤية الطريق.

لكن ظل يزعج «ليسا» شيئان حول الطريقة التي أتبعها في المشي في العشرين عامًا التي قضيناهما سويًّا: أني كنت أبحث دائمًا عن طرق مختصرة، ونادرًا ما كنت أوافق على التوقُّف حتى أعرف ماذا يوجد وراء المنعطفات، وهي أمور لا تخدم المرء عندما يضل الطريق.

يُعَد المشي عادةً مع شريك حياتك شيئًا جيدًا للعلاقة، حيث يمنحكما الوقت لزيادة تركيز كلٍّ منكما على الآخر، لاكتشاف ما هو مهم لكل منكم، يكتب عن ذلك «هاوارد سكوت» في مجلة «بوسطن جلوب» تشعران وكأنكما ثنائي ... تتحدثان كالفريق، حيث يتم تدريجيًّا تقوية رابط الزواج، حتى وإن كان ذلك الرابط مهددًا بالانهيار.

تمكنت الحوادث التي وقعت أثناء السير من تعزيز الاتحاد المرن بيني وبين ليسا، يؤدي الخطأ في قراءة الخريطة أو بخلط الأميال والكيلومترات أو إهمال ملاحظة الحدود أو المسافة أو الارتفاع الإضافي إلى التوتر، وبالرغم من ذلك، نشعر وكأننا في منزلنا، كنت أتعلم على مَرِّ السنين اختيار طُرُقِنا بشكل متعاون بيننا لتعديل دافعي في التقدم بسرعة والاستماع إلى ليسا عند قولها: إن الحافة الصخرية التي نحن فيها هي مكان جيد للتنزُّه، لكني لست دائمًا أستمع لها، أحتاج لأن أُذكَّر بأن كفاءة عدد الكيلومترات لدينا أهم من كميتها، لكن في جبال «البيرنيه» بينما كنا مرهقين مهزومين؛ أدركت في النهاية ومع أنها ليست المرة الأخيرة أن نزهتنا لم تكن عن سرعتي أو القدرة على التحمُّل أو استعراض أفضل مهارات اكتشاف الطرق، بينما كانت ببساطة عنَّا، حان الوقت للتسلُّق حتى نتمكن من رؤية الطريق، وننزل من أقرب المسالك إلى الطريق حيث يمكننا طلب المساعدة من سيارة مارَّة تقلُّنا من أجل العودة.

في هذه الأيام، عندما نصبح أنا و«ليسا» بمفردنا بأمسية خاصة بنا، تبدأ مواعيدنا الغرامية في كثير من الأحيان بتمشية، حتى ولو كنا في نطاق المساحة الخضراء حول الزاوية القريبة من منزلنا، تفوق تجربتنا الحدود، حيث غروب الشمس البرتقالي ينعكس على الأبراج الإسمنتية الزجاجية لقرية «هيرون جيت»، العبق الجميل لزهور الليلك اليابانية وهو ينتشر ويملأ الأجواء، وبينما نمشي نتحدث، نتحدث عن آبائنا المسنِّين، أطفالنا الكبار، أنفسنا التي كبرت، نتحدث عن ممرات تركناها خلفنا، وأماكن سوف نذهب إليها، نتحدث عن تلك المخاوف الكبيرة نهاية العالم، الانهيار الاقتصادي، التكنولوجيا الجامحة وكيف لا تبدو تلك المخاوف سيئة للغاية هنا وفي اللحظة الحالية، نتحدث عن إيجاد ذلك الخيط الرفيع الذي يربط بين الطرق الواسعة والضيقة منها، وبمجرد أن نبدأ في الخروج من الغابة، تتراجع مخاوفنا.

ظللت أنا وبناتي نشعر بعدم الراحة أثناء مرورنا في أرجاء «ألتافيزتا وراندال» لمدة شهور بعد وقوع الحادث، كانت «ماجي» تشعر بالغضب كلما قُدْنَا دراجاتنا إلى المدرسة، ولقد كان هذا

رُكنَنَا المخصص لركوب الدراجات، ومع ذلك كان قلبي يتسابق في كل مرة تنحرف سيارة بشدة نحونا أو تستخدم مكابحها في وقت متأخر، نظرت بغضب شديد إلى هؤلاء السائقين المخالفين، وخفضت سرعتي عمدًا أثناء العبور، يوجد أطفال هنا في هذا المكان وأعتقد أني على حق، تباطأ قليلًا من فضلك.

في صباح أحد أيام فصل الشتاء، بينما كنت في طريقي إلى المنزل بمفردي، انزلقت سيارة إلى نقطة توقف في نفس المكان الذي تعرَّضْنا فيه مسبقًا للاصطدام، حيث كان ماص الصدمات الخاص بتلك السيارة على بُعْد نحو أربعة أقدام من ساقي، اقتربت من نافذة السائق فوجدت امرأة تفتح النافذة.

قلت لها بهدوء وأنا مرتجف: «لديَّ الحق في العبور في الطريق هنا.»

أجابتني: «أعتذر، لم أكن أراك.»

قلت لها: «توجد مدرسة هناك، مشيرًا خلفي، يعبر الأطفال من هنا.»

عادت مرة أخرى لتكرر اعتذارها قائلة: «لم أكن أراك حقًّا، ماذا تريد مني أن أقول؟»

أجبتها «لا تعتذري لكن انتبهي، رجاءً في المرة القادمة انظري أمامك جيدًا.»

عدت إلى جهاز الحاسوب الخاص بي، فعلت ما سيفعله أي شخص من سكان المدينة المهذَّبين، لقد أرسلت بريدًا إلكترونيًّا غاضبًا إلى مستشار البلدية محمَّلًا بالكثير من السخط، كما قمت بإضافة كل شخص قد يهمه الأمر مثل مدير المدرسة، مجلس الآباء، وجماعات الدفاع عن المشي، كما أضفت في البريد أن بناتي سيلتحقن بالصف الخامس العام المقبل؛ ولذلك ينبغي أن تكونا قادرتين على المشي إلى المدرسة بمفردهما؛ لهذا ما الذي يمكن أن تفعله المدينة لكي تجعل هذا التقاطع أكثر أمانًا؟ تخفيف الازدحام؟ وضع لافتات مرورية أفضل؟ حارس مرور؟ هل يتعين علينا الانتظار حتى يصاب طفل بجروح خطيرة قبل القيام بشيء ما؟

وبعد مرور أسبوع كانت لديَّ مكالمة هاتفية مع إحدى مساعدي المستشار، لقد وعدتني بأن هناك تغييرات قادمة في ذلك الشأن، كما أضافت أنه سوف يُخطَّط لاستبدال الخطوط البيضاء التي تحدِّد ممرات المشاة بتقاطعات عالية الوضوح، وتكون في تلك الحالة مصمَّمة على شكل أسطح

طوبية، وبذلك تكون تلك الأسطُح أكثر وضوحًا لسائقي الدراجات النارية الذين سيميلون أكثر حينها إلى التنازل عن القِسم الأيمن من الطريق للمشاة كما قال باحثو الحركة المرورية، حددت إحدى التجارب في سان فرانسيسكو والتي اشتملت على مقارنة التقاطعات المعروفة والمسيطر عليها أن حوادث السيارات انخفضت بنسبة 37 بالمئة عند التقاطعات ذات الأسطح العالية أو الإشارات المرورية الواضحة، وجدت دراسة أخرى في «كليرواتر، فلوريدا» أن السائقين تراجعوا وبدأوا في السير على الأقدام بنسبة تصل 40 بالمائة عندما أصبحت التقاطعات أكثر وضوحًا.

علاوة على ذلك، أخبرني مكتب المستشار أن إدارة الأشغال العامة في مدينة «أوتاوا» ستجري إحصاءً مروريًّا في «ألتافيستا وراندال»؛ لتحديد ما إذا كانت هناك إجراءات لاتخاذ تدابير السلامة الإضافية، كان أحد الخيارات هو إشارة مرور فاصلة والتي تمنح المشاة ضوءًا أخضرَ مسبقًا يستمر لمدة خمس ثوانٍ تقريبًا؛ مما يتيح لهم العبور ويجعلهم أكثر وضوحًا للسائقين قبل بدء التحرُّك، صرحت الرابطة الوطنية الرسمية للنقل في مدينة نيويورك أن إشارات «LPI» تقلل من حوادث تصادم السيارات بالمشاة بنسبة 60 بالمئة.

شعرت حينها بسعادة بالغة، فقد كان ممثلي الذي انتخبتُه يقوم بدوره.

استلمت بعد ذلك نتائج الإحصائية المرورية، في خلال ساعتين ومع أصوات أجراس المدارس الصباحية والمسائية، تم حساب ما بين 112 إلى 119 شخصًا من المشاة على التوالي، ومع ذلك فإن هذا غير كافٍ لتبرير أي تدخلات إضافية، وبالرغم من ذلك، لاحظ فني العمليات المرورية بالمدينة أن العديد من البالغين أهملوا الضغط على الزر الذي ينشط أيقونة المشاة، وبالرغم من ذلك أثناء عمليات المرور في المدينة لم يلاحظ أن العديد من البالغين أهملوا الضغط على الزر الذي ينشِّط أيقونة المشاة؛ لذلك سيتم تثبيت «إشارة دليل المعلومات Mx-38» لتذكير المشاة بالإجراءات الصحيحة التي يجب عليهم اتباعها عند عبور الشارع».

بخيبة أمل، فعلت شيئًا أقسمت أنه لن يحدث أبدًا؛ لقد حضرت اجتماع مجلس الآباء.

جلست في مكتبة المدرسة مع عشرات من النساء، شاركت اهتماماتي مع تلك المجموعة، وقال المدير: إن الآباء كثيرًا ما يقومون بإسناد مسؤوليات خطيرة إلى طريق «راندال»، كما أضاف أنه تم اصطدام سيارة معلِّم مؤخرًا، وأكمل بأن السائقين كثيرًا ما يتجاهلون ضباط المرور،

يسرعون في القيادة ويركنون سياراتهم في الأماكن غير المخصَّصة للوقوف؛ مما يؤدِّي إلى عرقلة مجالات الرؤية وممرات المشي، وكلما كانت تُستدعى الشرطة أو ضباط تنفيذ اللوائح والقوانين، لا يصلون أبدًا بالسرعة الكافية لتسجيل المخالفات، سألت واحدة من الأمهات: «ما الذي نعلمه لأطفالنا؟ هل هذه هي الطريقة التي نريدهم أن يتصرفوا بها؟»

يقف أحد عشر شخصًا بالغًا على شكل دائرة في ردهة مدرسة الملكة إليزابيث الحكومية في صباح يوم معتدل، حيث يقع مبنى مصمم بالطوب على جانب طريق تجاري سريع الحركة في الطرف الشرقي من أوتاوا، يحضر ما يقرب من 350 طالبًا بداية من مرحلة رياض الأطفال وحتى الصف الثامن، يعيش منهم نحو سبعة وأربعين بالمائة فيما تعتبره المقاطعة الأسر الأقل دخلًا، وأربعين بالمائة لديهم لغة أولى بخلاف اللغة الإنجليزية، يقول مدير مدرسة الملكة إليزابيث: «تحد العوائق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من عدد الأطفال الذين يمشون أو يركبون الدراجة إلى المدرسة خاصة في الأشهر الباردة، ما زالت «كاتري ديشينيز» تريد زيادة عدد الطلاب الذين يستخدمون وسائل النقل النشطة وجعل منطقة المدرسة أكثر أمانًا لأولئك الذين يقومون بذلك، بدأت في التحدث إلى «والاس بيتون» الرجل الذي بدوره دعا إلى انعقاد اجتماع اليوم على الفور.

«بيتون» هو المنسق الإقليمي لمشروع تخطيط رحلات السفر المدرسية المحلية، أجرى على مدار الأشهر الثمانية الماضية بالتعاون مع مسؤولة مشروع «STP» «جيسيكا شريدان» استطلاعات رأي؛ لتحديد كيفية ذهاب طلبة مدرسة الملكة إليزابيث إلى المدرسة، وأيضًا أجرى استطلاع رأي للمعلمين وأولياء الأمور حول عادات السفر، وقاموا بملاحظة أنماط حركة المرور والمناطق التي تشكل خطرًا على المشاة وراكبي الدراجات في المحيط المدرسي وما حوله، اليوم تقود «شريدان» جولة لتفقُّد هذه المواقع، ومن ثَمَّ المناقشة حول أفضل السبل لمعالجة جميع العقبات الحقيقية والمتصوَّرَة، كما انضم إليها أناس مستعدون لتنفيذ تلك التغييرات: ضابط شرطة وضابط في اللوائح الداخلية ومذيعة السلامة المرورية بمدينة أوتاوا، واثنان من ممثلي شركة النقل بالمدينة، وممرضة الصحة العامة ومعلم وأحد أولياء الأمور ومدير المدرسة؛ لذلك فإنه يستغرق الكثير من الوقت والمجهود في عام 2014 لجعل الطفل يمشي إلى المدرسة، كان الطريق شبه الدائري أمام الأبواب الرئيسة للمدرسة هو محطتنا الأولى، حيث لا توجد خطوط على الطريق تشير إلى أماكن ركن السيارات، ولا توجد أي علامات للتوقُّف حيث تقطع السيارات الخارجة عن مسارها الأرصفة، وأضافت «شريدان» أثناء قراءتها لقائمة من الشكاوى أن الطرق التي تُركَن السيارات

فيها بشكل مزدوج تمثل خطرًا على الأطفال، ثم تشير إلى حامل دراجات متهالك منقول بعيدًا بجانب الأبواب الجانبية، قائلة أنه يمكن لحامل مميز ولامع أن يجذب العديد من الأطفال ويدفعهم لتجربة ركوب الدراجة، يوجد في الحديث كَمٌّ من الطاقة الإيجابية، يهزُّ المسؤولون عن مشروع «STP» رؤوسهم بما يوحي باتفاقهم معها في الرأي وتدوين الملاحظات، عادةً أكره الكلمة التي تبدأ بحرف السين، ولكن في هذه الحالة سواء عن طريق تغيير الهيكل: تطبيق القانون أو تنفيذ حملات توعوية وتعليمية بعدد متزايد، يبقى المسؤولون في مكان عالٍ منعزل.

تبعنا «شريدان» إلى حافَة مبنى المدرسة، وفى مجموعة من الأضواء نعبر شارع «ساينت لورانت بوليفارد» المزدحم، تقول «شريدان»: إن إشارة مرور المشاة في تلك المنطقة قصيرة ممَّا يجعل الأطفال منعزلين في المنتصف، ويدفع البعض لعبور الشارع بطريقة غير سليمة وكسر إشارة المرور، يوجد موقف حافلات على الجانب الآخر من شارع «ساينت لورانت» حيث تصل الحافلة الأولى بعد انتهاء الدوام المدرسي الساعة 40:3 مساءً، أي بعد عشر دقائق من انتهاء اليوم الدراسي، هذا يجعل الطلاب يندفعون ويعبرون الطريق بطرق غير صحيحة على الرغم من الازدحام المروري.

قال لنا أحد مندوبي شركة النقل: «ستأتي الحافلة الثانية في غضون 15 دقيقة.»

رد عليه «بيتون» قائلًا: «إذا كنت طفلًا في الصف السادس، ستمر عليك الخمس عشرة دقيقة كأنها دهر.»

انتقلنا بعد ذلك لمناقشة مجموعة من النقاط الأخرى الخاصة بالمشكلة؛ حيث تسرد «شريدان» الشكاوى: المنعطفات الشديدة، والخطوط البيضاء الباهتة عند ممرات المشاة، وغياب أرصفة المشاة، سرعة السيارات التي تفوق 50 ميلًا في الساعة، بالعودة إلى المدرسة وبالتحديد داخل غرفة الاجتماعات الصغيرة، تناقش المجموعة كل موقع وما الذي يمكن عمله، كما وعد «بيتون» بالتواصل مع جهات اتصاله من مجلس إدارة المدرسة حول رسم لافتات الإشارات المرورية في مناطق القصور، بما في ذلك العلامات المضادة للخمول، يقول مندوب شركة النقل: إنه سوف يبحث في إعادة حافلة الساعة 40:3 مساءً، بالإضافة إلى أن منسِّق السلامة المرورية لمدرسة «أوتاوا» سيحاول الحصول على مجموعة إشارات المدينة لإطالة مدة العبور وتقليل وقت الاستجابة عندما يضغط الناس على زر المشاة في شارع «ساينت لورانت»، وهي تغييرات يمكن

تنفيذها عبر نوافذ محدَّدة حول جرس المدرسة، يمكن للمدينة أيضًا إعداد لوحات سرعة مفعَّلة متَّصِلة بالرادار في شارع «ساينت لورانت»، لن تعمل تلك اللوحات فقط على تنبيه السائقين بمدى سرعتهم، وتخويف البعض الآخر وحثهم على التباطؤ، ولكن أيضًا ستُسجِّل البيانات التي تُشارَك مع قوات الشرطة، وإذا كانت هناك أدلة كافية على السرعة يتم محاسبة السائق بفرض رسوم إضافية، وقال ضابط الشرطة: إنه سوف يُعيَّن ضابط مرور لمراقبة السائقين المخالفين وتوقيع الغرامات عليهم.

ويضيف قائلًا: «إليكم ما أعرفه عن الناس، في غالبية الوقت لا يعير الناس اهتمامًا لتلك الأمور، ويفتقرون للإحساس العام، ولكن عند توقيع بعض الغرامات، يميلون إلى تغيير تلك السلوكيات.»

يحاول «آندرو هوارد» جراح عظام الأطفال والباحث في إصابات السير بجامعة تورونتو تحديد أيٍّ من الإجراءات الأمنية بالمنطقة المدرسية قد تكون الأكثر فاعلية، وقد عقد مناظرة أدبية لعددٍ من الدراسات فيما يتعلَّق بإصابات المشاة من الأطفال بلغت 85 دراسة، أُجْرِيَت تلك الدراسات في مناطق ذات كثافة عالية (أستراليا، اليابان، نيوزيلاندا، شمال أمريكا، غرب أوروبا)، وتم التصدِّي لها بمجموعة من المعايير الصارمة (تم النظر فيما يقرب من13000 مقال في البداية)، بين الأطفال في كندا الذين تتراوح أعمارهم من 5 إلى 9 سنوات ترتبط حوادث المشاة بحوادث السيارات، والتي تُعَد السبب الرئيس في الإصابات غير المتعمدة والتي ربما تؤدي إلى الموت، يُقْتَل ما يقرب من 55 من المشاة من الأطفال ويَبقَى حوالي 780 داخل المستشفيات بإصابات خطيرة كل عام، انخفضت تلك المعدلات بنسبة 50 بالمائة في الفترة ما بين عام 1994 وعام 2003، ويُعَد ذلك نفس الاتجاه المتبع في بلدان أخرى، لكن يرجع السبب في ذلك إلى أن الأطفال لا يمشون بنفس القدر الذي اعتادوا عليه في السابق، كذلك الانخفاض «الأكثر وضوحًا في الرحلات المدرسية»، عندما يمشي الأطفال إلى المدرسة، تقع الحوادث، وقع ما يقرب من 50% من حوادث تصادم الأطفال المشاة خلال وقت التنقل المدرسي.

«وقع ما يقرب من 50% من حوادث تصادم الأطفال المشاة خلال وقت التنقل المدرسي، حيث وقعت أعلى نسبة تصادمات على بُعْد 150 مترًا من المدرسة»، آلت الدراسات الخمس

والثمانون التي طُرِحَت في المناقشة إلى أن «فقط الحركة المرورية الهادئة ووجود الملاعب أو المناطق الترفيهية ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالمزيد من المشي والقليل من إصابات المشاة».

كشف تقرير آخر نشره «هاوارد» وزملاؤه عام 2014 عما إذا كانت زيادة المشي إلى المدرسة قد تؤدي إلى ارتفاع نسبة حوادث المشاة من الأطفال، تم تحليل إحصائيات خاصة بذلك النوع من الحوادث التي وقعت خلال تسع سنوات، والتي تم الحصول عليها من سجلات شرطة «تورنتو» للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 4 أعوام و12 عامًا، ولوحظ سلوك السفر في العديد من المدارس الابتدائية في المدينة، كان هناك العديد من المتغيرات التي تميز الأحياء: كثافة المساكن التي تعيش بها الأسر كبيرة الحجم، إشارات المرور وسيولة الحركة المرورية، ازدحام الشوارع ذات الاتجاه الواحد، وجود حراسة للمشي إلى المدارس، والحالة الاجتماعية والاقتصادية، نص التقرير في النهاية على أن المشكلة ليست من وجود نسبة من المشاة، ولكنها تتمحور حول الشكل الحضري لنظام الحياة اليومي الذي انعكس بشكل كبير على حوادث السير، تُعَدُّ ملامح تصميمات الطرق السبب الأقرب، والتي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمعدلات تلك الحوادث، في الغالب تكون الأماكن المخصَّصة لعبور الشارع، أيضًا الطرق التي تربط بين المكان الذي نتواجد فيه وبين كل مكان آخر.

مع استمرار الحديث حول طاولة غرفة اجتماعات مجلس الملكة «إليزابيث»، بدأت أدرك مدى صعوبة تنفيذ مجرد إجراء أمني واحد جديد، يُعَد المشي إلى المدرسة رحلة متواصلة، لا يهم ما إذا كانوا بالمدينة أو بالمدرسة أو بملكية خاصة، ولكن تقع مسؤولية عبورهم الآمن على عاتق مجموعة من الأحزاب والتي طالما أعطى بعضها الأولوية للسيارات.

اشترك «بيتون» كمتطوع مع المنظمة الأم لمشروع مصنع معالجة مياه الصرف الصحي«STP»، وهي منظمة غير هادفة للربح تُعْرَف بالمجتمعات الخضراء بكندا، اعتاد بيتون أن يكسب رزقه من العمل على قضايا بيئية كبيرة بالنسبة للمنظمات غير الحكومية، ولكن كان يبدو الشعور أحيانًا وكأن «تايتانيك» تغرق فوقه، ولكنه ضرب بتلك الأفكار عُرض الحائط، كان في حاجة إلى التركيز على التغييرات البسيطة، أدرك «بيتون» أن نشاط السفر يتآكل منذ عقود، مرتديًا وشاحًا عاكسًا في موقف السيارات الخاص بمدرسة بناته، في وقت متأخر من الليل وُجِدَ بجانب مكتبه إقرار دعم ذو سقف مطالب منخفض تم تحضيره بواسطة الآباء، أصبح مشروع معالجة مياه الصرف الصحي اليوم وظيفته بدوام كامل، يتم تمويل البرنامج في «أوتاوا» من قِبَل هيئة النقل

المدرسي بالمدينة والتي تدير شبكة الحافلات المدرسية، تنفق وزارة التعليم في «أونتاريو» نحو 860 مليون دولارٍ سنويًّا على النقل المدرسي، والتي تنفق الغالبية العظمى منها على الحافلات، وهي خدمة تستوعب نحو ثلث طلاب المقاطعة، ثُبِّتت تلك التكلفة إلى ما يقرب من 600 مليون دولار منذ عشرات السنين، يملك كل طفل الحق في أن يُنقَل بالحافلة إذا كانوا يعيشون على بُعْدِ مسافة معينة من موقع مدرستهم، يقول «بيتون»: يمكن لشريحة من هذه الميزانية أن تكون صفقة رابحة للغاية إذا وُجِّهَت لتعزيز ودعم النقل النشِط، نحن لا نتحدث عن دولارات كثيرة، حيث يمكننا أن نفعل الكثير مع بعض السياسات وبعض الهيئات والقليل من المال.»

قد يكلف إدخال الإصلاحات على البيئة المبنية أموالًا طائلة، يكون القرار الذي نأخذه كل صباح من السهل تعديله؛ ولذلك ينصح بيتون بأنه إذا استطعت، فابدأ بالسير إلى المدرسة مرة واحدة في الأسبوع، امشِ جزءًا من الطريق، أو قم ببساطة بالاستغناء عن سيارتك ودع الطفل يعبر الشارع، ولتستمر الحركة الأرضية، «لقد أنشأنا ثقافة التنقل المدرسي يندفع بعض الآباء المضغوطين أثناء إشارات التوقف التي تتوافق مع احتياجاتنا وضغوطات مرحلة البلوغ، اسأل أي معلم: فهم لديهم القدرة على معرفة الطلاب الذين مشوا أو ركبوا الدراجة إلى المدرسة، حيث يكون أولئك الطلاب مُفعَمِين بالنشاط متيقظين وعلى استعداد جيد للتعلُّم.»

يضع كل من «شريدان» و«بيتون» خطة عمل للملكة إليزابيث، وسيقضون عامًا كاملًا في العمل مع المدير والموظفين وأولياء الأمور لتنفيذها، ولقد شاركت 20 مدرسة في «أوتاوا» في برنامج «STP» منذ إنشائه عام 2010، ولحسن الحظ ستكون مدرسة بناتي واحدة من المدارس التالية التي ستشارك في البرنامج، حضرت اجتماعًا آخر لمجلس أولياء الأمور للسعي من أجل الالتزام، كان النجاح هائلًا في بعض المدارس: زاد عدد الطلاب الذين يمشون ويركبون الدراجات في مدرسة واحدة بالقرب من وسط مدينة «أوتاوا» لأكثر من الضِّعْف من 27% إلى 60%، أنشأ المركز القومي «طرقًا آمنة للمدرسة» في الولايات المتحدة عام 2006، ارتفع عدد المدارس المشاركة في برامج مشابهة لبرنامج «STP» من 1833 مدرسة إلى 13863 مدرسة بين عامَي 2007 و 2012، في جميع الولايات الخمسين، وارتفعت معدلات المشي من وإلى المدرسة من 12.4% إلى 15.7% في الصباح، ومن 15.8% إلى 19.7% في فترة ما بعد الظهيرة، حيث يُعَد أكبر نمو حدث في المدارس ذات الدخل المنخفض، لا تعرف «كاتاري ديشينيز» كيف ستتغير

الأرقام بشكل مميز في فترة حكم الملكة إليزابيث، ولكن كما أخبرتني بعد حل مجلس الإدارة، فكل ذلك المجهود سيؤتي ثماره على الأقل بتقديم فكر جديد لبعض الطلاب، كما أضافت: «أنا أستطيع المشي وقد أفعل ذلك في المستقبل».

يُعَد طريق «أونتاريو» السريع رقم 401 هو أكثر الطرق السريعة ازدحامًا في أمريكا الشمالية، في بعض الأيام تسير أكثر من 500 ألف سيارة في قطاع مكوَّن من 14 طريقًا والذي يمر عبر «تورنتو»، تواجه شرفة جدتي الطريق السريع من الشمال، المنزل الذي نشأت فيه يقع على بُعد عشرات من الأبنية إلى الجنوب، إنه شهر يوليو، صباح يوم الإثنين في ساعة الذروة، انطلقت على الطريق السريع متجهًا نحو الغرب في اتجاه معاكس بعيدًا عن المدينة، كنت مصطحبًا «ماجي» و«دايزي» معي، فلقد انتهت السنة الدراسية وسنذهب للمشي معًا.

سنقصد ممر بروس للمشاة، وهو أطول وأقدم ممر مميز للمشاة في كندا، تم رسميًّا افتتاح ذلك الممر، والذي يبلغ طوله حاليًّا 550 ميلًا، عام 1967 في الاحتفال المئوي للبلاد، تصور «راي لوز» مؤسس ذلك الممر قطعة من الأرض ستُتْرَك وحيدة دون رعاية أو تطوير، قال «راي لوز»: إن السؤال هنا ليس كثيرًا، ستقوم الأجيال القادمة بطلب ذلك، يتبع الممر جرف «نياجرا» الذي يقع على مسافة بعيدة من الحدود الأمريكية، والمتشعب من «هاملتون»، حيث يلتف حول حدود منطقة «تورنتو» الكبرى في الطريق إلى محطتها الشمالية الأخيرة، وهي النصب التذكاري على طرف شبه جزيرة «بروس».

منذ أن كانتا «ماجي» و«دايزي» صغيرتين، كنا نأخذهما أنا و«ليسا» في نزهات لا تُعد في البَرِّيَّة والمدينة، إلى الملعب والمحالِّ التجارية، وممرات المشاة بجانب البحيرات، والاستحمام في الطين الأخضر، تشاركنا الأحاديث القصيرة، وجمعتنا الأحاديث الطويلة أيضًا، تناقش الخلافات وتزداد المودة، تجمِّع «ليسا» العصيَّ وأوراق الشجر والصخور والزهور مع الفتيات، بينما نقوم نحن بإعداد طعام العشاء، تصنع بناتنا منحوتات ومجموعة من قطع اللصق على أرضية المطبخ باستخدام الغنيمة التي جمعوها مسبقًا، يكتب «ريتشارد لوف» في كتابه «آخر طفل في الغابة: إنقاذ أطفالنا من اضطراب نقص الطبيعة»: «لقد تغيرت طريقة الأطفال في فهم واختبار الطبيعة في غضون بضعة عقود تغيُّرًا جذريًّا، لقد تحركت قطبية العلاقة في الاتجاه المعاكس، فاليوم يدرك

الأطفال جيدًا التهديدات العالمية التي تواجه بيئتهم، ولكن سرعان ما يتلاشى اتصالهم الجسدي وعلاقتهم الحميمة بالطبيعة.»

في شهر مايو اصطحبت «ماجي» و«دايزي» معي إلى ممشى جين، واحدة من آلاف طرق المشاة العامة المجانية المقدمة في جميع أنحاء العالم كل عام تكريمًا لـ «جين جاكوبس»، لقد كانت نزهة للبحث عن الطعام في وادٍ يقع على بُعْدِ بضعة مبانٍ من منزلنا، مضغنا الجرجير والزَّنبق وجذور نبات الأرقطيون (من الجيد بالأعضاء القابلة للإزالة بعد شتاء مليء بالبطاطا والجزر)، أشارت دليلتنا «آمبر ويستفال» خبيرة الأعشاب إلى الأشجار التي تطلق المواد الكيميائية التي تم دراستها من قِبَل العلماء في اليابان، والبذور التي يمكن استخدامها في صنع الشاي الذي يساعد في التغلب على حالة الحزن، حيث قالت: إن «النباتات تربطنا بأصولنا الحيوية، بالعالم الذي نعيش فيه»، يمكننا تطوير شغف حقيقي، إذا شعر الناس بمثل هذا الاتصال سيبدؤون حينها بالشعور بالمسؤولية.

أعطتني «دايزي» إشارة إعجاب بإبهامها وهي تمضغ ورقة خردل الثوم، وقالت عن النزهة بعد انتهائها: «لقد كانت أكثر إثارة للاهتمام مما كنت أعتقد أنها ستكون»، تستغرق الرحلة من «تورونتو» إلى ممر بروس أقل من ساعة بالسيارة، ولكني لم أعُد إلى هناك منذ أن كنت طفلة، بينما نأخذ الطريق السريع نركن السيارة على طريق جانبي، تكون حقائب الظهر خاصتنا مليئة بشطائر النوتيلا وزجاجات المياه المجمَّدة وملابس الاستحمام؛ فقد كنا قد حجزنا ليلة في فندق يقدم المبيت والإفطار فقط على بُعْد ثمانية أميال، تسابقت البنتان كالسناجب، فقد كانت تلك أطول نزهة سيرٍ على الأقدام في حياتهن حتى الآن.

بدأت «ماجي» و «دايزي» تحشوان فميهما بالتوت، وبدأتا في رفع راحتيهما لصنع منصات لهبوط الفراشات الصغيرة التي تجمع ما بين اللونين الأبيض والأسود، وكانتا مفتونتين بالمنظر، بانوراما ضبابية تمتد إلى مداخن «هاملتون هاربور» (والتي تشبه من حيث الارتفاع أسوار قلعة من قصص الخيال)، ترقص «دايزي» الشيمي إلى جانب شجرة سقطت وتجاوزت حافة الجرف، وقد حذرتُها بعدم الذهاب إلى المنحدر، ولكن قامت «ماجي» بالتصحيح قائلة: «إنه جرف يا أبي وليس منحدرًا.»

بالإضافة إلى اكتشاف النباتات والحيوانات في ممر طبيعي قيم، تعلمت بناتي درسًا في الفيزياء، ما ارتفع شيء إلا وانخفض، نعبر طريقًا ثم ننزل إلى وادٍ عميق قديم، انطلق الفتيات بسرعة بأحذية الجري خاصتهم، ولكن كانت خاصتي ثقيلة جدًّا وكانت تنزلق في المنحدرات المليئة بالوحل، يتفوَّق الشباب على التجرِبة، على الرغم من أن «دايزي» لديها نظرية أخرى: حيث قالت «ربما يحدث ذلك لأنك أخرق يا أبي».

بدأنا نستريح على جسر خشبي في الأسفل نستمع إلى صوت تيار صاخب، ونستفيد معًا من ذلك اليوم النادر المتمهل للحديث عن معني الحياة والموت.

أخبرتني «دايزي» أنها لا تؤمن بالتناسخ وقالت: «عندما تموت تذهب روحك إلى الجنة، إنه مكان بين الغيوم».

قطعت ماجي الحديث وهي تنزل من الجسر إلى الشاطئ قائلةً: «هذا المكان جميل للغاية.»

سألتْ «دايزي»: «ما الجحيم؟»

أجبتها «ماذا تظنين؟»

قالت «ماجي» وهي تبحث عن مجرى لتصطاد الحجارة من المياه الضحلة: «أليست الجنة والجحيم هما نفس الشيء؟»

لمحت «دايزي» عنكبوتًا على قبعتي فاستحوذ على انتباهها، ثم انسلَّت لتنضم لأختها على حافة الماء.

لكن درس الفيزياء الثاني لم يمضِ على نحو جيد، ما ينزل للأسفل عادة ما يرتفع مرة أخرى، فقد بدأنا جولة تسلُّق طويلة وعرة خارج الوادي، وكان الجو حارًّا رطبًا، فبدأ التذمر، ليس فقط من الفتاتين، وأصبح قميصي مشبَّعًا بالعرق، لا يوجد هناك أي نسيم، وبدأ البعوض في النَّيْل منا، قدمت بعض الحلوى والمصاصات للفتاتين لإلهائهن، ولكن سقطت المصاصة من «دايزي» واتسخت، وحدث نفس الشيء مع «ماجي» عندما فتحت قبضتها عن طريق الخطأ.

لكن ما لبث تأثير السُّكَّر عليهن في الظهور ونحن نمشي على طريق أخضر على حافة الجرف، وشرعت البنتان تغنيان أغاني المعسكر، وتلعبان بالإطارات والتوازن على ألواح الخشب، وبدأتا تنتزعان حشرات البطاطس والنمل من الأشجار المتعفنة بالعصي، وبعدها غسلتا أيديهما ووجهيهما المتسخة بالقاذورات من ينبوع صغير أعلى الشلال.

تمايلت الشمس وتهادت.

وعندما تثاقلت أرجلنا من المشي لمدة ست ساعات، أشرت من خلال الأشجار إلى شوارع بلدة صغيرة في الأسفل، وسرعان ما بدأنا نركض نحو بركة صناعية في حديقة ظليلة، نضحك، نقفز، نرتفع عاليًا على استعداد للقيام بأي شيء.

الختام

«إن كل هذا السلسال من الأشياء، الطبيعي منها والمصطنع، والنظام البيئي الطبيعي الذي واصل البشر تعديلَه على مَرِّ القرون، والبيئة التي تراكمت طبقاتها الواحدة فوق الأخرى، وذلك المزيج الغريب من الأصوات والروائح والنظرات الخاطفة سواء الطبيعي منها أو المختلق؛ كلها متاحة للاغتنام، متاحة للاحتواء، فلتغتنمها فلتحتوِها، ولتحتوِ المزيد منها كل أسبوع، كل يوم حينها ستتحوَّل تلك الأشياء إلى مسرح؛ يفتن ويرخي ويسحر ويغوي، والأهم أنه سوف يُثري أي عقل سيركز عليها، إن المحيط الخارجي يجعل الفضاء المعتاد مفتوحًا أمام أي مستكشف عابر راغب في إيجاد أمور غير معتادة، كما أن المحيط الخارجي يُظهِر الوعي غير المهيَّأ اصطناعيًّا والذي يتحول في أوقات معينة إلى صُدفة موجَّهة، إن المحيط الخارجي يصنع سحرًا.»

جون ستيلجو، مؤرخ بجامعة هارفرد.

«تذكر أن واحدة من المبادئ الأساسية للرأسمالية هي زرع مشاعر الخوف وعدم الإحساس بالأمان والحسد وانعدام السعادة في قلوبنا نحن المستهلكين؛ حتى ننفق ثم ننفق ثم ننفق محاولين الخلاص من تلك المشاعر، وإننا اللعنة علينا نشعر بمشاعر جيدة لقدر يسير من الزمن، أو إننا لا نشعر بأي تحسُّن فعلي، فكلنا في قرارة أنفسنا نعرف أن الطريق إلى السعادة يخلقه الحب والإحسان إلى الذات والتمتُّع بالحس المجتمعي التشارُكي مع الآخرين، وأن يغدو الواحد منا مشاركًا لا متفرِّجًا، وأن يكون دائمًا في حركة، متحركًا، متحركًا طوال اليوم، يرفع أشياءَ، حتى إذا كان يرفع نفسه، ومشي المرء بصورة يومية يغير من فكره ويخلق تأثيرًا ممتدًّا في بقية جوانب حياته.»

مايكل مور، سينمائي.

كان الوقت متأخرًا في واحدة من أمسيات بدايات شهر أكتوبر، وكان الهلال الأحدب المتزايد على وشك أن يصير بدرًا، هناك كانت حُزمة من أشجار الأَرْز البيضاء التي تبلغ الواحدة منها

عشرة أقدام طولًا، قد كوِّمت وأُغرِقت بالجازولين ثم أُشعِلت فيها النيران، حتى استحالت إلى سطح من الجمرات الحمراء الملتهبة، أخذت ألسنة اللهب تتراقص فوق الجمرات المتفحِّمة وتشع حرارة بلغت درجتها الـ 1500 فهرنهايت، وتصاعدت أعمدةٌ من الدخان الرمادي إلى السماء المظلمة.

كنت في شرق أوتاوا في معتزل رعوي تملكه عائلة تدير أكبر سلسلة لمدارس رياضة الكونج فو بكندا خلال الساعتين الماضيتين، وبينما الأخشاب تقرقع متكسِّرة، كنت وتسعة وعشرون آخرون قد جلسنا داخل المعبد البوذي المجاور نستمع إلى المعلم الكبير «جاك باتينود» وابنه «مارتن»، وهما يشرحان لنا ذلك الطقس الذي نحن على وشك الاشتراك فيه، قال «جاك» الذي كان رجلًا قصير القامة ممتلئ الجسم، وهو من أونتاريو يتحدث الفرنسية، وكان قد نجح في تحويل حظيرة يتصارع فيها شباب عصابات الدراجات النارية بأيديهم العارية في نزالات غير قانونية إلى إمبراطورية للفنون القتالية: «في داخلكم قوة خارقة، تنعش فيكم الحياة.»

بعض الناس يقيمون سجونًا داخل عقولهم، لكنك إذا عرفت مَن أنت وماذا تريد إذا ركزت وتجنَّبت المشتِّتات يمكنك أن تعزِّز من تلك القوة وتصنع بها ما شئت.»

كان «جاك» يرتدي قميصًا أسودَ على صدره كُتِبَت عبارة: «من الخوف إلى القوة»، وعلى ظهره كُتِبَت عبارة: «مشيت على النار»، وكان عندما يتكلم لا يفتأ يمشي جيئةً وذَهابًا، وكان نَزَّاعًا لأن يقتبس مقولات بروس لي، قال لنا: «اليوم تعلمنا النار، نحن فقط خدامها.»

لطالما مشى الناس على الفحم المحترق منذ عام 1200 قبل الميلاد على الأقل، منذ العصر الحديدي بالهند إلى عهد الطاويَّة باليابان إلى مهرجانات الأورثوذكس الشرقية باليونان في عصرنا هذا، عُدَّ هذا الطقس طقس عبور لامتحان الإيمان أو الشجاعة، أو وسيلة يتغلَّب من خلالها المرء على مخاوفه، كان «تولي بركان» قد أتى بهذا الطقس إلى أمريكا الشمالية في سبعينيات القرن الماضي، بأن افتتح في جبال سييرا نيفادا معهدًا لتعليم المشي على النار وأبحاثه، وكان من بين تلاميذه الأوائل المعلم «توني روبنز»، وكان «روبنز» قد نجح في إقناع «أوبرا» بأن تجرِّب السير على النار في واحدة من حلقاته الدراسية المسماة «أطلق العِنان للقوة التي بداخلك»، ولقد وصَفت هي تلك المشية التي قامت بها عند منتصف الليل قائلة: «كانت واحدة من أروع التجارِب التي مررت بها في حياتي».

مشى معظم رفاقي المشَّائين متقاطرين في واحدة من غرف «باتينود» المستديرة الاثنتين والعشرين والموجودة في أونتاريو بالكيبك، قال معظمهم: إنهم قد حضروا هنا باحثين عن «التنمية الذاتية»، وهو ذات السبب الذي ذكره لي من انضموا إلى «ستانلي فولان» في رحلته عبر الإنو ميشكنو، لكن واحدًا من المشاركين قال لي بالفرنسية مازحًا: «أحب الشواء جدًّا»، وقال لي آخر أحضره أخوه دون أن يُعلِمه بوجهته بالفرنسية أيضًا: «إنني أرى قدومي هنا هدية»، وتطوع شاب آخر طويل الساقين قائلًا: «هي وسيلة رمزية تساعدني على مجابهة التحديات التي أمرُّ بها في علاقاتي»، (لاحقًا عرَفت أنه واحد من تلاميذ «باتينود» النجباء، وقد ربح العديد من منازلات الفنون القتالية بالسجن ضد مساجين تايلانديين)، وقال لي رجل ذو رأس حليق وعينين ثاقبتين، كان قد جاء بسيارته من تورونتو البعيدة كي ينضم إلينا: «إن حياتي توصف الآن بأنها كارثة ضخمة وعليَّ أفعل شيئًا حيال ذلك، لن يؤذيني هذا في شيء.»

لكن الواقع أنه قد يتعرَّض لبعض الإيذاء، فقد أُصِيب أناس بإصابات بليغة من جرَّاء المشي على النار، فالأمر ينطوي على خطورة شديدة كما تذكُر استمارة إبراء الذِّمَّة التي وقعتُها عند دخولي المعبد البوذي.

إنني جئت إلى هنا أبحث عن خاتمة رمزية، فعامان هما فترة طويلة يقضيها المرء مركِّزًا على مشروع واحد، لكن الكتاب يوشك أن يكتمل، لقد بدأت رحلتي في الثلوج، ومررت بالضباب العقلي، واستكشفت الغابة الحضرية، واقتحمت عوالم الأعمال والسياسة، بل إنني توغلتُ في معرض فني وفي كنيسة، والآن صرت جاهزًا لأعبُر تلك العتبة، لأن أواجه خصمي الأكبر؛ أواجه نفسي.

صاح «مارتن» عبر الباب المنزلق المفتوح معلنًا أن «الجمرات ساخنة، ساخنة جدًّا».

سألني «جاك» وهو يغمز بعينه: «كم من الناس سنحرق اليوم؟!»

إننا قادرون على أن نأتي بالأعاجيب مستخدِمين أقدامنا، فعلى سبيل المثال يمكننا أن نمشي على الحبل، فكثيرًا ما أطلتُ النظر إلى من يمشون على حبال مشدودة في المتنزَّهات، لكنني لم أجد الفرصة لتجرِبة الأمر، يقول ممارس المشي على الحبال الخبير «فيليب بيتي» والذي مشى على حبل فولاذي مشدود بين البرجين التوأمين عام 1974، بينما كان بناؤهما على وشك الاكتمال، وقد

قضى خمسًا وأربعين دقيقة معلَّقًا في الهواء على ارتفاع 110 طوابق فوق مانهاتن، جاذبًا إليه الأنظار: «جوهر الأمر هو البساطة؛ ولهذا فإن الطريق إلى الكمال دائمًا أفقي.»

كما أنني لم أختبر شعور المشي حافيًا، إن أقدامنا لم تتطوَّر لتُحشَر في أحذية مبطَّنة ذات قيعان مطاطية؛ فهي تُميتُ عضلاتنا وتجعلنا نضرب الأرض بكعوبنا وهو ما قد يؤدِّي إلى إصابات، عندما ينتعل الأطفال الرُّضَّع الأحذية يمشون أسرع وتطول خطواتهم، لكن تأثير تلك الأحذية على مِشيتهم على المدى الطويل لم يُعرَف حتى الآن، قال لي أحد الجيولوجيين بعد أن أنهى رحلة مشي جبلية في يوكون دون أن ينتعل حذاءً في قدميه: إن المشي حافيًا يشبه السفر على متن زوج من السماعات الطبية، بل إن الطرق المَدَنية المفترَشة بالحصباء تجعله يشعر كأنه يلوك رقاقات البطاطس، يرى بعض الناس أن «التواصل المباشر مع الأرض» دونما أي عائق بين الأرض والبشر يجذب الإلكترونات إلى الجسد، وأن هذه الجزيئات ذات الشحنات السلبية يمكن أن تساعد في تنظيم ساعاتنا البيولوجية وتقلِّل ممَّا يصيب الإنسان من عدوى، (برغم أن أحد إخوتي وهو مختص بفيزياء الجزيئات يصف هذا الكلام بكونه هُراءً وعلمًا زائفًا).

غير أن فوائد المشي إلى الوراء أكثر قبولًا لدى الناس، فقد قِيل: إنه مفيد للركبتين والظهر وحفظ التوازُن والوقفة، ولصحة الأوعية الدموية، وقد يساعد في زيادة الصحة العقلية من خلال وضع المخ في مسارٍ غير مألوف.

ما زالت المسارات التي استكشفها هذا الكتاب، والقصص التي تضمَّنها تَتَكشَّف، ومنذ كتابة هذا الكتاب في خريف عام 2014 ما زال معظم الأشخاص الذين مشَيتُ برفقتهم يحققون تقدُّمًا بطيئًا ثابتًا.

مشى «ستانلي فولان» مخترِقًا أوتاوا في شهر أكتوبر، وفي ذلك الأسبوع الذي مشيت فيه على النار انضممت إليه في رحلة مشي عبر النهر للِّحاق بتجمُّع عند بارليمنت هيل، وهناك قال لي: «هذا المشروع الذي أنا بصدده هو مشروع يهدف للاحتجاج، وينطوي على مسيرة حاسمة لتعزيز قوة الشعب»، كان «فولان» قد خطَّط لسلسة من المسيرات تستمر طوال عام 2016، ومن بينها رحلة شتوية على طول ساحل اللبرادور الخلَّاب في المسافة ما بين تجمُّعات الشيشاتشيو والناتواشيش التي هي من تجمُّعات قبائل الإنو، ثم سيعود مرة أخرى إلى فانكوفر.

أما «ريتش ميتشيل» فهو يجمع حاليًّا بيانات تتعلَّق بتجرِبته التي أجراها حول الغابات التي تقع داخل المُدُن، وتلك التي تحيط بها والتي أجراها في إسكتلندا، ورغم أن تأثير جلاسجو ما زال يلُفُّه الغموض حتى الآن، فإن باحثين إنجليز وجدوا دليلًا جديدًا على وجود عَلاقة بين إتاحة المساحات الخضراء أمام السكان في المناطق المحرومة، وانخفاض معدلات الوفَيَات في تلك المناطق.

قطع «مات جرين» بدوره نحو خمسة آلاف وخمسمائة ميل مشيًا، وما زال يأمل في أن يرى كل شبر في كل حي سكني في مدينة نيويورك بحلول ربيع عام 2016، وقد حدث أنه في عصر أحد الأيام مؤخَّرًا، وبعد ثلاثة أشهر من تعذُّر إيجاد محالِّ حلاقة تُستبدل فيها حروف الـ Z بالـ S، عثر على محل Ready'' Ain't ''Headz، وهو المحل الثاني والتسعين الذي صادفه من ذلك النوع، ووجده بين محل أحذية ومكتب خدمات بريدية للمهاجرين الكولومبيين في الجادة السابعة والثلاثين بكوينز.

وما يزال رجال الشرطة الراجلون يذرَعون شمال فلادلفيا جيئةً وذَهابًا في دوريات، كما أقَرَّ أحد المتهمين بقتل الشرطي «موزس واكر الابن» بارتكابه جريمة قتل من الدرجة الثالثة، ووافق على الشهادة ضد شريكه في الجرم.

كما بدأت الأحياء السكنية في جميع ربوع كندا تنبذ أنظمة توصيل البريد إلى المنازل، حتى إن أحد المباني الإدارية بمجمع الخدمات البريدية الكندية الواقع بجوار منزلي، رُسِمت عليه لوحة جدارية بحجم لوحات «ريتشارد لونج» تصور رجل بريد مبتسمًا أمام عربة ملأى بالطرود البريدية، وتحتها خُطَّت عبارة «نحمل إليك العالم الإلكتروني»، (آخر مرة مررتُ بهذا المبنى وجدت العبارة لم تتغير، لكن الصورة تغيرت لتصور أربع عربات من دون ساعي البريد).

وما زال «سبينس» كلب الباسيت يركب في المقعد الأمامي في سيارة «آندرو ماركل» لكنه لم يتعرَّض لأي حادثٍ حتى الآن.

ما زال معرض «مايك كولبير» يجوب أنحاء المملكة المتحدة، وقد حوَّل «تود شالوم» المدينة المتمدِّدة إلى مهرجان سنوي للمشي الحر.

أما عن العضو البرلماني «روري ستيوارت» فقد ألغى خُططًا كان قد وضعها لتجمُّع أناس يُمسكون بعضهم بأيدي البعض على طول جدار هادريان الذي هو حصن روماني يُطِل على حدود إنجلترا الشمالية في كمبريا، وبدلًا من هذا قرر المشي عبر طريق الجدار لعدة أيام في مشهد طبيعي لطالما مشى فيه الناس «لثلاثمائة عام يأكلون الزيتون، ويتوغلون عبر المسطحات الرطبة والأدغال وسلاسل التلال النائية».

وجَدَّتي قد باعت شقتها وانتقلت للعيش في مسكن للرعاية الدائمة، وحول هذا المسكن يقع طريق مُشاة مُصطَفٌّ بالأشجار، وصارت هي الآن تسكن على بُعد خطوات من مسكن والديَّ.

كما أن العمل على صُنع أشرطة مُشاة طوبية مُدمَجة في الطريق في التقاطعات المزدحمة القريبة من مدرسة ابنتي يوشك أن يبدأ، لكن بالإضافة إلى ذلك وُضِعتْ لافتات زرقاء عريضة تحمل معلومات وإرشادات بجوار أزرار فتح المجال للمشاة في أركان الشارع الأربعة.

وحتى عندما لم أكُن أبحث عن المشاة كنت أجدهم؛ فذات مرة حين كنت في بلدة تامورث بأونتاريو التي تقع في مفترق للطرق، ويبلغ تعدادها مائتي نسمة، استأجرت جناحًا يعلو أحد المتاجر لمدة أسبوع حتى أعمل في مكان هادئ، لكن قبل أن أصل هذا المكان بثلاثة أيام، حدث أن قام رجل منعزل اجتماعيًّا، استفزه نزاع بسبب مصائد وُضِعت لصيد فأر المنسك، بإطلاق نار عشوائي مُرديًا شخصًا ومصيبًا اثنين آخرين قبل أن يقتُل نفسه، وخلال إحدى الليالي التي مرت عليَّ خلال إقامتي بالمكان، وفي ظل ذلك الجو البارد الذي يخيم على المكان في شهر مارس، وجدت جميع سكان القرية تقريبًا يتجمَّعون خارج ملعب الهوكي ليبدؤوا مسيرة شفائية كانت انهمارًا صامتًا خلال الشوارع، قالت لي إحدى منظِّمات المسيرة بينما كنا نمر من أمام مكتب البريد حيث أصيب أحد رجال الإطفاء بطلق ناري: «لقد وقعت تلك الأحداث العنيفة في نطاق جغرافي واسع؛ لذلك فإنَّ مشيَنا في ذلك المكان يمنحنا إحساسًا بأننا نستعيده»، وهي تعتقد أن تلك المسيرة سوف تستبدل صورًا للتآلف المجتمعي بصور العنف في عقول سكان القرية.

بعد هذا ببضعة أشهر قضيت مع «ليسا» والبنات عطلة نهاية الأسبوع في مدينة تسمى بانكروفت قرب تامورث، وفي المتنزَّه الذي يجاور فندقنا كان يجري الإعداد لحدث جمع تبرُّعات يستمر طوال الليل لصالح مرضى السرطان، وبينما كانت إحدى الفرق الموسيقية تعزف أغاني الروك الكلاسيكية فوق منصة مزيَّنة لتصير كأنها كوخ خشبي، كان هناك رجال ونساء يمشون في

دوائر حول حدود المتنزَّه، وكان مسارهم مصطفًّا بأكياس ورقية مكتوب عليها أسماء ضحايا السرطان والناجين منه، كما أنها كانت تحمل رسائل لهم، عُدتُ إلى المتنزَّه بعد أن أَوَتْ كل من «ماجي» و«دايزي» إلى الفراش، كانت تلك الأكياس الورقية قد وُضِعت فيها شموع إلكترونية تتوهَّج بين الحشائش الداكنة، فبَدَا شكلها ساحرًا كأنها مصابيحُ توشك أن تطير في الجو، وعلى واحدة منها كتب أحدهم: «السرطان يخشى المُشاة»، هبت على المكان لفحة هواء بارد؛ لذا فقد مشيت دورةً لأدفأ، ثم مشيت لدورة أخرى.

الأنهار الجليدية تذوب، والشرق الأوسط ينفجر، ووباء الإيبولا يتفشَّى، إذن فلِمَ عسانا نتكبَّد العناء؟ لِمَ نمشي؟ لماذا لا نتوارى وراء الجدران ونسافر فوق إطارات مستديرة أو أجنحة محلِّقة؟

لأن المشي منشِّط للجسد والعقل والروح، لأنه فعل نستعيد به صحتنا ويبعث فينا الأمل في الأوقات التي نفتقده فيها، لأنه يمكن أن يساعدنا على أن نعيد غرس بذور الاستقلال والترابط، وهما الأمران اللذان لا يمكن أن ننمو دونهما، استخلص «مايكل بولان» وصفته للحِميَة الصحية في سبع كلمات بسيطة وهي: تناول الطعام بغير إفراط، وليكن معظمه نباتًا، أما وصفتي أنا فتتلخَّص في أربع كلمات فقط وهي: مشيٌ كثيرٌ أينما كنت.

إن الحطب لا يُعَدُّ موصِّلًا جيدًا للحرارة؛ فعندما يمشي المرء فوق مفترَش من الخشب المحترق لا تظل قدماه متَّصلة بالجمرات لوقت طويل يسمح لهما بأن تحترقا، تلك هي نظرية المشي على النار، لقد فعلها «جاك باتينود» ثلاثمائة مرة وأصابته الحروق ست مرات.

قال لنا: «لا تنظروا مباشرة للنار؛ فهذا يدفع قدميك للغوص أكثر بين الجمرات، ويرفع احتمالية الإصابة»، ثم أضاف قائلًا: «ولكن لا تمشوا ببطء».

اصطففنا فوق حصيرة مطَّاطية خارج المعبد البوذي وكان صوت قرع الطبول بإيقاعات غرب أفريقيا وصوت التصفيق الإيقاعي يملأ الجو.

حرك «مارتن» الجمرات مثيرًا سيلًا من الشرارات إلى السماء.

ثم طلب منا أن نمُدَّ أذرعنا للأمام ونقلب أكُفَّنا إلى الأعلى ثم نردِّد تعويذة «الطحلب البارد».

عندما وصلت إلى حافَة النار كان ذهني صافيًا، ولم يكن أي شيء يمر أمام عينيَّ، لا دفقات عاطفة، لا خوف، وبعد لحظة تردُّدٍ خطوتُ بكل بساطة وأنا أردِّد «الطحلب البارد الطحلب البارد»، ثم بعد ست خطوات للأمام وجدتُ نفسي أقف فوق الحشائش الرَّطبة على الجانب الآخر، وجدت على انحناءة قدمي اليسرى نقطة مؤلمة صغيرة، ودون هذا لم أشعر بأي ألم، وكذلك لم أشعر بأي شعور تطهيري، لم أشعر سوى أنني ما إن بدأت صار الأسهل أن أمضي قُدُمًا من أن أتوقف.

وبعد أن أخذ الجميع دوره في المشي على النار، دُرْتُ ووقفت في آخر الصف أستعد للمشي مرة أخرى.

«كتَب دان روبنستاين أنشودة في حب المشي؛ كتابًا يُعَد تذكيرًا حكيمًا ذكيًّا مبذول فيه مجهود بحثي كبير بأننا جميعًا خُلِقْنَا لنمشي، اقرأه الآن ثم قُم وامشِ طويلًا واستمتع.»

كارل أونوري، مؤلف كتاب Slow of Praise In

«سيكون أمرًا سهلًا وغير واقعي أيضًا أن ننظر إلى المشي باعتباره في صدارة الحلول الأساسية لمشاكل الحضارات الحديثة. لكن روبنستاين قد اقترب ... اقترب للغاية من تحقيق هذا. إنه كتاب ضروري، كتاب ذو قدرة على الإقناع».

جنيفر كيسمات، كبيرة مخططي مدينة تورونتو

«إنه كتاب آسر يتكلم عن نشاط المشي؛ ذلك النشاط المعقَّد على قدر بساطته، هو كتاب شارح لفوائد وضع قدم أمام الأخرى، وفوائد تعلُّم احتفاء المرء بكل يوم يعيشه.»

جون ستانتون، مؤسس عيادة غرفة الجري والرئيس التنفيذي لها.

دان روبنستاين هو كاتب ومحرِّر في مجلة قومية حاصل على جوائز صحفية، كما أنه مساهم في مطبوعات مثل Walrus The و Globe The و Mail و Economist The و EnRoute، وقد حرَّر بعض المجلات الأخرى في أونتاريو وآلبرتا، وحاليًّا يقوم بمعظم مشياته في أوتاوا، يمكنكم أن تتواصلوا معه على شبكة الإنترنت عبر موقع.

org.borntowalk

Notes

[1←]
الاسم العلمي للحقبة الجيولوجية الحالية التي تتصف بهيمنة الإنسان على كوكب الأرض ومُناخه وبيئته،(المترجم).

[2←]
نسبة إلى دون كيشوت بطل مسرحية ثربانتس الشهيرة، (المترجم).

[3←]
برنامج تليفزيون واقع أمريكي تقوم فكرته على جلب مجموعة من الناس إلى مكان مهجور منعزِل، وتركهم للاعتماد على أنفسهم في المأكل والمأوى والتدفئة. (المترجم).

[4←]
ممثلة كندية شهيرة. (المترجم).

[5←]
لاعب هوكي شهير سابق. (المترجم).

[6←]
هي لغة يُتحدَّث بها في أيرلندا (المترجم).

[7←]
عملية تثير مخاوف لحدوث تسمم بفعل الغاز (المترجم).